

١

مكتبة المحرّوب الصليبيّة

المغرب والروم واللاتين

في

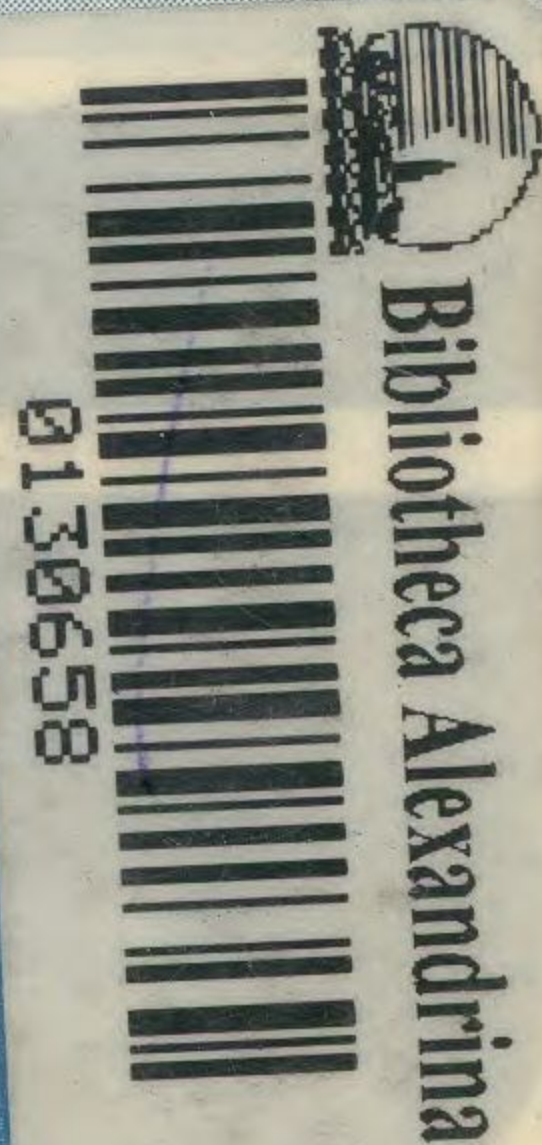
الحرب الصليبية الأولى

دكتور هوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٨١

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر
بيروت - لبنان



①

مكتبة المحرّوب الصليبيّة

العرب والروم واللاتين

في

الحرب الصليبية الأولى

دكتور هوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ٧٤٩
DL

طبعات الكتاب

الطبعة الأولى ١٩٦٣

الطبعة الثانية ١٩٦٧

الطبعة الثالثة ١٩٨١

مقدمة الطبعة الثالثة

في عام ١٩٦٣ صدرت الطبعة الأولى من كتابي « العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى » ، وفي عام ١٩٦٧ صدرت طبعته الثانية . واليوم يسعدني أن أقدم لقراء العربية طبعته الثالثة في سلسلة « مكتبة الحروب الصليبية » التي تصدرها دار النهضة العربية ببيروت بلبنان ، باعتباره المجلد الأول فيها . ويتناول الكتاب أولى حلقات الحروب الصليبية التي شغلت ثلاثة قرون من الزمان ، هي القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن للهجرة) ، والتي تعتبر بدورها مرحلة رئيسية من مراحل الصراع العتيق بين الشرق والغرب منذ القدم وحتى يومنا هذا . وهو يلقي الضوء على طبيعة العلاقات المعقدة المتشابكة التي قامت بين أطراف الصراع وقتها ، وهم أهل الغرب اللاتيني وأهل الشرق البيزنطي وأهل المشرق الاسلامي .

والله أسأله التوفيق .

المؤلف

بيروت (لبنان) يناير ١٩٨١

مقدمة الطبعة الثانية

حين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (يونيو ١٩٦٣) ، كنا نهدف إلى غرضين ، أولهما أن نشارك - جهد الطاقة - في دراسة جوانب من العدوان الصليبي لم تكن قد أخذت حقها من البحث ، وثانيهما أن تقدم دراسة مركزة واضحة للحملة الصليبية الأولى وما شابهها من علاقات بين العرب والروم واللاتين .

واليوم ، وبعد ما يقرب من أربع سنوات ونصف ، تقدم للقارئ العربي الطبعة الثانية من هذا الكتاب . وغنى عن البيان أنه يعرض لموضوع قديم جديد . فهو قديم لأنه يعود بنا إلى عصر التوسع الصليبي الذي تعرض له العالم العربي من محيطه إلى خليجه منذ عدة قرون .. وهو موضوع جديد لأن الوقت الآن أكثر تطلبا لمثل هذا الدرس ، ذلك أن المأساة البشرية التي مارسها الاستعمار في فلسطين بإقامة إسرائيل هناك في هذا القرن العشرين ، إنما تمثل امتداداً طبيعياً للعدوان الصليبي ، ولعله لا يختلف عنه إلا في الأسلوب الذي يتفق والأوضاع العالمية الجديدة والتيارات المتصارعة فيها . ولقد أثبت الواقع والتاريخ ، كما أثبتت الأحداث التي كان مسرحها العالم العربي منذ القدم حتى يومنا هذا أن كلا من الحركتين : الحركة الصليبية والحركة الصهيونية في فلسطين ، إنما تمثل حلقة من حلقات الاستعمار الذي تعرضت له المنطقة العربية على مر العصور . وكانت التجربة الأولى هي التجربة الصليبية موضوع هذا البحث ، والتجربة الثانية هي التجربة الصهيونية . وهذه حقيقة كشفت عنها أحدث البحوث التاريخية المحايدة المنزهة عن الحيلول والأهواء .

وتأتي هذه الطبعة الجديدة مزودة منقحة .. منقحة بما تلافينا من منات

مطبعة تكشفت بعد الطبعة الأولى ... ومزينة بما أضفناه إليها من مصادر ومراجع أخرى عديدة أفدنا منها ويبدو أثرها واضحا في مختلف فصول البحث الذى زودناه أيضا بملاحق تتضمن مجموعة من الوثائق والنصوص التاريخية الأصلية التى قنا بنقلها إلى العربية مع تذييلها ببعض الهوامش الإيضاحية . وهى تسلط الأضواء على الفكرة الصليبية بما تنطوى عليه من اتجاهات توسعية استعمارية فى كل من العالم العربى ودولة الروم ، ومعارضة الرأى العام الغربى لها . كما تكشف عن طبيعة العلاقات التى قامت بين العرب والبيزنطيين وأهل الغرب اللاتينى خلال الحملة الأولى ، والآثار التى ترتبت عليها فى الحقب التالية .

وإنى إذ أقدم بهذا الجهد ، إنما أشارك زملاء أفاضل لى يعملون فى هذا الميدان الهام ، ويثرون المكتبة العربية بما يزودونها به من نتائج بحوثهم ودراساتهم الجادة الهادفة .

والله الموفق للصواب ؟

جوزيف نسيم يوسف

الاسكندرية فى نوفمبر ١٩٦٧

مقدمة الطبعة الأولى

تعتبر الحركة الصليبية من الحركات العالمية الخطيرة التي عني بها الكتاب والمؤرخون في الشرق والغرب عناية لم تنلها حركة أخرى حتى وقتنا هذا . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى ما لها من طابع خاص وأهمية بالغة في تطور سير الأحداث ، وفي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، فضلا عن ارتباطها الوثيق بحركة التوسع والاستعمار في العصر الحديث .

لقد تناول هذه الحركة بالبحث والتحليل كثير من الكتاب المحدثين الذين استهدفوا تتبع حملاتها ، وسرد وقائعها وأحداثها ، ودراسة أسبابها ومسبباتها ، والتعرف على آثارها ونتائجها عبر القرون الطويلة . ولا تزال دور المطابع تدفع إلينا العديد من الكتب في هذا الموضوع تحمل وجهات نظر متباينة . ومن هذه المؤلفات ما يحوى بين دفتيه أحداث قرنين أو ثلاثة قرون من الزمان ، وهي الفترة التي شغلتها تلك الحركة ، ومنها ما تناول فصلا من فصولها أو حملة من حملاتها . وقد أثر بعض الكتاب الإيجاز دون إخلال ، فاستعرضوا تاريخ الحركة من بدايتها إلى نهايتها في كتب صغيرة . ومن هؤلاء ن. يورجا ، وارانست باركر ، ولويس برييه . ومنهم من أفرد لها مجلدات ضخمة أمثال ويلكن ، وميشو ، ورينيه جروسيه ، وستيفن دانسيان ، والمجموعة التي تشرف عليها جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية وهي تقع في خمسة أجزاء ظهر منها حتى الآن الجزءان الأول والثاني .

ولكن بما يؤسف له أن معظم من كتب عن الحروب الصليبية من أهل الغرب ، إنما يعبرون عن وجهة نظر غربية . وعلى هذا جاءت كثير من آرائهم

بعيدة عن الحقيقة ، ويبدو فيها تحيزهم الصريح لبني جنسهم الذي يبلغ أحيانا حد التعصب والشطط . ويظهر هذا بوضوح في كتابات مؤرخين امثال رينيه جروسيه ودانيال روبس ورهرشت . وعلى هذا أصبح من واجب الباحث المُنصف المدقق ، تناول مختلف الروايات بالحیطة والحذر ، وتحري الحقيقة البحتة ، ومحاولة الكشف عنها . ومن حسن الحظ أن الكتاب العرب بدأوا منذ سنوات قلائل يدلون بدلوهم في هذا الميدان الخصب . فظهرت عشرات الكتب العربية والمعرّبة التي تناولت الحركة الصليبية كلها أو أحد أبوابها ، فيها عمق وتقدير ودراسته وتحليل . ومن حسن الحظ أيضا أن ثورتنا العربية المباركة تبسط يدها للعلماء والمتعلمين في أوضاع العروبة ، بما كان له أكبر الأثر في خروج هذه المؤلفات القيمة التي نحن أحوج ما نكون إلى أمثالها ، إلى حيز الواقع .

وجدير بالذكر أن الحملة الصليبية الأولى كانت أوفر حظا من غيرها ، إذ تناولها الكتاب بالبحث بمختلف اللغات . فقد تبلورت فيها الفكرة الصليبية نفسها ، كما حققت من النتائج ما لم تحققه أي حملة أخرى ، وترتبت عليها من الآثار الخطيرة ما لا يزال حقيقة ماثلة حتى عصرنا هذا .

ومع ذلك لا نجافي الحقيقة إذا قلنا ان هذه الحملة لا زالت تحتل الكثير من البحوث والدراسات الجادة الصادقة البعيدة عن الميل والهوى . والجمال لا يزال متسعا للمتخصصين في هذا الميدان الفسيح ، بتسليط الأضواء عليها واستجلاء بعض غوامضها . فقد اختلفت فيها الروايات التاريخية اختلافا بينا . وهناك من هذه الروايات ما تبدو وكأنها حقيقة لا يرقى اليها الشك ، لاسيما المصادر اللاتينية التي كتبها المعاصرون لتلك الفترة . ونجد كثيرا من المؤرخين الغربيين المحدثين يروجون لها وينشرونها تحقيقا لأغراض معينة ، مما يبعد بها وبهم عن الأمانة التاريخية . وهكذا يتناقلها الزمن جيلا بعد جيل دون ترو أو تمحيص .

وان مثل هذه الروايات في حاجة ملحة إلى مناقشة وتقد وتعليق ، للكشف عما فيها من زيف أو افتعال ، مقصود أو غير مقصود .

إذن ، فليس الهدف من هذه الدراسة تكرار أو استعراض ما سبق ذكره في مؤلفات الآخرين ، أو الدخول في تفاصيل المعارك والوقائع التي أفاض المؤرخون في ذكرها . فهي — وان كان الوضع هكذا — لا تعدو أن تكون ترديدا لكلام معاد . إنما أصبحت مهمتنا الوقوف أمام الأحداث والقضايا والمشاكل الهامة التي تملق بالحملة الصليبية الأولى ، وبالفكرة الصليبية نفسها ، وصلتها بتاريخنا القومي ، وهي التي تناولها كتاب الغرب من زاوية غربية حسب أسلفنا ، ثم العمل على تحليلها وتقدمها واستنباط الحقيقة التاريخية منها ، تلك الحقيقة التي هي فوق كل اعتبار وأسمى من كل شيء .

وقضايا الحملة الصليبية الأولى متعددة متشابكة متداخلة في بعضها ، نذكر منها على سبيل التمثيل الدافع الشخصي في قيامها ، وأثر العامل الديني في تهيئة الجو والأذهان لها ، ثم اتجاهاتها التوسعية الاستعمارية في العالم العربي . وموقف اللاتين الكاثوليك وهم أهل الغرب الأوروبي من الاغريق البيزنطيين وهم المسيحيين الارثوذكس ، قبل الحملة الأولى وفي أثناءها ، مع تتبع الآثار المترتبة على العلاقات التي قامت بينهما . وكذلك العلاقات العربية البيزنطية الصليبية وتفاعلها فيما بينها ، ودراسة فكرة الوحدة العربية وحركات البعث واليقظة بين العرب ابان العدوان الصليبي . وغير هذه وتلك من المسائل التي حاولنا جهدنا معالجتها من واقع المصادر والأصول المعاصرة لتلك الفترة ، بغية الوصول إلى أسلم النتائج وأصوبها .

والله ولي التوفيق ؟

الفصل الأول

مصادر الحملة ومنابعها

دراسة تحليلية مقارنة

للحملة الصليبية الأولى أهمية كبيرة . فهي تلتقي ضوءا على تاريخ العلاقات القائمة بين اللاتين والعرب من ناحية ، وبين اللاتين والروم البيزنطيين من ناحية أخرى . وتعتبر هذه الحملة بالذات فصلا من الفصول الهامة في تاريخ الحركة الصليبية، كتب فيها الكتاب والمؤرخون في الشرق والغرب في مختلف العصور. ورغم ما كتب في هذا الموضوع ، نستطيع أن نقرر أنه لم يدرس بعد دراسة وافية من كل جوانبه وزواياه ، ولا زال يحتمل بحوثا واسعة تجمع بين العلم بأصوله ومنابعه ، الشرقية والغربية ، العربية والبيزنطية واللاتينية ، على قدم المساواة ، سعيا خالصا وراء الحقيقة التاريخية المطلقة .

ولا شك أن ما اعترى الكتابات التاريخية في هذا الحقل الفسيح من قصور ولبس في بعض النواحي ، إنما يرجع إلى أن الكتاب الغربيين المحدثين جنحوا إلى الاعتماد على شق واحد من أصول البحث أكثر من اعتمادهم على الشق الآخر إما لجهلهم به أو لتعمد ذلك ؛ فانطبع استعراضهم السريع المبتور لبعض مشاكل البحث بطابع التحيز وأنصاف الحلول . وعلى ذلك أصبح واجبا عند سرد تاريخ العلاقات بين العرب والروم واللاتين خلال الحملة الصليبية الأولى، ينحصر في معالجة أحداث هذه الفترة وظروفها ومشاكلها من كلتا الناحيتين الشرقية والغربية لسد هذا الفراغ. فعمدنا في دراساتنا إلى الموازنات التاريخية التي استقيناها من تأليف المعاصرين لهذه الفترة من حوليات ومراسلات ووثائق رسمية بعضها

لا يزال مخطوطا لم ينشر بعد ، والبعض الآخر لا يزال بلهجته الأصلية التي دون بها .

والواقع أن المصادر الأصلية المعاصرة التي رجعنا اليها ضربان : لاتينية وبيزنطية . هذا بالإضافة إلى المنابع العربية المتأخرة نسبيا عن هذه الحقبة ، والتي لم تمدنا لسوء الحظ بما يشفي الغلة في هذه الناحية .

وعلى أى حال ، نخص بالذكر من النوع الأول بعض الذين اشتركوا في الحملة من اللاتين وكانوا شهود عيان لأحداثها مثل المؤرخ المجهول ، وديمون داجيل ، وفوشيه ده شارتر ، واتين ده بلوا ؛ وغيرهم ممن لم يشتركوا فيها ، ولكنهم حفظوا لنا أخبارها التي كانت ترد إليهم عن طريق الرواة والحجاج وشهود العيان في كتب لازالت باقية إلى اليوم .

ويعتبر المؤرخ المجهول (١) من المصادر الأساسية التي لاغنى عنها في تاريخ

(١) هو مؤرخ حملة بوهيمند النورماندى ، وقد ألف كتابه باللاتينية تحت اسم *Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum* أى «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس» ، وظهرت له طبعات عديدة أهمها :

a) Bongars, *Gesta Dei per Francos*, I, 1-29.

b) Hagenmeyer, H., *Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum*, 2 Vols. Heidelberg, 1889-1890.

c) Bréhier, L., *Histoire Anonyme de la Première Croisade*. Paris, 1924.

وقد اعتمدنا في هذا البحث على طبعة هاجينماير . وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين كانوا حتى وقت قريب يعتقدون أن المؤرخ المجهول نقل عن شخص آخر يدعى تيد بوده، أو اختصر كتابه . أنظر من ذلك *Michaud, Bib. des Crois.*, I, 24-5 . كما وقعت مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية في هذا الخطأ ؛ إذ اعتبرت تيد بوده هو المصدر الأساسى الذى استقى منه المجهول معلوماته . انظر الجزء الثالث من المجموعة المذكورة تحت اسم : =

الحملة الصليبية الأولى في الفترة الممتدة من سنة ١٠٩٥ إلى سنة ١٠٩٩ م ؛ أى منذ قيام الحملة من الغرب حتى الاستيلاء على بيت المقدس وتأسيس المستعمرات اللاتينية في الشرق . وللكتاب أهمية خاصة ، إذ كان مؤلفه شاهد عيان لمعظم المعارك والأحداث التي دارت رحاها في الشرق العربي في ذاك الحين . كما كان علياً بما يدور في مجالس النبلاء ، مما يؤيد الرأي القائل بأنه كان فارساً رفيع القدر . ولسنا نعرف كثيراً عن سني حياته الأولى وعن اسمه . ويحتمل أنه كان من فرسان مملكة النورماندين بجنوب إيطاليا . ونستدل على ذلك بما كتبه هو نفسه عن المعارك التي اشترك فيها ، وعن سيده بوهيمند النورماندي أحد زعماء الحملة الأولى (١) . فقد كان يقرن اسم بوهيمند وابن اخته تنكريد بأوصاف تدل على احترامه الشديد لها .

والمتصفح لهذا الكتاب يدرك على الفور أن شخصاً ثانياً اشترك مع المجهول في تأليفه . إذ نلاحظ وجود أسلوبين متميزين عن بعضهما تماماً . أولها أسلوب ضعيف ركيزي بعيد كل البعد عن اللاتينية الكلاسيكية ، ويمثل أصدق تمثيل لاتينية العصور الوسطى المبكرة ، ويدل على أن كاتبه لم ينل حظاً وافراً من التعليم . ويلاحظ أن مؤلف هذا الجزء من الكتاب قد دون معظم الحوادث التاريخية

Tudebodus abbreviatus = وقد تم تصحيح هذا الخطأ في مقدمة الجزء الرابع من المجموعة . راجع عن ذلك أيضاً :

Cahen, La Syrie du Nord, p. 8 & n. I, 5; Molinier, II, 280 — 1.

(١) أنظر : Michaud, Bib. des Crois., I, 24-5 — وللمزيد من المعلومات عن سيرة المؤرخ المجهول ومؤلفه ، أنظر ما كتبه كل من هاجينمار وبريه في كتابهما المشار إليهما في الحاشية السابقة . راجع أيضاً السيد الباز العريني : مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٦ — ٣٧ .

التي شاهدها بنفسه أو التي اشترك فيها بشخصه . وعلى هذا فإن القسم الأول من الكتاب المذكور يتضمن المادة الأساسية التي تهمننا بالنسبة لموضوع البحث . وهي تكشف عن دوافع اللاتين في قيامهم بحركتهم ، وطبيعة العلاقات التي قامت بينهم وبين البيزنطيين ، ووجهة النظر الغربية حيال الأحداث التي كان الشرق الأوسط العربي مسرحاً لها وقتذاك . وتكاد تجمع الآراء على أن مؤلف هذا القسم هو ذلك الفارس المجهول الاسم الذي اشترك في الحملة مع بوهيمند النورماندى . أما القسم الثانى من الكتاب فهو مدون بأسلوب أكثر تقاء وبلاغة وأشد عمقا وتعقيدا من سابقه ، ولعله أسلوب المدارس التي كانت قائمة في ذاك العصر . ويبدو أن مؤلفه كان من رجال الدين ، إذ يكثر من الاستشهاد فيما كتب بآيات من الكتاب المقدس . ويلاحظ أنه كان يميل في كتابته إلى الأسلوب الخطابي أكثر من الأسلوب التاريخي . فهو يمدنا بقطع خطائية أدبية تدل على أن موهبته الأدبية تفوق قدرته التاريخية (١) .

ويتضح من مقارنة ما كتبه المؤرخ المجهول وما دونه غيره من اللاتين المعاصرين له ، أن رواياته تمتاز بصحتها ، حتى لقد رجع إليه معظم الذين كتبوا عن هذه الفترة من أمثال روبرت الراهب ، وتيدبوده ، وراؤول ده كان ، بل

(١) أنظر: Molinier, II, 281 - ويلاحظ أن المؤلف أورد من نسج خياله كثيراً من الخطب التي ينسبها إلى الأتراك . ويحتمل أن بعض الفصول قد أضيفت إلى الكتاب في فترة متأخرة ، وخاصة الفصل السابع والعشرين الذي انحاز فيه المؤرخ المجهول صراحة إلى جانب سيده بوهيمند ضد الامبراطور الكيسيس كومنن حينما اشتد العداء بينهما في الفترة الواقعة بين عامي ١١٠٣ و ١١١١ م . ولعله كتب بقصد الدعاية لبوهيمند ضد الامبراطور البيزنطي . وكذلك الفصل الأخير من الكتاب الذي يصف فيه المؤلف مدينة أنطاكية . أنظر من ذلك

لقد نقل بعضهم عنه نقلاً حرفياً (١) ، وكان النقل يعتبر أمراً مألوفاً في ذلك الزمن. وهذا يدل على أن الكتاب كان موجوداً ومنتشراً بعد استيلاء الصليبيين على البيت المقدس . ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أن كتابات المجهول وغيره من بنى جلادته كانت تنسم بصفة عامة بطابع التحيز ضد المسيحيين الاغريق ، وطابع الحقد والتعصب ضد العرب .

وهناك مصدر لاتيني آخر لا يقل عن سابقه في أهميته التاريخية ، وهو « تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس » (٢) لمؤلفه ريمون داجيل Raimond d'Agiles الذي عاصر هو الآخر تلك الأحداث وكان شاهداً عياناً لها . ويعتبر ريمون من أوائل الذين كتبوا عن حملة ١٠٩٥ . فقد اشترك هو وأدهمار أسقف مدينة بوي Puy مع جيش ريمون ديه سان جيل كونت تولوز ، ورافقاه منذ قيامه من جنوب فرنسا حتى موقعة هسقلان بعد انتهاء

(١) وللكتاب المذكور ، فضلاً عما تقدم ، أهمية كبرى في دراسة النظام الإقطاعي في المجتمع الغربي الوسيط في أخريات القرن الحادي عشر ، والعملية التي كانت مستعملة وقتذاك ، وفي معرفة قواعد اللغة اللاتينية الوسيطة وأصولها .

(٢) ألف ريمون كتابه باللاتينية تحت اسم *Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem* ، وقد أهداه إلى أسقف مدينة فيفييه Viviers . والكتاب منشور في مجموعته بونجار ، الجزء الأول ، ص ١٣٩ - ١٨٣ ؛ وفي الجزء الثالث من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) ص ٢٣١ - ٣٠٩ . ونعرف عن مؤلف الكتاب أنه كان راعياً لكنيسة كونت تولوز الذي اصطعبه معه في الحملة على الشرق . والقارىء لهذا الكتاب يدرك أن مؤلفه كان يدافع عن سيده دفاعاً مجيداً ، كما كان ينتحل له مختلف الأعداء إذا أخطأ أو تهاون في أمر من الأمور ، وهو إلى جانب ذلك يصعد منه في تقدير واحترام زائدين ، إذ يكتفى عندما يتعرض له في معظم الأحيان بقوله « الكونت » دون حاجة إلى ذكر اسمه فهو في نظره في غنى عن التعريف . ولا يخفى الحق إذا قررنا أن كتاب ريمون هذا هو في واقع الأمر تاريخ حياة كونت تولوز نفسه وقصة اشتراكه في الحملة الصليبية . انظر :

الحملة الأولى . كما ساهم ريمون بنصيب في المعارك التي دارت رحاها في هذه المنطقة . وكان يحكم مركزه من المقربين إلى كونت تولوز ، وعلى علم تام بما كان يدور في مجالس زعماء الفرنج ، مما أضفى على كتابه أهمية خاصة .

ولهذا الكتاب قصة تتلخص في أن ريمون بدأ بتسجيل أحداث الحملة بالاشتراك مع أحد فرسان كونت سان جيل واسمه بونس ده بلازون Ponce de Balazun ؛ واهتما بصفة خاصة بتدوين الأحداث التي تتعلق بكل من كونت تولوز والأسقف أدهمار . وبعد عودة ريمون إلى فرنسا أتم بمفرده الكتاب بعد أن لقي زميله بلازون حتفه في الشرق سنة ١٠٩٩ .

ويذكر المؤرخ ميشو أن ريمون استهدف من وضع كتابه هدم الأكاذيب التي نشرها في الغرب الأوروبي أولئك الذين فروا من ميدان القتال في الشرق عائدين إلى بلادهم ، حيث أخذوا يبشون الدعايات بقصد منع أهل الغرب من الذهاب لمساعدة اخوانهم في الشرق (١) .

ولهذا المصدر أهميته فيما يتعلق بالمعلومات العامة المتعلقة بالحركة الصليبية ، وعلاقة كونت تولوز بالامبراطور البيزنطي السكيس كومنين . وقد وقف ريمون - مثل المؤرخ المجهول - إلى جانب سيده ضد البيزنطيين عندما ساءت العلاقات بين الطرفين ، مما يكشف عن وجهة نظر اللاتين الكاثوليك حيال المسيحيين الاغريق وقتذاك ؛ وهذا أمر لا يمكن إغفاله عند التعرض للوضوح . كما أنه خصص جانبا كبيرا من مؤلفه للدفاع عن الرؤيا الدينية التي ظهرت لأحد الصليبيين واسمه بطرس برثولماوس أثناء حصار كربوغا حاكم الموصل للفرنج داخل

انطاكية ، وتأكيده الرواية القائلة بأن الحربة التي عثر عليها في انطاكية هي الحربة الحقيقية التي طعن بها المسيح في جنبه . وهذه اسطورة قيمتها التاريخية موضع كثير من الشك ، شأنها شأن الروايات والأساطير والتنبؤات الدينية التي شاعت في الغرب الأوروبي وقتذاك بقصد حث اللاتين على الانخراط في سلك الحركة الصليبية .

وقد وضع ريمون كتابه بلغة لاتينية رديئة ، اذ كان محدود الثقافة والتعليم . وليس من السهل تتبع طريقة معالجته للأحداث بسبب غموضها . ويعزى هذا العيب في الغالب إلى تردد المؤلف في سرد الأحداث حتى لا يقع - كما قال هو عن نفسه - في أخطاء تقلل من قيمة الكتاب . والمتصفح له يدرك أيضا أن صاحبه كان يقبل كل ما يسمعه أو يروى له كحقيقة ثابتة ؛ ولذلك يجب عند استخدامه توخي الحرص والحذر (١) .

ومن المؤرخين الغربيين الذين يتناولون بالكلام أحداث هذه الفترة يجب أن نذكر فوشيه ده شارتر Foucher de Chartres ، (٢) الذي ذهب هو الآخر

(١) Molinier, II, 283-4. - ويلاحظ أن هذه العيوب التي سجلها المؤرخون على كتاب ريمون لا تقلل من أهميته ؛ ويكفي أنه كان من المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها وليم الصوري فيما كتبه عن الحرب الصليبية الأولى . انظر :

Michaud, Bib. des Crois., I, 50.

(٢) ولد فوشيه بمدينة شارتر بفرنسا سنة ١٠٥٩ وأصبح كاهنا بها ، وكانت بها وقتذاك مدرسة لها شهرتها في الدراسات الفلسفية واللاهوتية ، في وقت ازدهرت فيه المعارف والعلوم في غرب أوروبا عقب النهضة الكنسية المعروفة في أوائل القرن الحادي عشر . ويبدو من مؤلفه أنه شاهد مؤتمر كليرمون الكنسي سنة ١٠٩٥ ، إذ تحدث عنه في مستهل كتابه حديث الخير العارف بما دار فيه من مناقشات وما اتخذ فيه من قرارات ؛ كما أورد الخطبة التي ألقاها البابا أربان الثاني في المؤتمر المذكور والتي دعا فيها إلى حمل الصليب . ولو أنه لا يمكن البت بصفة حاسمة إن كانت الخطبة التي أوردتها فوشيه هي النص الحرفي للخطبة التي ألقاها البابا أربان الثاني أم لا ؛ ذلك لأن بعض المؤرخين المعاصرين الذين أشاروا إلى مؤتمر كليرمون أوردوا هذه =

إلى الشرق مع جيش روبرت كونت نورمانديا واثنين كونت بلوا وشارتر . وقد شاهد معظم المعارك التي دارت رحاها بين الأفرنج والآتراك السلاجقة في آسيا الصغرى ، ومنها حصار مدينة نيقية والاستيلاء عليها . وحضر غير ذلك من المعارك التي دارت رحاها في آسيا الصغرى ، ثم انفصل عن الجيش الصليبي الرئيسي قبل الاستيلاء على مدينة أنطاكية ، حيث لازم بلدوين شقيق جودفري ده بويون دوق اللورين السفلى في فترة توليه إمارة الرها ، وأصبح خادماً كنيسة الخاصة . واشترك معه في جميع المعارك الحربية التي خاضها . كما اصططحبه بلدوين عندما استدعى لتتويجه ملكاً على بيت المقدس بعد موت جودفري ، وظل ملازماً له حتى وفاته سنة ١١١٨ م . ولكتابته أهمية خاصة فيما يتعلق بتاريخ هذه الفترة من الزمن . فقد اشترك مع سيده في كثير من الحملات ، منها حملة وصلت حتى البحر الأحمر ، وأخرى بلغت عسقلان . ويبدو من كتابات فوشيه أنه لم يبرز في بعض هذه المعارك شجاعة كافية . فهو يتحدثنا عن الصعاب والأهوال التي كانوا يلاقونها من شدة البرد وقسوة الجوع ووطأة المرض ، فضلاً عن اعتداءات الآتراك المستمرة عليهم . (١)

لقد سجل لنا فوشيه مشاهداته في مؤلفه المسمى « أعمال الفرنجة الحاجين إلى بيت المقدس » ، (٢) ، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول كتبه حوالى

== الخطبة مع اختلاف في الألفاظ وفي بعض المواضع . وإن كانت الخطبة التي ذكرها فوشيه تتفق في مجملها ومضمونها مع ما ورد في المصادر الغربية الأخرى . انظر نص الخطبة في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) ، الجزء الثالث ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(١) انظر : Michaud, Bib. des Crois., I, 71.

(٢) اسم الكتاب Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium (1095-1127) . وكان بونجار هو أول من نشره عن مخطوطة ناقصة تنتهي بسنة ١١٢٤ ==

سنة ١١٠٥ م وينتهي بموت جودفري، والقسم الثاني ينتهى بموت بلدوين الأول سنة ١١١٨ م ، أما القسم الثالث والآخر فيستمر حتى سنة ١١٢٧ م التى يتوقف عندها الكتاب فجأة .

وتنحصر قيمة الكتاب فى أن صاحبه لم يدون سوى الأحداث التى شاهدها بنفسه ، أو تلك التى رواها له شهود العيان ، أو التى جمعها من مصادر موثوقة بها . وقد أثبتت البحوث التاريخية أن كتاب فوشيه يعتبر مصدراً ثقة فى تاريخ تلك الفترة ؛ إذ أبدى وعياً لا بأس به ، وفهماً دقيقاً للموضوعات التى تناولها . ويمكن أن عدداً كبيراً من المؤرخين اللاتين المعاصرين له والذين جاءوا بعده ، قد اعتمدوا عليه فى سرد أحداث الحملة الأولى ؛ ومن هؤلاء المؤرخ بوردريه بورجى الذى أفاد فائدة كبرى من القسم الأول من الكتاب .

ولم يكن فوشيه مجرد كاتب عادى ، فقد زود مؤلفه ببيانات قيمة عن التاريخ الطبيعى . فهو يحيطنا علماً بأسماء الأنهار ومنابعها ومجاريها ، وكذلك مختلف الحيوانات التى تعيش فى أرض المعركة بالشرق . ولكن لما يدعو إلى الدهشة أن كاتباً مثقفاً مثله لم يذكر شيئاً عن أصل وطباع الشعوب والقبائل التى تحدث عنها .

== أنظر: Bongars, I, 381-440 . ثم أعاد ديشن Duchesne نشره فى طبعة أدق وأوفى عن مخطوطة تنتهى بأحداث سنة ١١٢٧ . وبمسد ذلك قام العالم مارتين Martenne بنشره من جديد فى مجموعته المعروفة باسم « النوادر » "Anecdotes" ، وزوده بمقدمة للمؤلف نفسه لم ترد فى الطبعتين السالف الإشارة إليهما . وقد صحح مارتين الكثير من الأخطاء ، وملاً بعض الفجوات الناقصة فى الكتاب . ثم نشره بعد ذلك هاجينباير (طبعة هايدلبرج سنة ١٩١٣) . انظر عن ذلك : Cahen, 10-11; Molinier, II, 284; Michaud, I, 72. — والكتاب منشور أيضاً فى مجموعة R.H.C.—H.Occ., III, 311-485. ، وهى التى اعتمدنا عليها فى بحثنا هذا .

والكتاب - فضلا عما تقدم - قيمة لا تنسك في دراسة تطور علم التاريخ .
فقد كان النظام المتبع قبلئذ هو نظام الحوليات . ولكن فوشيه لم يتبع طريقة
أصحاب الحوليات القدامى عندما تحدث في مؤلفه عن تاريخ مدينة صور التي
ينتهي بها كتابه . إذ تغيرت كتابة التاريخ في الغرب منذ ذلك الحين إلى الشكل
الذي نعرفه اليوم . ويلاحظ أن أسلوب المؤلف سهل واضح ، وإن كان يستخدم
أحيانا أبياتا من الشعر ليستعين بها في تحديد تاريخ بعض الأحداث الهامة ،
ولكنها على أى حال لا تعطينا فكرة طيبة عن مقدراته الشعرية . وكان يستخدم
في كثير من الأحيان الألفاظ الضخمة الطنانة التي يبدو فيها الادعاء والتكلف^(١) .

هذا ويوجد مختصران لبعض أبواب كتاب فوشيه . أولهما يسمى « أعمال
الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس » لكاتب مجهول الاسم ، ويتناول تاريخ
الحملة منذ قيامها سنة ١٠٩٥ إلى سنة ١١٠٦ م . وقد ذكر هذا المؤلف في الفصل
الثاني من مختصره أنه قام بتلخيص كتاب فوشيه ده شارتر متجنباً الإفاضة
والإسهاب ، مقتصرًا على سرد الوقائع المتصلة بموضوعه ، وذلك بعد تصحيح
ماورد بالكتاب الأصلي من أخطاء . ولكنه أضاف بعض المعلومات الهامة
التي استقاها من جهات أخرى . وتم وضع هذا المختصر قبل سنة ١١٠٩ م ؛ وهو
مكتوب بلغة لاتينية سهلة . ويتشبه الكاتب المجهول بفوشيه ، فيستخدم أحيانا
أبياتا من الشعر اللاتيني لتحديد زمن الأحداث التي عرض لها ، وإن كان أسلوبه
الشعري لا يرقى بحال إلى مستوى كتابته الثرية . وينسب العالم بارث Barth هذا
المختصر إلى شخص غير معروف يدعى بارتلفوس ده نانجييو Bartolfus de Nangeio .
أما المختصر الثاني فيسمى « تاريخ بيت المقدس » ، وهو يتناول الفترة من سنة

(١) Molinier, II, 284; Michaud, I, 71, 81.

١١٠٠ إلى سنة ١١٢٤ م . ولم يصل إلينا سوى القسم الثاني منه ، ويشغل الفترة من سنة ١١٠٩ إلى سنة ١١٢٤ م . وينسبه بارث إلى شخص يدعى ليزيار التورى Lisiard de Tours (١) .

ووضع كاتب آخر مجهول الاسم ترجمة مختصرة بالفرنسية القديمة لكتاب فوشيه ده شارتر تحت اسم « تاريخ اورشليم وانطاكية » ، وهي تمتد حتى سنة ١١٢٢ م . وأضاف إليها بعض الأشعار والأساطير ، وذلك نقلا عن مخطوط يرجع إلى أواسط القرن الثالث عشر (٢) .

وهناك مصدر لاتيني آخر يجب الإشارة إليه وهو كتاب البرت دكس Albert d'Aix مؤرخ حملة جودفرى دوق اللورين السفلى . ولا نعرف على وجه التحديد الاسم الكامل لهذا المؤرخ ومكان مولده والعصر الذى عاش فيه . وكل ما نعرفه أنه كان كاهنا وأميناً لخزينة مدينة اكس Aix . ويبدو من نبذة وردت في الباب السادس من تاريخ البرت تحدث فيها عن موضوع انتخاب جودفرى ، وعن رؤيا ظهرت لأحد الجنود الصليبيين الألمان ، أن البرت هذا كان من مدينة اكس لا شابل Aix — la — Chapelle الألمانية ، وليس من اكس البروفانسية في الجنوب الفرنسى . وكان بعض الكتاب القدامى قد

(١) Michaud, I, 93-6; Molinier, II, 284. — واسم المختصر الأول Gesta Francorum expugnantium Iherusalem ، وهو منشور في مجموعتي : Bongars, I, 561-593; R. H. C. - H. Occ., III, 487-543. أما المختصر الثانى فاسمه Historiae Iherosolymitanae ؛ وهو منشور في نفس المجموعتين السابقتين : Bongars, I, 594-625; R. H. C. - H. Occ., III, 545-585.

(٢) أنظر : Molinier, II, 285 ، واسم الكتاب المشار إليه Estoire de Jerusalem et d'Antioche ، وهو منشور في مجموعة : R.H.C. - H. Occ., V, 621 - 648.

أكدوا عكس ذلك . ويرجح المؤرخ ميشو انتماء إلى اكس الألمانية . وما يؤكد صحة هذا الرأي أن البرت يكثر في كتابه من الحديث عن منطقة الراين ، ويبدى إعجابه الشديد بجودفرى والصليبيين الألمان . وكل هذا يدل على أنه الماني وليس فرنسي (١) . ولا يوجد تحت أيدينا ما يثبت أنه ذهب إلى الشرق ، وإن كان قد أبدى هذه الرغبة في كتابه المسمى « تاريخ بيت المقدس » (٢) ، الذي

(١) أنظر : Michaud, I, 50-1.

(٢) وضع البرت كتابه باللاتينية تحت اسم *Historia Hierosolymitana* ، وهو يروي قصة الحملة الأولى وتاريخ مملكة اللاتين في الأراضي المقدسة من سنة ١١٠٣ إلى أبريل ١١٢٠ ، ويبدو أنه لم يتمه . وظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٥٨٤م بفضل العالم رينسيوس Reineccius ، ولم يذكر فيها اسم المؤلف ، ثم أعاد بونجار طبعه مع إثبات اسم مؤلفه . انظر التفصيل في : Michaud, I, 51 . ولم يتضمن كتاب البرت أية إشارة إلى التواريخ التي وقعت فيها الأحداث ، وهو يعتمد على السماع والرواية ، ولهذا وقع في كثير من الأخطاء التي تتعلق بالزمن والوقائع التاريخية . وكان هذا الكتاب يعتبر حتى وقت غير بعيد من المصادر الرئيسية للحركة الصليبية ، حتى أن وليم الصوري استعان به فيما يتعلق بتاريخ الفترة المتقدمة من هذه الحركة . ومن هنا ظهرت الأسطورة التي تنسب إلى جودفرى الدور الأول في قيام الحرب الصليبية ، والتي ثبت عدم صحتها فيما بعد . انظر عن ذلك مقال « الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية » ، مجلة كلية الآداب باسكندرية ، المجلد ١٦ ، ص ١٩٧-١٩٨ . وقد تناول العلماء المحدثون كتاب البرت بالنقد والتحليل ، فنجد العالم الألماني سيبيل H. Sybel يهمله ولا يعتبره مصدر ثقة ، ويتهم المؤلف بأنه لا يستند إلى الحقائق التاريخية وإنما إلى معلومات مشوشة . أما المؤرخ كوجلر B. Kugler فقد بذل جهدا كبيرا ليثبت أن البرت دكس نقل عن مصدر مكتوب من تأليف أحد أولئك الذين لازموا جودفرى ، وأنه لهذا السبب لا يمكن العك في صحة الروايات التي أوردها . وأهار كوجلر بالاعتماد على الكتاب المذكور ولكن في شيء من الحرص والتحجيص . أما المؤرخ الفرنسي فرديناند شالاندون F. Chalandon فقد أنصف البرت عندما أوضح أن بعض البيانات التي ذكرها موثوق بصحتها ، لاسيما ما يتعلق منها بالحملات الشعبية . وكيفما كان الأمر فلا شك أن مؤلف دكس مصدر له قيمته ، وإن كان يجب توخي الحذر عند الإشارة إليه . فهو لا يراعى الدقة أحيانا فيما يكتب ، كما أنه يكثر من ذكر الحوادث الخارقة للطبيعة . وانصافا للرجل نقول إنه كثيره من كتاب ذلك العصر كان يعتقد تماما فيما يكتب . ولهذا لا يمكن اتهامه بالكذب أو المبالغة . انظر من ذلك : Cahen, 12-13 & notes.

يعتبر من أفضل الوثائق التي كتبت عن الحملة الأولى. ويبدو أنه استعان بالمصادر المعروفة في ذلك الوقت ، كما نقل عن أصول أخرى اندثرت ولم تصل إلينا ، واستمع إلى عدد من اشتركوا في الحملة ، واطلع على بعض المراسلات والمراسم المتعلقة بها . ولهذا يعتبر الكتاب من أكثر المصادر التي توجد تحت أيدينا استيفاء لتاريخ الحملة الأولى . فضلا عن أنه يتضمن الكثير من التفاصيل والبيانات التي لم ترد في تأليف غيره . ولتاريخه قيمة خاصة فيما يتعلق بالحملة الشعبية التي سبقت قيام الجيوش النظامية إلى الأراضي المقدسة . وكان البرت يرى أن جيش بطرس الناسك لم يقترف من الآثام والمعاصي مثل تلك التي اقترفها الجيش اللباردي الذي سبقه إلى الشرق ، بينما نجد أن معظم المؤرخين اللاتين قد تناولوا جيش بطرس وتصرفاته بالقبح الشديد .

ولعل أهم ما نخرج به من كتاب البرت هو عدم تحيزه لللاتين ضد الاغريق ، بعكس زملائه من أهل الغرب ، وبخاصة المؤرخ المجهول . بل نراه في كثير من الأحيان يعترف بالخدمات الجليلة التي أسداها الامبراطور البيزنطي الكسيس للفرنج اثناء مرورهم عبر أراضيه وعند تقدمهم في آسيا الصغرى .

وتاريخ البرت دكس مكتوب بأسلوب سهل عادي . ومع أن لغته لم تكن ممتازة ، الا أننا نلص بين ثناياها الحقيقة العارية دون تجميل ؛ بالإضافة إلى بعض التفاصيل اللاذعة . ولعل موضع النقد الذي يؤخذ على البرت هو أنه لم يعن إطلاقا بتحديد تواريخ الأحداث التي رواها (١) .

وفي معرض الحديث عن الكتاب الغربيين الذين عاصروا أحداث الحملة الصليبية الأولى وإن لم يكونوا شهود عيان لها ، يجب أن نذكر ستة هم : بطرس

تيدبوده Pierre Tudebode ، وروبرت الراهب Robert le Moine ، وبودري
ده بورجي Baudri de Bourgueil ، وجيبرت ده نوجان Guibert de
Nogent ، وراؤول ده كان Raoul de Caen ، واكهارت دورا Ekkehart
d'Aura ، وكافارو الجنوى Caffaro ، وجوتييه المستشار le Gauthier
Chancelier . فقد تركوا لنا كتبها قيمتها ووزنها ولا تزال باقية إلى اليوم .
علما بأن بعض هؤلاء الكتاب قدموا إلى الأراضى المقدسة بعد انتهاء الحملة ،
ونخص بالذكر راؤول ده كان الذى كان موجودا في فلسطين سنة ١١٠٧ وعمل
عند تمكريد ، وكذلك اكهارت دورا الذى قدم إلى الشرق سنة ١١٠١ .

ألف أول هؤلاء وهو تيدبوده كتابا اسمه « تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس » ،
تناول فيه أحداث الفترة من ١٠٩٥ إلى ١٠٩٩ م . ويلاحظ أنه اكتفى بنقل
كتاب المجهول مؤرخ حملة بوهيمند النورماندى ، بعد أن أضاف إليه بعض
الفقرات التى ربما يكون قد استقاها إما من كتاب ريمون داجيل أو من جهة
أخرى غير معروفة . ويرجح أنه وضع كتابه في الفترة الواقعة بين عامى ١١٠٢
و ١١١١ م . (١)

أما روبرت فقد كان راهبا بدير القديس ريمى Saint-Remi في ريمز
Reims بفرنسا ، ثم أصبح رئيسا لهذا الدير عام ١٠٩٤ م . وبعد ذلك صدر
ضده قرار الحرمان الكنسى ، وطرد من الدير حوالى عام ١٠٩٦ / ١٠٩٧ م ،
فالتجأ إلى دير سنوك Senuc في مارموتيه بفرنسا ليقتضى هناك بقية أيام

(١) أنظر : Molinier, II, 281 وقد أتب كتابه باللاتينية باسم Historia de
Hierosolymitano itinere ، وهو منشور في الجزء الثالث من مجموعة مؤرخى الحروب
الصليبية (المؤرخون الغربيون) ص ٣ - ١١٧ .

حياته (١) . وفي هذا الدير انكب على تدوين كتابه . ومسألة ذهابه إلى الأراضى المقدسة مجرد احتمال يحتاج إلى الدراسة والاستقصاء (٢) ، إذ ليس هناك ما يؤكد أنه توجه مع الحملة إلى الشرق . وتاريخ وفاته غير معروف بالضبط ، وإنما يظن أنه حوالى سنة ١١٢٢ م .

وقد ألف كتابه المسمى « تاريخ بيت المقدس » (٣) أثناء إقامته في دير سنوك حسبما أسلفنا . وكان هدفه اتمام كتاب المؤرخ المجهول بأسلوب رفيع ، نظرا لما امتاز به أسلوب الكاتب المجهول من ضعف وركاكة . ويروى الكتاب

(١) يذكر ميشو أن سبب طرد روبرت من دير القديس ريمى يرجع إلى أن رهبان الدير المذكور اتهموه أثناء تفتيشه في الشرق بتبديد أموال الدير في سبيل الاتفاق على رحلته . وقد تم عزله من رئاسة الدير خلال وجوده بالشرق . وبعد عودته إلى بلاده أقام في دير سنوك . انظر : Michaud, I, 25-6

(٢) اختلفت آراء المؤرخين حول مسألة ذهاب روبرت الراهب إلى الشرق . فقد أوضح هو نفسه في كتابه أنه كان يود زيارة الأماكن المقدسة . ويذكر ميشو أنه توجه للحج فعلا في السنة التالية لعقد مؤتمر كليرمون ؛ كما كان موجودا عند حصار بيت المقدس وواقعة عسقلان . انظر : Michaud, I, 25 . أما مولينييه فيرجع ذهابه إلى الأراضى المقدسة حوالى سنة ١١٠٠ م . انظر : Molinier, II, 282

(٣) ألف كتابه باللاتينية واسمه *Historia Iherosolimitana* . وهو يعتبر من أوائل الكتب التي صدرت في باريس عقب اختراع الطباعة . وطبعته الأولى مليئة بالأخطاء ؛ وقد صدرت فيما بين عامي ١٤٧٠ و ١٤٧٢ م ؛ وهي بدون تاريخ وبدون ذكر اسم الدار التي تولت نشره . وظهرت بعد ذلك طبعة ثانية في مدينة بال Bâle بسويسرا سنة ١٥٣٥ م ؛ وفيها هي الأخرى أخطاء عديدة . ولم يقيم العالم بونجار بنشر كتاب روبرت إلا بعد مراجعة هاتين الطبعتين مراجعة دقيقة ، كما اعتمد على ثلاثة مخطوطات أخرى لهذا الكتاب . انظر : Bongars, I, 30-81 . وأضاف بارث بعض الحواشى القيمة على كتاب روبرت الذي نشره في فرانكفورت بألمانيا سنة ١٧٢٦ م . انظر عن ذلك : Michaud, I, 33-4 . والكتاب منشور أيضا في مجموعة R. H. C. - H. Occ., I I, 717-782 ؛ وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث .

القصة الكاملة للحملة الصليبية الأولى ؛ فهو يبدأ بمؤتمر كليرمون وينتهي بموقعة
عسقلان . ومع ذلك فليست له أية قيمة أصلية ، وإن كان قد تناول بعض
الأحداث بإقاضة أكثر من المؤرخ المجهول ؛ وأضاف بعض المعلومات التي
تأتي في المرتبة الثانية من الأهمية (١) . مثال ذلك الفصل الذي كتبه عن مؤتمر
كليرمون الذي اشترك فيه باعتباره من رجال الدين .

وهناك وجه شبه كبير بين كتابي روبرت والمجهول . وأهل الخلاف الوحيد
بينهما هو الأسلوب وطريقة التبويب . وذكر روبرت في مقدمة كتابه أن
هدفه هو توخي الحقيقة ، وبمنص قوله : « إن يحد القارئ في كتابي توافه أو
أكاذيب أو ترهات ، . وبالرغم من أنه كان يتوخى الدقة والصدق فيما يكتب ،
إلا أنه كان يميل أحيانا إلى تصديق الأساطير والمعجزات التي لا يقبلها العقل (٢) .

أما بودري ده بورجي فقد ولد بمدينة اورليانز ، واعتنق منذ صغره مبادئ
الرهبة ، وامتاز بثقافته العالية . وأصبح بفضل علمه ومثانة خلقه رئيس أساقفة
مدينة دول Doi بمقاطعة نورمانديا شمال غربي فرنسا . وقد ألف كتباً عديدة منها
كتابته عن الحملة الصليبية الأولى المعروف باسم « تاريخ بيت المقدس » (٣) .
ويذكر في مقدمته أنه فرغ منه وهو في الستين من عمره ؛ ويحتمل أن يكون قد
وضعه بعد عام ١١٠٧ م . وقد اشترك بودري هو الآخر في مؤتمر كليرمون وأشار
إليه في كتابه . ولكنه لم يذهب مع الحملة إلى الشرق ، وإنما استمد معلوماته

(١) Molinier, II, 282.

(٢) Michaud, I, 26,33.

(٣) اسم الكتاب Historia Jerosolimitana ؛ وهو منشور في مجموعتي :
Bongars, I, 85-138; R. H. C. - H. Occ., IV, 1-111.

من أولئك الذين شاهدوا وقائعها ومن كتاب المؤرخ المجهول . ويبدأ كتاب بودرى بقيام الحملة من الغرب ، وينتهي بالمعركة التي قامت بعد الاستيلاء على بيت المقدس .

لقد أفاد بودرى من كتاب المؤرخ المجهول فائدة يبدو أثرها واضحا في مؤلفه ، وإن كان يفضل المجهول في نقاء أسلوبه وبلاغته . كما أضاف بعض الروايات التي سمعها شفاهة ، وبعض المعلومات التي يغلب عليها عنصر الخيال . وجدير بالذكر أنه اعتمد على مؤلف بودرى كل من اوردريك فيتال Orderic Vital ، ووليم الصوري ، وفنسان ده بوفيه Vincent de Beauvais (١) . ويمتدح فيتال صدق بودرى ووضوح عبارته ونقاء أسلوبه . ويرى المؤرخ الفرنسي ميشو أن تمسك بودرى بالحقيقة ، والعناية التي بذلها في سبيل إخراج الكتاب ، فضلا عن صراحته وطيبته قلبه - كل هذا يجعل الكتاب وثيقة هامة ، كما لو كان مؤلفه شاهد عيان لأحداث ذلك الزمان (٢) .

أما جيبرت ده نوجان فقد ولد من أسرة عريقة في مدينة كليرمون وسط فرنسا . وكان الطيش يلزمه في سني حياته الأولى . وما لبث أن عاف حياة العبث ، وانكب على العمل والتحصيل وانغمس في الدين . وقد وضع عدة كتب في اللاهوت ، كما ألف كتابه عن أعمال الفرنجة ، (٣) أهداه إلى إليزاردوس

(١) اسم الكتاب Selecta e speculo Historiali Vincentii Bellocensis وهو منشور في مجموعة : Bouquet, M. (ed.), Recueil des Historiens des Gaules et de la France, XXI, 71-75.

(٢) Michaud, I, 34-5, 41; cf. also Molinier, II, 282-3.

(٣) اسم الكتاب Gesta Dei per Francos وهو منشور في المجموعتين التاليتين : Bongars, I, 467-560; R. H. C. - H. Occ., IV, 113-263

Lisiardus أسقف مدينة سواسون (١١٠٨ - ١١٢٦) . ولم يذهب جيبرت إلى بيت المقدس ، ولم يشاهد شيئاً مما سجله ، وإنما اعتمد في روايته على عدد من المؤرخين المتقدمين ، ومن بينهم المؤرخ المجهول الذي أفاد منه ، ولكن مع شيء من التدقيق والتحيص أكثر من زميله بودرى ده بورجي . وأضاف الكثير من المعلومات التي لم ترد أصلاً في كتاب مؤرخ حملة بوهيمند . وفي أسلوبه تكلف وغموض ، كما دون جانباً من مؤلفه شعراً والباقي نثراً (١) .

ويبدأ تاريخه بكلمة إهداء إلى أسقف سواسون . ويعقبها بمقدمة أشار فيها إلى كتاب المؤرخ المجهول الذي كان معروفاً في أيامه ، ويعترف بأنه نال منه فائدة بعد أن صحح الكثير من الأخطاء الواردة فيه . ويقول إنه قام بوضع كتابه لا حياء في الشهرة أو المال ، وإنما لما ينطوى عليه الموضوع من أهمية (٢) . وهناك أيضاً المؤرخ راؤول ده كان الذي ولد بمدينة كان بفرنسا . وقد ذهب إلى الشرق عام ١١٠٧ م حيث لازم تنكريد ابن أخت بوهيمند . ودون كتابه بعد عام ١١١٢ م تقلاً عن الروايات التي حكاهما له هذا الأمير . وتوفي راؤول بعد عام ١١٣١ م بقليل . ويروي مؤلفه المسمى « أعمال تنكريد » تاريخ الحركة الصليبية حتى سنة ١١٠٥ م . ونلس بوضوح بما كتبه شعوره العدائي لكل من الإمبراطور البيزنطي الكسيس كومنين والأمير ريمون ده سان جيل ، بسبب العلاقات السيئة التي كانت قائمة بين هذين السيدين وكل من تنكريد وخاله

(١) Michaud, I, 88; Molinier, II, 283.

(٢) وفيما يلي نص ما ذكره ميشو عن جيبرت :

« Il y dit qu'il a été engagé à écrire cette histoire, non par amour de la gloire ou de l'argent, mais à cause de l'importance du sujet. » Cf. Michaud, I, 89.

بوهيمند . وسنعرض لذلك بالتفصيل في الفصلين الأخيرين من الكتاب . هذا ، وكتاب راؤول خليط من الشعر والنثر . ويلاحظ أنه لم يتم بمراجعته وتنقيحه مثلما فعل غيره من مؤرخي الحملة الأولى (١) .

وفي معرض الحديث عن مؤرخي هذه الحملة يجب ألا ننقل الأسقف الكهات دورا ، وهو ألماني ذهب إلى سورية سنة ١١٠١ م ، أي بعد انتهاء الحملة . ووضع بعد عودته إلى بلاده كتابه المعروف باسم « بيت المقدس » (٢) .

وهناك أيضا كافارو الجنوى Caffaro . وهو من أسرة عريقة ، قدم إلى فلسطين سنة ١١٠٠ ، ثم زار الأراضي المقدسة بعد ذلك عدة مرات . وهو صاحب كتاب « حوليات جنوه » الذي يشغل الفترة من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٦٣ . وله أيضا كتاب صغير عنوانه « تحرير مدن الشرق » Liberatio civitatum orientis ، وقد وضعه سنة ١١٥٥ . وظل هذا الكتيب مجهولا ، ولم يعثر عليه إلا بعد قرن من ذلك التاريخ بين أوراق أخرى قديمة (٣) .

ويجب أن نذكر في هذا الصدد جوتيه المستشار Gauthier le Chancelier

(١) Cahen, 11-12; Molinier, II, 285. — والكتاب باللاتينية واسمه Gesta Tancredi in expeditione Hierosolymitana ؛ وله طبعات عديدة أهمها تلك التي توجد في مجموعة R. H. C.-H. Occ., III, 587-716 .

(٢) انظر : Cahen, 11, & n. 2 . وقام بنشر الكتاب المذكور العالم هاجينباير (طبعة 1877 Tübingen) ، وهو منشور أيضا في الجزء الخامس من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية الفريين . هذا وطبعة بول ريان أفضل بكثير من طبعة هاجينباير .

(٣) أنظر : Cahen, op. cit., 11 . وتوجد طبعتان لكتاب كافارو المسمى « حوليات جنوه » : الأولى طبعة « بلجرانو » Caffaro, Fonti per la storia d'Italia, éd. Blgrano, Rome, 1890. والثانية طبعة « ريان » في الجزء الخامس من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (المؤرخون الفريون) .

فهو يعتبر بدون شك من مؤرخي عصر الحملة الصليبية الأولى . وعلى الرغم من أن عنوان كتابه هو « حرب أنطاكية » ، De Bello Antiocheno ، إلا أنه يقتصر على حرب سنة ١١١٥ ، والحروب التي وقعت فيما بين عامي ١١١٩ و ١١٢٢ . ويعتبر مؤلفه من أهم المصادر ، إن لم يكن أهمها على الإطلاق في تاريخ الصليبيين في شمال سورية وبخاصة أنطاكية . ويحتمل أن يكون جوتييه هذا قد عمل مستشاراً لدى روجر . كما كان على معرفة تامة بالنظم والوقائع والأحداث في سورية الشمالية ، فضلاً عن معرفته بجغرافية المنطقة (١) .

يضاف إلى ما تقدم بعض الكتب والمختصرات التي وضعت عن هذه الحقبة ، منها كتاب لمؤرخ غير معروف الإسم وضعه بناء على طلب بلدوين الثالث ملك بيت المقدس اللاتيني ، وسرد فيه تاريخ الحركة من بدايتها حتى سنة ١١٢٣ م . وهو عبارة عن مختصر لكتابي روبرت الراهب وفوشيه ده شارتر . وقد تم وضعه حوالي سنة ١١٤٦/١١٤٧ م . والنص المذكور ليس له أي قيمة تاريخية (٢) .

وثمة مؤلف آخر اسمه جوتير الباريسي Gunther de Pairis ، وضع كتاباً عن الحملة الأولى في أخريات القرن الثاني عشر تقلاً عن مؤلف روبرت الراهب (٣) .

(١) أنظر : 16 ، Cahen, op. cit. ، والكتاب جوتييه طبعان : الأولى طبعة « هاجينماير » (Heidelberg, 1896) ؛ والثانية طبعة « ريان » في الجزء الخامس من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) .

(٢) Molinier, II, 282. واسم الكتاب Balduini III Historia Nicaena vel Antiochena ، وقد قام بنشره الكونت بول ريان Comte P. Riant الذي توفي سنة ١٨٨٨ م ، في مجموعة : R.H.C.-H. Occ., V, 133-185 .

(٣) Molinier, II, 290. والكتاب اسمه Solimarius ، وقد عثر على شذرات منه في مدينة كولونيا قام بنشرها العالم فاتنباخ Wa ttenbach في مجموعة أورشيف الشرق اللاتيني . انظر : A. O. L., I, 551-561 .

وإلى جانب تلك المصادر اللاتينية المعاصرة التي أسلفنا الإشارة إليها، يوجد عدد من الرسائل والوثائق والمكتابات ، نخص بالذكر منها الخطاب الذي يقال إن الكسيس كومنين أرسله إلى روبرت ده فلاندرز أمير الأراضى الواطنة (١) ، وخطابي اتين كونت بلوا وشارتر اللذين بعث بهما من الشرق إلى زوجته أديل في أوروبا . (٢) وخطاب الكسيس يكشف عن الدوافع الشخصية في قيام الحركة الصليبية ، وأطماع اللاتين التي وجهتهم نحو الشرق العربى ؛ بينما نجد في الخطابين الآخرين اعترافا صريحا من أحد زعماء اللاتين بتلك الخدمات التي أداها البيزنطيون للفرنج خلال الحملة الأولى . ويتفق الكونت اتين في هذا الاتجاه مع زميله البرت دكس ، بخلاف باقى المؤرخين اللاتين الذين امتلأت كتاباتهم بالحقده والكراهية ضد المسيحيين الشرقيين ، الذين كانوا في نظرهم مجرد هراطقة منشقين عن كنيسة روما الكاثوليكية .

وإلى جانب هذه المستندات والوثائق يوجد بعض المؤرخين اللاتين المتأخرين نسبيا عن الحملة الأولى الذين أفدنا منهم ، نذكر من بينهم وليم الصورى Guillaume de Tyr ، وامبرواز Ambroise (٣) ، وجوانفيل Joinville ،

(١) انظر تحليل الخطاب المذكور والمناقشات التي أثرت حوله في مقالى : «الدافع الشخصى في قيام الحركة الصليبية » تحت عنوان درر بيزنطة والكسيس كومنين في الدعوة إلى الحروب الصليبية ، ص ١٨٨ - ١٩٥ . انظر أيضا الترجمة العربية لمقتطفات من الخطاب في الملحق الأول بآخر الكتاب .

(٢) انظر الترجمة العربية لمقتطفات من خطاب الكونت اتين إلى زوجته الذى حرره من معسكر الجيش الصليبي بالقرب من نيقية في يونيو ١٠٩٧ ، في الملحق الرابع بآخر الكتاب .

(٣) فيما يتعلق بكل من وليم الصورى وامبرواز ، انظر : نظير سعداوى : ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية ، ص ٥ - ١٦ و ١٩ - ٢٠ . راجع أيضا مقدمة الأستاذ هبرت Hubert التي مهد بها لترجمته الانجليزية لكتاب امبرواز عن الحملة الصليبية الثالثة . فقد =

وروتلان Rothelin ، ومتى الباريسى Matthew Paris (١) . ولو أن النقل هو الطابع الغالب في معظم هذه الأصول فيما يتعلق بالأحداث الماضية ، إلا أننا نجد فيها أحيانا إشارات لها أهميتها ووزنها ، ويبدو أثرها واضحا في ثنايا البحث (٢) .

هذا عن الأصول اللاتينية من معاصرة وغير معاصرة ؛ أما المصادر البيزنطية ففيها هي الأخرى مادة ممتازة من الدرجة الأولى فيما يتعلق بحقيقة اتجاهات الحركة الصليبية ، وطبيعة العلاقات بين المسيحيين الشرقيين والغربيين إبان تلك الفترة من الزمن ، وتشابك العلاقات بين العرب والبيزنطيين واللاتين . وأهم هذه

== عرض لتاريخ حياة المؤلف ، وتناول الكتاب بالدراسة والتحليل مبدأ قيمته التاريخية ، حيث أن مؤلفه كان شاهد عيان لأحداث تلك الحملة . انظر :
Ambroise, Crusade of Richard, 3-27.

(١) وفيما يتعلق بسير جوائيل وروتلان ومتى الباريسى ومؤلفاتهم ، انظر كتابي :
لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٣-٧ و ١٠-١١ . راجع أيضا السيد الباز العريبي :
مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ١٤٨ - ١٥١ ، ١٥٣ - ١٧٣ .

(٢) يحلل الأستاذ كوانجود Collingwood في كتابه « فكرة التاريخ » ، ترجمة الأستاذ محمد بكير خليل ، ص ١١٢ - ١١٩ ، تحليلا منطقيا ممتعا لكتابة التاريخ في العصور الوسطى فيقول إنها كانت استثناءا للأسلوب التاريخي الذي جرى عليه اليونان والرومان القدماء دون استحداث أي تغيير في الطريقة المتبعة . ويستطرد قائلاً أن مؤرخ العصور الوسطى في الغرب عاش أسيراً في جو سيطرت فيه الكنيسة على كل شيء ، فكان يكتب ما يكتبه داخل إطار معين لم يكن من السهل الخروج عنه أو التفكك منه ، وقد أدى ذلك إلى إهمال المؤرخ الغربي الوسيط الواجب الأول للمؤرخ من حيث تفهم حقيقة الأحداث ومحاولة الكشف عنها . ومن هنا اتسم تدوين التاريخ في تلك القرون بصفة عامة بالضعف من حيث النقد والتحليل والتقدير الدقيق للحقائق التاريخية ، مما لا يتفق مع روح البحث العلمي الحديث . وعلى هذا الأساس كان مؤرخو الحروب الصليبية اللاتين - شأنهم شأن باقي مؤرخي العصور الوسطى الأوروبية - يصورون الوقائع والأحداث من وجهة نظر معينة بعدت بها في كثير من الأحيان عن الواقع التاريخي الصحيح .

المصادر بلا شك كتاب الالكسياد Alexiad الذي وضعته الأميرة آن كومنين (١) Anne Comnène قبيل منتصف القرن الثاني عشر بقليل ، عن تاريخ حياة أبيها الامبراطور الكسيس كومنين . وقد تضمنته ذكرياتها ومشاهداتها وأحاسيسها وانفعالاتها خلال تلك الفترة المضطربة من تاريخ الدولة البيزنطية . ولا يمكن اغفال كتاب الالكسياد عند تناول العلاقات الصليبية الرومية العربية قبيل الحملة الأولى وفي اثنائها وبعد انتهائها . فادته دسمة وفيرة تكشف عن العوامل المختلفة المتشابكة البعيدة الغور في أعماق التاريخ الوسيط التي أدت الى قيام سوء التفاهم بين الاغريق واللاتين أو بين مسيحي الشرق والغرب . وفيه تكشف الأميرة آن في أسلوب ممتع شائق ، وفي صراحة تامة ،

(١) ولدت الأميرة آن في ديسمبر ١٠٨٣ ، وتزوجت من نقفور بونيوس Nicephorus Bryennius ؛ وتوفيت سنة ١١٤٨ عن ٦٦ سنة . وهي ابنة الامبراطور الكسيس من زوجته الامبراطورة ايرين دوكلس . وقد قام أخوها حنا كومنين بحبسها في أحد الأديرة بعد وفاة أبيهما . وهي غزيرة العلم واسعة الثقافة ، وكانت على معرفة بأدب اليونان القدماء وكتب اللاهوت . ووضعت كتابها الالكسياد باللغة اليونانية السائدة وقتذاك ، ليكون سجلا حافلا لتاريخ حياة أبيها ، حتى أنها أسمته باسمه . وهو يشغل الفترة الممتدة من سنة ١٠٦٩ إلى سنة ١١١٨ . وقد بدأت في تدوينه بعد سنة ١١٣٧ ، وأتمته في أواسط القرن الثاني عشر (حوالى سنة ١١٤٨) . ونخرج من الكتاب بصورة نابضة عن المؤلفة نفسها ، تلك الكتابة التي تميزت بشخصيتها المستقلة ، وحساسيتها المرهقة ، وعاطفتها القوية ، وقلبها الطيب ، واعتدادها بنفسها وبيدها وبأبيها الامبراطور . أنظر التفاصيل في :

Diehl, Figures Byzantines, 26-52; Cahen, 95; Ostrogorsky, 311.

وهناك طبعتان قديمتان قيمتان للكتاب تتضمنان الأصل اليوناني القديم مع الترجمة اللاتينية ، وهما :

1 — Anna Comnena, Alexias, Venetiis, 1729, ed. «De Bisentine Istorie, T. XI».

2 — Anna Comnena, Alexiadis (Libri XV), Volumen I, Addidit Ludovicus Schopenus, Bonnae, 1839, ed. «Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae».

عن الاتجاهات الاستعمارية العدوانية للحركة الصليبية ، وجشع اللاتين وأطماعهم في دولة الروم وفي العالم العربي ، ثم موقف كل من اللاتين والاغريق حيال الآخر من وجهة النظر البيزنطية ، ذلك الموقف العجيب الذي كانت تسوده الريبة والشك المتبادلين وتعلوه قشور سطحية من المودة والمجاملات الدبلوماسية ، مما يجعل روايتها تحمل في طياتها صفة الوثائق الرسمية (١) .

والباحث المدقق يجد أن هذه الكاتبة تمثل خير تمثيل العقلية الاغريقية المستنيرة في تلك القرون الغابرة التي امتازت فيها اوروبا بالتعصب الاعى . وآية ذلك آراؤها الصريحة في اللاتين الغربيين وطباعهم وأخلاقهم وأطباعهم ، وفي تحليلها الدقيق الرائع للوقائع والأحداث التاريخية ، وتناولها الصادق لشخصيات عصرها ، فقد أمدتنا بصورة حية لوالدها الامبراطور والامير بوهيمند النورماندى وغيره من زعماء الحملة الاولى من الفرنج وكثير من الزعماء العرب .

مما سلف يعتبر الكتاب المذكور مصدرة في دراسة تاريخ هذه الحقبة . فقد عاصرت الكاتبة الاغريقية الأحداث التي كتبت عنها ، وعاشت فيها وتفاعلت معها . وكانت شاهدة عيان لجانب كبير منها ، كما رأت بعينها ما كان يجرى في بلاط والدها الامبراطور . وسجلت ذلك كله في كتابها بصدق وأمانة يتجلىان بالمقارنة بين روايتها وكتابات المؤرخين اللاتين المعاصرين لها . ولا شك انها استقت جانباً من المعلومات التي أوردتها في الكتاب من بعض شهود العيان ، ومن مذكراتها الخاصة المسجل بها ذكرياتها ، ومن مذكرات زوجها التي تركها لها ، ومن مصدر لاتيني اندثر ولم يصل إلينا ، فضلاً عن بعض الأصول الموثوق بها

(١) انظر الترجمة العربية لبعض النصوص من كتاب الالكسياد للأميرة آن كومنين في الملحق الثالث بآخر الكتاب .

كالمراسلات والوثائق الرسمية وما شابه ذلك . ويمتاز أسلوبها بنقائه وزخرفته وتكلفه .

ومع ذلك فقد شاب الغموض واللبس بعض الوقائع التي تعرضت لها تلك الكتاتبة . ويلاحظ أيضا أن الترتيب الزمني لبعض الأحداث غير دقيق ، ولو أنها تزعم عكس ذلك (١) . ولها في ذلك عذرهما ، إذ كانت عندما مرت الحملة الصليبية بأراضي الدولة البيزنطية فتاة صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها ، ولم تسجل تلك الأحداث إلا بعد مضي حوالى نصف قرن من ذلك التاريخ .

وإلى جانب الأصول اللاتينية والاعريقية توجد بعض المصادر الأرمنية التي عادت علينا ببعض الفائدة ؛ ومنها كتاب متى الرهاوى Mathieu d'Édesse ، ومؤلف ميخائيل السورى Michel le Syrien . ولأولها حولية تتناول الأحداث من سنة ٩٥٢ إلى سنة ١١٣٧ م . وقد ولد متى بمدينة الرها ، ويبدو أنه توفي أثناء استيلاء عماد الدين زنكى عليها سنة ١١٤٤ م . واتم أحد تلامذته ، وهو الكاهن جريجوار Grégoire le Prêtre الكتاب المذكور حتى سنة ١١٦٣ م . أما ميخائيل السورى فتمتد حوليته حتى تاريخ وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي (٢) .

(١) Molinier, II, 293-4; cf. also Ostrogorsky, 311.

(٢) Molinier, II, 296-7. — وتوجد مقتطفات من كتاب متى الرهاوى في مجموعة R.H.C.- Doc. Arm., I, 1-150 ، ومقتطفات من حولية تلميذه جريجوار الأرمني في نفس المجموعة السابقة ، (ج ١ ص ١٥١ - ٢٠١) ، وكذلك شذرات من حولية ميخائيل السورى في المجموعة المذكورة (ج ١ ص ٣٠٩ - ٤٠٩) . وحولية ميخائيل السورى منشورة بالكامل في طبعة « شابو » . انظر : Michel le Syrien, éd Tidd. — Chabot, 3 Vols., Paris, 1899-1910. وبهنا منها الجزء الثالث . انظر : Cahen, op. cit., 96.

كانت الحملة الصليبية الأولى إذن غنية بالمؤلفات والرسائل التي وضعها أهل الغرب الأوروبي والافريقي البيزنطيون والأرمن . وكانت هذه المؤلفات تتسم بصفة عامة بالتحيز والمبالغة لاسيما المصادر اللاتينية . ومن سوء الحظ ان الكتاب العرب الذين عاصروا أحداث تلك الفترة لم يتركوا لنا شيئا مستقلا عنها . وهذا ما يمكن أن يقال بالنسبة لأوائك الذين عاصروا الحركة في شتى مراحلها . فلم تصل إلينا مؤلفات قائمة بذاتها عن تاريخ تلك الحملة وما لحقها من الحملات التي كانت رقعة الشرق العربي والشمال الإفريقي مسرحا لها خلال ثلاثة قرون من الزمان .

وليس من السهل تعليل عدم وجود كتاب وقتذاك تفرغوا لهذه الحروب العدوانية تفرغا تاما ، وتتبعوا أحداثها عن كثب ، ثم قاموا بتسجيل ذلك كله في مؤلفات منفردة مثلما فعل أهل الغرب ، خاصة وأنه كان يوجد في بلاط الحكام العرب مؤرخون تخصصوا في كتابة السير والتراجم وأحداث زمانهم . كما اشترك في الحملات العربية المضادة كثير من الفرسان الأدباء الذين كان بوسعهم تدوين تاريخ هذه الحملات في كتب مستقلة قائمة بذاتها . وإن مثل هذه المؤلفات لو كانت قد وضعت فعلا لأمدتنا بمادة وفيرة لا يمكن بحال التقليل من قيمتها وأهميتها ، ولساعدتنا في الكشف عن الكثير من الغموض الذي يحيط ببعض جوانب هذه الحركة .

ولعل السر في ذلك يرجع لسببين : أولهما أن الحركة الصليبية كانت حركة عدوانية قام بها الغرب الأوروبي ضد العالم العربي لتحقيق اتجاهات استعمارية توسعية . وقد أحيطت منذ بدايتها بهالة كبيرة من الدعاية الدينية والحماس الجنوني في الغرب ، مما دفع كثير من اللاتين الذين اشتركوا فيها وخاضوا معاركها ، إلى تسجيل ذلك في كتب حفظها لنا الزمن من العبث والضياع . وحتى أولئك الغربيين الذين

بقوا في أوروبا ولم يشتركوا في هذه الحملات ، كانوا يتلقفون أخبارها أولا بأول من الفرنج العائدين وغيرهم من الرواة والحجاج ، ويسجلونها في مؤلفات بقيت إلى اليوم . ويلاحظ أيضا أن المؤلفات العامة في التاريخ الأوروبي لم تخل من الإشارة إلى هذه الحملات التي جندت لها العقول والأقلام في الغرب . بل إن أخبار الحركة الصليبية كانت تغطي أحيانا على الموضوع الأصلي للكتاب . لذلك كان من الطبيعي أن يوجه لها الغربيون اهتماما خاصا . وعلى العكس ، لم تزل الحملات الصليبية من المؤلفين العرب المعاصرين لها نفس القدر من الاهتمام . فقد فوجئوا بمجيوش غازية تنزل في ديارهم في أعداد كبيرة ، تنهب وتقتل وتسرق ماشاء لها النهب والقتل والسرقة ، في وقت كان فيه العالم العربي ضعيفا منقسما على نفسه ، ولم يكن قد أعد عدته بعد لتجميع قواه ودفع أوائك الغزاة . ولذلك اكتفوا بتسجيل أحداثها في حولياتهم وكتبهم العامة دون حاجة إلى الدخول في تفاصيل مطولة ودقائق عديدة كمتلك التي تعرض لها الغربيون . ولذلك كان المؤرخون العرب يميلون بصفة عامة إلى التعميم والاجمال ، بعكس الفرنج الذين كانوا يميلون أحيانا إلى التخصص والافاضة (١) . هذا عن السبب الأول ، أما السبب الثاني فمن المحتمل أنه يرجع إلى طريقة كل من الغرب الأوروبي والعالم العربي في تدوين التاريخ وقتذاك . فقد كان الغرب حتى آخريات القرن الحادي عشر يتبع نظام الحوليات المعروف ، ولكن كتابة التاريخ تطورت عندهم منذ قيام الحركة الصليبية على النحو الذي نراه اليوم . أما الكتاب العرب فقد ظلوا يسرون في تدوين كتبهم على غرار نظام الحوليات (٢) . ولهذا كانت أحداث

(١) أنظر : محمد عبد الله عثمان : مصر الإسلامية ، ص ١٠٧ .

(٢) ونعني بها طريقة التأريخ بالسنين . فكان معظم الكتاب العرب يؤرخون للأحداث سنة بسنة ، بينما اتبع فريق آخر طريقة التأريخ لهود الخلفاء والحكام ، وفيها يسرد المؤلف =

الحركة الصليبية تدون إلى جانب غيرها من الوقائع التي لا توجد بينها أى رابطة ،
وذلك وفقا لترتيب الزمنى للأحداث .

لقد انصب اهتمام أولئك الكتاب بوجه عام على تسجيل تواريخ المدن
والبلدان ، وكتابة السير والتراجم ؛ وتأليف الكتب الجامعة وتواريخ الدول
والممالك . وبين طيات هذه الكتب ومن خلال سطورها نجد المادة التي تهتمنا بمعرفة
هنا وهناك .

فن الكتب التي اختصت بالمدن والبلدان نذكر ذيل تاريخ دمشق لابن
القلائسى (ت ٥٥٥ / ١١٦٦ م) الذي عاصر أحداث هذه الحقبة من الزمن
وكتب عنها ، وكذلك تاريخ حلب لابن العديم (ت ٦٦٠ / ١٢٦٢ م) ،
والدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب لابن الشحنة (ت ٨٩٠ / ١٤٨٥ م) ،
والانس الجليل بتاريخ القدس والخليل لأبى اليمن العليمى (ت ٩٢٧ / ١٥٢١ م) .

أما كتب السير والتراجم فمنها ما اختص بسيرة خليفة من الخلفاء أو حاكم
من الحكام ، ومنها ما كان أكثر توسعا فشمّل عدة سير . فن النوع الأول

== أيام الخلفاء والحكام والأحداث التي وقعت فى عهودهم . وقليل من المؤرخين من حاول
كتابة التاريخ على حسب الموضوعات ، وعلى رأس هؤلاء ابن الأثير والنويرى ؛ وهدف هذا
الفريق هو تجميع الحوادث وعدم التفريق فى ذكرها قدر الاستطاعة . هذا ولو أن نظام
الحوليات الذى كان متبعاً فى كتابة التاريخ كان يحدد من نشاط المؤرخ فى ذكر كل الأخبار
المتعلقة بمحادثة ما بجمعة مترابطة . انظر عن ذلك : محمد عبد الفنى حسن : علم التاريخ عند العرب ،
ص ١٧١-١٧٧ . انظر أيضا ما كتبه الدكتور عبد المنعم ماجد عن نشأة الكتابة التاريخية
عند العرب فى العصر الاسلامى فى مؤلفه : مقبلة لدراسة التاريخ الاسلامى - ط . ثانية (القاهرة
١٩٦٤) ص ٣١ - ٤١ ، وكذلك سيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الاسلامى
ومناهج البحث فيه (القاهرة ١٩٦٠) ص ٤٨ - ٥٦ .

نجد سيرة صلاح الدين الأيوبي لابن شداد (١) (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٨ م) ، والتاريخ الصالحى لابن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) ، الذى تناول فيه مؤلفه سيرة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهو لا يزال مخطوطا لم ينشر بعد . ومن النوع الثانى مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لابن الجوزى (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) ، ومخطوط الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين لابن دقاق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) ، والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لأبى المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) .

والمكتبة العربية عامرة بكتب التواريخ العامة وتواريخ الدول والممالك ، ومن أهمها تاريخ دولة آل سلجوق للأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م) وأتابكة الموصل لنفس المؤلف ، وكتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية والذيل على الروضتين لأبى شامة (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) ، ومفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل (٢) (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) ، وكنز الدرر وجامع

(١) نشره الدكتور جمال الدين الشيال فى مجموعة « تراثا » تحت اسم سيرة صلاح الدين « السيرة اليوسفية » المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية — ط. أولى — القاهرة ١٩٦٤ .

(٢) يعتبر هذا الكتاب حجة لا يستهان بها فى تاريخ العصر الأخير من دولة بنى أيوب حيث اتصل ابن واصل بالبلاط فى عهد الصالح أيوب وابنه توران شاه وأرملة الصالح شجر الدر . وهو مصدر أساسى لا غنى عنه فى تاريخ حملة لويس التاسع على مصر . ويقوم على نشر هذه الموسوعة الدكتور جمال الدين الشيال ، وقد ظهر منها للآن ثلاثة أجزاء ، انظر ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب — ٣ ج (حتى سنة ٦١٥ هـ) — نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال — القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٦٠ . وفيما يتعلق بسيرة ابن واصل انظر كتابي : حملة لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ١٤-١٦ والعواشى ؛ ابن واصل : مفرج الكروب : نشر الدكتور الشيال ، ج ١ ، ص ٤-٨ .

الفرز لابن ابيك (ت ٥٧٢٢ / ١٣٣١ م) وهو لم ينشر بعد ، والمختصر في أخبار
البشر لابى الفداء (ت ٥٧٢٢ / ١٣٣١ م) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (ت ٥٧٤٨ /
١٣٤٨ م) ، ومخطوط مسالك الابصار فى ممالك الامصار للمعمري (ت ٥٧٤٨ /
١٣٤٨ م) ، وتتممة المختصر لابن الوردي (ت ٥٧٤٩ / ١٣٤٩ م) ، ومخطوط
عيون التواريخ للكتبي (ت ٥٧٦٤ / ١٣٦٣ م) ، وتاريخ ابن خلدون (١)
(ت ٥٨٠٨ / ١٤٠٦ م) ، ومخطوط نزهة الانام فى تاريخ الإسلام لابن دقاق
(ت ٥٨٠٩ / ١٤٠٧ م) والسلوك لمعرفة دول الملوك للبقرىزي (٢) (ت ٥٨٤٥ /
١٤٤٢ م) ، وكتابا لغائة الامة بكشف الغمة واتعاظ الحنفا بأخبار الائمة
الفاطميين الخلفاء لنفس المؤلف ، (٣) وعقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان للعيني
(ت ٥٨٥٥ / ١٤٥١ م) الذى نشرت مقتطفات منه فى مجموعة مؤرخى
الحروب الصليبية (المؤرخون الشرقيون) ، ولا يزال الجانب الأكبر من هذه

(١) يتمتع ابن خلدون بمكانة خاصة بين المؤرخين باعتباره مجددا فى علم التاريخ . فقد
اشتمل القسم الخاص بتاريخ العرب من كتابه العبر على بحوث ودراسات تاريخية قيمة استمدتها
من مشاهداته الشخصية ومن قراءاته الخاصة ومن بعض المصادر التى كانت موجودة فى أيامه ولم
تصل إلينا . ونجده يتحرى الدقة العلمية ويتوخى البساطة والوضوح فيما عرض له ، مع تحقيق
الأحداث واستبعاد ما لا يقبله العقل منها . انظر عن ذلك على عهد الواحد : عبد الرحمن بن
خلدون ، ص ٢٣٣ - ٢٣٦ ؛ سيده اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الاسلامى ،
ص ٦٠ - ٦٣ .

(٢) لقد وقف على نشر هذا السفر الهام الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وظهر منه الآن
جزءان ، كل فى ثلاثة أقسام . وللعز يد من المعلومات عن المقرىزي وغيره من مؤرخى القرن
الخامس عشر ، انظر : زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر ، القاهرة ١٩٥٤ .

(٣) قام بلشر الأول الدكتور جمال الدين الشيال والدكتور محمد مصطفى زيادة (طبع
القاهرة ١٩٤٠) ، ونشر الثانى الدكتور جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٤٨) . وتحت
الطبع الآن نسخة جديدة كاملة من كتاب اتعاظ الحنفا عن مخطوطة طوب قبو سراى ، نشر
وتحقق الدكتور جمال الدين الشيال .

الموسوعة الضخمة مخطوطا، وكذلك مخطوط تاريخ الدول والملوك لابن الفرات (ت ٩٠٧هـ / ١٥٠١م)، وتاريخ مصر لابن اياس (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م)، وغيرها العديد من الكتب التي ظهرت خلال القرون التالية. وقد نشر المستشرقون بعضها، كما نقلوا جانباً منها إلى لغاتهم المختلفة (١). وهناك نهضة علمية حديثة تقوم على أكتاف المؤرخين والكتاب العرب هدفها نشر هذا التراث القديم نشرًا علميًا دقيقًا محققًا، والعمل على تعميمه ليكون في متناول الجميع.

ومن دراساتنا في المنابع العربية نخرج ببعض الملاحظات التي نجملها فيما يلي:

أولاً - تميزت مصادر القرن الثاني عشر بصفة عامة بطابعها المحلي الضيق، بعكس مصادر القرن الثالث عشر والقرون التالية له التي كانت دائرتها أكثر اتساعاً.

ثانياً - لم يعن الكتاب والمؤرخون العرب بتسجيل أحداث الحركة الصليبية في كتب مستقلة قائمة بذاتها حسبما أسلفنا، إذ لا يوجد مؤرخ واحد نهج هذا السبيل باستثناء عماد الدين الأصفهاني الذي وضع كتابه «الفتح القسي في الفتح القدسي»، والذي ضمنه قصة استعادة صلاح الدين البيت المقدس من الفرنج. وكذلك ابن شداد الذي تناول في كتابه «سيرة صلاح الدين»، تاريخ حياة هذا البطل العربي وجهاده ضد الغزاة. وغير خاف أن الأصفهاني وابن شداد كان هدفهما الأساسي من وضع كتابيهما هو تسجيل سيرة سيدهما صلاح الدين، مثلهما في ذلك مثل القاضي الفاضل.

(١) راجع في ذلك: محمد عبد الغني حسن: علم التاريخ عند العرب، ص ٢١١.

ثالثا — جميع المناهج المنوه عنها متأخرة نسبيا عن الفترة موضوع دراستنا ، باستثناء كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلائسي الذي وضع أساسا ليكون سجلا لتاريخ دمشق . ونجد فيه شذرات مبعثرة عن بداية الحركة الصليبية التي عاصر أحداثها ، وهي لا تشفي غلة الباحث في هذه الناحية .

رابعا — هناك تقارب شديد بين هذه المراجع ، فهي تكاد تتشابه في الأسلوب وفي طريقة سرد الوقائع والأحداث . وجدير بالذكر أن المؤرخين العرب — شأنهم شأن المؤرخين الأوروبيين في تلك المرحلة الوسيطة من التاريخ — كانوا ينقلون عادة عن مؤلفات من سبقوهم أو عن المعاصرين لهم . وكانوا في كثير من الأحيان ينقلون كتباً بأكملها دون دراسة أو نقد أو تمحيص . ويتم نقل هذه المادة التاريخية إما بطريق الرواية عن السند التي لزمها أكثر مؤرخي العرب وخاصة في الفترة المبكرة من تاريخ القرون الوسطى ، وإما عن طريق الرواية والخبر المسطور مع إيضاح المصدر الذي نقلوا عنه في أغلب الأحيان (١) . ومع ذلك فقد أشار بعض المؤرخين المتأخرين إلى أحداث لها قيمتها التي لا تنكر والتي لم ترد في الأصول المعاصرة ؛ ويغلب على الظن أنهم نقلوها عن أصول نقلت ولم تصلنا .

خامسا — تمددنا المناهج العربية بمادة دسمة فيما يتعلق بأحوال العالم العربي في أخريات العصور الوسطى ، وعلاقاته بكل من الصليبيين

(١) انظر : سيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الاسلامي ، ص ٥٠-٥٣ ؛ محمد عبد الغني حسن : علم التاريخ عند العرب ، ص ١٥٨-١٥٩ .

والبيزنطيين في شتى مراحل الحركة الصليبية ، مما لا يقل في أهميته عما ورد في الأصول اللاتينية والاعريقية والأرمينية المنوه عنها ؛ وما كان له أكبر الأثر في تقويم ما اعوج من كتابات أهل الغرب وملء الثغرات التي أغفلوها أو تجاوزوا عنها عمدا أو عن غير عمد ، وتصحيح الانحراف الذي لازمهم أحيانا وبلغ حد الشطط والتحيز نحو بني جلدتهم .

وإذا كانت الأصول المعاصرة قد أمدتنا بالمادة الأصلية التي أفدنا منها في موضوعنا ، فإن كتب المحدثين من أهل الشرق والغرب لا تقل أهمية بالنسبة للمتصدي لهذا البحث . فقد أسهم الكتاب العرب بنصيب كبير في هذا المضمار . فمنهم من أرخ للحركة الصليبية كلها أو أحد فصولها ، ومنهم من نقل إلى العربية بعض مؤلفات الغرب في هذه الناحية . فمن النوع الأول نذكر كتاب ملكوت بيت المقدس الصليبية للدكتور عمر كمال توفيق ، وكتاب الحركة الصليبية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، وكتاب الشرق الأوسط والحروب الصليبية للدكتور السيد الباز العريني ، وكتاب الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي للدكتور نظير حسان سعداوي ، وكتاب الحروب الصليبية في المشرق والمغرب لمؤلفه محمد العروسي المطوي . وكذلك مؤلفات الدكتور حسن حبشي عن الحملات الأولى والثانية والسابعة ، ومؤلف كل من الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور العقيد عبد الرحمن زكي عن حملة لويس التاسع على مصر ، وثلاث كتب لي ، اثنين منها عن حملتي لويس التاسع على مصر وبلاد الشام والثالث عن الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي ، وكتاب الدكتور سعيد عاشور عن قبرص والحروب الصليبية . ومن النوع الآخر نذكر كتاب ارنست باركر الذي قام بترجمته الدكتور السيد الباز العريني . هذا فضلا عن الكتب المؤلفة أو المترجمة عن تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، والمتضمنة دراسات

تحليلية مركزة عن الحروب الصليبية ، مثل مؤلف ديفز ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود ، وكتاب فشر ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العرينى والدكتور ابراهيم العدوى ، وكتاب أوروبا العصور الوسطى تأليف الدكتور سعيد عاشور .

والى جانب هؤلاء يجب أن نذكر بعض المؤلفات فى التاريخ الإسلامى السياسى والحضارى التى لها قيمتها التى لا تنكر ، مثل مجموعة الوثائق الفاطمية ، ومصر والشام بين دولتين ، وتاريخ مصر الإسلامية ، وأعلام الاسكندرية فى العصر الإسلامى للدكتور جمال الدين الشيال ؛ والتاريخ السياسى للدولة العربية ، والناصر صلاح الدين الأيوبي ، وتاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، والعلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى للدكتور عبد المنعم ماجد ؛ وطرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، والمغرب الكبير فى العصر الإسلامى للدكتور السيد عبد العزيز سالم ؛ والدولة العربية الإسلامية للدكتور على حسن الخربوطلى . فهذه التأليف وغيرها تمدنا بمعلومات لها وزنها فيما نحن بصددده .

وهكذا أمدتنا المكتبة العربية بوافر من الكتب القيمة العربية والمعرية فى هذا الموضوع .

ومن أهم الكتب الغربية الحديثة التى تناولت تاريخ الحركة الصليبية والحملة الأولى على وجه أخص ، مؤلفات رهرشت Röhricht ، وبول ريان P. Riant ، ولويس برييه L. Bréhier ، وفردينا ند شالندون F. Chalandon ، ولیم ستيفنسون W. Stevenson ، و ر. سميل R. C. Smail ^(١) ، ورينيه

(١) أنظر كتابه R.C. Smail, Crusading Warfare, Cambridge, 1956. وقد قام بنقله إلى العربية السيد درويش النخيلي . والكتاب تحت الطبع عن المجلس الأعلى =

جروسية R. Grousset ، وستيفن رانسيمان S. Runciman . وتقوم حالياً جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة بتنظيم مؤلف كبير في خمسة مجلدات عن الحركة الصليبية ، يشترك في تحرير فصوله مجموعة من العلماء والمؤرخين المتخصصين في تاريخ هذه الحركة وفي تاريخ العرب والدولة البيزنطية والغرب الأوروبي في العصور الوسطى ، أمثال سيدنى بينتر Sidney Painter ، ومارشال بلدوين Marshall Baldwin وستيفن رانسيمان وبرنارد لويس Bernard Lewis وكلود كاهن Claude Cahen وسير هاملتون جب Sir Hamilton Gibb وغيرهم . وقد ظهر منه حتى الآن الجزء الأول والثاني . وكذلك مؤلف الدكتور عزيز سوريال عطية في تاريخ الحروب الصليبية المسمى : الحروب الصليبية - التجارة - الثقافة ، (١) .

ومن الكتب التي اختصت بالتاريخ البيزنطى وتناولت الحركة الصليبية والعلاقات الصليبية البيزنطية ، يجب أن نذكر تأليف جوستاف شلومبرجيه G. Schlumberger ، وشارل ديل Ch. Diehl ، ول . بلوى L. Bloy ، وأوجست باي A. Bailly ، وج . هاسى G. Hussey ، وستيفن رانسيمان ،

== لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة ، ويقوم بمراجعة الترجمة العربية مع التقديم لها الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال . كذلك ظهر لسميل كتاب حديث عن الحروب الصليبية (طبع سنة ١٩٦٥) .

(١) لا تزال مؤلفات رهرشت وريان وشالندون ، على الرغم من قدمها، تتمتع بمكانة كبيرة بين مراجع الحروب الصليبية . وهناك مراجع أخرى عديدة في تاريخ الحركة الصليبية أصبحت الآن في المرتبة الثانية أو الثالثة من حيث الأهمية . وقد فقد بعضها قيمته بعد أن عفا الزمن على الآراء التي وردت به ، نذكر منها تأليف ر . كندر R. Conder ، وآرشر وكينجزفورد T. A. Archer & C. L. Kingsford ، وم . كالتروب M. Calthrop ، وج . كامبل G. Campbell ، وفانك برنتانو F. Funck - Brentano ، و . ا . جيون E. Gibbon ، ون . يورجا N. Iorga ، وه . لامب H. Lamb ، وج . م . لودلو J. M. Ludlow ، وب . ميمبورج P. Maimbourg .

واستروجورسكى Ostrogorsky ، وقازيليف Vasiliev ، وارنست باركر
E. Barker ، وشارل أومان Ch. Oman ، ويينز وموس Baynes & Moss ،
وف . شالندون F. Chalandon .

وقد أسهمت المكتبة العربية بنصيب واضح في هذا الميدان . فمن الكتب
المعربة في التاريخ البيزنطى كتاب الامبراطورية البيزنطية تأليف نورمان بينز
ترجمة الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، وكتاب الامبراطورية
البيزنطية تأليف شارل أومان ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر ، وكتاب الحضارة
البيزنطية تأليف ستيفن دانسيان ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد . ومن الكتب
المؤلفة نذكر مؤلفات الدكتور عمر كمال توفيق وهى مقدمات العدوان الصليبي
(الامبراطور يوجنا تريمسكس وسياسته الشرقية) ، وتاريخ الامبراطورية
البيزنطية ، والامبراطور تقيفور فوكاس واسترجاع الاراضى المقدسة . وكذلك
كتاب الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية للدكتور ابراهيم أحمد العدوى ،
وكتاب الدولة البيزنطية ، ومصر البيزنطية للدكتور السيد الباز العرينى .

وبعد ، فنرجو أن نكون قد وفقنا بما بذلناه من جهد متواضع في تلك
المصادر والاسانيد التاريخية ، من عربية وفرنجية ، معاصرة وغير معاصرة ، إلى
مواجهة مشكلات البحث بقسط من النجاح .

الفصل الثاني

الفكرة الصليبية على حقيقةتها

تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب هو تاريخ الانسانية نفسها منذ القدم حتى وقتنا هذا ، حيث احتكت العقول والأفكار ، وتضاربت المشارب والأهواء ، وتبدت المطاعم عارية ، وقامت الحروب الدامية ، واختفت دول وممالك وامبراطوريات وظهرت أخرى على انقاضها ، واندثرت أنظمة وحضارات لتحل محلها مدنيات وثقافات جديدة مغايرة . ففي زحمة هذه الأحداث والتغيرات الهائلة ، قام الصراع بين شتى العالم في شتى عصور التاريخ القديم والوسيط والحديث .

ومن أهم خصائص القرون الوسطى التي شغلت قرابة ألف عام هي تلك الحركة التي اشتهرت باسم الحروب الصليبية ، والتي تكون في الواقع دورا رئيسيا من أدوار ذلك الصراع العتيق بين الشرق والغرب . فقد بدأ منذ أقدم العصور بحروب طرواده التي خلدها الشاعر هوميروس في أشعاره المعروفة باسم « الإلياذة » وال« اوديسية » . ثم قامت الحروب الميدية بين الفرس وال« اغريق » منذ القرن الخامس قبل الميلاد التي انتهت بسيادة الاسكندر المقدوني على أكثر بقاع العالم وقتذاك ، وما استتبع ذلك من فرض الحضارة الهيلينية عليها بعد قضائه على دولة الفرس التي أصبحت عاصمتهم المدائن إحدى الولايات الداخلة في نطاق الامبراطورية الجديدة . وأعقب ذلك ظهور الرومان على مسرح الأحداث ، وتوسعهم في الشرق ، و« اقزاعهم السلطة من الاغريق بعد معارك عنيفة حملت

روما بعدها لواء الكفاح في الغرب ، وورثت الاغريق سلطانتهم ونظمهم وحضارتهم .

هكذا بدأ الصراع بين الشرق والغرب في العصور القديمة قبل ظهور المسيحية بأجيال عدة . ولذلك لم يقدر له أن يصطبغ بالصبغة الدينية ؛ بل كان صراعا سياسيا وحربيا بين قوتين مختلفتين وحضارتين متباينتين ، ويرمى إلى سيطرة أحد الفريقين على الآخر ومحاولة ضمه بالقوة المسلحة إلى منطقة نفوذه .

ولكن الأوضاع سرعان ما تبدلت منذ القرن الرابع الميلادي ، وعلى وجه التحديد في سنة ٣٢٣ م حينما اعتنق الامبراطور الروماني قسطنطين الكبير الديانة المسيحية التي أصبحت الدين الرسمي للدولة الرومانية ، وبخاصة في القسم الشرقي منها الذي عرف باسم الدولة البيزنطية أو دولة الروم كما كان يسميها العرب .

وأخذ الصراع منذ ذلك الحين يصطبغ بالصبغة الدينية . فقامت الحروب بين بلاد فارس ودولة الروم في وقت شهدت فيه الاولى نهضة دينية كبيرة بينما كانت الثانية تدين بالمسيحية . وكان من أثر ذلك استيلاء خسرو ملك الفرس على اورشليم والصليب الحقيقي الذي صلب عليه المسيح سنة ٦١٤ م . وكان رد الفعل هو تلك الحروب المضادة التي قام بها الامبراطور هرقل سنة ٦٢٨ م لاسترداد البيت المقدس وصليب الصلبوت من قبضة الفرس (١) .

(١) انظر عن ذلك : Atiya, Crusade, Commerce and Culture, 23-8; Grousset, Sum of Hist., 7-12; Arnold, Legacy of Islam, 40-1.

وكذلك تراث الإسلام ، الترجمة العربية ، ج ١ ص ٨١ - ٨٣ . وتناول الاستاذ أرنولد توينبي فكرة قيام المجتمعات والحضارات ، وتداخل الحضارات فيما بينها ثم احتكاكها وتصارعها ، وأخيرا انهيارها وتحللها ، مع بيان أسباب هذا التحلل ودوافعه في موسوعته =

وفي أوائل القرن السابع ظهرت قوة جديدة في الميدان بظهور الاسلام في شبه الجزيرة العربية وقيام الدولة العربية الناهضة . وأصبح الكيفاح منذ ذلك الحين بين العرب والروم من ناحية ، وبين العرب واللاتين من ناحية أخرى ، أمرا واقعا (١) . وكانت أهم مراحلها هي الحروب الصليبية التي امتدت من آخريات القرن الحادى عشر إلى آخريات القرن الرابع عشر .

ويستمر الحال على هذا المنوال إلى أن بزغت شمس النهضة التي آذنت بنهاية القرون الوسطى بمبادئها ونظمها وفلسفتها ، وبداية العصور الحديثة . وفيها يأخذ الصراع مظهرا جديدا يتلائم ومقتضيات الظروف ، ونعنى بذلك بداية التوسع الاستعماري الاوروبي عندما نشبت اوروبا مخالبها في دول الشرق العربي والشمال الإفريقي بخاصة وفي آسيا وإفريقية بصفة عامة ؛ ثم يقظة هذه الشعوب العربية الاسيوية الافريقية ، وقيامها من سباتها العميق لتحرير نفسها من ربة الاستعمار في شتى صورته ومظاهره .

وإذا دققنا النظر في حقيقة الصراع الذي قام بين شتى العالم خلال العصور ، نجد أنه اتخذ في كل عصر شكلا معيناً يتناسب والظروف الموضوعية القائمة في

== الضخمة السماء « دراسة للتاريخ » التي تقع في ١٢ جزءاً . وقد اختصر المستر سومرفيل الأجزاء العشرة الأولى من هذه الموضوع في جزءين اختصاراً لا يخل بفكرة الكتاب الأصلية . وقام الأستاذ فؤاد محمد شبل بنقل هذا المختصر إلى العربية نقلاً دقيقاً . أنظر : توينبي : مختصر دراسة لتاريخ (الترجمة العربية) ج ٢ ، ص ٧٠ - ٧١ . ويلاحظ أن المؤلف يعرض لهذه الفكرة العميقة بالدراسة والتحليل في أكثر من مناسبة وفي أكثر من موضع في مؤلفه الكبير وكتابه المختصر . راجع أيضاً : توينبي : الحضارة في الميزان ، ص ١٩٢ - ١٩٥ .

(١) أنظر جوزيف نيسم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية لإبانت العدوان الصليبي ، ص ٢ ؛ على الحروب على : محمد والقومية العربية ، ص ٤٩ و ٥٢ . وكذلك :

Atiya, op. cit., 28-34.

وقت ما ، وإن اتحد في الغاية والهدف . فقد كان في العصور القديمة صراعاً سياسياً حريياً في عالم يدين بالوثنية ؛ بينما اتخذ الغرب من الدين في العصور الوسطى ستاراً لتحقيق نفس الأغراض والغايات . واليوم يبدو الصراع سافراً بعد أن كشف الاستعمار عن نفسه وأماط اللثام عن حقيقة نواياه . وهكذا تشابهت أسباب هذا الصراع ودوافعه في شتى مراحلها ، وإن بدا في كل مرحلة في شكل مغاير ، أو هو بمثابة حلقات متتابعة في سلسلة واحدة ممتدة عبر القرون والأجيال (١) .

كانت الحروب الصليبية اذن مرحلة من مراحل الكفاح المرير الطويل بين الشرق والغرب . فهي لم تقم فجأة ولم تنته فجأة ، إنما جاءت نتيجة عمليات تطور بطيئة مستمرة في فترات متباعدة غير قصيرة ؛ كما أنها تركت آثارها

(١) جدير بالذكر أن جروسية استعرض في كتابه « امبراطورية شرق البحر الأبيض المتوسط أو تاريخ المسألة الشرقية » الصراع الطويل بين الشرق والغرب ، وقد أوضح فيه أن الحركة الصليبية لم تكن إلا دوراً واحداً من أدواره . وهو يسرد وقائع هذا الصراع منذ حروب الاسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد حتى والعة لبيانتو في أواخر القرن السادس عشر . ويخلص مما تقدم أن المسألة الشرقية ليست وليدة القرن السابع عشر ، إنما هي أبعد من ذلك بكثير . أنظر :

Grousset, L'Empire du Levant, 7sqq., 21sqq., 46sqq., 67sqq., & 186sqq.

أنظر أيضاً نقد الدكتور عزيز سوريال للكتاب المذكور في المجلة التاريخية المصرية، المجلد الأول ، ص ٣١٤-٣١٩ . وقد أثبت هذه النظرية ووضعها في شكلها النهائي الدكتور عزيز سوريال في أحدث مؤلفاته ، وهو Crusade, Commerce and Culture الذي تولت طباعته مطبعة جامعة انديانا بأمریکا (طبعة 1962 ، Bloomington) وأبان سيادته أن الحركة الصليبية هي مرحلة من مراحل الصراع الطويل بين الشرق والغرب ، ذلك الصراع الذي ترجع أصوله إلى أيام اليونان والرومان القدماء ، وتمتد جذوره حتى يومنا هذا . أنظر ص ١٩ و ٢٤-٥٤ و ١٥٦-١٦١ من الكتاب المذكور .

لاحقاب أخرى بعد نهايتها بمعناها الدقيق . وعلى هذا من الخطأ ان نضع الخط الواضح الذى يفصل بينها وبين المرحلة السابقة لها وتلك التى أعقبتها . إذ أن هذا الصراع عبارة عن مجموعة مترابطة من الوقائع والأحداث المترابطة التى لا يمكن تقسيمها أو تجزئتها أو فصلها عن بعضها ، وأن كل مرحلة منه ما هى إلا فترة انتقال من السابق إلى اللاحق . لهذا لا يمكننا أن نأخذ بفكرة بداية الحركة الصليبية أو نهايتها فى سنة معينة أو يوم معين ، فتحديد السنين والتواريخ مسألة اعتبارية بحته لتسهيل فهم أى موضوع وتقريبه إلى الأذهان .

ويمكن القول إن هذه الظاهرة التاريخية كانت تمثل روح العالم الغربى الوسيط والأفكار السائدة فيه وقتذاك تمثيلاً صادقاً فى ناحيتين هامتين رئيسيتين ألا وهما ناحية الدين وناحية الحرب . (١) فالأولى أوحى بها منذ البداية الديانة المسيحية التى سادت الغرب بعد صراع رهيب مع الوثنية وأباطرة الرومان فى أخريات عهدهم . وأصبح الدين والكنيسة قوة عظيمة فى تلك القرون الغابرة ، حتى أن كل من كان يخالف تعاليمها كان يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب . وما أكثر أسلحتها التى كانت تستخدمها ضد معارضيها وبخاصة فى ميدان السياسة . لقد تحكمت هذه الكنيسة بحكم الظروف التى أحاطت بنشأتها عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط فى مقدرات الأفراد وفى حياتهم الخاصة والعامة ، لها الأمر والنهى وعليهم السمع والطاعة . (٢) وبلغت ذروة

(١) Atiya, Crusade, Commerce and Culture, 20.

(٢) لقد عانى المصلحون الدينيون فى أوروبا على أيدي التزمّنين من رجال الدين من الاضطهاد والتشكيل ما يفوق حد الوصف . راجع عن ذلك :

Turberville, Mediaeval Heresy & the Inquisition, 145-154; Coulton, The Inquisition, 5-99.

مجدها وقمة سطوتها أثناء الصراع العنيف الذى قام بينها وبين القوى الزمنية في الغرب وعلى رأسها الامبراطورية حول المسائل العلانية . فأخذت تتسلل بالباطرة والملوك والأمراء ، وتوقع عليهم قرارات الحرمان الكنسى والنقمة واللعنة والقطع ، وتشتيك معهم في حروب دامية تحقيقا لمصالحها وأطماعها التى لم تسكن تقف عند حد (١) .

وهكذا عاش الفرد الوسيط داخل هذه الدائرة الضيقة المغلقة التى وضعته فيها الكنيسة ، لا حول له ولا طول ، وعليه السمع والطاعة دون جدل أو مناقشة . هذا من الدين ، أما عن ناحية الحرب فهى تقترن بقيام النظام الاتباعى وما يلحقه من نظم الفروسية حيث يبرز الفارس ما تعلمه من فنون القتال . ولقد تأثر العقل الوسيط بهاتين الفكرتين تأثرا كبيرا ، حتى انه عندما دعا البابا اربان الثانى إلى حمل الصليب فى خطبته الملهبة التى ألقاها فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م فى مؤتمر كليرمون بفرنسا ، وجد تجاوبا عجيبا من كافة الطبقات والهيئات . واندفع الناس الانخراط فى سلك هذه الحروب من كل فج و صوب فى الغرب الاوروبى ؛ ذلك لأنها اصطبغت بصبغة الدين والحرب . فالدين غدا من الصق الاشياء بحياة الناس الخاصة والعامة وقتذاك ، بينما كانت الحرب صناعة الفارس الاولى . ويمكن أن النجاح الذى لاقته تلك الدعوة فى بدايتها فاق بكثير ما كان يأمله اربان نفسه بشهادة المؤرخين اللاتين الذين عاصروا أحداثها وكتبوا عنها ، ومن نقل عنهم من المحدثين (٢) .

(١) أنظر عن ذلك هارتمان وبارا كلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى - ترجمة وتعليق د . جوزيف نيسيم يوسف (الاسكندرية ١٩٦٦) ص ٤٠ - ٤٩ و ١١٨ وما بعدها و ٢٣٩ وما بعدها ؛ سكولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة - ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نيسيم يوسف ط . ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ص ٢٦٥ وما بعدها .

(٢) أنظر : Baldwin, Med. Church, 101; Ostrogorsky, Byzantine State, 320.

والحرب الصليبية ولو أنها تتفق مع الحروب السابقة عنها واللاحقة لها في حقيقة دوافعها واتجاهاتها الاستعمارية ، إلا أنها تختلف عنها اختلافاً بيناً من حيث طبيعتها وماهيتها وخصائصها . فلها كياناتها ومقوماتها والاسس التي ترتكز عليها ، مما يجعل لها وضعاً خاصاً في تاريخ الاستعمار . فهي حرب جامعة *Passagium generale* . قام بها أهل الغرب الأوروبي ضد الشرق العربي والشمال الأفريقي ، استجابة لنداء البابوية في روما وتحت إشرافها وبتوجيه منها ، بقصد الاستيلاء على الأراضي المقدسة وتأسيس مملكة لهم بها ، ثم العمل على تعزيز هذه المملكة وتوسيع حدودها والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل ، حتى تكون نقطة ارتكاز لهم يتوسعون منها على حساب البلدان المجاورة . (١)

وهي كثيرة معقدة امتدت من آخريات القرن الحادى عشر إلى آخريات القرن الرابع عشر ، واتصل فيها الكفاح بين الغزاة الوافدين من الغرب وبين أصحاب البلاد الأصليين . ولكن الحملات الرئيسية من الحروب المبكرة ثمان أو تسع ، لما تميزت به من دوافع أدت بحق إلى اعتبارها حملات مستقلة قائمة بذاتها (٢) . ولم

(١) أنظر من ذلك جوزيب نعيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ٨ . وحول أوجه الشبه والخلاف بين الحروب الصليبية والحروب البيزنطية ، وبخاصة في عهد كل من تقفور فوكس ويوحنا تريغسكس ، وكذلك موقف كل من بابوية روما وكنيسة بيزنطة من تلك الحروب ، أنظر عمر كمال توفيق : الامبراطور تقفور فوكس واسترجاع الأراضي المقدسة (الاسكندرية ١٩٥٩) ، ص ٦ - ٨ و ٢١ - ٢٣ و ٤٧ - ٤٨ ، ومقدمات العدوان الصليبي « الامبراطور يوحنا تريغسكس وسياسته الشرقية » (الاسكندرية ١٩٦٦) ، ص ٨٧ - ١٠٠ . وسوف نعرض لتعريف كبار المؤرخين الغربيين لتلك الحروب في الصفحات القادمة .

(٢) اعتاد مورخو الحروب الصليبية تقسيم هذه الحركة إلى ثمانى حملات كبيرة . ولكن الدراسات التاريخية الحديثة أثبتت أنها تسع بعد اعتبار فترة إقامه الملك الفرلى لويس التاسع في سورية من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٢٥٤ م ، عقب هزيمته في مصر ، حملة مستقلة قائمة =

تكن قاصرة على أمة معينة أو جنس بذاته، فقد اشترك فيها فرنسيون وإيطاليون وألمان وإنجليز وأسبان وقلنكيون وغيرهم من شعوب الغرب اللاتيني ، وإن كانت نسبة إسهام أى أمة غربية فى أى حملة من تلك الحملات ترتبط إلى حد بعيد بالظروف والأحوال السائدة فيها وقت قيام حملة ما أو الدعوة لها . (١) وكان المظهر الدولى هو الطابع المميز لها ، وهناك عدة عوامل تؤكد هذا المظهر

== بذاتها ، تضاف إلى زميلاتها من تلك الحملات العدوانية . أنظر جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ٣٤٠ - ٣٤٤ . أما المؤرخ فردريك هير فيرى أن الحملات الصليبية الرسمية هى الحملات الخمس الأولى فحسب ؛ هذا بخلاف المناوشات التى كانت تحدث عادة بين الفريقين فى الأراضى المقدسة فيما بين الحملات المذكورة . أنظر : Heer, Med. World, 96. وكيفما كان الأمر يجب أن ندخل فى الاعتبار أن المقصود بالحملات الرئيسية تلك الحملات التى كانت تقرر فى مؤتمرات أو مجامع كنسية ، مثل الحملة الصليبية الأولى التى تقرر فى مجمع كليرمون الكنسى فى نوفمبر ١٠٩٥ برئاسة البابا أربان الثانى ، وحملة لويس التاسع على مصر التى تقرر فى مجمع ليون الكنسى سنة ١٢٤٥ برئاسة البابا انوسنت الرابع . ومع ذلك فهناك حملات ثانوية لا تدخل ضمن الحملات الكبرى الرئيسية ، ومثل تلك الحملات الصغرى قد لا تدعو إليها البابوية ، ولكنها كانت تقوم - فى الغالب - لمساعدة القوات الصليبية بالشرق . ولذلك يمكن اعتبارها امتدادا طبيعيا للحملات الصليبية الكبيرة - أنظر عن ذلك S. Runciman, Matt. Paris, II, 64-5, 86-8; A. Hist. of the Crusades, Vol. I, (Cambridge, 1954), 106-11.

(١) نجد مثلا واضحا لذلك فى حملات لويس التاسع ملك فرنسا على مصر والشام والشمال الأفريقى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، إذ كانت كلها حملات فرنسية الصبغة والطابع . وإن كانت باقى أمم الغرب قد أسهمت فيها بنصيب ، فإنما كان ذلك بقوات رضىة فحسب . ويرجع هذا أولا وقبل كل شئ إلى الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدة فى الغرب اللاتينى وقتئذ ، والتى سمحت لفرنسا بأعداد تلك الحملات ، وحالت دون اشتراك باقى دول الغرب فيها اشتراكا فعليا . أنظر المصادر التالية : Matt. Paris, II, 103-4, 122-3, 163, 291-2, 331, 356-7, 387, 439-40, 481-3, 497-8, 505-6; Rothelin, op. cit., II, 525-6, 556-66; Joinville, op. cit. (ed. Wailly), 40-50, 56-60.

راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع فى الشرق الأوسط (القاهرة ١٩٥٩)، ص ٢٩ و ١٠٠ - ١٠٦ .

وتبرزه . فقد كانت أوروبا بأسرها تدين بالمسيحية على المذهب الكاثوليكي ، لها كنيسة واحدة هي كنيسة روما ، وعاصمة روحية واحدة هي روما ، وقد سادت لغتها اللاتينية وحضارتها بين جميع أهل الغرب . كما مرت هذه الدول جميعها بنفس العوامل والتطورات التاريخية التي ميزت نهاية التاريخ القديم وبداية العصور الوسطى ؛ فقد كان معظمها يدخل في نطاق الامبراطورية الرومانية المجددة . كما تركت فيها غزوات البرابرة الجرمان نفس التأثير ولو بدرجات متفاوتة . ثم ان النظام الاقطاعي بمعناه المعروف كان منتشرا في الغرب الاوروبي كله وقتذاك . كل هذا جعل العالم الغربي وحدة كبرى في مجموعه على رأسه عاهلين : البابا ويحكم من الناحية الدينية ، والامبراطور ويحكم من الناحية الزمنية .

وان هذه العوامل متجمعة تساعد على فهم ماهية الحركة الصليبية وطبيعتها ومظهرها الدولي في المجتمع الغربي الوسيط ، حتى أنه عندما أصبحت حقيقة واقعة وجدت في أوروبا مرتعا خصيبا ، واعتنق الناس مبادئها وغامروا بأموالهم وأنفسهم في سبيلها .

وجدير بالذكر في هذا المقام أن كلمة « الحروب الصليبية » أطلقت على كثير من الحروب التي تختلف عنها في طبيعتها وخصائصها وميزاتها . فيعتبر بعض المؤرخين حروب الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) ضد الفرس لاستعادة الصليب الحقيقي أول الحروب الصليبية أو من نوعها ، بحجة أن الدولة البيزنطية قامت بها بحافز من الحماس الديني (١) . وينظر إليه البعض باعتباره أول المحاربين

(١) أنظر : أومان : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٥-١٠٦ . راجع أيضاً :

Runciman, Byzantine Civilisation, 40; Grousset, Sum of Hist., 163.

ويلاحظ أن هذه الفكرة مستوحاة أساسا من كتاب المؤرخ الصليبي وليم الصوري .

الصليبيين ، فيما يتعلق بحروبه ضد العرب وهزيمته أمام للقوات العربية في واقعة اليرموك سنة ٦٣٦ م - (١) ويكفي ان المؤرخ اللاتيني وليم الصوري أشار في بداية كتابه إلى حروب هرقل باعتبارها مهددة للحركة الصليبية نفسها ، ونقل عنه المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه هذه الفكرة (٢). وهناك من يرى أن حروب كل من الامبراطور البيزنطي تقفور فوكاس (٩٦٣ - ٩٦٩ م) وخلفه يوحنا تزيمنكس المعروف باسم حنا الشمشق (٩٦٩ - ٩٧٦ م) ضد العرب ، هي أيضاً من قبيل الحروب الصليبية (٣) . وإنه من باب التجاوز تعريف هذه الحروب التي قامت بها بيزنطة سواء ضد الفرس أو العرب بالحروب الصليبية التي تختلف في مدلولها الدقيق عن تلك الحملات البيزنطية . وهي وإن اصطفت بالصيغة الدينية في وقت ما ، فقد كان يغلب عليها العنصر السياسي (٤) .

(١) أنظر : Grousset, L'Empire du Levant, 85; Arnold, Legacy of Islam, 41.

(٢) Grousset, Histoire des Croisades, I, I-IV. Cf. Atiya, op. cit., 27.

ويلاحظ أن مؤلف وليم الصوري الذي وضعه باللاتينية تحت اسم « تاريخ الأحداث التي وقعت في المناطق التي فيما وراء البحار » هو أساساً سرد لتاريخ الأراضي المقدسة في عصره. وأما الكتاب المعنون « تاريخ الامبراطور هرقل والاستيلاء على البلاد التي فيما وراء البحار » والمذكور في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (الأورخون الفرييون) - ج ٢ (باريس ١٨٥٩)، ص ١ - ٤٨١ ، يعتبر الجزء الأساسي فيه لوليم الصوري نفسه . وهو مترجم إلى الفرنسية القديمة عن الأصل اللاتيني لمؤلف وليم الصوري .

(٣) Matt. d'Édesse, R. H. C.- Doc. Arm., I, 13-20. راجع أيضاً: عمر كمال : تقفور فوكاس ، ص ٦-٨ و ٤٧ - ٤٨ ؛ حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٩ . ويعتبر الدكتور عمر كمال توفيق ثقة في هذا الموضوع . ينظر مؤلفه القيم « مقدمات المدوان الصليبي - الامبراطور يوحنا تزيمنكس وسياسته العرقية » - الاسكندرية ١٩٦٦ ، وبخاصة الفصل الرابع .

(٤) الحروب الصليبية هي حروب قامت بها جامعة الأمم المسيحية الغربية بأكملها ضد أمم =

وهناك فئة أخرى من المؤرخين تعتبر حروب مسيحي الغرب ضد العرب في اسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا في القرنين العاشر والحادي عشر ، هي الأخرى حروبا صليبية (١) . بل ان هناك من يرى ان الحروب التي قامت بين المسلمين والمسيحيين منذ بدء الدعوة الاسلامية دون اعتبار للزمان أو المكان حروب صليبية (٢) . وهذه التسمية بعيدة عن الحقيقة ، ويمكن تعريف مثل هذه الحروب بأنها مقدمة للحركة الصليبية أو الحروب الممهدة لها . ويطلق بعض المؤرخين على الحروب التي قامت في القرن الرابع عشر اسم « الحروب الصليبية

== العالم العربي تحت زعامة البابوية التي منعت امتيازات جديدة لمن يشترك فيها . أما الحروب البيزنطية فهي حروب فردية قامت تحت زعامة أباطرة بيزنطيين ، وكانت القوات المشتركة فيها بيزنطية هيلينية ، ولم تباركها الكنيسة البيزنطية لظروف خاصة بها . أنظر : عمر كمال : تقفور فوكاس ، ص ٢١ — ٢٣ و ٤٧ — ٤٨ . وكذلك كتاب :

Heer, Med. World, 97.

وجدير بالذكر أن مصطلحات مثل « الصليبيين » و « الحروب الصليبية » لم تستخدم قبل الحركة الصليبية . بمعنى أننا لم نقرأ عنها في المصادر الغربية حتى أواخر القرن الحادي عشر عندما دعا البابا أربان الثاني إلى تلك الحركة في كليرمون . وأن حملات بعض الأباطرة البيزنطيين مثل هرقل وفوكاس وتزيمسكس ضد العرب ، وإن كانت هناك أوجه شبه بينها وبين الحروب الصليبية ، إلا أنه لم يطلق عليها في حينها هذا الاسم . وإنما عرفت هذه التسمية رسمياً في الغرب بعد لقاء أربان الثاني خطابه المعروف في كليرمون ، وصاح المحتشدون صيحتهم المشهورة « هذه هي إرادة الله » ، وحلوا منذ ذلك الحين شارة الصليب ، ومن هنا سميت الحركة باسم « الحروب الصليبية » .

(١) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٦ — ١٧ ؛ زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٨٥ . أنظر أيضاً : Haskins, Normans in European Hist., 208
هذا ويطلق بعض المؤرخين على حروب الأسبان المسيحيين ضد غرناطة العسرية في آخريات القرن الخامس عشر اسم الحروب الصليبية أيضاً . أنظر : عبد الحميد العبادي : الجمل في تاريخ الأندلس ، ص ١٩٥ وما بعدها .

(٢) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٧ — ١٨ .

المتأخرة ، ، تميزا لها عن الحروب الصليبية المبكرة (١) . وهي في واقع الأمر خاتمة الحروب الصليبية الأولى وجزء لا يتجزأ منها ، باعتبارها من أهم نتائجها وآثارها .

وبناء على ما تقدم ، عندما نقول إن الحركة الصليبية بدأت في عام ١٠٩٥ م وانها انتهت في عام ١٢٩١ م ، فهذا لا يعنى انها بدأت دون مهدات أو سابق انذار ، أو انها انتهت دون أن يترتب عليها نتائج وآثار في الأحقاب التالية . لقد اعتبرت سنة ١٠٩٥ م كبداية لها ، لأنها السنة التي بشر فيها البابا اربان الثاني بتلك الحركة في كليرمون ، والتي دعا فيها إلى حمل الصليب للاستيلاء على فلسطين وتأسيس مستعمرات لاتينية هناك . كما اعتبرت سنة ١٢٩١ م كنهاية لها ، لأنها السنة التي استولى فيها السلطان الأشرف خليل على مدينة عكا ، وهي آخر معاقل الفرنج الحصينة بالساحل الشامى . لذا لا يمكن للباحث المدقق أن يأخذ بهذا التحديد الزهوى الجاف . فقد كانت روح هذه الحركة وصفاتها موجودة في الغرب قبل سنة ١٠٩٥ بعشرات السنوات ، ولم يكن ينقصها سوى أن تصطبغ بالصبغة الرسمية وأن يوجد الرجل الذى يعلن مولدها ، وقد تم هذا في عام ١٠٩٥ . كذلك اتفق المؤرخون على اعتبار سنة ١٢٩١ بمثابة نهاية هذه الحركة . ولكن بالرغم من ذلك قامت مشاريع وحملات أخرى تحمل نفس الطابع خلال القرن الرابع عشر ، والتي تعتبر امتدادا للفكرة الصليبية واستمرارا لها . والواقع الذى لاخلاف فيه انه كانت هناك عوامل كثيرة مختلفة متشابكة معقدة مهدت لتلك الحركة الغربية وأدت في نهاية الأمر إلى قيامها . ولم تكن هذه العوامل بنت يوم وليلة ، إنما استغرقت وقتا طويلا قبل قيام الحروب الصليبية

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 10, 480.

نفسها . كما ظلت هذه الفكرة بعد سقوط عكا نحو قرن من الزمان ، ولم تفقد صفاتها الحقيقية بمدلولها الدقيق الا بعد للقرن الرابع عشر .

وهناك من يقول إن الحروب الصليبية نفسها ما هي الا امتداد طبيعي لحروب التوسع الاقطاعي التي كان يقوم بها كبار رجال الاقطاع في الغرب الاوروبي قبيل الحركة الصليبية (١) ، مثل حروب جودفري دوق اللورين السفلى مع جيرانه ، وحروب جويسكار وابنه بوهيمند في جنوب ايطاليا (٢) . والحقيقة أنها يشابهان في فكرة الاطماع والالتساع ، مع فارق هام وهو أن هذا الالتساع كان منظما أيام الحروب الصليبية ، وقامت به معظم دول الغرب مجتمعة تحت إشراف البابوية ووجهته للشرق العربي . أما الحروب الاقطاعية الغربية السابقة للحركة الصليبية فكانت فردية بين أمراء الاقطاع وبعضهم البعض ، أو بينهم وبين البيزنطيين أو العرب المتأخمين لهم في المناطق التي استولوا عليها في اوروبا . وكانت مثل هذه الحروب تعتبر أمرا عاديا ومألوفا في ذلك الحين .

(١) أول من أشار إلى هذه النظرية هو العالم لويس هالفن في مؤلفه « انطلاقة أوروبا فيما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر » . وقد أوضحها في الكتاب الأول من مؤلفه عندما تناول العلاقة بين أوروبا الاقطاعية والتوسع الصليبي الغربي في الشرق . فتحدث أولا عن الاقطاع في أوروبا في القرن الحادي عشر ، ثم انتقل إلى أوضاع الكنيسة اللاتينية خلال ذلك القرن ، فالتوسع الاقطاعي داخل أوروبا قبيل الحملة الصليبية الأولى مثل استيلاء النورمان على صقلية وجنوبي ايطاليا والجزيرة البريطانية . واستطرد بعد ذلك في الحديث عن التوسع الاقطاعي في شبه الجزيرة الأيبيرية ، فقيام الحملة الصليبية الأولى وامتداد التوسع الاقطاعي الأوروبي من غربي البحر المتوسط إلى شرفيه .

أنظر : L. Halphen, L'Essor de l'Europe (XIe - XIIIe siècles), Paris, 1941, 4 ff., 46 ff., 63 ff.

(٢) أشرنا إلى ذلك عندما تعرضنا لحملة جودفري وبوهيمند في الفصل الخامس من هذا الكتاب .

ومما يدعو إلى التساؤل أنه وجد نوع آخر من الحروب التي لا صلة لها إطلاقاً بالحركة الصليبية لعدم توفر الصفات الهامة فيها التي تعتبر من مستلزماتها ، ومع ذلك أطلق عليها اسم الحروب الصليبية . من ذلك الحملات التي شنتها بابوية روما ضد معارضيها من العلمانيين خلال الصراع العنيف بينها وبين الامبراطورية على الأمور العلمانية ، مثلما فعل البابا انوسنت الرابع عندما بشر بحملة صليبية ضد كونراد الرابع ابن الامبراطور فردريك الثاني ، واعدأ بمنح صكوك الغفران لكل من يشترك فيها ولذويهم ايضا ؛ تلك الصكوك التي كانت تمنح عادة لمن ينخرط في سلك الحرب الصليبية بقصد غزو بيت المقدس (١) . ومن هذا النوع أيضا الحروب التي بشرت بها البابوية ضد الخارجين عليها من الهرطقة المسيحيين ؛ كتملك التي شنتها ضد الألبيجيين في شتاء ١٢١١/١٢١٢ م ؛ وتلك التي وجهتها ضد اتباع المصلح البوهيمي يوحنا هس في الفترة الواقعة من ١٤٢٠ م إلى ١٤٣١ م . (٢) وكذلك الحروب الصليبية التي دعا اليها بابوات روما وافنيون ضد بعضهم البعض في فترة الأسر البابلوني . (٣) وإن استغلال البابوية لهذه التسمية في أغراض ونواح شتى متباينة ، إن دل على شيء فإنما يدل على أنها اتخذتها سيفا مسلطا ضد معارضيها من حكام وابطرة وهرطقة ، وانها تسرت وراءها تحقيقا لأغراض ليست من الدين في شيء . فأصبحت الدعوة إلى حرب صليبية سلاحا ماضيا في يد البابوية تشهره في وجه الخارجين عليها ، وتستخدمه كلما دعت الضرورة إليه . شأنه شأن باقي أسلحتها المعروفة

(١) Matt. Paris, II, 462.

(٢) انظر عن ذلك : Baldwin, Med. Church, 107; Arnold, Legacy of Islam, 69; Waugh, Hist. of Europe, 163 sqq.

(٣) Waugh, op. cit., 16.

كالحرمان والنقمة واللعنة والقطع . ولكن هذا السلاح بدأ يفقد قوته عندما فقدت البابوية هيبتها ونفوذها في أخريات العصور الوسطى وأخذت تسير سريعا نحو التدهور والانحلال .

وكيفما كان الأمر ، فقد قامت الحروب الصليبية نتيجة لظروف وعوامل متشابكة أفاض الكتاب المحدثون في دراستها وتحليلها . ومع ذلك فهناك بعض البواعث التي لم تدرس بعد دراسة وافية ولا زالت في حاجة إلى مزيد من البحث ، ومنها الباعث الشخصي في قيام هذه الحروب ، والرجل الذي دفعها إلى الأمام تلك الدفعة القوية التي جعلت منها حقيقة واقعة . وقد اختلفت آراء المؤرخين حول هذا الموضوع اختلافاً بينا ، وظهرت كثير من النظريات التي تسند قيام الحركة إلى شخص دون آخر ، نجملها فيما يلي (١) :

أولا - أنشودة رولان وقصيدة حج شارلمان إلى الأراضى المقدسة :

تعتبر أنشودة رولان من أشهر الأناشيد المعروفة في الأدب الشعبي في المجتمع الغربي الوسيط ، وهي التي خلد فيها الشعراء الحملة التي قام بها الامبراطور شارلمان تجاه الأندلس سنة ٧٧٨ م . ونظرا لما كانت تحويه من آراء تدعو إلى القتال ، فقد استغلت زمن الحروب الصليبية لتحقيق أغراضها . كذلك ظهرت أسطورة حج شارلمان إلى الأراضى المقدسة في ذلك الوقت بالذات بقصد حث أهل الغرب لنجدة اخوانهم في الشرق . (٢) وتناول هذه الفكرة بالنقد أكثر

(١) تناولت أهم النظريات التي أثبتت حول هذا الموضوع بشيء من الإفاضة والتحليل في مقال « الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية » بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد ١٦ ، ص ١٨٣ - ٢١١ . واكتفيت هنا بالإشارة إلى خلاصة آراء المؤرخين في هذه الناحية دون التعرض لتفصيلات .

(٢) انظر : ديفز : أوروبا في العصور الوسطى ، ص ٥٦ .

من مؤرخ ، تذكر منهم و . ب . كير ، وكارلس ديفز ، وجاستون باريس ،
وارنس باركر . وخلاصتها أن أغنية رولان وقصيدة حج شارلمان اسطورتان
بعيدتان عن الحقيقة التاريخية ، وقد لعب فيها الخيال دورا كبيرا ؛ وأنه تم
وضعها قبل قيام الحركة الصليبية بوقت غير قصير ، ثم استغلا زمن الحرب
الصليبية لتحقيق أهدافها . ولعل الأثر الوحيد لها هو نجاحها في إثارة الرغبة
الكامنة لدى أهل الغرب للقيام بحروب عدوانية ضد العرب في الشرق عند بداية
الحركة . (١) وعلى هذا فإنه يمكن النظر إلى مثل تلك الملاحم باعتبارها عاملا
مساعدا هيا الجو لقيام العدوان الصليبي ، ولكنها لا ترقى بحال إلى مستوى
العوامل الرئيسية التي أدت إلى قيام هذا العدوان .

ثانياً — دور بيزنطة والكيس كومنين في الدعوة إلى الحركة الصليبية :

يرى بعض المؤرخين الغربيين المحدثين أن الامبراطور البيزنطي الكيس
كومنين هو المستول الأول عن قيام الحركة الصليبية . ويستدلون على ذلك من

(١) انظر: ديفز: شارلمان ، ص ٢٨٥-٢٨٨؛ وكذلك Paris, Med. French Lit., 32, 38-42. ويؤكد و . ب . كير أنه لا توجد أية صلة بين الحروب الصليبية وبين تلك القصيدة الفرنسية الأصل التي تروى قصة ذهاب شارلمان إلى الأراضي المقدسة ، والتي تم وضعها قبل قيام الحركة الصليبية نفسها ، قائلا أنها لا تعدو أن تكون أسطورة شعبية . أما عن أغنية رولان فيقول إنها أنشودة سابقة للحملة الأولى . ومع ذلك فهي في روحها أنشودة صليبية تتناول سير البطولة إذ تروى حروب المسيحية الغربية ضد العرب في أسبانيا . فضلا عن كونها أغنية فرنسية تتحدث عن شرف فرنسا وكرامتها . انظر : Ker, Dark Ages, 350, 353-6. - وجدير بالذكر أن كثيرا من المؤرخين اللاتين المعاصرين للحركة الصليبية استغلوا هذه الأحداث إلى أقصى حد . فكانوا يذكرون مواطنيهم الفرنج بأعجاب أسلافهم في الحروب بقصد إثارة همهم ضد العرب . ومن هؤلاء امبرواز الذي ضمن كتابه قصيدة عن شارلمان وحملاته في الشرق والغرب ، وكأنه يريد أن يقدم لمعاصريه مثالا يحتذون به ونموذجا يسرون على منواله . انظر :

خطاب يقال إنه أرسله حوالى سنة ١٠٨٨ م إلى روبرت أمير الأراضى الواطنة ، يستحثه فيه على إيفاد النجدة إلى القسطنطينية لدفع خطر السلاجقة عنها ، ثم التوجه بعد ذلك للاستيلاء على الأراضى المقدسة^(١). وعلى رأس الذين يعتقدون فى صحة هذه الوثيقة العالمان هاجينماير الألمانى Hagenmeyer ، وهرشت النمساوى Röhrich^(٢) . وخلاصة رأيها أنه إذا لم يكن الخطاب الذى وصلنا هو الخطاب الأصيل الصادر عن الكسيس ، فهو على الأقل صورة أخرى منه تتضمن نفس المعانى والأفكار . أما رأى المعارض فهو ينقى نفيًا قاطعًا صدور الخطاب عن الامبراطور البيزنطى . وعلى رأس هذا الفريق المؤرخان الفرنسيان فرديناند شالندون وشارل ديل . ويؤيدهما فى ذلك كثير من المؤرخين المحدثين أمثال الكونت بول ريان ، وفازيليف ، ورانسيان ، واستروجورسكى . ويتلخص رأى الجبهة المعارضة فى عدة نقاط هى :

- ١ - لا يوجد أى أصل اغريقى لهذا الخطاب ، وكل ما وصلنا هو النص اللاتينى المنهوه عنه وايس هناك ما يدل على أنه ترجمة لأصل يونانى مفقود^(٣) .
- ٢ - الأسلوب والطريقة التى دون بها الخطاب لا يتفقان بحال مع العادات والتقاليد المرعية فى ديوان الانشاء فى الدولة البيزنطية فى ذلك الحين .
- ٣ - ان طلب بيزنطة المساعدة من أهل الغرب كان أمراً عادياً وقتذاك ،

(١) انظر الخطاب المذكور فى : Guibert de Nogent, R.H.C. - H. Occ., IV, 131-2. انظر الترجمة العربية للخطاب فى الملحق الأول بآخر الكتاب نقلا عن طبعة هاجينماير .

(٢) راجع عن المناقشة فى هذا الموضوع : Grousset, Crois., I, p. 2 & n. 2

(٣) Atiya, Crusade, Commerce and Culture, 48; Riant, A.O. L. I, 74.

ولا يعنى الدعوة إلى حرب صليبية بمعناها المعروف ، إذ سبق لها استخدام الغربيين في جيوشها كمرتزة لدفع التركان عن حدودها (١) .

٤ — لم يشر المؤرخون المعاصرون لبداية الحركة الصليبية إلى طلب الكسيس المساعدة من أهل الغرب للقيام بحرب مقدسة في الشرق العربي . وتؤكد الكتابة الأغريقية أن كومنين أن والدها الامبراطور لم يكن يعرف شيئاً عن هذه الحركة ، وأنه فوجئ بوصول الجيوش اللاتينية الجرارة إلى أراضى دولته (٢) .

٥ — لا نجد هذه الأسطورة إلا في كتب بعض المؤرخين اللاتين المتأخرين نسبياً أو الذين لم يشاهدوا أحداثها مثل روبرت الراهب ، وجيبرت ده نوجان (٣) ويعتقد الكونت ريان أن واضع الخطاب هو روبرت الراهب نفسه (٤) .

٦ — لم يكتب الخطاب المذكور سنة ١٠٨٨ م ، وإنما وضع في الغرب فيما بين سنتي ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ م بقصد إثارة الشعور هناك ضد العرب في المشرق . ويرجع أنه وضع أثناء حصار كربوغا حاكم الموصل لمدينة أنطاكية في الحملة الأولى (٥) .

والخلاصة أن الخطاب المذكور أسطورة أو وثيقة مزورة لا تقوم على أساس على سليم ، وليس فيها أى احتمال للصحة .

Heer, Med. World, 96; Chalandon, Alexis Comnène, (١) 156-7.

Alexiad, 249, 250, 263. (٢)

Robert le Moine, R. H. C. - H. Occ., III, 727; Guibert (٣) de Nogent, R. H. C. - H. Occ., IV, 131-2.

(٤) انظر العاشية رقم ٣ بالصفحة رقم ٥٣ .

(٥) Diehl, L'Europe Orientale, 16. وأشار إلى ذلك أيضاً شالندون في

مكتابه عن حكم الكسيس كومنين .

ثالثاً — أساطير قامت حول بعض زعماء الحملة الأولى :

وهناك فئة من المؤرخين تنسب قيام الحركة الصليبية إلى بعض زعماء الحملة الأولى . فمن قائل أن بطرس الناسك هو المستول الأول عنها . وحجة هذا الفريق أن بطرس هو الذى حث البابا اربان الثانى على القيام بتلك الحركة . وقد ثبت أن هذه الأسطورة هى الأخرى بعيدة عن الحقيقة التاريخية (١) . ويبدو أن النجاح الذى أصابه اللاتين فى الحملة الأولى ، جعل بعض المؤرخين المتأخرين نسبياً ينسبون أمر قيامها إلى عدد من زعماء تلك الحملة مثل ريمون دى سان جيل كونت تولوز ، وجود فرى دوق اللورين السفلى الذى جعلوا منه بطل الحرب الصليبية وحركها (٢) .

وإن مثل هذه الروايات والأساطير السالف الإشارة إليها ليس فيها أى أساس من الصحة ويجب تقبلها بحذر؛ كما يبدو فيها طابع الخيال الشعرى واضحا . وقد ذاعت فى الغرب طوال عصر الحروب الصليبية بقصد التسلية وإثارة الشعور والهمم فحسب . وكان الشعراء يكسبون قصصهم باللون الصليبي فى عصر كان يقوم على دعائيتين هامتين هما الحرب والدين (٣) .

(١) ظهر الدور المنسوب إلى بطرس فى بداية القرن الثانى عشر ، وخاصة عند البرت دكس وغيره من مؤرخى الحروب الصليبية مثل وليم الصورى فى أواخر ذلك القرن . أنظر : Albert d'Aix, R.H.C. - H. Occ., IV, 272 - 4; Guillaume de Tyr, R.H.C. - H. Occ., I, le., 32. وكانت آن كومنين هى الكاتبة الوحيدة المعاصرة للحملة الأولى التى نسبت أمر قيامها إلى بطرس الناسك . أنظر ، 9—248, Alexiad, ولها عذرهما فى ذلك ؛ إذ لم تضع كتابها إلا بعد انتهاء الحملة الأولى بحوالى نصف قرن .

(٢) Michel le Syrien, R.H.C.-Doc. Arm., I, 327; Guillaume de Tyr, 71.

(٣) أنظر : Arnold, Legacy of Islam, 65—9.

رابعاً — البابا اربان الثاني والحركة الصليبية :

يتضح مما سلف أن النظرية السابقة لا تقوم على أساس على سليم . والثابت تاريخياً أن المستول الأول عن قيام الحركة الصليبية هو البابا اربان الثاني ، يؤيده في دعواه الجهاز الكنسي في الغرب . وينسب إليه جميع المؤرخين اللاتين المعاصرين له الدور الرئيسي في تحقيق هذه الفكرة ، وعلى رأسهم فوشيه ده شارتر ، وتيدبوده ، وراؤول ده كان . (١) فقد كان على علم بالأوضاع السائدة في كل من العالم العربي ودولة الروم وقتذاك ، في وقت كانت فيه أوروبا في وضع يسمح لها القيام بهذه الحملات . يضاف إلى ذلك أن تربية أربان وتنشئته الكلونية ساهمتا إلى حد كبير في التعجيل بتنفيذ الفكرة الصليبية . فبذل جهدا واضحا في سبيل الدعوة لها في الأشهر السابقة لعقد مؤتمر كليرمون ، وتوج عمله بإعلان مولدها في الخطبة التي ألقاها في المؤتمر المذكور . (٢) ثم واصل التبشير بها والاستعداد والدعاية لها في الأشهر القليلة التي أعقبت انتهاء المؤتمر حتى قيام الجيوش الصليبية من أوطانها متجهة نحو الشرق .

(١) راجع من ذلك : Foucher de Chartres, R.H.C.-H. Occ., III, 321; Tudebode, R. H. C. - H. Occ., III, 121; Raoul de Caen, R. H. C. - H. Occ., III, 606.

(٢) أظن أن المصدر التالية : Foucher de Chartres, 323-4; Robert le Moine, 727-30; Baudri de Bourgueil, 12-15; Guibert de Nogent, 137-40.

راجع أيضا الترجمة الانجليزية لنص فوشيه وترجمة بعض المقطعات من نص روبرت الراهب في : Downs, Basic Documents, 73-6. أظن تحليل الدكتور عزيز سورريال للخطاب المذكور في كتابه : Crusade, Commerce and Culture, 20-2. أظن أيضا الملحق الثاني بآخر الكتاب وهو عبارة عن نص مأخوذ من كتاب فوشيه عن الظروف التي دعا فيها البابا إلى المؤتمر المذكور .

نخلص بما سبق أن الحركة الصليبية هي حركة غربية بحته تعهدتها الكنيسة الرومانية برعايتها وعنايتها طيلة مراحلها ، وقام البابا اربان الثاني بدور إيجابي فيها إلى أن خرجت إلى حيز الأشياء المألوسة : (١) وإن جاءت نتائجها البعيدة مخيبة لآمال البابوية وأطماعها (٢) .

وما دنا نتحدث عن أثر الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية وعن دور اربان الثاني ومؤتمر كليرمون ، والبابا فرنس الأول والمدينة التي عقد فيها المؤتمر جلساته تقع في قلب فرنسا - يحسن أن نعرض في إيجاز لدور فرنسا في هذه الحركة . لقد كانت هذه الحروب منذ قيامها حتى نهايتها ، والتي اكتوى العرب بنارها في المشرق والمغرب العربيين ، تحت إشراف معظمه فرنسي . بل إن بعضها كانت تنسم بالطابع الفرنسي الخالص . وهذا ما دفع فريقا من المؤرخين المحدثين إلى اعتبار فرنسا بحق مهد الحروب الصليبية والدولة الصليبية الكبرى في أوروبا (٣) ، وإنها قامت من تلك الحروب مقام الروح من الجسد بالقياس إلى غيرها من دول الغرب الأوروبي (٤) .

والشواهد على ذلك كثيرة متعددة . فأول من شجع مسيحيي الغرب على القتال ضد العرب في أسبانيا وغيرها من المناطق التي كانت في قبضة العرب في جنوب غربي البحر المتوسط قبل قيام الحركة الصليبية نفسها ، هم جماعة كلوني

(١) Grousset, Sum of Hist., 172-3.

(٢) Coulton, Med. Panorama, 653.

(٣) أنظر باركر : الحروب الصليبية ، ص ٧٤ ؛ وكذلك : Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 6; Daniel — Rops, La Cathédrale et la Crois., 547.

(٤) فشر : أوروبا في العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٧٩ .

الديرية جنوبي فرنسا . ولهذه الجماعة دور هام وأثر كبير في هذا المضمار . وأول نداء أذيع للحركة الصليبية كان من فرنسا ، وأول من لبى النداء هم فرسانها الذين أصبحوا نموذجا لغيرهم من الفرسان الأوروبيين . قالابا الذي نادى بالحركة في كليرمون وهو أربان الثاني كان فرنسيا ، والمدينة التي شهدت مولد الحركة تقع في وسط فرنسا (١) . كما أن بطرس الناسك أحد زعماء الحملة الشعبية كان راهبا فرنسيا ؛ وكذلك كان معظم زعماء الحملة الأولى من أصل فرنسي ، وعلى رأسهم روبرت النورماندي وروبرت الفيلسكي واثين ده بلوا وهيوج ده فيرماندوا شقيق فيليب الأول ملك فرنسا (٢) . وحتى قادة الفرق الألمانية والإيطالية الذين اشتركوا في الحملة الأولى كانوا يتكلمون الفرنسية ، ونعني جودفري دوق اللورين السفلى وشقيقه بلدوين ، وبوهيمند النورماندي وابن أخته تنكريد . وكانت المملكة التي أقامها الفرنج في الأراضي المقدسة فرنسية المظهر والطابع . ثم أن القديس برنارد الذي بشر بالحملة الثانية كان فرنسيا ، كما كان أحد قواد هذه الحملة هو لويس السابع ملك فرنسا . بينما اشترك فيليب أغسطس جد لويس التاسع مع عدد كبير من المقاتلين الفرنسيين في الحملة الثالثة التي ساعد في الدعاية لها الأسقف

(١) تعرف هذه المدينة حالياً باسم كليرمون فران Clermont Ferrand ، وهي تقع في وسط فرنسا وتنقسم إلى قسمين أحدهما جبل مرتفع والثاني سهل منبسط .

(٢) يعزى الأسقف الألماني اكهارت دورا سبب اشتراك الفرنسيين في الحملة الأولى إلى العامل الاقتصادي وحده . ويدل على ذلك بأن البلاد أصبحت نهبا للعروب الأهلية ، كما انتشرت فيها الأوبئة والمجاعات ، مما دفع جموع الشعب إلى البحث عن مخرج من هذه الأزمة . ولذلك لم يجد المسؤولون صعوبة في اقتناعهم بترك أراضيهم والانخراط في سلك الحرب المقدسة . أنظر : Coulton, Med. Village, 323. - وإن اسناد قيام الحملة الأولى إلى هذا العامل دون غيره فيه بعد عن الحقيقة التاريخية ، ويجب تناوله بحذر شديد ؛ لاسيما وأن أحداث الحركة من بدايتها إلى نهايتها ، والآثار المترتبة عليها حتى وقتنا هذا ، تؤكد اتجاهاتها التوسعية الإستعمارية في العالم العربي .

وليم الصوري . والحملة الرابعة دعا إليها البابا انوسنت الثالث الفرنسي بقصد امتلاك مصر والبيت المقدس ، ولو أنها المحرقت عن هدفها . وتتميز الحملات الثلاث التي قام بها لويس التاسع ملك فرنسا على مصر والشام وشمال إفريقيا بالطابع الفرنسي البحت^(١)، ثم إن معظم المؤرخين اللاتين الذين عاصروا الحركة الصليبية وأرخوها لها ، كانوا هم أيضا من أصل فرنسي .

وإذا انتقلنا إلى الحروب الصليبية المتأخرة التي قامت في القرن الرابع عشر ، نجد أن فرنسا أسهمت فيها أيضا بنصيب الأسد . فمنها خرج كثير من الدعاة والمبشرين الذين أخذوا ينادون ببعث الفكرة الصليبية من مرقدتها ، تلك الفكرة التي كانت قد شهدت احتضارها على الساحل الشامى في أخريات القرن الثالث عشر . ومن هؤلاء الدعاة بطرس دييوا Pierre Dubois ، ورامون لال Ramon Lull ، وبيركارد Burcard في عصر فيليب الجميل ملك فرنسا الذي أخذ يشجع على القيام بحملة صليبية جديدة بقصد غزو الأراضي المقدسة . وغيرهم من الدعاة أمثال بطرس ده توما Pierre de Thomas ، وفيليب ده مزير Philippe de Mézières . وكان من أثر ذلك قيام بعض الحملات الفاشلة التي اتسمت بالطابع الفرنسي ، نذكر منها حملة بطرس الأول لوسنيان على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ م ، وحملة لويس الثاني دوق بوربون على المهديّة بعد ذلك التاريخ بربع قرن^(٢) . وحتى

(١) أنظر : جوزيف نسيم : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٣٥٣ - ٣٥٦ ؛ Paris, Med. French Lit., 37; Grousset, Sum of Hist., 172; Daniel-Rops, 547.

(٢) أثبت هذه النظرية الدكتور عزيز سوريال عطيه في مؤلفاته بالانجليزية : حملة فيقوبوليس الصليبية (طبعة لندن ١٩٣٤) ، والحروب الصليبية في أخريات العصور الوسطى (طبعة لندن ١٩٣٨) ، والحروب الصليبية والتجارة والثقافة (طبعة بلومنجتون ١٩٦٢) . أنظر أيضا .

McKisack, Fourteenth Century, 123-5; Waugh, op. cit., 27,431.

أدب الأساطير المتعلق بالحروب الصليبية كان في غالبه فرنسي الطابع (١) .
والخلاصة أن الفرنسيين هم الذين كانت لهم اليد الطولى في الدعوة لهذه
الحركة (٢) ، وهم الذين أقاموا مملكة بيت المقدس اللاتينية في قلب الشرق العربي ،
وكانت حضارتهم هي الغالبة فيها . وهم الذين حاولوا عبثاً الاستيلاء على الديار
المصرية قاب العروبة النابض . وكرروا نفس المحاولة دون جدوى في شمال
افريقية . ونستطيع اليوم أن نقول دون مغالاة أن الانتداب الفرنسي الذي
تعرضت له كل من سورية ولبنان في العصر الحديث ، والتدخل الفرنسي في شئون
دول شمال افريقية ، يعد أثراً سيئاً من آثار الحروب الصليبية . (٣) وهذا أيضاً
ما يمكن أن يقال بالنسبة للحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ م ، واشتراك
فرنسا في العدوان الثلاثي على البلاد سنة ١٩٥٦ م .

وهكذا اشتهرت فرنسا التي أسهمت بنصيب وافر في تلك الحروب الدامية
بعدها التقليدي المزمع للعروبة والإسلام ، تساندها في ذلك بقية دول الغرب
اللاتيني التي شاركت في الحروب المذكورة بالقدر الذي كانت تسمح به ظروفها
الداخلية وقتذاك . (٤) وغير خاف أنه لو كانت قد أتاحت لها نفس الظروف
التي أتاحت لفرنسا ، لأصبحت كلها دولاً صليبية كبرى .

(١) Coulton, Med. Panorama, 574. أنظر أيضاً مقال « الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية » ، ص ١٨٥-١٨٨ والعواشي و ١٩٥ - ١٩٨ والعواشي .

(٢) Coulton, op. cit., 507.

(٣) أنظر : أرنولد : تراث الاسلام (الترجمة العربية) ، ج ١ ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٤) يذكر المؤرخ الانجليزي جورج تريفيليان أن اشتراك الفرسان الانجليز في الحروب الصليبية يعتبر بمثابة حالات فردية ؛ وأن الحركة الصليبية في إنجلترا لم تصبح إطلاقاً معروفاً وطنياً أو تقليداً مرعياً ، مثلما كان الحال في فرنسا . ويحل ذلك بقوله إن فرنسا كانت لها

نستبين مما سبق إلى أى اتجاه كانت تسير الحركة عندما أعلن البابا اربان الثانى مولدهما فى كايرمون فى أخريات عام ١٠٩٥ م ، وعندما صاح المحتشدون لسماعه صيحتهم المشهورة « هذه هى إرادة الله » (Deus lo vult) ، وعندما حمل الجميع شارة الصليب شعارا لهم . ومن هنا عرفت الحركة فى التاريخ باسم الحروب الصليبية .

فهى اذن حروب دينية ، أو على الأقل كما يبدو من تسميتها وشعارها . وعلى هذا الأساس نظر اليها المؤرخون الغربيون ، القدامى والمحدثون ، فمن الكتاب المعاصرين للحركة نذكر فوشيه ده شارتر ، وريون داجيل ، والمؤرخ المجهول ، والبرت دكس ، وروبرت الراهب ، وراؤول ده كان ، وجيبرت ده نوجان ، وتيدبوده ، وبودرى ده بورجى ، ووليم الصورى ، وامبرواز ، وفيل هاردوان (١) ، وجوانفيل ، وغيرهم . ومن المحدثين نذكر رهرشت ، وباركر ،

= موانى على البحر الأبيض المتوسط بعكس إنجلترا . أنظر : Trevelyan, Shortened Hist. of England, 141. — ولا يمكن بحال أن تنقل الشعور الصليبي فى الجزيرة البريطانية التى ألقت بزهرة فرسانها وشبابها فى أتون تلك الحملات التوسعية ، وكان ملوكها على رأس أكثر من حملة منها . وحتى تلك الحملات التى انسمت بالطابع الفرنسى الحالى فقد اشتركت فيها قوات رمنية من إنجلترا . والواقع أنه لولا ظروف إنجلترا ومشاكلها فى الداخل والخارج وقتذاك ، لساهمت فى الحركة الصليبية بنفس القدر الذى ساهمت به فرنسا ، ولتهيات لها الأسباب التى تجعل منها دولة صليبية كبرى مثل فرنسا . وهذا ما يمكن أن يقال أيضا بالنسبة لبقية دول الغرب الأوروبى .

(١) هو جوفروا دى فيلهاردوان Geoffroi de Villehardouin مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة . وفيما يتعلق بسيرته ومذكراته المعروفة باسم « تاريخ سقوط القسطنطينية فى يد الفرنسيين والبنادقة » أنظر : محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية ، ص ١٠٧ - ١١٥ . أنظر الترجمة الإنجليزية لتاريخ فيلهاردوان فى :

Villehardouin, The Conquest of Constantinople, ed. Chronicles of the Crusades, trans. with an Introduction by M.R.B. Shaw, London, 1963, pp. 7-160 [Penguin Classics].

وستيفنسون ، ولويس برييه ، وشالندون ، وشاول ديل ، وشلومبرجيه ،
ورينيه جروسيه ، ودانيال روبس ، وستيفن رانسيان . بل إن أحدهم وهو
الكونت ريان وصف الحروب الصليبية بأنها حروب دينية خالصة ، ودوافعها
واتجاهاتها دينية بحتة ، وهدفها الأول والآخر هو استرداد الأماكن المقدسة
سواء أكان ذلك عن طريق مباشر أم غير مباشر^(١). فهي فكرة تناقلها اللاحقون
عن السابقين دون أن يتناولوها بما هي جدية به من بحث وتمحيص وتحليل هلى
سليم ، ودون أن يضعوا الأمور في نصابها ويسموا الحقائق بمسمياتها . أولعلم
تعمدوا إضفاء الصبغة الدينية البحتة عليها بقصد التويه وإبعاد الشبهات عن
الأهداف الحقيقية للعدوان الصليبي .

وهكذا اعتبر العامل الديني هو الدافع الأساسي لهذه الحروب . وكيف لا وقد
قامت في نظر أوائل الكتاب اللاتين لهدف أسمي ألا وهو تخليص قبر المسيح
وانقاذ الأراضي المقدسة من قبضة العرب ، فهي المكان الذي ولد فيه السيد المسيح
وقدسه بزيارته وبشرفه برسالاته . وليس أدل على ذلك مما قاله مؤرخ صليبي عاصر
أحداثها هو روبرت الراهب ، من أنها كانت من عمل الله وليست من عمل
الإنسان^(٢). وليس هذا بمستغرب في عالم كان يركز على هذه الناحية التي اعتبرت
الأساس الأول للحياة والتفكير في المجتمع الغربي الوسيط .

وإن اصطباح هذه الحركة بصبغة الدين لا يعني إطلاقاً أنه كان العامل الحقيقي

(١) Riant, Inventaire des lettres des Crois., A.O.L., I, 2.

(٢) « ... Hoc enim non fuit humanum opus, sed divinum. »

Cf. Robert le Moine, R.H.C. - H. Occ., III, 723.

راجع أيضاً عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس ، ص ٦ .

الذى أدى إلى قيامها . لاشك أن للدين أهميته وأثره في كثير من الحروب التي شهدتها العالم قديما وحديثا . فكان يستغل منذ أقدم العصور لإثارة الشعوب وحثها على قتال خصومها وأعدائها في سبيله ، لما له من أثر في النفوس . ولكن الباحث المدقق يدرك على الفور أنه ليس إلا وسيلة للتحرير وعاملا لتحقيق أهداف أخرى ، سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية أو عسكرية (١) . ويجد المتصدى لتاريخ الحركة الصليبية أن الدين قد استغل في الغرب وقتذاك استغلالا واضحا للدعاية للحركة والعمل على انجاحها تحقيقا لأغراض أخرى لا تمت للدين بأى صلة (٢) .

وهناك أدلة ملموسة تكشف عن استغلال المستوليين وأصحاب الأطماع في أوروبا لعامل الدين ، نذكر منها على سبيل التمثيل استغلال أغنية رولان وقصيدة حج شارلمان في اشعال الحماس الديني لدى اللاتين عند بداية الحركة . وكذلك الخطاب المنسوب الى الكسيس كومنين الذي يحث فيه البابوية وأهل الغرب على إرسال النجيدات لتخليص الاراضي المقدسة وقبر السيد المسيح . والخطاب مليء بالمفريات والمؤثرات الدينية التي تكشف عن السبب الحقيقي من وضعه (٣) . هذا

(١) أنظر من ذلك : عمر كمال : مملكة بيت المقدس ، ص ٦ - ٩ .

(٢) عنان : مصر الاسلامية ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) *...Nam pueros et Juvenes Christianorum circumcidunt super baptisteria Christianorum et circumcisionis sanguinem in despectum Christi fundunt ineisdem baptisteriis . . Nam melius est, ut vos habeatis Constantinopolim quam pagani, quia in ea habentur prtiosissimae reliquiae Domini . . . Agite ergo, dum tempus habetis, ne Christianorum regnum et ,quod majus est, Domini perdatis Sepulcrum....* Cf. Hagenmeyer, *Epistolae et chartae*, 129 sqq.

أنظر الترجمة العربية لهذه الفقرات في الملحق الأول بآخر الكتاب .

فضلا عن أسطورة بطرس الناسك وغيره من الوعاظ والمبشرين الذين ظهروا في شتى مراحل الحركة ، وخطبة البابا اربان الثاني النارية في كليرمون التي تقطر بالحمق والكراهية ضد العروبة والعرب . وغير هذه وتلك من الاساطير التي يبدو فيها الطابع الديني واضحا .

كذلك ظهرت الرؤيات والتنبؤات كعنصر هام في الادب الشعبي وقتذاك . وهدفها هي الأخرى اشعال الحماس الديني في الغرب ، وتقوية الروح المنهارة بين اللاتين ، وحثهم على القتال . ومن هذه الاساطير ما تروى أن صاحبها شاهد رسولا من الرسل أو قديسا من القديسين . ومن الأشخاص من يدعى أن المسيح تراءى له في المنام وكلفه بالدعوة بين أهل الغرب للذهاب إلى الاراضى المقدسة وتحرير قبره . ومنابع الحركة الصليبية عامرة بالأمثلة الدالة على ذلك . ونعرض هنا لأم هذه الرؤيات والآثار المترتبة عليها .

لقد انتشرت في الغرب في أواخر القرن العاشر أسطورة تقول إن العالم سينتهى بنهاية الألف الأولى . ويروى الكتاب أن هذه الاسطورة كان لها أثرها في ظهور موجة من التقشف والزهد والبعد عن ملذات الحياة الدنيا والتقرب إلى الله والعمل على مرضاته . ولما كان أقدم مكان يمكن أن يتبرك به مسيحي قبل أن يلتقى بربه هو كنيسة القيامة في القدس والمكان الذي ولد فيه المسيح ، فكان لهذا أثره في توجيه الأوروبيين في زحف عام نحو الاراضى المقدسة . وهناك من يقول إنه تراءى لسكثير من الغربيين خلال الحملة الصليبية الأولى قتال عنيف بين اللاتين والعرب انتصر فيه الأولون . فاعتبر هذا دليل على أن النصر سيكون حليف القوات الصليبية التي كانت قد بدأت احتكاكها بالعرب في الشرق . وكان هذا مدعاة لمواصلة العدوان . كما ذكر بعض المؤرخين اللاتين المعاصرين لبداية

الحركة الصليبية أن بطرس الناسك رأى فيما يرى النائم المسيح الذي طلب منه مقابلة البابا أربان وحثه على الدعوة للحرب الصليبية ، وأن بطرس قام بتنفيذ هذه الرؤيا (١) . وهكذا جعلت منه الأسطورة المحرك الرئيسي للحرب الصليبية الأولى . وهناك رواية أخرى تقول إن أحد الفرنج الذين اشتركوا في الحملة الأولى واسمه بطرس برثولماوس ، ظهر له أحد القديسين في المنام ، ودله على مكان الحرب المقدسة التي طعن بها المسيح في جنبه ، وكان ذلك أثناء حصار كربوغا حاكم الموصل للقوات الصليبية الموجودة داخل مدينة انطاكية (٢) . وتقول المصادر اللاتينية إن اكتشاف الحرب كان له أثره في إلهاب حماس الصليبيين المحاصرين داخل المدينة ، فتحولت هزيمتهم إلى نصر . ومن الروايات التي يجدر الإشارة إليها تلك التي ادعى الملك الفرنسي لويس التاسع أنها ظهرت له ، والتي كان من أثرها

Historia Belli Sacri, R.H.C.-H. Occ., III, 169; Guillaume (١) de Tyr, R.H.C.-H. Occ., I, lep., 34—5.

وفيما يلي نص ما جاء في كتاب تاريخ العرب المقدسة عن رؤيا بطرس الناسك :

«... Qui etiam in visu Jesum Christum Dominum vidit, talia dicentem sibi : « Petre, surge citiusque revertere, Urbanum papam aditurus, cui ex mei parte dicatur, quatinus fratres meos cunctos commovens, eis praecipiat ut huc quantocius properantes, et Jerusalem, immo meum Sepulcrum, a profanae gentis huius invasione atque spurcitia aliaque sacra loca per circuitum, me quoque adiuvante, liberare festineut. Nam et regni coelestis janua mei amore venturis ad istud peragendum nunc omnibus patet. »

والمزيد من التفاصيل عن دور بطرس الناسك ، انظر مقال « الدافع العنصرى في قيام الحركة الصليبية » ، ص ١٩٥ - ١٩٧ ؛ انظر أيضا ما جاء بالملحق الثالث بآخر الكتاب عن دور بطرس الناسك حسبما ورد في كتاب الأكسياد .

Matthieu d'Édesse, R. H. C. - Doc. Arm., I, 41 - 2; cf. (٢) also Downs, Basic Doc., 107 - 110.

قيامه بمحملاته العدوانية الثلاث ضد بلدان الشرق العربي والشمال الافريقي . إذ تذكر الرواية أنه ظهر له فيما يظهر للنائم لاتيني وعربي يتقاتلان ، وأن العربي انتصر على الأوروبي ، وقد فسر هذه الرؤيا بأن أفرنج الشرق في حاجة إلى العون والمساعدة ، وأن المولى أناط اليه القيام بهذه المهمة (١) .

وهناك رواية أخرى تنسب إلى هذا الملك ، جاء فيها أنه وقع في أواخر سنة ١٢٤٤ فريسة مرض عضال خيف عليه منه ، وأرجف رعاياه بموته حين انقطعت أخباره عنهم ، وأخذوا يبتهملون إلى الله في الكنائس والأماكن العامة من أجله . وذكر مؤرخه جوفانفيل أن هذا المرض الخطير الذي أصيب به لويس قد أدناه من الموت ، حتى أن إحدى السيدات اللاتي كن يعنين به وهو على فراش المرض أرادت أن تلقى الغطاء على وجهه ظنا منها أنه أسلم روحه إلى بارئها . غير أن هناك سيدة أخرى كانت واقفة إلى الجانب الآخر من فراشه ، أبت عليها ذلك قائلة إنه ما زال فيه عرق ينبض . وتستمر الرواية فتقول إنه بينما كان لويس ينصت إلى المحاورة الدائرة بين هاتين السيدتين ، إذ سرعان ما أسبغ عليه الله ثياب الصحة والعافية ، وثاب إلى رشده ، لأنه كان قبل ذلك مباشرة لا يستطيع نطقا من وطأة المرض الذي حل به . فلما أسعفه الكلام طلب من حوله أن يحضروا له الصليب . وتعهد منذ ذلك الحين بحمل الصليب والذهاب للاستيلاء على الأراضي المقدسة ، إيمانا منه بأن الله قد من عليه بالشفاء ليقوم بهذه المهمة التي كرس حياته من أجلها (٢) .

(١) Campbell, Crusades, 424; King, knights Hospitallers, 238.

وترجع الكاتبة برأي أن هذه الرؤيا كانت نتيجة للذيان الذي أصيب به الملك الفرنسي في فترة مرضه قبل قيامه بمحملاته ضد العرب . أنظر : Bray, St. Louis, 54. راجع من هذا أيضا كتاب العرق العربي بين شقي الرحى للدكتور حبشي ، ص ٢١-٢٢ . (٢) Joinville, op. cit. (ed. Wailly), 60-2; Matt. Paris, op. cit., II, 37-8.

وجدير بالذكر أن هاتين الأسطورتين ظهرتتا في تلك الفترة بالذات لحث الغربيين على الانخراط في سلك حملة صليبية جديدة ضد العالم العربي ، في وقت كانت فيه دولة الغزاة في الشرق في طور الاحتضار ، وفي أمس الحاجة إلى مساعدة أهل الغرب .

وهكذا كلما خبا الحماس للحركة الصليبية في الغرب ، أو كلما فُكر أهل الغرب في القيام بعدوان جديد ، أو كلما شعر اللاتين في الشرق بقرب نهايتهم ، خرجوا علينا بمثل هذه الرؤيات والتنبؤات التي تحمل الطابع الأسطوري . وهي وإن كانت لا تستحق الاعتبار ، إلا أنها لقيت الكثير من الشيوع والرواج بين كافة الطبقات في المجتمع الغربي الوسيط ، لاسباب الجماهير الشعبية التي كانت تعيش في جهالة مطبقة وتقبل أوامر الكنيسة ونواهيها بالسمع والطاعة .

وفوق هذا وذاك فقد كانت الحملات الصليبية كلها تحت اشراف الكنيسة الرومانية والبابوية نفسها (١) . فقد بشر بالحملة الأولى اربان الثاني وكان من دعايتها بطرس الناسك ، وبشر بالحملة الثانية البابا ايوجين الثالث وساعده في العناية لها القديس برنارد دى كليرفو ، كما بشر بالحملة الثالثة البابا كلنت الثالث وقام بالعناية لها ولیم الصوري . وبشر بالحملة الرابعة انوسنت الثالث ، بينما بشر انوسنت الرابع بحملات لويس التاسع . كما بشر بابوات افنيون في المنفى بالحروب الصليبية المتأخرة . وتكشف المراسم البابوية ، والامتيازات الروحية والمادية التي قدمتها الكنيسة للمشاركين في هذه الحملات ، عن حقيقة اتجاهااتها ودوافعها .

(١) Baldwin, Med. Church, 103-4; Arnold, Legacy of Islam, 69.

وخلاصة القول ان الكنيسة الكاثوليكية في الغرب كان لها دور فعال في توجيه الحركة الصليبية وفي السيطرة عليها باسم الدين . فهي التي دعت اليها ، وهي التي أمدتها بتأييدها الأدبي والمعنوي ، وهي التي شجعت المحاربين من كافة الأجناس والفئات على الاشتراك فيها مقدمة كافة التسهيلات اللازمة لكل من يحمل الصليب ، وهي التي سمحت للجاعات الرهبانية العسكرية القيام بالدور الموكل اليها في الأراضي المقدسة ، وأخيراً كان يمثلها في كل حملة صليبية مندوب بابوي يعين من قبلها .

ولنا أن نتساءل عن السر في هذا الموقف ، ولماذا كان وقفا على الجهاز الكنسي البابوي دون غيره ؟ تكمن الإجابة عن هذا السؤال في الظروف التي كانت سائدة في الغرب الأوروبي وقتذاك . ونعني الظروف التي احاطت بنشأة الكنيسة في الغرب عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط والتي جعلت منها قوة دينية ودنيوية هائلة ، بحيث أمكنها أن تسيطر على مقدرات الأفراد وعلى حياتهم الخاصة والعامة ، لها الأمر والنهي ، وعليهم السمع والطاعة . والويل كل الويل لمن يخالف تعاليمها أو يحاول الخروج عليها . ثم هذا في وقت لم تكن فيه القوميات قد ظهرت بعد في الغرب ؛ بل كان العالم الغربي - حسبنا أسلفنا - عبارة عن وحدة واحدة في مجموعه ، له كنيسة واحدة هي كنيسة روما اللاتينية الكاثوليكية ، وله بابا واحد هو بابا روما على رأس هذه الكنيسة ، وله عاصمة روحية واحدة هي روما ، وله لغة رسمية واحدة هي اللغة اللاتينية ، وتسوده حضارة واحدة هي الحضارة اللاتينية . كما مر الغرب كله بنفس العوامل والتطورات والظروف التاريخية ، وتركت فيه غزوات البرابرة نفس التأثير ، وكان ينتشر فيه النظام الاقطاعي . ومن هنا لم يكن هناك جهاز آخر في الغرب يملك من السلطات والوسائل والإمكانات ما يمكنه من الدعوة إلى تلك الحروب الموجهة ضد العالم العربي سوى الجهاز الكنسي البابوي .

ويجب ألا ننسى أيضا أن روما - مقر البابوية - هي التي منحت الجماعات الرهبانية العسكرية كالداوية والاسبتارية والتوتونية ، العديد من الامتيازات والإعفاءات للقيام بالدور الموكل إليها في الأراضي المقدسة . وكان هدف الجماعة الأولى في بادئ الأمر حماية الحجاج الأوروبيين ، بينما كان الغرض من تأسيس الجماعتين الثانية والثالثة إغاثة الجرحى والمرضى من الفرنج في ساحة القتال . ولكن هذه الجماعات لم تلبث أن تحولت إلى جماعات عسكرية . وتعلم أعضاؤها صناعة الحرب ، وقاتلوا في صفوف الفرنج ضد العرب ، وساهموا فيما بعد بدور كبير في الدفاع عن إمارات الصليبيين وفي حماية قلاع الحدود . وكانوا يجدون العطف والتشجيع والتأييد من البابوية . وهكذا أصبحوا رجال دنيا ودين في نفس الوقت . ومايزكر أيضا أن البابوات كانوا يرسلون مندوبين من قبلهم بصفة دائمة إلى الشرق ، وقد اشترك ممثلهم في الحملات الصليبية نيابة عنهم وتوكيدا لإشرافهم عليها . كما أخذوا يحيلون مساجد الشرق إلى كنائس لاتينية على المذهب الكاثوليكي (١) . وبالاختصار بذلوا قصارى جهدهم لصبغ الشرق العربي بصبغة كاثوليكية بحتة . ولهذا السياسة دلالتها ومغزاها ، بحيث لا يمكن فصلها عن الفكرة الصليبية نفسها .

وهناك من المؤرخين الغربيين من يعترف بأن الكنيسة اللاتينية كانت تطمع في نشر الكاثوليكية في جميع أنحاء العالم المعروف وقتذاك ، ولو أدى ذلك إلى النضال المسلح (٢) . وقد قام المبشرون والدعاة البابويون والجماعات الرهبانية

(١) Baldwin, op. cit., 104. ، راجع أيضا الفصل السابع من هذا الكتاب .

(٢) أنظر باركر: الحروب الصليبية ، ص ٩ . هذا مع ملاحظة أن التبشير المنظم بالمسيحية على المذهب الكاثوليكي لم يظهر إلا منذ أواسط القرن الثالث عشر .

التبشيرية مثل الدومنيكان والفرنسيسكان بدور كبير في سبيل تحويل كل من المسلمين والمسيحيين الشرقيين إلى المسيحية على مذهب روما الكاثوليكي . ولم يكن ذلك في واقع الأمر إلا استمرارا للفكرة الصليبية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر (١) . وقد امتدت سياسة البابوية في هذا الاتجاه نحو الشرق الأقصى ، عندما حاولت اجتذاب المغول إلى الكاثوليكية ، واستخدامهم في صراعها الصليبي ضد العرب (٢) .

كل هذه تعتبر في الواقع وسائل للدعاية والتحريض والإثارة باسم الدين في وقت كان فيه للدين مكانة كبيرة في المجتمع الغربي الوسيط ، وفي وقت امتازت فيه أوروبا بالتعصب الأعمى في هذه الناحية .

لقد بالغ كثير من المؤرخين في تقدير أهمية العامل الديني وأثره المباشر في قيام الحروب الصليبية . ولكن الباحث المدقق يدرك أن هذه الشواهد التي أسلفنا الإشارة إليها لم تكن إلا حركات مسرحية القصد منها إثارة الغرب الأوروبي ضد العالم العربي في المشرق والمغرب ، وأنها وضعت لبث الحاس بين الصليبيين في الغرب ضد العرب كلما جد جديد وكلما دعت الضرورة إلى ذلك . ويمكن أن المؤرخ رينيه جروسيه المعروف بتمصبه لقوميته الفرنسية ، اعترف في كتابه « حصيلة التاريخ » ، بأن الحركة الصليبية لم تقم نتيجة لدوافع دينية (٣) . لقد دعت البابوية إلى الحروب الصليبية باسم الدين ، وقامت هذه الحروب

(١) أنظر : Baldwin, op. cit., 109—112.

(٢) راجع عن ذلك كتابي : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٢٣٥ - ٢٧٣ .

وكذلك : Heer, Med. World, 118 sqq.

(٣) Grousset, Sum of Hist., 191.

تحت إشرافها وبتوجيه منها ؛ فأثبتت بذلك دهاءها ودات على بعد نظرها وسعة
حيلتها حتى أنه لا يمكن بحال تجاهل دورها في هذا الصدد (١) .

لقد وجدت في الحركة الصليبية فرصة ذهبية لبسط نفوذها على الغرب
الأوروبي كله ، بالتخلص من مضايقات امراء الانقطاع لها ، وارسالهم في هذه
الحروب التي وجدواهم فيها أيضا مجالا طيبا لتوسيع انطاقياتهم والاستيلاء
على أراض جديدة يظهرون فيها مواهبهم الحربية التي تعلوها بعد أن ضاق
الغرب بمطامعهم . هذا فضلا عن حبهم للمخاطرة ورؤية بلاد وأصقاع جديدة (٢) .
كذلك وجدت في هذه الحروب مجالا لتحقيق حلمها القديم في فرض سلطانها الديني
والدنيوي على العالم المسيحي بشقيه الشرقي والغربي ، والعمل على توحيد الكنيستين
اللاتينية والاعريقية على المذهب الكاثوليكي الذي تدين به روما ، وذلك بعد
الشقاق الديني المعروف سنة ١٠٥٤ م الذي كان من نتائجه انفصال هاتين
الكنيستين عن بعضهما انفصالا تاما (٣) . وفوق هذا وذاك أتاحت الحروب
الصليبية للبابوية فرصة لن يجود الزمن بمثلا لسكى تشبع حقدما الدفين ضد
العروبة والإسلام ، في محاولات مستميتة يائسة هدفها النهائي القضاء على العالم
العربي والحضارة العربية . والسكى تحقق البابوية أغراضها وعدت كل من يشترك
في هذه الحملات بالغفران التام عن آثامه وخطايا ، فضلا عن حمايتها لانتطاقيات

(١) Baldwin, Med. Church, 98.

(٢) للمزيد من المعلومات عن استغلال الحروب الصليبية في توجيه الفرائز الحربية للمجتمع
الانتطاقي في الغرب الأوروبي : أنظر باركر : الحروب الصليبية ، ص ٧-٩ ؛ سعيد عاشور :
أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤٠٥ .

(٣) راجع عن ذلك : Baldwin, 100, 101; Daniel—Rops, 543-544; :
Mahmud, Story of Islam; 132; Arnold, Legacy of Islam, 46;
Hitti, Hist. of Syria, 591; Ostrogorsky, op. cit., 320.

المقطعين المشتركين فيها حين عودتهم إلى أوطانهم ، مع موافقتها على تمليك الأتراضى التى يستولون عليها فى الشرق . وغير هذه وتلك من الامتيازات والتسهيلات والمغريات التى كانت تمنحها عادة للمحاربين الصليبيين (١). وكان من مصلحة البابوية تشجيع تلك الحروب التى باتت معينة لا ينضب من المال الذى امتلأت به خزائنها، بما فرضته من ضرائب وعشور دينية بحجة الاتفاق عليها. ولكنها كانت فى الواقع تبذل على أوجه أخرى تحقيقاً لمصالح البابوية وأطماعها العلمانية (٢).

وعلى ذلك يمكن القول بأن الحركة الصليبية كانت منذ بدايتها ركناً أساسياً من أركان سياسة البابوات الخارجية فى العصور الوسطى . فقد اتخذت البابوية من الدين وسيلة لتحقيق مآربها . فعندما دعا أربان الثانى إلى تلك الحروب فى كليرمون ، أعلن المجتمعون موافقتهم بلا تردد ؛ وأخذ الآلاف من الناس من كافة أرجاء أوروبا ومن مختلف الطبقات والفئات ينضمون تحت لوائها .

هكذا اتخذ الأوروبيون الدين أيام الحركة الصليبية قناعاً زائفاً لتحقيق اتجاهاتهم الاستعمارية فى المنطقة العربية منذ تسعة قرون مضت (٣) .

ويبدو هذا الأمر جلياً قبل قيام الحروب الصليبية تقسماً بعشرات السنوات . فقد ثبت بما لا ينع مجالاً للشك أن الحروب الغريبة المقدسة التى قامت بها الممالك

(١) أنظر : Matt. Paris, English Hist., II, 86 - 8; Berger, St. Louis, 134—7; Setton, Hist. of the Crus., I, 248.

(٢) أنظر : Arnold, op. cit., 69 — 70.

(٣) لقد عبر عن ذلك بحق السيد الرئيس فى صدر الباب الثالث من مشروع الميثاق الوطنى عندما أشار سيادته إلى نضال الشعب العربى فى مصر فى صد « أول موجات الاستعمار الأوروبى التى جاءت منسفرة وراء صليب المسيح وهى أبعد ما تكون عن دعوة هذا العلم العظيم » .

المسيحية في شمال أسبانيا ضد العرب في سبيل الاستيلاء على شبه الجزيرة الأيبيرية، تشجعها على ذلك البابوية وجماعة كلوني الديرية، كانت حروباً تستهدف خدمة البابوية والكنيسة الكاثوليكية. كما كانت النزعة السائدة فيها هي نزعة واضحة نحو المطامع المادية، والعمل على الفوز بالسلطان والنفوذ (١).

وأعلنت الحركة الصليبية رسمياً في مؤتمر كليرمون عندما أخذ أربان الثاني يشنع على العرب في خطبته المعروفة، وعندما أشار إشارات صريحة إلى فرص الربح المادي والنجاح في تكوين الإمارات والممالك في منطقة الشرق العربي على حساب أهلها وأصحابها (٢). وفي الحملة الأولى برز بعض الزعماء الإقطاعيين مثل بوهيمند النورماندي الذي ذكر المؤرخون أنه اشترك فيها لا لتخليص القبر المقدس وإنما لتأسيس إمارة له في الشرق. ويكفي أنه ابن روبرت جويسكار صاحب الأطماع المعروفة في الدولة البيزنطية. وإن ما فعلته جيوش الحملة الصليبية الأولى، الشعبية والنظامية، عندما حلت بأراضي بيزنطة، وعندما تقدمت في آسيا الصغرى متجهة صوب الأراضي المقدسة، من نهب وفسق وتخريب، لدليل واضح على عدم تأصل الدافع الديني عندها. وكلما تقدمت الجيوش الصليبية في رقعة الشرق العربي، كلما اتضحت نواياها العدوانية، وقد تمثل ذلك في النزاع الدائم المستمر بين القادة والرجال البازين فيها حول السيطرة على البلدان التي يفتحونها (٣).

(١) ديفز : أوروبا في العصور الوسطى ، ص ١٨٨ .

(٢) لقد امتلأ خطاب البابا المذكور بالتهجم وألفاظ السباب ضد العرب ؛ وفيه تحريض واضح على الذهاب إلى الشرق لقتال العرب واستئصال شأفتهم . وفي سبيل ذلك نراه يقدم لأهل الغرب كافة المغريات المادية والمعنوية . أنظر الترجمة الانجليزية لنص فوشيه ده شاترتر

عن الخطاب المذكور في : 5. — 74 Downs, Basic Doc.,

Ostrogorsky, 323. (٣)

ضاربين بالهدف الذى زعموا أنهم قاموا بحملاتهم من أجله عرض الحائط . وتذكر المصادر التاريخية أنهم استولوا في حملتهم الأولى على عدد كبير من المراكز والقلاع والحصون الأمامية في آسيا الصغرى وشمال الشام ، وذلك قبل غزو البيت المقدس نفسه ، مما يدل على أنه سيطرت عليهم رغبة كامنة في التوسع وامتلاك اقطاعات أكثر فأكثر قبل توجههم إلى اورشليم . ولنضرب مثلاً بيلدوين شقيق جودفرى ده بويون وأحد زعماء الحملة الأولى الذى استقر في الرها وأسس لنفسه إمارة صليبية بها . وإن إقامة هذه الإمارة في أعالي الفرات قبل أن تصل الجيوش الصليبية الرئيسية إلى بيت المقدس ، إن دلت على شيء فإنما تدل على الاتجاهات التوسعية للحركة منذ بدايتها ؛ حيث أن الإمارة المذكورة تبعد جغرافياً عن فلسطين وهى الهدف الذى ادعت أوروبا أنها قامت بحركتها من أجله . وقد دلل هذا الزعيم مرة أخرى على ما تنطوى عليه الفكرة الصليبية من أغراض توسعية عندما أغار على الديار المصرية سنة ١١١٨ م عن طريق العريش ورفع بقصد الاستيلاء عليها . ثم تتكرر هذه المحاولات الاستعمارية متمثلة في الحملات الأربع التى قام بها امورى الأول ملك بيت المقدس اللاتينى على مصر فيما بين سنتى ١١٦٤ و ١١٦٩ م . (١) وهكذا يتضح أن خط سير الحركة الصليبية كشف منذ اليوم الأول عن حقيقةتها ، لولا أن ثارت في وجه القوات اللاتينية الغازية بعض العناصر من أمثال جودفرى والأسقف أدهمار ، مما جعل أفرادها يواصلون المسير إلى البيت المقدس .

وكيفما كان الأمر ، فقد أثبتت الأحداث أنه كلما ازداد اقتراب أولئك القوم من بلدان الشرق العربى ، كلما وضع للعيان أن اتقادهم لكنيسة القيامة ليس إلا

(١) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٤ - ٥ و ص ٧ وما بعدها .

اعتبارا ثانويا يخفى وراءه الاتجاهات الحقيقية لفكرة الصليبية. وحتى بعد تأسيس المستعمرات اللاتينية في الاراضى المقدسة ، بات واضحا أن هم حكماها هو توسيع حدود تلك المستعمرات وتدعيمها تحت تاج بيت المقدس اللاتينى (١) .

هذا عن الصليبيين ، أما البيزنطيون فلم يكونوا يهدفون إلى غزو اورشليم وتخليص كنيسة القيامة بقدر ما هدفوا إلى استرداد الاملاك التى اقتطعها من دولتهم الاتراك السلاجقة ، وخصوصا إمارة أنطاكية . وقد عمل امبراطورهم الكسيس كومنين على تحقيق ذلك بكافة الطرق والوسائل ، ودون مراعاة لمصالح الافرنج ومطامعهم . بل أنه دخل مع اللاتين أنفسهم في حروب ومنازعات عندما أدخلوا بالمعاهدة التى وقعوها معه في القسطنطينية في مايو ١٠٩٧ م . وتكشف مصادر الحملة الاولى عن العلاقات السيئة التى قامت بين هذا الامبراطور وبين الأمير بوهيموند النورماندى عندما حدث بالقسم الذى قطعه على نفسه ، مما يؤكد أن سلوك كل من اللاتين والاغريق كان يسير منذ البداية في اتجاه المصلحة الخاصة والرغبة في امتلاك الاراضى . (٢)

وإذا عدنا إلى اللاتين نجد أن أطماع كبار رجالهم تتضح بجلاء بعد تأسيس مستعمراتهم في الشرق . فقد ثارت المشاكل منذ اللحظة الاولى حول اختيار رئيس للدولة الجديدة في بيت المقدس المحتلة . وعتمد الفرنج عدة اجتماعات فاشلة لهذا الغرض كشفت عن أطماعهم . وبدأ الخلاف واضحا بين الكنيسة والدولة ، وبين رجال الدين والعلمانيين الذين اشتركوا في الحملة الاولى ، وكان كل منهما يرى أنه أولى من الآخر في حكم تلك الدولة التى أقاموها في فلسطين . فرجال الكنيسة

(١) ديفز : أوروبا في العصور الوسطى ، ص ١٩٥ و ١٩٦ .

(٢) انظر تفاصيل ذلك في الفصلين الخامس والسادس من الكتاب ، وكذلك الملحق

الثالث بآخر الكتاب .

يرون اختيار رئيس روحى لها ، بينما أصر العلمانيون على اختيار حاكم دنيوى . واحتدمت المناقشات واشتد الخلاف بين الفريقين دون الوصول إلى نتيجة مرضية . وأخيراً انتهى الأمر باختيار أحد زعماء الفرنج وهو جودفرى كحامى للقبر المقدس وذلك كحل وسط (١) ، بعد أن تذرع رجال الدين فى الحملة بأنه لا يجوز لحاكم بيت المقدس أن يلبس تاجاً من الذهب فى المكان الذى لبس فيه المسيح تاجاً من الشوك . وكانت هذه حجة واهية اتخذها الاكبركيون ذريعة لتعزيز مركزهم فى الأراضى المقدسة على حساب العلمانيين . وهنا تشور الأطماع من جديد ، فلم يكتف خلفاء جودفرى بهذا اللقب ، بل أضفوا على أنفسهم فيما بعد ألقاب العظمة والملك ما يميظ اللثام عن نواياهم .

هذا عن الحملة الأولى ، أما إذا انتقلنا إلى الحملتين الثانية والثالثة ، نجد أن النزاع الذى نشب بين كونراد الثالث الألمانى وفيليب السابع الفرنسى فى الحملة الثانية (٢) ، وبين ريتشارد قلب الأسد الانجليزى وفيليب أغسطس ملك فرنسا فى الحملة الثالثة (٣) ، من أجل الزعامة وقيادة الجيوش وتلك البلدان - نجد أن هذا النزاع كان شاهداً جديداً يضاف إلى الشواهد السابقة .

وانتمن قليلاً فى أحداث الحملة الثالثة تاركين تفصيلاتها ومعاركها . فقد كان

(١) يحدث ارنست باركر عن الخلاف الذى قام بين رجال الدين والعلمانيين فى الحملة الأولى بعد الاستيلاء على بيت المقدس ، مما يكشف عن مطامع البابوية والمصالح الدنيوية للآمراء وكبار رجال الاقطاع الذين اشتركوا فى تلك الحملة فضلاً عن تباين الأهواء والشارب . انظر : باركر : الحروب الصليبية ، ص ٤٣ — ٤٤ ؛ وكذلك :

Arnold, Legacy of Islam, 69.

Haskins, Normans in European Hist., 129-130. (٢)

Heer, Med. World, 105. (٣) انظر :

هدفها الاساسى هو كسر شوكة العرب (١) وتفتيت وحدتهم بعد ظهور بوادر حركة اليقظة العربية الشاملة ، والقضاء بكل وسيلة على القوى المصرية الناهضة . إذ رأى الغربيون أن صلاح الدين أوشك على استعادة سورية وبلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى . ولذلك تأمروا على وضع حد لهذه القوى الجديدة التى برزت فى الميدان ، حتى يتمكنوا من حماية مصالحهم الاستعمارية فى الشرق . فكان من أثر ذلك قيام تلك الحملة التى استهدفت مدينة بيت المقدس التى كان صلاح الدين قد استردها من الفرنج سنة ١١٨٧ م ، ولكنها انتهت بالفشل الذريع . ونعرف أيضا أن ريتشارد ملك إنجلترا استولى وهو فى طريقه إلى الاراضى المقدسة على جزيرة قبرص التى أصبحت منذ ذلك الحين ولقرون عديدة قالية مركزا للاستعمار اللاتينى يوجه منها حملاته العدوانية ضد مصر وغيرها من بلدان المشرق العربى ، إلى أن استعادها السلطان برسباى سنة ١٤٢٦ م (٢) .

أما الحملة الصليبية الرابعة فكانت مثلاً حياً على انعدام الباعث الدينى من ناحية ، وثبوت الاتجاه التوسعى للحركة من ناحية أخرى . (٣) كما أكدت أن

(١) غنى عن البيان أنه بعد ظهور الاسلام وحركة الفتح أخذت الدولة العربية الكبرى تشكلها العضوى المعروف من المحيط إلى الخليج منذ ذلك الحين وحتى اليوم ؛ وقوامها وحدة اللسان والفكر والثقافة ، فضلاً عن عناصر الوحدة العربية ومقوماتها العديدة المعروفة . وعلى هذا تدخل فى نطاقها - بطبيعة الحال - جميع الشعوب التى كانت تعيش فى المنطقة والتى كانت حضارتها عربية .

(٢) سعيد ماحور: قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢٨ وما بعدها و ٤٦ وما بعدها و ٨٤ وما بعدها و ١٢٧ وما بعدها . أنظر أيضاً : ابراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٩٩ - ١٠٢ .

(٣) تكشف مذكرات روبرت كلارى عن الاتجاه الاستعمارى فى تلك الحملة . وقد قام بترجمة هذه المذكرات إلى العربية مع التقديم لها الدكتور حسن جبقى . انظر كلارى (ر.) : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين - ترجمة الدكتور حسن جبقى (القاهرة ١٩٦٤) ص ٥٥ . =

الكسيس كومنين وابنته آن كانا على حق عندما أبديا ارتياهما حيال اللاتين وأطاعهم في الدولة البيزنطية قبل ذلك التاريخ بقرن أو يزيد . ثم أنها تعزز ماسبق أن أوضحناه من أن الحركة الصليبية كانت تهدف منذ البداية إلى التوسع والاستعمار تحت ستار من الدعاية الدينية ، وسواء أكان ذلك على حساب العرب أم الروم . ففي سنة ١٢٠٣ م قامت الحملة وكانت وجهتها مصر وهدفها القضاء عليها حتى يتسنى لها الوثوب على بقية أجزاء المشرق العربي . ولكن لما كان يشترك فيها عدد كبير من البنادقة الذين كانت لهم مصالح تجارية وقفت القسطنطينية عقبة في سبيلها ، فقد أرادوا العمل على تحقيق تلك المصالح بالقوة واقنعوا كبار القادة في الحملة بذلك . وتم الاتفاق على خلع الامبراطور البيزنطي الذي كان يحكم وقتذاك واسمه الكسيس الثالث (١١٩٥ - ١٢٠٣) ، وذلك بعد أن تأمروا مع ولي عهده الكسيس الرابع (١٢٠٣ - ١٢٠٤) وأخذوا منه عهدا لتحقيق أهدافهم . وحتى يموهوا على العامة الجملاء المتحمسين للحركة دينيا ، فقد أقنعوهم انهم اضطروا إلى اتخاذ هذه الخطوة لأن الكسيس الرابع وعد بمساعدتهم وامدادهم بكل ما هم في حاجة اليه من المال والرجال في حروبهم ضد المصريين . وهكذا لعبت الأطماع دورا واضحا في الحملة الرابعة التي وجهت ضد المسيحيين الشرقيين ، واستحوالت إلى عصابات ناهية استقرت في القسطنطينية وأعملت فيها النهب والتخريب وأسست مملكة لاتينية بها استمرت من عام ١٢٠٤ إلى عام ١٢٦١ م . (١) فكانت هذه المملكة هي ثمرة أطماع

== والمزيد من التفاصيل من حقيقة اتجاهات هذه الحملة ، أنظر عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (بيروت ١٩٦٦) ص ١٨٧ - ١٨٩ .

(١) أنظر : شارل ديل : البندقية ، ص ٤١ - ٤٥ ؛ راجع أيضا : Pirenne,

= Economic and Social Hist., 33; Grousset, Sum of Hist., 181-2.

اللاتين في بيزنطة ، تلك الاطماع التي ظهرت بوادرها قبيل الحركة الصليبية نفسها ، والتي تتمثل في حروب جويسكارالنورماندى وابنه بوهيمند في البلقان . ويقول المؤرخ جروسية إنه اذا كانت الحملات الصليبية الاولى والثانية والثالثة قد أدت إلى أول توسع استعماري للغرب المسيحي في الشرق على حساب الاسلام ، فقد تحول الاستعمار اللاتيني في الحملة الرابعة شطر الدولة البيزنطية (١) . ولا يعنى هذا أن النوايا الاستعمارية في أرض العرب قد انتهت . لقد ظلت كامنة إلى أن كشفت عنها الحملات التالية . ولكن بعد أن كانت بلاد الشام هدفها في المرات السابقة ، أصبحت الديار المصرية مطمعها في هذه المرة باعتبارها معقل القوى العربية وحصنها المنيع .

لقد كانت حملة جان دى برين Jean de Brienne صاحب عسكا والملك الاسمي لبيت المقدس (٢) ، ومن بعدها حملة لويس التاسع ملك فرنسا في النصف

هذا وقد وصف أحد شهود الميان من الاغريق ويدعى نيكيتاس Nicetas ما تعرضت له القسطنطينية على أيدي الصليبيين والبنادقة من نهب وسرقة وتدمير ، وكيف استحوذ أحد رؤساء الأديرة اللاتين واسمه مارتين ، وقد اشترك هو الآخر في الحملة ، على الذخائر المقدسة التي عثر عليها في العاصمة البيزنطية ، وأرسلها إلى دير به بالقرب من باريس . أنظر : كلارى : فتح القسطنطينية ، ص ١٢٢ وما بعدها و ١٤٠ وما بعدها ؛ راجع أيضا :

Heer, Med. World, 105; Downs, Basic Doc., 182—5.

Grousset, op. cit., 182. (١)

(٢) هي المعروفة في التاريخ بالحملة بالصليبية الخامسة (١٢١٨ - ١٢٢١) . وما يدل على حقيقة اتجاهات العدوان الصليبي ، وعلى فتور الروح الصليبية لدى الغربيين ؛ الحملة المعروفة باسم حملة الأطفال المهددة للعملة الخامسة بقصد إثارة نخوة الرجال وحشهم على الاشتراك فيها . أنظر : عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٨٩ - ١٩٠ . وحول تفاصيل حملة الأطفال ، أنظر : (Runciman, Crusades, III, (Cambridge, 1955) 139—144.

ويلاحظ أن المؤرخ رينيه جروسية لم يتعرض لها في كتابه عن الحروب الصليبية .

الأول من القرن الثالث عشر ، تهادن إلى الاستيلاء على مصر وتأسيس مستعمرة بها . (١) وكانت حملة لويس إلى جانب نواياها العدوانية تتسم بطابع التعصب . (٢) إذ شب قائدها وقد أشرب الدين إشرابا سيطر على جوانحه ، وانعكس أثره في مبادئه وأفكاره وأعماله ، فكان تلقيبه بالقدّيس لويس صدى واضحا لتلك النزعة التي بدت بجلاء في هذه الحملة . (٣) وتذكر المراجع أن الملك كان منذ صغره دائم التطلع إلى غزو الأراضى المقدسة ، حتى أنه لم يترك وسيلة لتحقيق أمنيته هذه إلا واصطنعها . (٤) وحتى بعد هزيمته هو ورجاله على ضفاف النيل ، نواه يذهب إلى بلاد الشام حيث أقام أربع سنوات كاملة (١٢٥٠ - ١٢٥٤م) أمضاها في محاولات يائسة فاشلة للقيام بعدوان جديد . (٥) ولكن الاطماع التي لم تفارق الفرنجة تدفع هذا الملك للقيام بعدوان ثالث . ولم تكن وجهته هذه المرة مصر أو الشرق الأوسط العربى ، وإنما شمال افريقية ، تلك المنطقة التي اتجهت إليها انظار الغربيين منذ القدم ، ولا زالت تتجه إليها حتى اليوم . ففي عام ١٢٧٠ م قام لويس بحملته الصليبية الثالثة والأخيرة في قائمة الحروب الصليبية المبكرة ، والتي كانت وجهتها تونس وهدفها استمالة صاحبها محمد بن يحيى الملقب بالمستنصر إلى المسيحية على المذهب الكاثوليكي ، ومواصلة الزحف على مصر خط الدفاع

(١) أنظر عن ذلك كتابي : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ٣٠ و ح ١ . راجع أيضا : Ludlow, Crusades, 338; Grousset, Crois., III, 428; Michelet, Hist. of France, I, 565.

(٢) Bray, St. Louis, 82.

(٣) Joinville, 22-30, 42. ، أنظر أيضا حسن جبرى : الشرق العربى بين شق الرحى ، ص ١٤ - ١٥ .

(٤) Matt. Paris, II, 52-3; cf. Lacroix, Chevalerie et Crois., 180.

(٥) تناولت في كتابي « لويس التاسع في الشرق الأوسط » تفاصيل هذه الحملة العدوانية وتأنقها .

الأول عن العالم العربي ، ومركز إمداده بالجند والميرة والسلاح . وبالقضاء عليها يمكنه امتلاك الأراضي المقدسة وتحقيق كافة الأطماع الصليبية . ولكن هذه كانت أضغاث أحلام ، فلم يلبث أن توفي الملك القديس في أغسطس من نفس العام وهو على أبواب قرطاجنة دون أن يتأتى له تحقيق بغيته (١) .

ولعلنا نستنتج مما تقدم أن العلاقات بين الغزاة الوافدين من الخارج وبين العرب من أهل البلاد لم تكن بحال طيبة أو مرضية . ولكن لما شعر الدخلاء بأنهم في أرض غريبة عنهم ، وأحسوا بحاجتهم الملحة لتدعيم كياناتهم المتداعية والمحافظة على مستعمراتهم في الشرق ، بذلوا جهداً يائساً في سبيل التفاهم مع الأهالي والتعرف إليهم . ولذلك سعوا على أن تقوم بينهم وبين العرب المجاورين لهم وأهالي البلاد المستعمرة علاقات صداقة ومودة قدر الاستطاعة . وحاولوا جهد استطاعتهم إيجاد صلات حسنة مع التجار العرب ضماناً لتصريف منتجاتهم وتنشيط الحركة الاقتصادية بإماراتهم وزيادة مواردهم عن طريق الضرائب التي يجبونها ، تحقيقاً لمصالحهم فحسب (٢) .

(١) أنظر عن ذلك كله : أبوالمحسن : النهل الصافي ، ج ١ ، ورقة ١٣٥٨ - ١٣٥٩ ؛ السكتي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٨٣ - ٨٤ ، راجع أيضاً : Joinville, 396 - 406 ; Eracles, L' Estoire de Eracles Empereur, R. H. C. - H. Occ., II (Paris, 1859), 458 ff. راجع أيضاً جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات البقطة العربية ، ص ٣٠ و ٣١ . (٢) أنظر : Grousset, Sum of Hist., 178; Coulton, Med. Pano-rama, 322. وقد أورد ابن جبير في رحلته وأسامه بن منقذ في كتاب الاعتبار العديد من الأمثلة التي تكشف عن العلاقات القائمة بين الصليبيين والعرب زمن الحروب الصليبية . أنظر : رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ و ٢٨٨ و ٢٩٠ و ٢٩١ و ٢٩٢ - ٢٩٣ و ٢٩٤ ؛ زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص ٨٢ - ٨٣ و ٩٨ . أنظر أيضاً عمر كال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية (الاسكندرية ١٩٥٨) ص ١١١ - ١٣٦ ; Hitti, Hist. of the Arabs (London, 1964), 643 f. أنظر أيضاً كتاب الدكتور زكي نقاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج - بيروت ١٩٥٨ .

ولم يكن اصطناع الفرنج هذه السياسة عن رغبة صادقة أو نوايا طيبة. إنما كان هدفهم هو إشاعة الازدهار والثراء في الأراضي التي اغتصبوها من أهالي البلاد الأصليين ، وحتى يضمنوا عدم ثورة الأهالي عليهم في الوقت الذي كانت فيه دولتهم في طور التكوين . وكانت عبارة عن شريط ساحلي ضيق على الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، بينما ظلت البلاد الداخلية والمحيطية بهم من كل جانب في أيدي العرب . ولم يتسن لأوائك الدخلاء تهديدها أو تعريض أمنها للخطر . والنتيجة أن هذه السياسة الماكرة لم تؤت ثمارها المرجوة . ولم يكن ينتظر لمثل هذا التفاهم أو الاندماج أن يتم أو يسير إلى نهايته . ذلك أن اللاتين هم الذين بدأوا بالعدوان ، وهم الذين اغتصبوا البلاد عنوة من أصحابها ، وفرضوا حكمهم فيها بقوة السلاح وحاد السيف . ولهذا كانت المداوة قائمة بينهم وبين العرب الذين لم تنطل عليهم سياسة الدهاء واللين التي استنمها خصومهم ، ولم يثقوا في نواياهم وفي عهودهم ، وهم يعرفون تماما حقيقة نوايا الفرنج وزيف وعودهم التي كانوا على أتم استعداد لنقضها والتخلي عنها (١) . وكانت أحداث السنوات التي تلت قيام الحركة الصليبية خير مصداق على ذلك . إذ سرعان ما اتحدت الجهود ، ووقف الجميع وقفة رجل واحد ضد الفرنج حتى أجلوهم عن ديارهم .

ولما كان الفرنج يهدفون إلى تثبيت أقدامهم في الشرق بأي ثمن تحقيقا لأهداف العدوان ، فقد بذلوا جهدا كبيرا في سبيل تشجيع الغربيين على المجيء إلى الشرق والاستيطان فيه حتى تزداد أعدادهم ويقوى بذلك مجتمعهم . لقد كان الخامس يملا أولئك القوم عندما قاموا بحركتهم . ولكن ما أن استقروا في الشرق واستمتعوا

(١) أنظر رحلة ابن جبير، ص ٢٨٩-٢٩٠ و٢٩١ و٢٩٣ و٢٩٧؛ زكي محمد حسن : الرحلة السلون ، ص ٩٦ .

بشمسه الدافئة وأرضه الخصبة حتى بدأ هذا الحماس يخبو تدريجياً إلى أن تقلص وزال في نهاية الأمر. فقد استهوتهم الحياة الجديدة التي أخذوا يحيونها. وتكشف المصادر اللاتينية ، ولا سيما مؤلف فوشيه ده شارتز ، وكذلك كتب الرحالة العرب القدامى الذين زاروا البلاد العربية التي استولى عليها الفرنج ، مثل أسامة ابن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤ هـ / ١٠٩٥ - ١١٨٨ م) وابن جبير (٥٤٠ - ٦١٤ هـ / ١١٤٥ - ١٢١٧ م) — عن ذلك التطور الخطير الذي طرأ على الفرنج بين عشية وضحاها . فقد اختلطوا بالشرقيين وأخذوا من طباعهم وعاداتهم بنصيب ، وتزوج الكثيرون منهم وأنجبوا الأولاد ، وأعدوا أنفسهم الإقامة الدائمة في الشرق ، ولم يعودوا يفكرون في العودة إلى أوطانهم (١) . وقد تنبه إلى ذلك المؤرخ فوشيه خادماً كنيسة بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨) وأحد مؤرخي الحملة الأولى ، عندما كتب حوالي سنة ١١٢٥ م يقول : « نحن الذين كنا غربيين أصبحنا الآن شرقيين بمعنى الكلمة . لقد أصبح الإيطالي أو الفرنسي الذي استوطن في هذه البلاد جليلاً أو فلسطينياً . واستحال الرجل الذي قدم من ريمز أو شارتز إلى صوري أو أنطاكي . وسرعان ما نسينا مساقط رؤوسنا ، وبات معظمنا لا يعرف أو يسمع عنها شيئاً . وامتلك البعض الديار والرقى ، كما لو كانوا قد ورثوها ، بينما اتخذ البعض زوجات لهم ليس من مواطنيهم وإنما من السوريات والآرمينيات ... وأصبح الذي كان غريباً أجنبياً بالأمس مواطناً اليوم ، والذي كان مهاجراً بات الآن مقبلاً وصاحب حق . وقد أخذ أقاربنا وأصدقائنا في الحضور إلينا تبعاء ، تاركين عن طيب خاطر كل ما كانوا يملكون في الغرب . والذين كانوا فقراء معدمين هناك جعلهم المولى أغنياء مترفين هنا . والذين كانوا لا يملكون درهما واحداً هناك ، أصبحوا يمتلكون قطع الذهب

التي لا تقع تحت حصر . والذي لم يكن يملك مزرعة واحدة هناك ، وهبه الله مدينة بأكملها هنا . فلماذا إذن نعود إلى الغرب ما دام الشرق يفي تماما برغباتنا ومطالبنا (١) ؟

لقد كان في هذا الاعتراف الخطير على لسان أحد كتابهم دعوة صريحة إلى الاستيطان الاستعماري ، والعمل على تهجير الغربيين إلى الشرق وتوطينهم فيه بصفة دائمة دون التفكير في العودة إلى ديارهم . ولم يكن ينقص هذه الحركة سوى تدبير الأعداد الكافية ، ولم يكن هذا بالأمر السهل أو الميسور (٢) . وهكذا تأقلم اللاتين الذين أقاموا في الشرق الذي أصبح بالنسبة لهم موطنهم الأول بعد أن نسوا أو تناسوا أوطانهم الأصلية . وبدأوا ينبذون فكرة الحرب

(١) أنظر الترجمة الانجليزية لنص فوشيه في :

Grousset, Sum of Hist., 177; Heer, Med. World, 111; Lewis, Arabs in Hist., 150, 152. راجع أيضا : عمر كمال : مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) وهو ما يعرف في العصر الحديث بالاستيطان الاستعماري . وتتلخص التجربة الصليبية في قسوم الحملات الغربية لتحقيق أهداف العدوان . وبعد انتهاء كل حملة يعود غالبية المغامرين الصليبيين إلى ديارهم بالغرب ، بينما تبقى في الشرق أقلية منهم . وحتى هذه الأقلية كانت تنزع إلى أوطانها بعد قليل . ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة من سياسية واجتماعية واقتصادية داخل أوروبا نفسها ، فضلا عن اضطراب الأحوال الاقتصادية والسياسية داخل الأرض العربية المحتلة ، والمقاومة العربية الشديدة المتزايدة ، وإدراك الغزاة الدخلاء أن العرب يحيطون بهم من كل مكان وأنهم إذا اتحدوا سيطبقون عليهم ويقضون على البقية الباقية منهم . ولهذا السبب لم تكن نداءات الهجرة ، مثل نداء فوشيه ذي شارتر ، تلقى استجابة كافية في الغرب . يضاف إلى ما تقدم أنه كان من عادة الصليبيين الغربيين الاستقرار في المدن ، وترك المواطنين العرب أصحاب الديار في القرى يحرقون الأرض ويغلقونها . والنتيجة أن العرب أصحاب الديار كانوا دائما أغلبية في بلادهم ، بينما القرنج الغزاة أقلية ليست هناك أي رابطة تربطهم بالأرض التي يحتلونها . وقد أسهم كل هذا في القضاء على دولة الغزاة في المشرق العربي إبان العدوان الصليبي ، في وقت كان فيه ميزان القوى في المنطقة قد اعتدل لصالح العرب وفي وقت أصبح فيه العرب في مراكز القوة بعد أن توحدت جبهتهم .

المقدسة ، وأصبحوا يماكون الديار ، كما صار لهم زوجات وأبناء ومصالح تحتم عليهم العيش في دعة وهدوء . وقد لاحظ ذلك الفارس الرحالة أسامة بن منقذ عندما حدثنا عن الهوة بين أيوتة الصليبي القديم المستوطن في الشرق ، وصرامة زميله الجديد القادم من الغرب الذي كان يطمع هو الآخر في امتلاك الأراضي والاقطاعات (١) . ومصادر الحركة الصليبية تحدثنا عن كثير من هؤلاء المغامرين الجدد أمثال رينوه ده شاتيون المعروف في المراجع العربية باسم أرناط صاحب الكرك ، وكذلك ولیم ده منتفرات ، وغيرهما ممن كانوا يتوافدون على المملكة اللاتينية لتحقيق أغراضهم وأطماعهم . ولم يعد المستوطنون الأفرنج ، القدامى والجدد ، ينظرون إلى بعضهم البعض بعين الرضا والارتياح . وبلغ من شدة الخلاف بين الفريقين أن أهل الغرب الجدد كانوا يطلقون على الأفرنج القدامى كلمة « بولان » ، أو « أفرنجي شرقي » ، وذلك على سبيل السخرية والتحقير . ولكلمة بولان دلالتها ، إذا كانت تطلق عادة على الطفل المولود من أم أفرنجية وأب سوري أو العكس (٢) . وغير هذه وتلك من الألفاظ التي كانت تطلق على كل من ولد عن مثل هذه الزيجات غير المتكافئة في الجنس (٣) . ويكشف هذا الخلاف الواضح بين البولان والأفرنج الجدد كيف كان المستعمرون اللاتين قد

(١) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٩٩ ؛ زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون ، ص ٩٨ ؛ عبد الرحمن زكي : معركة المنصورة ، ص ١٣ . راجع أيضا : Lewis, op. cit., 152; (٢) Pullani dicuntur, qui de patre Syriano et matre Francigena generantur. » Cf. Joinville, Memoirs of Louis IX, King of France, tr. Johnes of Hafod (London, 1848), 466 n. I; idem, Saint Louis, King of France, tr. James Hutton (London, 1868), 122 n. I.

Joinville, 234, 236; Ambroise, 16; cf. also Rey, Colonies (٣) franques, 60-1. أظن أيضا كتاب : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٨٤ ح ٢ .

أعدوا أنفسهم للمعيشة في أرض العروبة بعد أن استطابوا الحياة فيها (١)، علماً بأن الخلاف المذكور كان هو نفسه من العوامل التي ساعدت على انهيار دولة اللاتين فيما بعد ، ويؤكد في ذات الوقت حقيقة اتجاهات العدوان الصليبي .

وكيفما كان الأمر ، فقد استمرت هجمات الفرنج على البلاد العربية متوالية هوجاء طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر بقصد الغزو والاستعمار . ولكن الأيوبيين في مصر ومن بعدهم المماليك تمكنوا من إلحاق شر أنواع الهزائم بأولئك الغزاة حتى أجلهم عن الساحل الشامى عام ١٢٩١ م . وقد عز على أهل الغرب أن تذهب جهودهم في سبيل السيطرة على هذه المنطقة والتحكم في مصيرها ومقدراتها أدراج الرياح ، فترام يعملون بهمة على إحياء الفكرة الصليبية من جديد . فيشنون الحملات تباعاً على مصر والشام وشمال إفريقيا خلال القرن الرابع عشر ، ولكنهم يلقون الضربات الشديدة من أهلها ، مما يضطرهم للعودة إلى ديارهم في انتظار فرصة أخرى مواتية (٢) .

ومن هنا يلمس الدارس لتاريخ هذه الحركة وضوح الاتجاهات التوسعية الاستعمارية وتدخل المصالح المادية فيها ، وفتور الروح الدينية بشكل ملموس بين الجميع . فقد اشتركت الغالبية العظمى ، وهم الأقنان وعبيد الأرض وعامة الشعب ، بقصد الإفلات من قيود الاقطاع والتزاماته التي كانت عبثاً يثقل كواهلهم . وكانت مساهمتهم في تلك الحروب تعود عليهم بفائدتين : أولاهما تحريرهم من عبودية الاقطاع ، وثانيتهما خلاص نفوسهم من الأدران العالقة

(١) أنظر : Grousset, op. cit., 179

(٢) حول الحروب الصليبية المتأخرة ونتائجها ، أنظر كتابي « الوحدة وحركات البقطة العربية » ، ص ٣٧-٤٣ والهاشي .

بها حسبا وعدتهم البابوية . أما الفرسان فقد وجدوا فيها هم أيضا متنفسا لهم ، ومجالا طيبا لاشباع غريزتهم في الحرب وسفك الدماء . وكيف لا وهم سلالة العنصر الجرمانى الذى يعتبر القتال غريزة متأصلة في دمائه ، حتى أن الكنيسة اللاتينية حاولت تخفيف حدة النزعة بما عملت على فرضه باسم « سلم الله ، وهدنة الله » (١) . ولو أن الجهاز الكنسى البابوى هو الذى استغل تلك النزعة فيما بعد عند الدعوة للحركة الصليبية . وإذا انتقلنا إلى قادة هذه الحملات من الحكام وكبار رجال الاقطاع ، نجد أنهم جميعا كانت تداعبهم الآمال العراض في توسيع رقعة أملاكهم وتأسيس مستعمرات جديدة لهم في الشرق بعد أن ضاق الغرب بمطامعهم . وكانت البابوية على رأس هذه الطوائف والفئات ، وهى التى أخذت تحث الجميع باسم الدين ، وقد تسترت تحت قناعه لتحقيق أهدافها البعيدة .

وما دمنا نتحدث عن الاتجاهات الحقيقية لتلك الحركة ، يجب أن نشير إلى طائفتين أسهمتتا بنصيب كبير فيها هما الجاليات التجارية والجماعات الرهبانية المسلحة .

لقد كان هدف تجار المدن الايطالية والفرنسية والاسبانية الذين اشتركوا في الحروب الصليبية ، استغلالى بحث نظراً للكسب الكبير الذى يعود عليهم من السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التى أصبحت مصدر ثراء عريض للشغولين بها . فإن امتلاك مصر وبلاد الشام والشمال الافريقى حيث تنتهى الطرق البرية الرئيسية للسلع الشرقية هو حجر الزاوية في السيطرة على تجارة هذه

(١) Runciman, Hist. of the Crusades, I, 83-7. راجع أيضا عمر

كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ١٨ .

السلع (١) . لذلك قامت أساطيلهم بدور فعال في الاستيلاء على المراكز الرئيسية في الشام . فساعد الجنوية الفرنج في الاستيلاء على انطاكية سنة ١٠٩٧ م . وأسهم البنادقة بعد ذلك بعامين في عملية استيلاء اللاتين على بيت المقدس ، وكانوا عنصرا بارزا في الحملات التي كانت مصر وشمال افريقية مسرحا لها فيما بعد (٢) .

ولم يقتصر دور هؤلاء التجار على المساهمة الفعالة في قيام الدويلات اللاتينية بالأراضي المقدسة ، بل امتد إلى العمل على الاحتفاظ بها أطول مدة ممكنة ، تمكينا لمصالحهم وتثبيتا لها (٣) . وقد تمثل ذلك أصدق تمثيل في تلك المعاهدات التي عقدت بينهم وبين حكام مملكة بيت المقدس اللاتين ، والتي تضمنت امتيازات عديدة اقليمية ومالية وقضائية لصالح هذه الجاليات (٤) . هذا ، ووثائق تلك

Pirenne, Economic and Social Hist., 31; Grousset, Sum (١) of Hist., 181.

(٢) لقد كان للمدن التجارية الإيطالية، وهي امالني وبيزة وجنوة والبندقية علاقات تجارية مع دول المشرق العربي قبل قيام الحركة الصليبية ، وخاصة مصر والشام . وحصلت من الخلفاء الفاطميين على امتيازات تجارية واسعة ، وجمعت من وراء ذلك أرباحا طائلة . فجاء اشتراكها في الحملات الصليبية نتيجة طبيعية لهذه العوامل السالفة . أنظر عن ذلك : محمد جال الدين سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، ص ١٧٢ - ١٧٦ . وفيما يتعلق بتحول هذه المدن إلى دويلات مستقلة ، وكذلك نشاطها التجاري ، أنظر عبد المنعم ماجد : العلاقات بين المشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ٩٥ .

(٣) Pirenne, Med. Cities, 64; Coulton, Med. Panorama, 320. وفيما يتعلق بدور البنادقة في الحرب الصليبية، انظر ايلين بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ٤٩ - ٥٣ .

(٤) منابع الحركة الصليبية الأوروبية زاهرة بالمعاهدات التي عقدت بين هذه الجاليات وبين ملوك بيت المقدس اللاتين ، لاسيما كتاب وليم الصوري وكذلك ارسيفات المدن التجارية الأوروبية . راجع :

Pirenne, Economic and Social Hist., 30-3; Mahmud, Story of Islam, 135.

الفترة وحوالياتها وكذلك أرشيفات كل من جنوه والبندقية وبيزه ، مليئة بمثل هذه الاتفاقيات التي لا تخرج عن كونها صفقات تجارية يتقاسم فيها الشريكان المكاسب والأسلاب . فالفرنج في حاجة إلى الأساطيل لنقل القوات والعتاد والامدادات من الغرب إلى الشرق ، ولضرب الحصار حول المدن الساحلية الشامية والمصرية وموانئ شمال افريقية ، بينما كان للجاليات التجارية مصالح وأطماع قديمة في هذه الموانئ التي تفتح لها الطريق إلى الشرقيين الأقصى والأوسط ، مما يؤدي إلى إنماء ثرواتها وزيادة أرباحها . وكان أفراد هذه الجاليات يعيشون في أحياء خاصة بهم في كل ميناء أو مدينة يشتركون في فتحها ، وكانوا يمارسون داخلها جميع مظاهر الحكم الذاتي . كما كانوا يجمعون الأموال الطائلة من السيطرة على طرق التجارة ، ومن أجور نقل الحجاج ، ومن نقل المؤن والقوات والمعدات اللازمة لإمارات الفرنج من أوروبا إلى الشرق . وقد غدت المدن والموانئ الواقعة على طول الساحل الشامي مسرحاً عجيباً للصراع بين هذه الجاليات لأسباب تتعلق بالملكية والمسائل التجارية ، وكثيراً ما تطور إلى قتال مكشوف وحروب دامية ذهب ضحيتها الكثيرون (١) .

وهكذا غلبت الصفة التجارية البحتة على هذه الجاليات بعد أن وضع الاتجاه الاستعماري الاستغلالي في نشاطها ، إذ كان هدفها الأول والآخر منذ قيام الحركة حتى نهايتها هو الربح والكسب المادي ، ولم يكن يعنينا الباعث الديني إلا بالقدر الذي يحقق مصالحها (٢) . ويكفي أن نعرف أن شعار البنادقة الذي

(١) Heyd, Hist. du commerce, I, 343-4. راجع أيضاً كتابي: لويس التاسع

في الشرق الأوسط ، ص ٢٨٦ - ٢٨٨ .

(٢) Mahmud, Story of Islam, 132.

عرفوا به وقتذاك كان . لكن أولا بنادقة ، ثم انكن بعد ذلك مسيحيين ،

(١) . (Siamo Veneziani, poi Christiani)

هذا هو موقف الجاليات التجارية من الحركة الصليبية ، تلك الجاليات التي كانت تجرى وراء مصالحها حينما وجدتتها . ولكن مما يدعو إلى الدهشة أن أولئك الرهبان المحاربين الذين اشتركوا مع الفرنج في شتى مراحل الحركة ، مثل الداوية والاسبتارية والتيوتونية ، والذي كان من أولى مبادئهم الفقر والطاعة والحرمان والصلاة والتقشف والبعد عن ملذات الدنيا ومادياتها ، قد استحالوا هم أيضاً إلى جمعيات نفعية . وأصبحوا يتمتعون داخل قلاعهم وحصونهم في الشام ، ولهم جيوشهم ومواردهم المالية وسياساتهم الخارجية التي تتفق ومصالحهم الخاصة . وكانت حياتهم في الأراضى المقدسة دليلاً قوياً على هذا التغيير الواضح الذي طرأ عليهم . فقد أصبحوا يمتلكون المتاجر والحوانيت ، وأخذوا يتطاحنون ويتنازعون فيما بينهم على المغانم والأسلاب بعد أن كان عملهم أساساً هو العناية بالمرضى والجرحى في ميدان القتال (٢) . ويمكن أن ظهور هذه الجماعات الرهبانية المحاربة كان في حد ذاته نتيجة من نتائج قيام الحروب الصليبية ، كما كان اشتراكها بدور إيجابي فيها دليلاً قاطعاً على حقيقة اتجاهاتها والغرض من

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 114. انظر عن

ذلك ايضاً : Matt. Paris, II, 306; Davis, Invasion of Egypt, 23-4.

(٢) انظر من ذلك الكتب التالية : Lacroix, Joinville, 206-210, 224-6;

Chevalerie et Crois., 226; idem, Vie Militaire, 198-9; Grousset,

Crois., III, 510. راجع أيضاً : عنان : تراجم اسلامية ، ٥٦ ص ؛ جوزيف نسيم :

لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٢١٦ ، وهزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ،

ص ١١٦ .

انشائها (١). وقد أشارت المصادر العربية إلى أوائلك الرهبان المحاربين باعتبارهم من أعداء العروبة والإسلام (٢).

هكذا انحرفت تلك الجماعات الرهبانية المسلحة عن مبادئها الأصلية ، وأصبح رجالها رجال دين ودنيا ، رجال يلبسون مسوح الرهبان وفي نفس الوقت يقاتلون من فوق ظهور الخيل ، ويتاجرون ويغنمون ، ويفرضون الضرائب والآتاوات على القوافل المارة بمعاقلهم في الشام .

يتضح مما سبق أن الحروب الصليبية وإن اصطبغت بالصبغة الدينية ، إلا أن الدين لم يكن الدافع الأساسي لقيامها ، وإنما كان قناعا لتغطية أسباب العدوان . ولعل من أبرز الأدلة على فساد الدافع الديني وزيفه هو حياة اللهو والفجور التي كان يحياها الفرنج الوافدون إلى الشرق . وهنابع الحركة الصليبية عامرة بالأمثلة

(١) للمزيد من المعلومات عن الجماعات الرهبانية العسكرية انظر : Woodhouse, F., The Military Religious Orders of the Middle Ages. London, 1879; Delaville Le Roulx, J., Les Hospitaliers en Terre Sainte et a Chypre (1100-1310). Paris, 1904; King, E., The Knights Hospitallers in the Holy Land. London, 1931; P. Lacroix, La Chevalerie et les Croisades. Féodalité, Blason, Ordres Militaires, Paris, 1887; E. Tenison, Chivalry and the Wounded. The Hospitallers of St. John of Jerusalem (1014-1914), London, 1914.

ومن المراجع العربية أنظر حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٤٧) ، ص ٩٥ - ١٠٠ ؛ عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ١٠٤ - ١٠٦ ؛ السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي (الاسكندرية ١٩٦٧) ، ص ٢١٢ - ٢٢٣ .

(٢) جدير بالذكر أن المؤرخين العرب كانوا يطلقون على رجالهم الذين يلون بلاء حسنا في القتال ويستبسلون حتى الاستشهاد بأنهم « داوية الاسلام » نسبة إلى داوية الفرنج . انظر ابن واصل ، ج ٢ ، لوحة ٣٦٩ ب ؛ العيني ، ج ١٨ قسم ٢ ، لوحة ٣١٢ ؛ السلوك ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٣٥٦ .

التي تشهد بذلك (١). فقد انغمسوا في الملذات مع الأوروبيات اللاتي أحضروهن من الغرب ، وأقاموا معهم في المستعمرات التي أسسوها في فلسطين .

لقد كان الشرق اللاتيني مرتعا خصيبا للفسق والشرور ، وأصبح التدهور الخلقى بين اللاتين حديث الجميع ، بعد أن قاحت رانحته وأصبحت تزكم الأنوف . فكان أمرا عاديا أن يضبط أحد الفرنج زوجته في وضع مريب مع رجل غريب ، ويتقبل الأمر برود كأن لم يحدث شيء (٢) . وكان أمرا عاديا أيضا أن يضبط أحد الفرسان الصليبيين بمنزل يدار للفساد . فقد حدث أثناء إقامة الملك الفرنسي لويس التاسع في مدينة قيسارية - وكانت تحت حكم الفرنج وقتذاك - أن ضبط أحد فرسانه في منزل يدار للدعارة ، وخير طبقا لتقاليد تلك البلدة بين أحد أمرين : إما أن تجره المرأة الفاسقة التي ضبط معها من قيصره داخل المعسكر الفرنجي بصورة مخزية ، وإما أن يصادر جواده وملابسه ويطرد من المعسكر . فاختار لنفسه الحل الثاني ، وذهب لحال سبيله ذليلا كسيرا . ويكفى أن جوائفيل مؤرخ سيرة لويس التاسع قد صرح في كتابه انه اعتاد أن يضع فراشه أثناء إقامته في الأراضى المقدسة عند مدخل خيمته حتى يراه كل من يمر أمام الخيمة راقدا عليه . وبالمثل فعل سيده الملك الفرنسي ، وذلك منعا للشبهات التي قد تحوم حول اتصالها بالنساء (٣) .

ويذكر نفس المؤرخ أن الحديث تطرق ذات يوم بينه وبين المندوب البابوي في الحملة عن هذا التدهور ، وأخذ كل منهما يقص على زميله ما يعرفه في

(١) أنظر : Joinville, 94, 96.

(٢) أنظر رواية أسامة بن منقذ في كتاب الدكتور زكي محمد حسن : الرحالة

المسلمون ، ص ٩٦ .

(٣) Joinville (ed. Wailly), 276.

هذا الشأن ، واختتم القاصد الرسولى كلمته بقوله : « لا يعلم أحد مثل المعاصى والآثام التى يرتكبها الفرنج فى عكا . ولذلك فإن المولى سوف ينتقم منهم حتى تغسل المدينة بدمائهم . » وحينئذ سوف يأتى شعب آخر للإقامة فيها ، (١) . ولم تكن هذه العبارة إلا نبوءة صادقة حققتها الأيام باستيلاء العرب أيام الأشرف خليل على عكا سنة ١٢٩١ م . ومن مظاهر الانحلال أن مسألة الحلف باسم الله زورا وبهتاناً أصبحت أمراً شائعاً بين الفرنج ، حتى لقد اضطر لويس التاسع أثناء إقامته فى سورية إلى فرض عقوبات مشددة على كل من يحذف باسم الله (٢) .

هكذا أودى الانحلال الخلقى بالمستعمرات اللاتينية فى الشرق إلى الحضيض . ولم يكن هذا أمراً مستغرباً ، فقد كانت موثلاً لأجناس شتى من الخلق تباينت مصالحهم وميولهم وأهواؤهم ومطامعهم تبايناً عجيباً . فكان فيها البنادقة والبيازة والجنوية وأهل مرسيليا وأمالفى الذين يمثلون النشاط التجارى البحرى ، ولم يكن يعنيتهم فى شيء الشعار الدينى الذى أخفى الاتجاهات الحقيقية للحركة . وكذلك الاسبتارية والداوية والتويتونية من الرهبان المحاربين الذين انحرفوا عن مبادئهم الأصلية . هذا إلى جانب جماعات من المغامرين والقتلة واللصوص وقطاع الطرق والخارجين عن القانون الذين قدموا من مختلف بلاد الغرب الأوروبى مدفوعين بعوامل شتى أهمها السيطرة والأطماع والسلب وأقلها

(١) Joinville (ed. Wailly), 334-6. — هذا ويعتبر المؤرخ اللاتينى جاك دى فيتري Jacques de Vitry ، الذى ولد حوالى سنة ١١٨٠ وتوفى حوالى سنة ١٢٤٠ ، من أفضل من كتب من الغربيين القدامى فى موضوع التدهور والانحلال الخلقى فى مستعمرات اللاتين فى الأراضى المقدسة .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 378.

بدون شك العامل الديني (١) . هكذا كان الغزو الغربي لبلدان الشرق العربي يتألف في الواقع من هذا الخليط العجيب ، وليس من اللاهثين وراء القبر المقدس (٢) . ويمكن القول بناء على ما تقدم إن الحماس الديني للحركة الصليبية لم يكن حقيقيا متأصلا ، كما لم يكن لدى الفرنج رغبة صادقة في الجهاد . (٣) وليس لنا أن نتظر منهم ذلك بعد أن وضحت نياتهم واتجاهاتهم وبعد أن تأكد فتور الحماس الديني عندهم . وإن إخلاص العرب لهذا الاعتقاد كان يفوق بلا شك إخلاص أولئك القوم له . فالعرب كانوا يدافعون بصدق عن أرض آبائهم وأجدادهم ، ولم يكن هذا الأمر متوفرا لدى الفرنج الغزاة . فالجهاد كان عقيدة لها أثرها الفعال فيما أحرزه العرب على أعدائهم من انتصارات . وكانت دعوة الجهاد كافية لإثارة الحماسة بين الناس . فكل مشترك ضد هذه الغزوات الصليبية مجاهد ، وإذا مات في ساحة الوغى فهو شهيد . وكان للخطب والمواعظ الدينية التي تليق من فوق المنابر أكبر الأثر في الحث على الجهاد ضد أعداء الوطن ، أعداء الله . وقد قام الجامع الأزهر بدور رئيسي في تنبيه الأذهان إلى الخطر

(١) أنظر Burchard, Description of the Holy Land, 102-3; P. K. Hitti, History of the Arabs from the Earliest Times to the Present (London, 1964), 636. ينظر أيضا كتابي « الوحدة وحركات اليقظة العربية » ، ص ١١ - ١٢ والحواشي .

(٢) Lewis, Arabs in Hist., 150.

(٣) Matt. of Westminster, Flowers of Hist., II, 316; cf. Masson, Med. France, 95-6.

هذا ويعتبر كتاب بالمر ثروب Palmer A. Throop, Criticism of the Crusade : A Study of Public Opinion and Crusade Propaganda, Amsterdam, 1940. من أفضل ما كتب حتى الآن عن معارضة الرأي العام الغربي لفكرة العدوان الصليبي ضد العالم العربي .

الجائهم في أرض فلسطين (١). فخطب العلماء ورسائل الحكام مؤيدة بآيات من كتاب الله تهدد العدو وتذره بسوء الخاتمة ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، ، وآيات تستنهض عزائم العرب أن يحملوا أعباء الجهاد دفاعا عن مقدساتهم ، ، انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، ، وآيات تبشر بالنصر وتؤكد ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، (٢). كذلك وضعت خلال الحروب الصليبية المؤلفات العديدة في فضائل الشام والبيت المقدس وفي أدب الجهاد والحث على قتال أعداء الله (٣).

(١) محمد شديد: الجهاد في الاسلام ، ص ٩٠-٩٣ ، ١٠٥ و ١٢٧ و ١٥٣-١٥٤ ؛ جوزيف نسيم: هزية لويس التاسع على ضفاف النيل ، ص ١١٧ - وجدير بالذكر أن الشيخ محمد أبو زهرة تناول في كتابه « نظرية الحرب في الاسلام » ، ص ١٧ وما يليها ، فكرة الباعث على الحرب والقتال ومى دفع الاعتداء والعدوان . وأوضح ما يجب اتباعه قبل المعركة وفي أثناءها وبعد انتهائها ، مدعما ذلك بآيات من كتاب الله ومن الأحاديث الشريفة . أنظر أيضا مقالي « العدوان العربي الاستعماري على العالم العربي قديما وحديثا » بمجلة العهد الجديد - العدد ١١٥٤ (٥ سبتمبر ١٩٦٧).

(٢) راجع عن الجهاد Gibb, Mohammedanism, 66-7. - ومحمد الفاروق نماذج لرسائل الحكام وكتبهم المؤيدة بالآيات القرآنية في المصادر التالية : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، لوحة ٣٦٤ ب ؛ ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ورقة ٣٦٧ - ٣٦٨ و ٣٨١ - ٣٨٢ ؛ المقرئى : السلوك ، ج ١ قسم ٢ ، ص ٣٣٥ و ٣٥٦ - ٣٥٧ ؛ والمخطوط ، ج ١ ، ص ٢١٩ ؛ ابن دقاق : نزهة الأنام (القطعة الثانية) لوحة ١٧٧ و ١٨٠ - ٨٠ ب .

(٣) فيما يتعلق بفلسفة الجهاد في الإسلام أنظر كتاب جرونيباوم: حضارة الإسلام، ص ٢٣ وكذلك Rosenthal, Political Thought in Med. Islam, 24-6, 29, 196, 247 n. 59, 286 n. 27.

وتحتفظ دار الكتب المصرية بالقاهرة بعدد كبير من المخطوطات والمخطوطات المصورة في موضوع فضائل الشام وبغامة والبيت المقدس بخاصة ، نذكر منها ما يلي :

ففي الوقت الذي كان فيه العرب يحافظون على كياناتهم وقوميتهم وعروبيتهم ووحدةهم عن عقيدة حقيقية راسخة تمتد جذورها إلى أحماق التاريخ ، وفي الوقت الذي كان فيه العرب يدافعون عن استقلالهم ووجودهم بكل ما يملكون من قوة وإيمان وعزم واصرار ، لم يكن لدى الفرنج رغبة صادقة في القتال .

== ١ - « فضائل بيت المقدس » - تأليف أبي المعالي المشرف بن الرجى بن ابراهيم المقدسى - نسخة في مجلد مأخوذة بالتصوير الشمسى عن النسخة الخطية المكتوبة بخط على بن محمد ، وقد فرغ منها في رمضان ٨٠٦ هـ ، والمحفوظة بمكتبة جامعة نوتنجن - رقم ٤٥٤٢ تاريخ و ٣١٩١ تاريخ .

٢ - « فضائل الشام » - تأليف شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادى المقدسى الحنبلى ، المعروف بابن عبد الهادى - نسخة في مجلد مخطوطة بخط محمد بدوى ابن جبر - رقم ٧٤٩ تاريخ .

٣ - « فضائل الشام » - تأليف أبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور بن عبد الجبار المروى بالسمرقاني ، المتوفى سنة ٥٦٢ هـ - نسخة ضمن مجموعة في مجلد مخطوط - رقم ٥١٩ مجاميع .

٤ - « فضائل الشام » - تأليف أبي عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد الأسيوطى الشافعى - نسخة في مجلد مخطوطة بخط محمد بن عمر الشافعى الذى فرغ من كتابها سنة ١١١٢ هـ - رقم ٧٥٠ تاريخ .

٥ - « مشير الفرام إلى زيارة القدس والشام » - تأليف شهاب الدين أبي محمود أحمد بن محمد المقدسى الشافعى المتوفى سنة ٧٦٥ هـ - مخطوط بخط محمد بن يوسف - رقم ٢٤ تاريخ .

٦ - « فضائل بيت المقدس » - تأليف أبي بكر محمد بن أحمد بن محمد الواسطى المقدسى (ق ٥ هـ) - ضمن مجموعة في مجلدين بالتصوير الشمسى مأخوذة عن نسخة خطية محفوظة بمكتبة المدرسة الأحمدية في جامع أحمد باشا الجزائر في عكا - رقم ٧٨١ مجاميع .

٧ - « فضائل الشام » - مؤلف مجهول - نسخة في مجلد برقم ٣٩٨٢ تاريخ .

٨ - « فضائل الشام » - تأليف أبي الحسن على بن محمد الربيعى المالكي (ق ٥ هـ) - ضمن مجموعة في مجلد بالتصوير الشمسى - رقم ٧٨١ مجاميع .

٩ - « نزهة الأنام في محاسن الشام » - تأليف أبي البقاء عبد الله بن محمد البدرى المصرى الدمشقى الشافعى (ق ٨ هـ) - طبع القاهرة ١٣٤١ هـ .

١٠ - « باعث النفوس إلى زيارة القدس الشريف المحروس » - تأليف برهان الدين ابراهيم ==

وهكذا برهنت الحركة الصليبية منذ بدايتها على عقمها وانحلال الدافع الديني لدى المسيحيين الغربيين بعد أن سيطرت عليهم الأطماع الشخصية ، وبعد أن ظهروا على حقيقتهم وكشفوا عن خبيثة نواياهم . فقد كانت تحركهم دوافع دنيوية تم عن ضعف البواعث الدينية ورياء المثل الصليبية العليا (١) . وهكذا شاب الفتور تلك الحركة ، وتشكك كثير من المفكرين الأوروبيين في جدواها (٢) . ونلس ذلك بوضوح من كتابات المتعقلين من أهل الغرب من

== ابن إسحاق بن تاج الدين أبي عبد الله عبد الرحمن بن درهم الشافعي النزاوي المتوفى سنة ٧٢٩ هـ - نسخة ضمن مجموعة في مجلد مخطوط - رقم ٥١٤ مجاميع - ويتناول المخطوط فضائل المسجد الأقصى والمسجد الحرام .

هذا ويوجد بمكتبة بلدية اسكندرية عدد غير قليل من المخطوطات والمخطوطات المصورة في هذا الموضوع الهام ، منها :

١ - « اتحاد الاخصار في فضائل المسجد الأقصى » - تأليف محمد بن أحمد المنهاجي السيوطي ، ألفه بيت المقدس سنة ٨٨٠ هـ - نسخة في مجلد مكتوبة بقلم نسخ سنة ١١٥٥ هـ - رقم ن ٣٢١٧ - ج .

٢ - « تحفة الأنام في فضائل الشام » - تأليف أحمد بن محمد البصراوي المعروف بابن الإمام - أم تأليفه سنة ١٠٠٣ هـ - نسخة في مجلد مكتوبة بقلم عادي سنة ١٢٠٨ هـ - رقم ن ٢٠٣٧ - ج .

٣ - « فضائل الشام » - تأليف عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥ هـ - نسخة مكتوبة بقلم عادي سنة ١٠٢٣ هـ - ضمن مجموعة برقم ن ١٣٥١ - ل .

٤ - « تحصيل الأنس لزائر القدس » - تأليف عبد الله بن هشام المتوفى سنة ٧٦١ هـ - نسخة مكتوبة سنة ٩٠١ هـ - ضمن مجموعة برقم ن ١٣٥١ - ل .

٥ - « حسن الاستقصا لما صح وثبت في المسجد الأقصى » - تأليف محمد النافلاق مفتي الحنفية بالقدس المتوفى سنة ١١٩١ هـ - نسخة في مجلد مكتوبة بمخطوط مختلفة بدون تاريخ - رقم ن ٤٩٨١ - ج .

(١) عتات : مصر الإسلامية ، ص ١١٣ .

(٢) زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٢٦٢ .

رجال الدين والفكر والقلم والحكام العلمانيين ، أمثال الكاهن الانجليزى متى الباريزى ، والشاعر الفرنسى ولیم رتيف W. Rutebuef ، والامبراطور الالماني فردريك الثانى .

ويعتبر متى الباريزى من كبار كتاب القرن الثالث عشر . وقد تحدث فى كتابه المسمى « تاريخ انجلترا » فى سخرية مريرة وتهكم لاذع عن الجهاز الكنسى فى أوروبا الذى استشرى فيه الفساد ، وعن رجال الدين وعلى رأسهم البابا الذى لم يكن يعنيه التبشير بحملة صليبية الا بالقدر الذى يخدم أطماعه ويحقق مصالحه العلمانية (١) . ويقول فى موضع آخر من كتابه إن « البابا الذى اقتنى خطى الامبراطور قسطنطين ، وكان الاجدر به أن يحذو حذو القديس بطرس قد سبب الكثير من القلق والاضطرابات فى العالم » (٢) . وقد يبدو هذا أمرا مستغربا فى تلك العصور التى كان فيها للدين مكانة كبيرة فى المجتمع الغربى الوسيط ، خاصة وان هذا الهجوم ضد الفكرة الصليبية وضد النظام الكنسى البابوى ، قد صدر عن رجل دين يعرف خبايا هذا النظام ومساوئه ومواطن الضعف فيه حق المعرفة . ولكن كان لدى متى من الجرأة والشجاعة ما يكفى لقول الحق فى تلك العصور التى عاش فيها الفرد الوسيط داخل دائرة ضيقة مغلقة لم يكن من السهل الإفلات منها ، وان كانت تبشير عصر جديد قد بدأت تلوح فى الأفق .

أما الشاعر رتيف فقد عاش هو الآخر فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، وعاصر أحداث تلك الفترة من الزمن . وكتب قصيدة طويلة بالفرنسية الوسيطة يقول فيها دون موارد وفى صراحة تامة إنه من الحماقة أن يخاطر

(١) Matt. Paris, II, 391, 400, 403.

(٢) Matt. Paris, II, 498. - أظن الملحق السابع بآخر الكتاب .

الانسان في حرب تنسم بالطابع الدينى خارج بلاده ، ما دام بوسعه أن يتصل بالله في وطنه وهو بين أهله وعشيرته ، وأن يعيش في نعمة ويسر وسلام . ويسخر الشاعر في القصيدة من رجال الدين الذين جعلوا من الحروب الصليبية وسيلة لا بتزاز الأموال وتحقيق أطماعهم في الشرق (١) .

وثالث هؤلاء هو الامبراطور فردريك الثانى (٢) . كان رجلا غزير العلم واسع الأفق ، ويعتبر بحق من الحكام اللاتين القلائل المتحررين من سلطان الكنيسة وقيودها . فقد استقر في جنوب إيطاليا ، وتأثر إلى حد كبير بالثقافة المتحررة التى سادت هناك . وكانت ثقافة متنوعة الأصول والمصادر ، تأثر فيها باليونان والرومان القدماء ، والبيزنطيين والعرب ، مما خلق في هذه المنطقة عقلية متميزة عن باقى أجزاء إيطاليا ودول الغرب . وقد اعجب فردريك بعلم العرب وعاداتهم وأخلاقهم ، ومن هنا كان أقل خضوعا للكنيسة التى كانت قد تشككت وبعدت عن التعاليم المسيحية الأصلية . ولذلك لم تكن عنده تلك النعرة الصليبية المتزمتة . لقد امتاز بروح التسامح ، وكان يحترم جميع الأديان . كما كان بلاطه موثلا للعلماء المسلمين والمسيحيين . وكثيرا ما كان يجتمع بمفكرى الإسلام ، كما اتصل بتلامذة ابن رشد وكانت بينه وبينهم مكاتبات ومساجلات عديدة كان لها أكبر الأثر في روح التسامح التى تميز بها (٣) .

(١) هذه القصيدة كتبها رتف بالفرنسية الوسيطة السائدة في ذاك العصر . أنظر ترجمتها الانجليزية في Heer, Med. World, 110; Masson, Med. France, 96-7. أنظر الترجمة العربية للقصيدة في الملحق السادس بآخر الكتاب .

(٢) تناول سيرة فردريك الثانى وشخصيته وحملته الصليبية وعلاقته بكل من العرب والبابوية كبير من المؤرخين الغربيين المحدثين . ويعتبر مؤلف كاتثوروفتش من أحسن ما كتب عن تاريخ حياة هذا الإمبراطور . أنظر : Kantorowicz, E., Frederick the Second (1194 - 1250). London, 1957.

(٣) أنظر المقرئى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ، ط . ثانية (القاهرة ١٩٥٦) ،

لقد عبر فردريك بذلك عن موقف الرجال الأحرار في تلك الرقعة من العالم ، وكان على علاقة طيبة بالحكام العرب وعلى رأسهم الكامل محمد سلطان مصر وابنه الصالح نجم الدين أيوب ، وعقد مع الكامل معاهدة سلمية سنة ١٢٢٩م تكاد أن تكون الأولى من نوعها في تلك العصور التي اشتهرت بالتزمت الديني ، تنازل له فيها السلطان الأيوبي عن طيب خاطر عن مدينة بيت المقدس (١) . وتروى المصادر العربية أن فردريك عندما علم بحركة الملك الفرنسي لويس التاسع ، واعترامه السير بجيوشه صوب مصر لغزوها ، أرسل إلى صديقه الصالح نجم الدين يخبره بذلك حتى يكون على حذر ويتخذ للأمر عدته (٢) . لذلك كان العرب في مصر وسورية وفي جزيرة صقلية يكتفون للامبراطور الألماني كل تبجيل واحترام ، (٣) حتى لقد اعتبره كثير منهم أنه أميل إلى الاسلام منه إلى النصرانية ، وأنه كان يؤثر القرآن على الانجيل (٤) . هذا ، بينما اضطهدته الكنيسة اللاتينية ، واصدرت ضده قرار الحرمان متهمة إياه بالهرطقة والخروج على الدين .

(١) حول حلة فردريك الصليبية ، أنظر المقرئى : السلوك ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ و ٢٢٨ - ٢٢٩ و ٢٣٠ - ٢٣٢ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ (القاهرة ١٩٣٦) ، ص ٢٧١ .

راجع أيضا : Grousset, Hist. des Crois., III, 282 ff., 289 ff.; Runciman, Hist. of the Crusades, III, 171 ff.; Hitti, Hist. of the Arabs, 653.

(٢) راجع التفاصيل في المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٩ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١٨ ، قسم ٢ ، لوحة ٣٠١ ؛ ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ورقة ٣٦٤ - ٣٦٥ .
(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ١٤٨ ، وكتاب :

Davis, Invasion of Egypt, 4.

(٤) أنظر : أبو الفداء ، نفس المصدر والصفحة ؛ العيني : عقد الجمان (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية — المؤرخون الشرقيون) ج ٢ ، قسم ١ ، ص ١٩٩ .

وبذلك عبر كل من فردريك ورتنف وهى الباريزى تعبيراً صادقاً عن موقف ذوى التعقل فى تلك العصور ، حيث بدأت الأنظمة القديمة التى ارتكز عليها العالم الوسيط فى الدين والسياسة والحرب والاقتصاد فى التدهار لتحل محلها أنظمة أخرى مغايرة تبشر بقيام عصر جديد (١) .

ولقد وجد فى الغرب إلى جانب هؤلاء الأحرار عشرات ممن فهموا الأمور على حقيقتها ، ومن أخذوا ينددون بالكنيسة البابوية وبفكرة الحروب الصليبية . (٢) وبما ساعد على ذلك نمو المدن والقوميات ، وظهور شخصية الفرد ، واتساع الآفاق والمدارك ، وتطور الحركة الفكرية ، ونشأة الجامعات فى أخريات العصور الوسطى التى خرج من بين جدرانها الكثير من الشباب والعلماء المثقفين المستنيرين . (٣) ومع ذلك فقد كانت صيحات هؤلاء المصلحين ،

(١) يقول الكاتب الانجليزى ماى مكيزاك إنه لم يكن هناك من سبب يدعو الذين عاصروا القرن الرابع عشر إلى الاعتقاد بأن عصر الحروب الصليبية قد ولى إلى غير رجعة . أنظر : McKisack, Fourteenth Century, 123. — والحقيقة أن هذه الفكرة — على الرغم من الحروب الصليبية المتأخرة — كانت قد تقلصت وخبا الحساس الذى صاحب بدايتها بعد أن تسكفت حقيقتها ، ويتضح ذلك من أقوال أناس موثوق بصحة رواياتهم مثل الكاهن منى الباريزى والشاعر رتيوف ، وغيرهما من أصحاب الفكر والقلم .

(٢) Coulton, Med. Panorama, 649.

(٣) أنظر عن ذلك المراجع الأفرنجية التالية : Waugh, W.T., A History of Europe from 1378 to 1494. London, 1932; McKisack, M., The Fourteenth Century (1307 - 1399). Oxford, 1959; Haskins, C.H., The Rise of Universities. New York, 1960; Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages. London, 1955.

ومن المراجع العربية أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور ، الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى — القاهرة ١٩٥٩ ؛ سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى — الجزء الثانى (النظم والحضارة) — القاهرة ١٩٥٩ ؛ سعيد عاشور ومحمد أنيس : المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى — القاهرة ١٩٦١ .

التي كانت تنبعث بين الحين والحين منادية بالتعقل، أشبه بصرخة في واد عميق .
إذ لا تلبث المبادئ والأفكار المسيطرة على الغرب أن تنبعث من مرقدها
لتخمد هذه الصيحات التي لا تجد لها إلا صدى متباعدا .

وعلى هذا لا نعدو الحق إذا قلنا إن الحروب الصليبية قامت تحت قناع
الدين وباسمه لتحقيق أطماعها التوسعية البعيدة المدى ، سواء في العالم العربي أو في
دولة الروم الشرقية التي كانت قائمة وقتذاك ، وإن دور العامل الديني كان يقتصر
على تغذية هذه الحركة وتزويدها بالوقود اللازم لدفعها إلى الأمام .

فقد كان من أحد أهدافها وضع يدها على ممتلكات الدولة البيزنطية المترامية
الأطراف ، والتي أخذ جيرانها الأتراك السلاجقة وغيرهم في الاستيلاء عليها
الواحدة تلو الأخرى . وليس من المستبعد القول إن البابوية والغرب الكاثوليكي
عندما دعوا إلى حمل الصليب ، كانت تراوهم فكرة إحياء الامبراطورية
المقدسة من جديد ، بضم ممتلكات الامبراطورية البيزنطية إليها والاستيلاء على
عاصمتها القسطنطينية ، وإعادة صبغ هذه الدولة بالصبغة اللاتينية ، وفرض
المنهج الكاثوليكي الذي تدين به روما عليها . (١) وتؤكد ذلك أحداث
السنوات التالية .

وأما هدفها الجوهري فهو تحقيق أغراضها الاستعمارية في العالم العربي ،
والعمل على تفتيت وحدته وكسر شوكته ضامنا لبقاء نفوذ الاستعمار في المنطقة .
وهكذا لم يكن استرداد الأراضي المقدسة أو تخليص قبر المسيح هو الدافع
الأساسي لقيام هذه الحركة ، إنما كان عاملا ظاهريا لإثارة النزعة الدينية بين

(١) أنظر : Anna Comnena, Alexiad, 250, 252 - وسنتناول هذه الفكرة
بالتفصيل في الفصول التالية من الكتاب .

مسيحي الغرب ، في وقت كان فيه للدين تأثير كبير في نفوس الناس الذين كانت تخيم عليهم سحابة كثيفة من الفقر والجهل والحرمان ، باستثناء فئة قليلة من رجال الدين المتزمتين المثقفين ، بحيث كان من السهل التأثير على الناس باسم الدين وحشهم على الحرب والقتال في سبيله .

والخلاصة أن الحروب الصليبية التي حمل المشتركون فيها شارة الصليب ، هي في الواقع حروب التوسع والاستعمار ضد دولة الروم والمسيحيين الشرقيين الذين كانوا ينظرون اليهم باعتبارهم هراطقة وملحدين . وهي في ذات الوقت حروب التوسع والتعصب والاستعمار ضد العرب في المشرق والمغرب الذين رأوا فيهم خطرا يهددهم ، فعملوا على القضاء على استقلالهم وتفتيت وحدتهم واعاقة تكتلهم ، تحقيقا لانبجاسهم الاستعمارية .

وهكذا لم يكن الباعث الديني هو الدافع الرئيسي لتلك الحركة ، بل كان ستارا لتغطية الأغراض الحقيقية لها . ولم يكن انقاذ الأراضي المقدسة وتحرير قبر المسيح سوى اعتبارا ثانويا يخفي الأسباب الرئيسية التي تتلخص في العمل على تأسيس مستعمرات لاتينية في الشرق ، وتدعيمها وتوسيع حدودها تحت تاج بيت المقدس اللاتيني (١) .

وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الغربيين الحديثين الذين اشتهروا بتمصّبهم لبني جنسهم ، قد اعترفوا صراحة بذلك . ومن هؤلاء المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه الذي قال في كتابه « حصيلة التاريخ » ، ان الحروب الصليبية أدت إلى أول توسع استعماري للغرب المسيحي في الشرق العربي على حساب الاسلام (٢) .

(١) ديفز : أوروبا في العصور الوسطى ، ص ١٨٣ و ١٩٥ - ١٩٦ ؛ جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ٨ .

(٢) Grousset, Sum fo Hist., 182.

كما ردد في كتابه مرارا عبارات مثل « المستعمرات الفرنجية » و « الاستعمار الفرنجي » و « التوسع الفرنسى الاستعماري في الشرق » و « المستعمرون اللاتين » وغيرها (١). أما زميله جورج تريفلان الانجليزى فقد أوضح في كتابه « تاريخ إنجلترا » أن الحركة الصليبية هي حركة اتساع خارجى قامت بها أوروبا المسيحية الانتطاعية ضد العرب (٢). ويتحدث ارنست باركر عن الامارات التي أسسها أولئك الفرنج في فلسطين تحت اسم « الاستيطان اللاتينى » (٣). أما هنرى وليم ديفز فقد أطلق على تلك الحروب اسم « الاستعمار الأوروبي » (٤). بينما قال برنارد لويس في كتابه « العرب في التاريخ » ان تلك الحروب كانت أول محاولة مبكرة في التوسع الاستعماري للغرب ، تحركها اعتبارات مادية دنيوية ، ويطلقها الدين كعامل نفساني (٥).

(١) نفس المرجع السابق ، ص ١٨١ - ١٩٠ . ويستخدم جروسيه هنا ألفاظا مثل :
« Frankish colonies » و « Frankish colonization » و « Colonial expansion » . ولفظة Colony تعنى هنا مستعمرة وليس مجرد جالية أجنبية مستوطنة حسبما هو مفهوم منها . وبالمثل بالنسبة لمشتقاتها .

Trevelyan, 141. (٢)

(٣) أنظر مقالة باركر عن الحروب الصليبية في: Arnold, Legacy of Islam, 46.

(٤) ديفز : أوروبا في العصور الوسطى ، ص ١٧٨ .

(٥) Lewis, Arabs in Hist., 140. — وجدير بالذكر أن بعض الكتاب الغربيين أطلقوا على مؤلفاتهم التي تناول تاريخ الحركة الصليبية أو أحد فصولها، أسماء تدل على حقيقة أهدافها . من هؤلاء المؤرخ رى Rey الذي أطلق على كتاب له اسم « المستعمرات الفرنجية في سوريا في القرنين الثانى عشر والثالث عشر » (طبع باريس ١٨٨٣) . وله كتاب آخر تحت اسم « نبذة عن السيادة الفرنسية على سوريا في العصور الوسطى » (طبع باريس ١٨٨٦) . ويرى أصحاب المدرسة الحديثة في التاريخ الاقتصادى أن الحركة الصليبية هي شكل من أشكال الاستعمار في القرون الوسطى ، وذلك باعتبارها مرحلة من مراحل التوسع الأوروبي في الشرق . أنظر من ذلك كتاب الدكتور عزيز سوريال عطية :

لقد اتجهت الحركة منذ بدايتها إلى تحقيق هذه الأهداف . فهي حركة استعمارية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان . هي استعمار عسكري اتخذ من القوة المسلحة وسيلة لتحقيق أهداف العدوان . وهي استعمار سياسي يستهدف سلب البلاد حريتها وتفتيت وحدتها وإعاقة نموها . وهي استعمار استيطاني يهدف إلى الاستيلاء على الأراضي واستعباد النفس البشرية . وهي استعمار ثقافي يسعى إلى فرض الحضارة الغربية اللاتينية على العالم العربي . ثم هي استعمار ديني يشمل في محاولات أوروبا نشر الكاثوليكية في العالم العربي عن طريق الحروب الصليبية والبعثات التبشيرية ، كما يبدو من تسميتها وشعارها ومن مسلكتها وتصرفاتها . وأخيرا هي استعمار اقتصادي استغلالي مظهره نهب ثروات البلاد والاستثمار بخيراتها من موارد وخامات أولية وفيرة . وبهذه الروح عبرت الحركة بوضوح عن نفسها . ولذلك فهي تعتبر حلقة من حلقات الصراع الطويل العتيق بين الشرق والغرب ، وفصلا هاما في تاريخ الاستعمار ومرحلة رئيسية من مراحلها ، لا يجوز إغفالها أو التجاوز عنها عند التأريخ للاستعمار القديم أو الحديث .

وان الباحث المدقق في تطور سير الأحداث عبر القرون الوسطى التي أعقبت العدوان الصليبي حتى وقتنا هذا يدرك في غير عسر نوايا الغرب السيئة واتجاهاته الاستعمارية في الوطن العربي ، بما يعزز ما سبق أن بيناه في الصفحات السابقة .

لقد أثبتت الأحداث أن النضال في سبيل غزو الأراضي المقدسة لم ينته بصفة نهائية باستئصال شأفة الأوروبيين منها واستيلاء العرب على آخر معاقلهم

Atiya, Crus., Commerce and Culture, 18.

وفيما يتعلق بآراء الكتاب والمؤرخين العرب حول حقيقة أهداف العدوان الصليبي ، انظر كتابي : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ١٠ - ١٢ والحواشي .

الهامة فيها في أخريات القرن الثالث عشر الميلادى . فقد كان وقع هذه الضربات المتتالية شديدا على أهل الغرب بعد أن تحطمت آمالهم على صخرة الواقع ، حتى أنهم ظلوا طيلة قرن من الزمان بعد سقوط عكا يضعون المشروعات الضخمة والمؤلفات العديدة لغزو الشرق . وظهر من بينهم في السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الكثير من المبشرين والدعاة ممن قام عملهم على إحياء الفكرة الصليبية بين أهل الغرب . كما قاموا بالدعاية للحملات الجديدة ضد المشرق والمغرب العربيين ، ووضعوا الخطط بقصد حرض المسيحيين الكاثوليك على الأخذ بأسباب الحروب الصليبية من جديد . وقد بارك البابوات والمستولون في الغرب هذا الاتجاه تمشيا مع سياستهم التقليدية القديمة . وكان من أثر ذلك أن قامت أوروبا بشن عدد من الغزوات على البلاد العربية في البقية الباقية من القرن الرابع عشر . وكان من أهمها حملة بطرس الأول لوسنيان ملك قبرص الفرنسى على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ م ، وحملة لويس الثانى دوق بوربون الفرنسى على المهدية فى شمال أفريقية سنة ١٣٩٠ م . كما كانت آخرها وأوسعها نطاقا هى حملة نيقوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦ م التى قامت بها أوروبا بأسرها لإخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول إلى بيت المقدس فى قلب إمبراطورية المماليك . وانتهت الحملة - كما انتهت سابقتها - بهزيمة الفرنج الساحقة أمام قوات السلطان بايزيد الأول ، حتى أنه لم تقم لهم من بعد ذلك قائمة . وقد فشل هذه الغزوة على رؤوس أهل الغرب وقع الصاعقة ، وكان بمثابة مسبار كبير دق فى نغش الحركة الصليبية بمعناها المعروف وقتذاك . إذ أصيب الغربيون بضربة قاضية جعلت اليأس يتمكن من نفوسهم للمرة الثانية ، وجعلتهم ينصرفون عن تلك الفكرة التى نادى بها أجدادهم قبل ذلك التاريخ بثلاثة

قرون إلى مصالحهم الخاصة ومشاكلهم الداخلية (١) .

واسكن هل تخلى الغرب عن مشروعاته العدوانية ورضى بالأمر الواقع ؟ وهل قدر الأراضي المقدسة التي كانت هدفا لحروب التعصب والاستعمار في العصر الوسيط ، والتي أريقَت بين جنباتها الدماء أنهارا ، أن تعيش بعد ذلك في دعة وسلام ؟ وهل قدر للعالم العربي من المحيط إلى الخليج بعد أن لقن الغربيين درسا قاسيا في الماضي ، أن يظل بمنأى عن العدوان ؟

لقد ظلت مدينة بيت المقدس منذ ذلك الحين بأيدي الممالك إلى أن استولى عليها الأتراك العثمانيون في القرن السادس عشر . واستمرت في قبضة العثمانيين حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م . وقد استطاع الحلفاء الغربيون ، بعد مفاوضات قامت بينهم وبين العرب ، إقناعهم بدخول الحرب إلى جانبهم مقابل وعد بمنحهم الاستقلال بعد أن تضع الحرب أوزارها ، ومساعدتهم على تكوين الوطن العربي الكبير . وفي أثناء الحرب اتفقت بريطانيا وفرنسا من وراء ظهر العرب على تقسيم الأراضي العربية فيما بينهما . وبذلك تكشف خداع الغرب وبانت اتجاهاته الاستعمارية ونواياه العدوانية . فما أن انتهت الحرب حتى دخلت قوات غرب أوروبا فلسطين العربية ، وكان ذلك في العاشر من ديسمبر سنة ١٩١٧ م ؛ تلك السنة التي امتازت بوعد بلفور المشؤم الذي بذلته الحكومة البريطانية على لسان اللورد آرثر جيمس بلفور وزير خارجيتها في وزارة لويد

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 3 ff., 17 ff., 48 ff., 74 ff., 128 ff., 345 ff., 398 ff., 435 ff., 480 ff.; idem, Crusade, Commerce and Culture, 92 ff.; Huizinga, Waning of the Middle Ages, 95—6.

راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٣٥٩-٣٦٠ .

جورج ، بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين والذي لعب الصيوني المعروف
حاييم وايزمان دورا كبيرا في سبيل إصداره (١) .

وهكذا نرى أن أهل الغرب لم يتخلوا إطلاقا عن أطماعهم ونواياهم القديمة،
بل كانوا يتحينون الفرص والظروف المواتية لنشب أظفارهم من جديد في البلدان
العربية . وهكذا نرى أيضا أن الحلم القديم من أجل غزو فلسطين وتفتيت
وحدة العرب ، ظل مطويا في زوايا النسيان مدى خمسة قرون من الزمان، إلى أن
تمكنت القوات المتحالفة من دخولها في أخريات عام ١٩١٧ م ، فأحييت بذلك
الروح الصليبية القديمة ولكن في ثوب جديد يتفق والظروف والأوضاع
السائدة آنذا (٢) .

والواقع أنه ما أن انتهت الحرب العظمى الأولى حتى كان العالم العربي قد
خضع بأسره للحكم الإنجليزي الفرنسي الإيطالي وتم توزيع التركة فيما بينهم .

(١) أنظر : محمد علوبة : فلسطين وجاراتها ، ص ٩٦ وما يليها . راجع أيضا :

Atiyah, The Arabs, 96 — 100; Atiya, Crus., Commerce and
Culture, 161.

ولقد عبر السيد الرئيس جمال عبد الناصر عن وعد بلفور الباطل في صندق ووضوح في
الكلمات التالية : « لقد أعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق ، ثم استطاع الاثنان ، من
لا يملك ومن لا يستحق ، بالقوة والحداثة أن يسلبا صاحب الحق الفرعى حقه فيما يملكه
وفما يستحقه » .

(٢) فيما يتعلق بأطماع الغرب الأوروبي في الشرق العربي اعتبارا من القرن السادس
عشر ، أنظر : Lewis, Arabs in Hist., 165—178. — ولا يجب أن ننفل في هذا
المقام الخطوات الاستعمارية التي اتخذتها كل من فرنسا وإنجلترا في القرنين الثامن عشر والتاسع
عشر ؛ وتتمثل في الحملة الفرنسية على مصر من يوليو ١٧٩٨ م إلى أكتوبر ١٨٠١ م ،
والاحتلال البريطاني للبلاد سنة ١٨٨٢ م ، وكانت قد سبقته حملتان بريطانيتان الأولى سنة
١٨٠١ م والثانية سنة ١٨٠٦ م ، مما يكشف عن نيات المستعمرين المدائية ضد الوطن العربي .

فبموجب اتفاقية سان ريمو التي عقدت بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٢٠ م ، أصبحت فلسطين والأردن والعراق تحت الانتداب ومصر تحت الحماية البريطانية. أما سورية ولبنان فأصبحتا تحت الانتداب الفرنسي . فكان الجحود ونكران الجميل هو الثمن الذي دفعه الغرب للشعوب العربية جزاء وقوفها إلى جانبه. وأما دول الشمال الأفريقي فكانت قد خضعت قبل ذلك للاستعمار الأوروبي . فكانت الجزائر وتونس تثن من نير الاستعمار الفرنسي ؛ إذ احتل الأولى سنة ١٨٣٠ م ووضع يده على الثانية سنة ١٨٨٢ م . بينما احتلت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١ م ، واحتلت فرنسا مراکش في السنة التالية . وبذلك أصبح العالم العربي كله من المحيط إلى الخليج في قبضة الاستعمار الغربي ، سواء أكان بريطانيا أم فرنسا أم إيطاليا (١) .

وهكذا تتكرر في عصرنا الحاضر نفس المسرحية القديمة ، ولكن بصورة أخرى مغايرة تتلائم ومقتضيات الظروف الجديدة وأساليب الاستعمار الجديد. فقد اتخذ الغرب الأوروبي من الدين فيما مضى وسيلة لتحقيق مآربه العدوانية في الوطن العربي، واليوم يسفر عن وجهه ويتخذ من إسرائيل سلاحا لتحقيق نفس الأغراض ، ضمانا لبقائه واستمرار نفوذه ومصالحه على حساب المنطقة وأهلها. وعلى هذا لا نجاني الحق إذا قلنا إن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين

(١) أنظر محمد عبد الغني حسن : صراع العرب خلال العصور ، ص ١١٠ — ١١٣ . ويذكر الكاتب اللبناني ادوارد عطية أن ادعاءات فرنسا بالسيادة على هذه المنطقة من العالم العربي إنما ترجع أصولها إلى عصر الحروب الصليبية التي قامت فيها فرنسا بدور قيادي . ويقول إن وجود جالية كبيرة من المسيحيين الكاثوليك في جبال لبنان في القرون التالية ، كان أمراً يهم فرنسا غاية الأهمية ، إذ هيأ لها الفرصة للتدخل في شئون الشام والعمل على امتلاك الأراضي . أنظر : Atiyah, The Arabs, 98.

العربية الصليبية، يعتبر امتداداً للفكرة الصليبية نفسها وفصلاً من فصولها المتتابعة، وذلك مع مراعاة الظروف الدولية والتيارات العالمية التي كانت قائمة إبان العدوان الصليبي وتلك التي تسود اليوم (١). وعلى هذا لانجافي الحق أيضاً إذا قلنا إن إسرائيل لم تكن في حقيقة الأمر إلا أثراً سيبث من آثار الاستعمار في عالمنا العربي (٢). فقد خلقها الغرب في قلب المنطقة لتظل جسراً له وشوكة في جنبات الدول العربية جمعاء (٣).

وعلى ضوء الحقائق السالفة يمكن تفسير الحركة الصليبية التي قامت منذ حوالي تسعمائة عام خلت، وتفهم أصولها وخصائصها، ومعرفة حقيقة أغراضها واتجاهاتها ودوافعها وأسرارها ومراميها، والصلة بينها وبين الاستعمار الصهيوني الغربي ضد العالم العربي في شكله الجديد في عصرنا الحديث (٤).

(١) يرى المؤرخ ارنست باركر أن الحروب الصليبية قد استمرت إلى عهد السياحات البحرية البرتغالية واستكشافات كريستوف كولمبس أنظر: Arnold, Legacy of Islam, 41. أما المؤرخ شارل اومان فيرى أن آخر آثار هذه الحروب لم تنته بصفة فاطمة إلا عندما طرد الأتراك البنادقة من قبرص (١٥٧١) وكريت (١٦٦٩) وشبه جزيرة المورة (١٧١٥). أنظر: Oman, I, 232, n. 1 - ويبدو من استعراضنا للأحداث التي تعرض لها العالم العربي منذ قيام الحروب الصليبية، أن آثارها لا تزال قائمة حتى اليوم.

(٢) تناول الرئيس جمال عبد الناصر بالتحليل العميق مسألة اغتصاب إسرائيل لأرض فلسطين العربية، ودور الاستعمار في المعركة، وإطامع الصهيونية العالمية في العالم العربي التي تتمثل في ذلك الحلم الذي يداعب خيالهم وهو تكوين امبراطورية ضخمة تمتد من النيل إلى الفرات، وكذلك العبر والدروس التي تستمدّها مما ألمّ بالعالم العربي من محن بعد أن تكالب عليه المتذابنون من كل جانب، وأولها ضرورة الكفاح الواحد المشترك للوطن الواحد الكبير. أنظر: فلسفة الثورة للسيد الرئيس، ص ٦٢ - ٧٥.

(٣) أوضح الدكتور محمد عبد العزيز نصر في كتابه: الصهيونية في المجال الدولي، ص ٩٦ - ٩٩، كيف أن الاستعمار خلق إسرائيل في فلسطين لتكون عيناً ومركزاً له في الشرق الأوسط العربي.

(٤) أوضحت في مقال «الصهيونية في فلسطين امتداد طبيعي للاستعمار الصليبي» المنشور بمجلة العهد الجديد (العدد ١١٤٥ - بتاريخ ١٦ مايو ١٩٦٧) - كيف أن إسرائيل في فلسطين اليوم هي امتداد للعدوان الصليبي وإن اختلفت الأسماء وتعددت المسميات، وبينت أوجه الشبه بين العدوانين في مقارنة علمية موضوعية مكرزة.

الفصل الثالث

الروم واللاتين

كانت الحروب الصليبية اذن من الحركات الهامة في تاريخ العصور الوسطى ،
ظاهرها الخلاص والرحمة والدين ، وباطنها الاهواء والاطماع والشهوات . وقد
اعتاد المؤرخون أن ينظروا إليها باعتبارها حروبا بين أهل الغرب والعرب في
الشرق بقصد الاستيلاء على الاراضى المقدسة . وكلما ذكرت هذه الحركة ذكر
معها الصليب والهلل . ولكن بالرغم من ذلك فقد كانت سببا لاحتكاك اللاتين
بالروم ، واتصال مسيحيو الغرب الكاثوليكى بمسيحي الشرق الارثوذكسى ،
ذلك الاتصال الذى كانت له نتائج بعيدة المدى في تاريخ ونوع وتطور العلاقات
بين الصليبيين والدولة البيزنطية ؛ والذى سينعكس أثره في موقف كل منهما حيال
الآخر منذ قيام هذه الحركة في أخريات القرن الحادى عشر حتى نهايتها في أواخر
القرن الرابع عشر . وإن ما ترتب على ذلك الاحتكاك من آثار لا يزال حقيقة
قائمة حتى اليوم . وعلى هذا لا نغالى إذا قلنا إن العلاقات العدائية التى قامت بين
شقي العالم المسيحى في الحرب الصليبية الاولى ، لا تقل في أهميتها عن حروب
الصليبيين الاستعمارية ضد العرب .

وللحرب الصليبية الاولى أهمية خاصة في تاريخ الامبراطورية الرومانية
الشرقية ؛ إذ أنها أول مرة يتقابل فيها اللاتين الغربيين بالروم الاغريق في كثرة
ضاقية العدد . وقد استمر بعد ذلك الاتصال والاحتكاك بينهما إلى آماط طويلة
عبر القرون التالية التى ازدحمت بأوخم العواقب على العلاقات بين مسيحي
الشرق والغرب أو بين الارثوذكس والكاثوليك ؛ حتى لقد قيل بحق إنه في

ثنايا هذا الصراع الفكري والروحي والمادى والحربى ولدت المسألة الشرقية في العصور الوسطى .

ولتفهم حقيقة هذه العلاقات يجب أن نمهد لها بكلمة عن أوجه الخلاف العديدة القائمة بين شقى العالم المسيحى قبل قيام الحركة الصليبية نفسها .

لم تكن العلاقات بين اللاتين والاغريق فى ذلك الحين طيبة أو مرضية . وكان الشك وعدم الثقة متوفرين لدى كل منهما ، كما كانت أوجه الخلاف بينهما فى شقى النواحى عاملا هاما على توسيع شقة البغضاء بين الطرفين (١) .

وإذا عدنا قليلا إلى الوراء نجد أن الحروب الصليبية لم تكن المرة الأولى التى احتك فيها الاغريق باللاتين ، فالصلة بينهما ترجع إلى عهد بعيدة منذ ظهور المسيحية نفسها . فبعد ظهور الدين الجديد ، أخذ أتباع المسيح ورسله يبشرون به فى أقطار الأرض المعروفة وقتذاك ومن بينها روما . وأخذ الرومانيون يتركون وثنياتهم التى كانوا يدينون بها ، ويدخلون فى هذه الديانة الجديدة التى وجدوا فيها ملاذاً ومخرجاً من حالة الفوضى والاضطراب التى كان يعانىها العالم الرومانى القديم فى أخريات أيامه من جراء غزوات البرابرة الجرمان . حدث هذا فى أخريات التاريخ القديم عندما كان الأباطرة الرومان لا يزالون يسيطرون على دولة واسعة مترامية الأطراف . وقد هاهم أن المسيحية كانت تدعو إلى وحدانية الله دونهم ، معارضة فى ذلك ديانة الدولة التى تتمثل فى عبادة الامبراطور ، تلك العبادة التى كانت رمز الوحدة الامبراطورية الرومانية من ناحية ولسيطرة الامبراطور المطلقة من ناحية أخرى . لذا وجد الأباطرة فى هذه الدعوة منافسا خطيرا لهم ولسلطانهم ودولة داخل الدولة ونوعا من

الحياة المعطى التي لا يجوز السكوت عليها ، والتي يجب عقاب كل من ينادى بها . وحاولوا جهد استطاعتهم طمس معالمها وتعقب اتباعها في المغاور والكهوف . وترتب على ذلك سلسلة من الاضطهادات التي تميز بها تاريخ روما في القرون الأولى للسيحية ، وبخاصة أيام نيرون وقاليريان ودقلديانوس وجاليريوس وماكسنتيوس وغيرهم .

ولكن هذه الاضطهادات لم تمنع الرعايا الرومانيين من اعتناق الدين الجديد الذي اعترفت به الدولة آخر الأمر كدين رسمي لها . وكان ذلك في أوائل القرن الرابع الميلادي أيام الامبراطور قسطنطين الكبير ، عندما أصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣ م الذي أجاز رسمياً اعتناق الدين المسيحي . (١) وعندما نزلت قبائل الجرمان المتبربرين داخل حدود العالم الروماني في أخريات القرن الخامس ، كانت هذه الديانة قد تأسست جذورها . وتم تأسيس الكنيسة الرومانية التي أصبح لها شأن خطير في تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وفي سياستها وحضارتها واتجاهاتها داخل القارة وخارجها . وكان على رأس هذه الكنيسة في روما أسقف كغيره من أساقفة العالم المسيحي في الشرق والغرب وقتذاك . وكان أولئك الرجال في العصر الأول مثال الزهد والورع والتقوى

Jones, A. H. M., Constantine and the Conversion of (١) Europe (London, 1961), 29 ff., 46 ff., 79 ff.; Barrow, The Romans, 181 sqq., Katz, Decline of Rome, 61-4; Runciman, Byzantine Civilisation, 18-9, 23-5.

راجع أيضا تشارلز وورث : الامبراطورية الرومانية ، ص ١٧٣-١٨١ و ١٨٧-١٩١ و ٢٠١-٢٠٦ و ٢١٠ ؛ بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٩ ؛ كولتون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة - ترجمة وتعليق د. جوزيف نعيم يوسف - ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ، ص ٤٤ وما بعدها

حتى لاذ الناس بهم فرارا من وجه غزوات الجرمان التي اتسمت بالوحشية والعنف .

وبمضى الوقت أخذت كنيسة روما تتفوق على باقي الكنائس المسيحية ، كما أصبح لأسقفها مركز الصدارة بين أقرانه بعد أن خلاله الجوّ بانتقال الأباطرة إلى القسطنطينية (١) ، تلك المدينة التي جعلوا منها عاصمة للعالم الروماني ، فحلت محل روما في ذلك المركز الممتاز وهكذا ورت أسقف روما القيصرية الأقدمين سلطانهم ونفوذهم . (٢) وأخذ يتجه تدريجيا إلى فكرة زعامة الغرب الأوروبي دينيا ودنيويا ، محاولا قدر الاستطاعة الاستقلال والانفصال عن الكنيسة الشرقية التي كانت تنظر هي الأخرى بحق وجودها في القسطنطينية عاصمة الأباطرة الشرقيين كراعية لباقي الكنائس المسيحية . وقد ارتكز أسقف روما لتحقيق استقلاله على نظرية السيادة البطرسيّة التي كانت تنادي بأسبقية روما وأساقفتها على باقي الكنائس الشرقية . (٣) ورأت الكنيسة البيزنطية في اتجاهات كنيسة روما اللاتينية نزعة انفصالية خطيرة . فكان هذا إيذانا ببداية الخلاف والشقاق المذهبي بين الكنيستين الشرقية والغربية ، الذي استمر طيلة

(١) حول القسطنطينية أنظر الكتاب التالي :

M. R. (tr.), *Constantiniade, ou description de Constantinople, ancienne et moderne, composée par un philologue et archéologue, traduite du Grec par M. R. Constantinople, 1846.*

(٢) أنظر عن ذلك : Runciman, op. cit., 109-110; Stanley, *Lectures on the Hist. of the Eastern Church*, 214; Katz, op. cit., 123-6. راجع أيضا : بيتز : *الامبراطورية البيزنطية* ، ص ٥٦ .

(٣) Runciman, op. cit., 39; Baldwin, *Med. Church*, 22; N. F. Cantor (ed.), *The Medieval World : 300-1300* (New york, 1963), 93 ff.

العصور الوسطى وعانت منه المسيحية الأمرين ، وترك آثاره البالغة على العلاقات بين اللاتين والأغريق عندما تقابلا وجها لوجه في الحملة الصليبية الأولى وما تلاها من حملات .

وقد بدا هذا الخلاف واضحا أيام جريجورى الكبير (٥٩٠ — ٦٠٤ م) الذى حول أسقفية روما فى أخريات القرن السادس إلى بابوية لها كيانها ومقوماتها . وكان هدفه من ذلك العمل على استقلال الكنيسة الغربية عن منافستها الشرقية . ووضع خلفائه السياسة التى ساروا عليها فى هذا السبيل . وتحقيقا لذلك نجد أن البابا الرومانى مارتين الأول (٦٤٩ — ٦٥٥ م) يقف فى أواسط القرن السابع موقفا صلبا تجاه الكنيسة الشرقية واتجاهاتها السياسية والمذهبية . وفى مجمع القسطنطينية المسكونى سنة ٦٨٠ م نجد أن بابوية روما تحرز انتصارا كبيرا على القسطنطينية عندما تقرر بطلان بعض عقائدها الدينية التى كان أباطرة بيت هرقل يعضدونها ويؤيدونها ، واعتبارها هرطقة (١) . بينما واجه البابا جريجورى الثانى (٧١٥ — ٧٣١ م) مشكلة الحملة على الأيقونات التى قام بها الامبراطور البيزنطى ليو الثالث الأيسورى سنة ٧٢٥ م (٢) . ونراه يتحداه

(١) Runciman, op. cit., 116; Sullivan, Heirs of the Roman Empire, 49, 50. والمجمع المشار اليه هو المجمع المسكونى السادس فى عهد الامبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع للقضاء على هرطقة جديدة . وفيه رفض مذهب التوفيق الذى يعرف بالمذهب المونوثليق ، وهو مذهب المشيئة الواحدة للمسيح الذى كان أعضاء أسرة هرقل ينادون به .

(٢) كانت هذه الحركة تستهدف تحريم عبادة الصور والايقونات وكسر التماثيل التى تمثل المسيح والعذراء والقديسين ، الأمر الذى أثار موجة من السخط والغضب فى غرب أوروبا التى كانت تعتبر عبادة الصور أمرا طبيعيا ورثته عن ديانتها الوثنية القديمة ، وكان استهلاكها من التقاليد المرعية فى الكنيسة الغربية . ويحتمل أن الدافع الأول لهذا الاجراء كان دينيا، =

تحديا صريحا ، ويشجع الرومانيين على إهمال قراراته . وتتخذ المعارضة شكلا قويا عندما أصدر البابا المذكور قراراً بحرمان الإمبراطور اللايقوني . ورد ليو عليه بخطوات أشد عنفا ، عندما قرر حرمان بابوية روما من حقوقها وأملاكها في صقلية وجنوب إيطاليا ، كما فصل جميع الكراسي الأسقفية عن روما وحولها إلى بطريق مدينة القسطنطينية . وهكذا أدى النقاش ضد الصور والايقونات إلى انفصام صريح بين روما والامبراطورية البيزنطية ، مما ترتب عليه ضعف سلطة بيزنطة في الغرب بعامة وإيطاليا بصفة خاصة ، وأصبح يمثل الإمبراطور في روما مجرد ظل لا حول له ولا طول (١) . ولم تلبث العلاقات بين المسيحيين في الشرق والغرب أن مرت بأزمة جديدة ، وكان ذلك في فترة حكم الإمبراطورة البيزنطية ايرين (٧٩٧ - ٨٠٢ م) . إذ قام البابا الروماني ايو الثالث بتتويج شارلمان إمبراطورا على الغرب ، وحول اليه رسميا تلك التبعية الشكلية التي كان حتى ذلك التاريخ يعترف بها للقسطنطينية . فكان هذا إيذانا خطيرا بفصم ذلك الارتباط الواهي الذي ظل قائما بين روما والقسطنطينية منذ

إلا أنه سرعان ما اصطبغ بصبغة سياسية . فاستغلت بابوية روما هذا الموقف لاثارة اللاتين ضد البيزنطيين الاغريق ، مما كان له أكبر الأثر في ازدياد هوة الخلاف والعدا بينهما ، واتساعها عبر القرون التالية . انظر : Runciman, op. cit., 44; Sullivan, op. cit., 99-102. ويرى بعض المؤرخين أن الثورة على الايقونات كانت بتأثير اسلامي مباشر عندما أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك بإزالة الايقونات الموجودة في الكنائس الواقعة داخل حدود دولته باعتبارها آثرا من آثار الوثنية القديمة . انظر : Ostrogorsky, Byzantine State, 142-4, 146-7. وكذلك : سيدة اسماعيل كاشف : مصر في عصر الولاة ، ص ١٢١ .

(١) وفيما يتعلق بتأثير السياسة الدينية التي انتهجها الأباطرة الأيسوريون على العلاقات بين بيزنطة وبابوية روما ، انظر :

S. Painter, Hist. of the Middle Ages (London, 1966), 45-7.

أيام الامبراطورية القديمة. (١) ومنذ ذلك الحين أصبحت توجد امبراطورية رومانية غربية بجانب الامبراطورية الرومانية الشرقية .

وأخيراً قام الاصلاح الكلوني في الغرب في القرنين العاشر والحادي عشر ، ينادى بأسبقية روما على القسطنطينية وعلى بقية الكنائس المسيحية الشرقية ، وينادى أيضاً بتجديد الدعوة البطرسية للسيادة البابوية العالمية . وبذلك أصبح الانفصال النهائي بين روما والقسطنطينية أمراً لا مندوحة عنه . وقد جاءت القطيعة النهائية في أثناء حكم البابا ليو التاسع من ناحية وبطرياركية ميخائيل كيرولاريوس Michael Cerularius من ناحية أخرى . وتوترت العلاقات الدينية والسياسية بينهما ، وتعمدت الأمور واضطربت الأحوال ، حتى إذا كان شهر مايو من سنة ١٠٥٤م انفصلت الكنيسة الشرقية والغربية عن بعضهما انفصالاً تاماً لا رجعة فيه ، وهو الذي يعرف عند المؤرخين باسم القطيعة الدينية الكبرى . وكانت هذه الخلافات هي التي أدت في القرون التالية إلى فشل المحاولات العديدة التي بذلت لتوحيد الكنيستين . ويقول أحد المؤرخين الغربيين المحدثين ، وهو ستيفن رانسمان ، إن قصة علاقات الكنيستين الكبيرتين قصة غير مشرفة للعالم المسيحي ، ولأنه ليس هناك من فائدة في محاولة تحديد الحق والباطل أخلاقياً أو تاريخياً (٢) . أما مارشال بلدوين فيرى أن هذه القطيعة تعتبر من أسوأ

(١) ديفز : شارلمان ، ص ١٦٨ - ١٨١ . وللعزید من التفاصيل أنظر هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٣٠ - ٣٥ و ١٩٣ - ٢٠٠ .

(٢) راجع من ذلك : Runciman, op. cit., 119-24; Setton, Hist. of the Crusades, I, 207-13; Daniel — Rops, La Cathédrale et la Crois., 493-4. أنظر كذلك هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية (الترجمة العربية)، ص ٢٣٣ و ح ١ . وعند تناول موضوع القطيعة الدينية الكبرى التي تمت سنة ١٠٥٤م،

الاحداث التي مرت بها المسيحية في تاريخها الطويل ، ولاتزال آثارها الخطيرة
باقية إلى يومنا هذا (١) .

وهكذا كانت المسائل الدينية والاختلافات المذهبية سببا لإثارة التخاصم
الدائم بين روما والقسطنطينية ، إذ أصرت كل منهما على أن تسود وجهة نظرها،
وعلى أن يكون لها الأسبقية على الأخرى ، وأن يكون لها أيضا السيادة الروحية
على العالم المسيحي بشقيه الشرقي والغربي . ثم أن هذا الخلاف لم يقتصر على تلك
المسائل المذهبية فحسب ، بل تعداها كما رأينا إلى أمور أخرى ظاهرها الغرض
الديني وحقيقتها الأطماع السياسية ، مما أدى إلى فشل جميع المحاولات التي بذلت
للاصلاح بين الطرفين . (٢)

يضاف إلى ما تقدم أن الامبراطور قسطنطين عندما أسس مدينة القسطنطينية
عند اتصال البسفور ببحر مرمرة ، أصبحت تلك المدينة عاصمة العالم الروماني أو
روما جديدة ، وانتقل إليها الإمبراطورة الرومان ، وأمسي الكرسي الامبراطوري
في روما القديمة خاليا . فكان هذا مما زاد العلاقات بينهما سوءا . إذ أصبحت روما

== يجب أن نفرق بينها وبين الشقاق الديني في الغرب الأوروبي في أخريات القرن الرابع عشر
وأوائل القرن الخامس عشر (١٣٧٨ - ١٤١٧ م) . فالشقاق الأول شقاق مذهبي سياسي
بين الكنيستين الشرقية والغربية أو بين القسطنطينية وروما ، بينما الثاني شقاق ديني في مظهره
سياسي في حقيقته وجوهره داخل الكنيسة الكاثوليكية الغربية نفسها ، أي كنيسة روما
اللاتينية . راجع عن ذلك : Waugh, Hist. of Europe, 105, 120 sqq.

(١) Baldwin, Med. Church, 93, 98.

(٢) أنظر فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١٧٥ . وقد تعرض
الدكتور عمر كمال توفيق لموضوع النزاع الديني بين روما والقسطنطينية والآثار المترتبة عليه في
العلاقات بينها في دراسة تحليلية واضحة في مؤلفه : تاريخ الامبراطورية البيزنطية (الاسكندرية
١٩٦٧) ص ٣٨-٤٠ .

وهي العاصمة القديمة للعالم الروماني تنظر بعين الحسد والغيرة والحقد الى القسطنطينية بحق وجود الأباطرة فيها ، ولما أصبحت تتمتع به من مكانة عظيمة ومركز ممتاز وتفوق ظاهر ومدنية زاهرة (١). هذا بينما كان العالم الغربي وقتذاك في حالة تنهؤ وانحيار في شتى مناحي الحضارة بسبب الغزوات الجرمانية المدمرة.

لقد اعتبر البيزنطيون أنفسهم بحكم وضعهم الجديد لا ورثة اليونان القدماء وحضارتهم الزاهرة فحسب ، بل ورثة الدولة الرومانية كذلك . واعتبروا الفرنجة والنورمان والألمان وغيرهم فروعاً من العناصر المتبربرة التي لا ترقى اليهم بمحال . كما اعتبروا امبراطورية شارلمان التي باركتها بابوية روما وأمدتها بتأييدها اغتصاباً واقتتالاً على حقوقهم (٢) .

وفضلاً عن هذا وذاك ، فقد كانت المسألة اللغوية عاملاً هاماً على وجود التنافر وفتح الشغرات لسوء التفاهم بين الغرب والشرق . فمنذ القرن السابع الميلادي اتخذت الامبراطورية البيزنطية طريقاً شرقياً هيلينياً خالصاً عندما أصبحت اليونانية هي اللغة الرسمية فيها وفي القسطنطينية بالذات ، في الوقت الذي كانت فيه اللغة اللاتينية في طور الاحتضار ، وأخذ العنصر الروماني فيها في الزوال بسرعة عجيبة (٣). هذا ، بينما أخذ المتكلمون باليونانية يقل عددهم قلة محسوسة في غرب أوروبا وفي روما بصفة خاصة . بمعنى أن الجزء الغربي من أوروبا اصطبح

(١) أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥ . راجع أيضاً :

Heer, Med. World, 100.

(٢) فشر: نفس المرجع والصفحة . راجع أيضاً هارتمان وباراكلاف: الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٢٢ - ٢٣ و ٣٤ - ٣٥ و ١٩٨ وما بعدها .

(٣) Runciman, op. cit., 44; Stanley, op. cit., 215-8. راجع أيضاً : أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١١ - ١١٣ ؛ شارلز وورث : الامبراطورية الرومانية ، ص ٢٢٥ .

بالصبغة اللاتينية البحتة ، بينما انطبع الجزء الشرقى بطابع هيلينى اغريقى خالص . كما اختلفت العادات والتقاليد فى القسمين اختلافا عجيبا بينا (١) . وقد بلغت هذه الحالة ذروتها فى الحملة الصليبية الاولى عندما نزل الفرنج فى اراضى الدولة البيزنطية . إذ تذكر آن كومنين ان اسماء أولئك الصليبيين كانت غريبة عليهم ، ولم يكن من السهل نطقها . وفى موضع آخر من كتابها تقول إن بيزنطة كانت تعتمد على المترجمين الذين يجيدون اللسان اللاتينى كواسطة بينهم وبين أولئك القوم ، وان أباهما الامبراطور لم يفهم من أحاديث اللاتين شيئا اللهم إلا من هممة شفاههم (٢) .

وبالإضافة إلى ما تقدم فقد كانت بيزنطة تشعر بشيء من القلق حيال اللاتين بصفة عامة ، وكانت نظرتها إليهم تشوبها الريبة وعدم الاطمئنان . إذ سبق أن استخدمتهم فى جيوشها كمرتزقة ، وهى تعلم جيدا مدى جشعهم وأطماعهم ، وانهم كانوا على استعداد للخدمة فى جيش أى حاكم أو أمير يغدق عليهم المال . وكانوا هم أيضا يعلون مواطن القوة والضعف فى البلاد . ثم أن الذكريات الآلية التى تركتها حملة روبرت جويسكار وابنه بوهيمند النورماندى فى اراضى بيزنطة قبل قيام الحملة الصليبية الاولى يبضع سنوات ، كانت لا تزال ماثلة فى الأذهان (٣) .

لقد كان سوء التفاهم متوفرا بين الفريقين ، وازداد العداء فيما بعد شدة نتيجة لمذبحة الايطاليين فى القسطنطينية سنة ١١٨٣ م . وبلغت الحالة نهايتها المريعة سنة

(١) Runciman, op. cit., 16-7; Baldwin, op. cit., 96. وحول
مشرق الامبراطورية البيزنطية فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الميلادى ، انظر
عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) Alexiad, 263, 264. - أنظر أيضا المقطعات المترجمة من كتاب الالكسياد
فى الملحق الثالث بآخر الكتاب .

(٣) سنعرض لذلك بشيء من التفصيل فى الصفحات التالية ، وكذلك فى الفصل الخامس
من الكتاب عند تعرض لحملة بوهيمند النورماندى .

١٢٠٤ م في الحملة الصليبية الرابعة التي قضت على الأمل الأخير لاتحاد حقيقي بين اللاتين والاعريق المنشقين في نظر الكنيسة الرومانية (١).

يتضح من هذه الالمامة السريعة أن العلاقات بين المسيحيين في الشرق والغرب قبيل الحركة الصليبية لم تكن قائمة على الود أو حسن التفاهم . فقد كان الاختلاف المذهبي ، والعامل اللغوي ، ثم التباين الحضاري ، وأخيرا حب السيطرة وعدم الثقة بين الطرفين - كانت كل هذه الخلافات والمفارقات سببا لإثارة النزاع الدائم بين الاعريق واللاتين ، حيث حل الجفاء بينهما محل الصفاء ، وبات كل فريق منهما ينظر إلى الآخر باعتباره عدوه اللدود . فكان اللاتين يحقدون على الاعريق المنشقين ويشكون فيهم وفي نواياهم ويحسدونهم على ثروتهم وحضارتهم ، بينما احتقر الاعريق الهراطقة اللاتين الأفظاظ . لقد كان كل فريق يعتقد أن الفريق الآخر مهرطق ، وكان كل منهما يمثل حضارة ذات طابع مخالف لحضارة الآخر . ولذا لم يفهم كلاهما صاحبه فهما تماما صحيحا ، وكان لهذا أثره الفعال في العلاقات بين الصليبيين والدولة البيزنطية عندما تم الاحتكاك بينهما منذ أواخر القرن الحادي عشر .

لم يكن إذن أول اتصال بين أهل الغرب والبيزنطيين وديا أو طيبا . ولهذا لم يستطع البيزنطيون تفهم حقيقة تلك الحركة الصليبية الواسعة النطاق . كما انزعجوا عندما علموا بوصول زعماء الفرنج إلى القسطنطينية ، وظنوا انهم إنما يريدون الاستيلاء على العاصمة البيزنطية وليس الأراضي المقدسة وفقا لرواية

(١) أنظر : Runciman, op. cit., 124-8. وفيما يتعلق بالآثار التي ترتبت على احتيلاء اللاتين على القسطنطينية في الحملة الرابعة وتأسيس امبراطورية لاتينية بها ، أنظر عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٩ والصفحات التالية .

آن كومنين (١) . لذا لم يأمنوا جانب الصليبيين واحتاطوا منهم . ولقد سلكت القوات اللاتينية - على حد قول بطرس الناسك نفسه - مسلك اللصوص وقطاع الطرق ، ولم يكن رؤسائهم بأفضل منهم . وتصفهم الأميرة آن كومنين - وكان عمرها أربعة عشر سنة عند وصول القوات الصليبية إلى بيزنطة - بأنهم قوم متقلبون لا يثبتون على رأى ولا يقفون على حال ، محبون للبال متمجرفون ، متغطرسون . وقد كتبت عنهم تقول : ان العنصر اللاتينى هو أكثر جميع الأمم جشعا وحببا للبال . وقد بهرم ثراء القسطنطينية وعظمتها ، فلم يزدحم هذا إلا طمعا فى الاستيلاء عليها . وفى موضع آخر من كتابها تقول : انهم يبدون كأطفال كبار قليلى التربية ، بدائيين نوعا . شديدى الثروة ، مزعجين للغاية ، وانهم لم يفعلوا شيئا لتهدئة الخواطر المستاءة من تصرفاتهم ، (٢) .

ولقد كان انشقاق عام ١٠٥٤ م الذى فصل الكنيسة الشرقية عن البابوية فى روما لا يزال حديث العهد فى أذهان المعاصرين . وهذا ما جعل الصليبيين الكاثوليك يشعرون بالكراهية والحقد والاحتقار نحو الاغريق الارثوذكس المنشقين فى نظرهم . ولما كان البيزنطيون يبالغون فى معاملة الصليبيين معاملة رسمية فحسب ، ويتمسكون بحرفية التقاليد فى مجاملتهم لهم ، شعر الصليبيون بأن مضيفيهم انما يجاملونهم بمعاملة سطحية غير صادرة من اعماق قلوبهم . فكان هذا فى نظرهم دليلا جديدا على عدم صفاء نياتهم نحوهم ، وكانوا يتوجسون

(١) وهذا يؤكد ما سبق أن ذهبنا إليه من أن الخطاب المنسوب إلى الكسيس كومنين ، والذى يقال إنه بعث به إلى روبرت أمير الأراخى الواطئة ، هو خطاب مزيف مدسوس عليه لتحقيق أهداف العدوان الغربى ضد العالم العربى والدولة البيزنطية على السواء .

(٢) Alexiad, 248, 250, 258, 263, 266. راجع أيضا الكتاب التالى:
Heer, Med. World, 96.

خيفة من أن يكون للبيزنطيين من وراء تلك المجاملات غايات خبيثة ونوايا سيئة . يضاف إلى ذلك أن الفرنج كانوا يغارون من البيزنطيين نظرا لتفوقهم عليهم في الحضارة والمدنية ، كما كانوا لا يثقون فيهم ويشعرون في نفس الوقت بعدم الاطمئنان إلى ذلك الوسط الجديد الذي انتقلوا إليه (١) . وهذا يفسر لنا موقف كل من الصليبيين والبيزنطيين حيال الآخر في الحملة الأولى ومضاعفاته في الاحقاب التالية . ومن هنا أيضا عندما قدمت عصابات جوتييه المعدم ومن بعدها جماعات بطرس الناسك ، وأخذت تعيث فسادا في أراضى الدولة البيزنطية ، لم تكن الظروف طيبة أو مواتية لحسن التفاهم . إذ سرعان ما احتاط الامبراطور البيزنطي للأمر ، ووضع الخطوط العريضة لسياسته حيالهم ، والتي كانت تهدف أولا وأخيرا إلى العمل على حماية دولته وعاصمته من مسلك هؤلاء القوم وتصرفاتهم المريبة .

لم يكن بطرس الناسك هو أول من وصل إلى القسطنطينية من أهل الغرب ، فقد وصل قبله جوتييه المعدم وجماعة من اللومبارديين والنورمانديين . ويظهر أنهم كانوا قلة بالنسبة للجيش الصليبي الأخرى التي جاءت بعدهم ، حتى أن مصادر العصر لم تشر إليهم إلا بإشارات سريعة خاطفة . ولم تترك هذه الجماعات أثرا يذكر في تاريخ العلاقات بين اللاتين والاغريق ، اللهم إلا الشكوك التي ساورت البيزنطيين حيال الفرنج بصفة عامة . وبعد ذلك وصلت عصابات بطرس ، وكانت كثيرة العدد قليلة العدد يعوزها النظام وحسن الإعداد . وقد فوجئ الامبراطور البيزنطي عندما علم بوصول هذه الجموع الغفيرة في غير نظام ، وانزعج بما أحدثته في أراضيه من أعمال التدمير ، الأمر الذي أكد شكوكه وخاوفه .

لقد وجد الامبراطور أن هذه المشكلة التي واجهته تتطلب إيجاد حل سريع ، قبل أن يستفحل الأمر ويتفاقم الخطر . حقيقة أن الكسيس لم يستدع الفرنج . ولكنه لم يكن يستطيع الحيلولة دون مرورهم عبر أراضي إمبراطوريته ، وهو الذي كانت تنقصه القوات الكافية للتصدي لهم وإبعادهم عن بلاده . وكان الهدف الذي يرمى إليه هو التخلص بأسرع ما يمكن من تلك الجماهير بعد أن وجد أنها ستشكل خطرا حقيقيا يهدد إمبراطوريته وعاصمته بصفة خاصة . لذلك عول منذ البداية على أن يرسم لنفسه خطة يسير عليها وبرناجا يهتدى به ، حتى يحفظ دولته من شر هذه الجيوش ، مع العمل على الانتفاع بها - إذا تيسر ذلك وفي الوقت المناسب - لخدمة مصالحه (١) .

وقد بدأت المعالم الأولى من خطة الكسيس تتضح خيوطها أثناء حملتي جوتييه المهدم وبطرس الناسك . فبعد أعمال العنف التي اقترفتها عصابات جوتييه في الأراضي المجرية وفي بيزنطة ، أخذ الامبراطور يفكر جديا كيف ينجو بدولته من عبث أولئك القوم ، وكيف يوقفهم عند حدهم إذا تمادوا في غيهم واستهتارهم . وتأكدت مخاوفه وشكوكه حيالهم بعد أعمال التخريب التي أحدثتها جماعات بطرس الناسك ، حتى أن أحد رؤساء الأساقفة البيزنطيين الذي شاهد بطرس ورجاله أثناء مرورهم عبر الأراضي البيزنطية ، قال يصفهم : « ان مرور أو غزو الفرنج ، ولا أدري أيهما الأصح ، قد أذهلنا وشغلنا إلى حد بتنا لانشعر معه بأنفسنا » (٢) . وكان هذا أمرا خطيرا يستدعي البحث والدراسة من جانب بيزنطة لمواجهة كافة الاحتمالات المتوقعة . ولم

(١) Diehl, IX, 17-8; cf. also Ostrogorsky, 322.

(٢) يدعى رئيس الأساقفة المشار إليه : d'Ochrida Theophylactr . أنظر : Diehl, IX, 18.

تسكن الدلائل أو المقدمات تبشر بأى خير . فكان لا بد للامبراطور من اتخاذ سياسة معينة مرسومة محددة المعالم محبوكه الاطراف ، وهو يعلم أن الجيوش الصليبية النظامية فى طريقها إلى عاصمة ملكه ، وذلك قبل حدوث مضاعفات جديدة قد تأتى على الأخضر واليابس . وكانت خطته تهدف إلى حماية دولته من عبثهم حتى ولو أدى الأمر إلى التخلص منهم مثلاً فعل عندما أرسل رجال بطرس إلى الضفة الآسيوية للبسفور حفظاً للقسطنطينية من تصرفاتهم ، فكان فى ذلك هلاكهم على أيدي السلاجقة (١) .

لقد نبهت هذه الحوادث الكيس إلى الخطر الذى سوف تتعرض له البلاد، وأعادت إلى الأذهان ذكرى الحرب التى شنها النورمانديون على الدولة البيزنطية قبل قيام الحرب الصليبية الأولى بوضع سنوات (١٠٨١ - ١٠٨٥ م) ، فأدانت بذلك جرحاً قديماً لم يندمل بعد . فلم ينس الكيس أن روبرت جويسكار دوق أبوليا النورماندى (١٠٥٧ - ١٠٨٥ م) وابنه بوهيموند قد هاجما إمبراطوريته وعرضاهما لخطر كبير (٢) . وقد علمته تلك الحروب الغربية الاقطاعية ألا يستهين بأولئك القوم، خاصة أنه هو وأسلانه قد لجأوا إلى استخدام جنود مرتزقة من الغرب فى جيوشهم . وقد تذكر كل هذا عندما انتهالت جحافل الفرنج النظاميين داخل الأراضى البيزنطية . ولذا كانت تصرفاته تدل بجلاء على أنه كان يخشى تهديدهم لبيزنطة ، وأنه كان يسعى جاهداً لحصر تيار هذه الحروب التوسعية ومنعها من الامتداد حتى لا تجرف فى طريقها كل شئ .

لم يدرك الامبراطور الأهداف الحقيقية البعيدة المدى التى قامت من أجلها

(١) أنظر فيما بعد ، الفصل الرابع من هذا الكتاب .

(٢) La Monte, The World of the Middle Ages (New york, (٢)

1949), 143-4, 259-60, 277-8, 323-4; S. Painter, A History of the Middle Ages, 284-1500 (London, 1966), 50, 197-8, 203.

الحركة الصليبية ، وهي انتزاع الأراضى المقدسة من قبضة العرب . ونظر إلى المسألة من وجهة نظر بيزنطية بحته (١) . وقد انتقد بعض المؤرخين مسلكه هذا انتقادا مرا ، ونسوا أن هؤلاء الصليبيين قد اعتدوا على أراضى الدولة البيزنطية ، ولم يتورعوا عن قتل الكهنة ورجال الدين بحجة أنهم هراطقة على حد قول بطرس الناسك نفسه وبعض مؤرخى الحملة من اللاتين والاميرة آن كومنين (٢) .

على أى حال ، انزعج الامبراطور البيزنطى بوصول القسرات الصليبية النظامية ، ولكنه وجد ألا مفر من مواجهة الأمر الواقع . ورأى بشاقب نظره أن يرحب بهم وألا يسئ معاملتهم طالما هم فى أراضيه ، وأن يعمل على استمالتهم اليه والانتفاع بهم لخدمة أغراضه وتحقيق مآربه السياسية والعسكرية . ولدى يكفل سياسته هذه النجاح استعان بالوسيلة المعروفة ألا وهى المال ، إذ كان الصليبيون قوم يشتهون المال . فلم يتردد الكسيس فى بذل مبالغ طائلة وثروات هائلة بغية إملاء إرادته عليهم . وبوصفه امبراطورا للدولة الرومانية الشرقية ، لم يقبل معاملة رؤساء الفرنج له ، وهم دونه فى المرتبة ، معاملة اللند للند . لذلك طلب اليهم أن يقسموا له يمين التبعية والولاء ، وهو قسم يقارب ما يؤديه المسود لسيد عن إقطاعه فى غرب أوروبا (٣) ، ليضمن بذلك تبعيتهم له

(١) فيما يتعلق بالفارق بين الحروب الصليبية التى بشرت بها بابوية روما والحروب التى أرادت بيزنطة ، وعدم التوافق فى الأغراض بينهما ، أنظر: سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤٠٥ ؛ فخر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٧٤ ؛ عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي ، ص ٨٧ وما يليها ؛ عمر كمال توفيق : الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة ، ص ٦ وما يليها و ٤٧ - ٤٨ ؛ مصطفى الشكعة : سيف الدولة الحمداني ، ص ١٣٨ - ١٤٣ .

(٢) Chalandon, Alexis Comnène, 161; cf. also Ostrogorsky, 321.

(٣) سنتناول هذا القسم بضم من التفصيل ، فيما بعد ، فى الفصل السادس من هذا البحث .
أنظر أيضا ما جاء من هذا القسم فى الملحقين الثالث والخامس بآخر الكتاب .

وخضوعهم لسيطرته وإذعانهم لمطالبه ، ولتقي شرهم أولاً وقبل كل شيء . لذا أغدق عليهم المال وأمدهم بنصائحهم وإرشاداته ، وزودهم بما يحتاجون اليه من مؤن وخلافه ، حتى يخلدوا إلى السكينة ويكفوا عن أعمال التخريب . وبالرغم من الصعوبات التي واجهته في بعض الأحيان ، استطاع تحقيق أغراضه وتطبيق سياسته تطبيقاً عملياً . فتمكن بالعطف واللين وبذل الهدايا وتوزيع المال حيناً ، وباستخدام القوة وفرض مراقبة الامدادات وقطعها عنهم حيناً آخر - تمكن بهذه الوسائل من الانتفاع بضيوفه المزعجين الثقلاء الذين لم يستنجد بهم ، وكان يريد التخلص منهم بأي وسيلة وفي أسرع وقت (١) .

ويمكن استنتاج سياسة الكسيس حيال الصليبيين من كتابات ابنته آن كومنين . فقد كان الامبراطور يتوجس خيفة من هذه الجيوش الغربية ومن أعمال العدوان التي قد تحدثها في دولته . وكانت خطته التي سار عليها هي المحافظة على بلاده من شرورهم ، ثم منعهم من التجمع أمام أسوار القسطنطينية حتى لا تتعرض للخطر . فكان عندما يعلم بقرب وصول فوج من الافواج الصليبية ، يبعث رجال من قبله للإعراب لهم عن حسن نواياه حيالهم ، وإدخال الطمانينة إلى نفوسهم . ولم تقتصر مهمة الرسل عند هذا الحد ، بل كانوا يقومون بدراسة أولئك اللاتين ومعرفة حقيقة أغراضهم ، ثم يزودون الامبراطور بكافة المعلومات اللازمة عنهم حتى يحتاط لنفسه ويدرك خطرهم (٢) .

وفضلاً عن ذلك فقد كان يرسل مندوبين عنه ليطالبوا من زعماء الفرنج منع

Diehl, IX, 18; cf. also Baynes & Moss, Byzantium, 29-30; (١)
Painter, op. cit., 203.

Chalandon, Première Croisade, 70-1. (٢)

جنودهم من إحداث الشغب في الأراضى البيزنطية ، ثم التوجه فوراً إلى العاصمة لمقابلة الامبراطور وحلف يمين التسمية والولاء له . كما كان سفراء الامبراطور يحيطون هؤلاء علما بأن أمرهم سيكون موضع عنايته ورعايته من حيث تهيئة وسائل الراحة وسبل العيش والإقامة لهم . وكان الكيس في نفس الوقت يرسل الكتائب من جنده لمراقبة الفرنج عن كثب حتى لا يجيدوا عن الطريق الذى رسمه لهم ، ولينعومهم من الاعتداء على الأهلين وممتلكاتهم إذا ما سولت لهم نفوسهم ذلك . وقد أنيط للقيام بهذه العملية جماعة البشنج Pechenegs (١) والكومان Kumans والتركوبول Turcoples (٢) ، وكانوا يعملون كمرتزقة في خدمة الدولة البيزنطية . وكان الجيش البيزنطى يلجأ في بعض الأحيان إلى استخدام العنف إذا ما هاجم الصليبيون قرية من القرى أو أعمال السلب في ضاحية من الضواحي : ويلاحظ أيضاً أن مجرم الجيش البيزنطى كان يحدث دائماً عقب اعتداء اللاتين على البيزنطيين . وغير ذلك فقد كان الامبراطور يصدر الأوامر والتعليمات إلى عماله في الأقاليم بفرض الرقابة المستمرة على الصليبيين خلال مرورهم عبر أراضى امبراطوريته ، وأن يخطروه أولاً بأول بتحركاتهم وسكناتهم حتى يكون على بينة من أمرهم . كما أوصى رجاله بأن يحسنوا استقبال قادتهم لاكتسابهم إلى صفه . كذلك كانت هناك قوات بيزنطية تسير في مقدمة ومؤخرة الجيوش الصليبية لتنظيم عملية سيرها ، فضلاً عن قوات

(١) يطلق عليهم أيضاً البجاناكية ، وهم من العناصر التركية التى عبرت الدانوب إلى جوف الامبراطورية البيزنطية . وفيما يتعلق بالمراجع التى تناولت تاريخ هؤلاء القوم في القرن الحادى عشر وعلاقتهم ببيزنطة ، أنظر :

Setton, Hist. of the Crusades, I, 181 n. 3.

(٢) وهما من القبائل التركية التى خدمت كمرتزقة في الجيش البيزنطى . أنظر عن ذلك :

Setton, op. cit., I, 215, 261, 354, sq., 359.

أخرى كانت تطوق هذه الجيوش أثناء مرورها . والهدف من ذلك هو الحيلولة بين الصليبيين وبين القيام بأى عمل عدائى ضد الدولة .

وقد اتبع الامبراطور الكسيس هذه السياسة التى رسمها لنفسه بحذافيرها مع جميع الجيوش الصليبية النظامية التى كانت تتوافد تباعا على عاصمة ملكه ، ونجح فى تنفيذها إلى حد كبير . كما أبدى صبرا عجيبا وجلدا زائدا فى معالجته للوقوف . وتوافد رؤساء الحملة الصليبية تباعا إلى القصر الامبراطورى حيث أقسموا له بيمين الطاعة والاخلاص ما عدا ريمون ديه سان جيل كونت تولوز وتنكريد ابن أخت بوهيمند لأسباب سياقى ذكرها فيما بعد . وجدير بالذكر أن فكرة أداء اليمين المذكور بين يدي الامبراطور البيزنطى لقتال السلاجقة تحقيقا لمصالحه ، قد لقيت معارضة شديدة من بعض رؤساء الحملة الصليبية وكبار رجالها ، بينما أسرع البعض الآخر بحلف هذا اليمين دون أية صعوبة إما بسبب حسن معاملة الكسيس لهم ، أو تحت ضغط الظروف الملحة . وكان هيوغ شقيق الملك الفرنسى هو أول من استجاب لرغبة الامبراطور . ولم يكتف بالالتزام بتعهداته له ، وإنما أضحى فيما بعد من أخلص أعوانه العاملين فى خدمته . وتبعه بعد ذلك رجال مثل جودفرى وبوهيمند وروبرت كونت نورمانديا واتين كونت بلوا الذى امتدح الامبراطور البيزنطى فى أحد خطاباتہ التى بعث بها من الشرق إلى زوجته فى "عرب" . (١) وكانت النتيجة أن عقد اتفاق بين الامبراطور والصليبيين تعهد اللاتين بمقتضاه أن يردوا لبيزنطة الأقاليم والمدن التى كانت من ممتلكاتها فى الماضى ، وذلك بعد الاستيلاء عليها . كما وعدهم الامبراطور بإرسال جيش

(١) 120-1. Chalandon, Première Crois., — أنظر الملحق الرابع

بآخر الكتاب .

بيزنطى لمساعدتهم وامدادهم بالمؤونة على طول الطريق (١) .

من هذا العرض يتضح أن خطة الكسيس حيال الصليبيين بعد أن تبلورت واتخذت شكلها النهائى ، كانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام أو ثلاث مراحل رئيسية هي :
أولا - كان هدف الامبراطور الاساسى هو المحافظة على دولته بما قد تحدثه هذه الجماعات الصليبية من أعمال النهب والتدمير . ومن الثابت الذى لا شك فيه أنه فكر فى ذلك عندما علم بوصول قوات بطرس الناسك ومن قبلها قوات جوتيه المعدم ، وما أحدثته فى أراضيه من اضرار . وكانت خطته التى اتبعها فى هذا الصدد هى فرض رقابة مشددة عليهم ، تلك الرقابة التى تعددت صورها ومظاهرها .

ثانيا - بعد ذلك عمل الكسيس جاهدا على منع الجيوش الصليبية المختلفة من التجمع أمام أسوار القسطنطينية حتى لا يودى هذا إلى تعريض العاصمة للخطر ، وحتى لا يجد نفسه مضطراً فى وقت ما إلى قتال أولئك القوم دفعة واحدة ، فيحدث ما لا تحمد عقباه . ويتضح من النصوص والوثائق التاريخية أن هذه الفكرة نبئت فى ذهنه بعد أن وصلت قوات جودفرى إلى القسطنطينية ، بينما كان جيش بوهيمند النورماندى فى طريقه إليها . فعمل الكسيس على أن يتصل بدوق اللورين السفلى ويتفاهم معه قبل وصول عدوه القديم بوهيمند ، حتى

(١) أنظر كتاب : Alexiad, 248-68. - هذا وسنتناول تفاصيل الخطة والاتفاق المنوّه عنها أعلاه بعين من الاسهاب والتحليل فى الفصول التالية من الكتاب . أنظر أيضاً الترجمة العربية لقسم الذى أداه الأمراء الصليبيون أمام الامبراطور البيزنطى نقلا عن كتاب المؤرخ المجهول فى الملحق الخامس بآخر الكتاب .

لا ينضم الجيش النورماندى إلى الجيش اللوثرانجى مما قد يترتب عليه تهديد العاصمة أو على الأقل أحداث ارتباك فيها .

ثالثا - بعد أن رسم الامبراطور سياسته على هذا النحو للحفاظ على امبراطوريته وعاصمته من عدوان الجيوش الصليبية ، رأى أن الحكمة تملى عليه الانتفاع بهؤلاء القوم واستخدامهم لمصلحته ، فيقذف بواسطتهم الرعب فى الجيوش السلجوقية التى كانت تناصبه العداوة ، ويحققوا له أغراضه السياسية التى تنحصر فى استرداد المناطق والأقاليم التى كان الأتراك قد استولوا عليها من بزنطة منذ عهد قريب . (١) وهناك أكثر من دليل على ذلك ، فنراه يستخدم الفرنج ضد الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى وفى الاستيلاء على نيقية ودوريليوم وغيرهما . وأغلب الظن أن فكرة استخدام الصليبيين لمصلحته لم تختصر فى ذهنه إلا متأخرا ، أو على الأقل أكثر ، بعد أن آمن جانبهم ، وبعد أن أقسموا له بيمين الولاء ، وبعد أن وجد العناصر العسكرية الكافية المدربة التى يمكنه الاستفادة منها . ولعله قد فكر فى الانتفاع بالآلاف المؤلفة من قوات بطرس الشعبية كما لو كانت جندا مرتزقة فى خدمته . ولكن الأمر لم يكن سهلا أو ميسورا وقتذاك بسبب ضعف هذه الجماعات من الوجهة الحربية والعناصر التى كانت تتألف منها . فقد أدرك الكسيس بثاقب نظره أنه لن يمكنه تلقى أية معاونة جدية من أولئك الحجاج الذين أحضرهم معه ذلك الناسك ، إذ كان معظمهم من الرهبان والنساء والشيوخ والأطفال . فضلا عن شراذم من القتلة والمجرمين وقطاع الطرق واللصوص ، بينما كان العنصر العسكرى معدوما فى

(١) Runciman, Byzantine Civilisation, 53; Daniel - Rops, 551.

جيشه ، وهو الأمر الذى يهيمه غاية الأهمية . (١) بل كان أشد ما يضايقه هو وجود مثل هذه العصابات المشاغبة . ولعل فكرة الانتفاع باللاتين قد علفت بذنه منذ وصول بطرس وقواته ، وأصبحت جزءا أساسيا من سياسته بعد وصول القوات النظامية .

ولأجل تنفيذ خطته بمراحلها الثلاث ، وفرض إرادته على الصليبيين ، استعان بالمال والحيلة الدهاء ، كما التجأ إلى القوة ولوح لهم بمسألة التمويل . ولقد كان لهذه الوسائل أثر فعال فى نجاح سياسة الكسيس . فأجزل لهم العطاء ، وأمنهم بالمؤونة والزاد ، وأحسن استقبال رؤسائهم ، وأغدق عليهم المنح والهدايا ، إلا أنه كان يشتد فى معاملتهم ويقطع عنهم التمويل عندما يحيدون عن جادة الطريق الذى رسمه لهم . فقد حدث أن قطع التمويل عن جيش جودفرى أكثر من مرة عندما رفض هذا الأخير حلف يمين الولاء . وأخيرا التجأ إلى القوة العسكرية وهاجمه وألحق به الهزيمة ، حتى أن الدوق اللوثارينجى اضطر فى نهاية الأمر عندما أصبح جيشه مهددا بالمجاعة والفناء إلى الإذعان لمطالب الامبراطور واجابة رغباته وحلف اليمين المطلوب .

وعلى الرغم من أن المؤرخين الغربيين المعاصرين لأحداث تلك الفترة من كانوا شهود عيان لها مثل المؤرخ المجهول وريمون داجيل وفوشيه ده شارتو ، قد اتهموا الكسيس بالغدر والخيانة والخبث والدهاء ، إلا أنهم أجمعوا على أنه أحسن إلى الصليبيين وأجزل لهم العطاء وأمدهم بالاقوات اللازمة . وقد ذكر

مؤرخ حملة بوهيمند أكثر من مرة أن البيزنطيين كانوا يمدون الفرنج بالطعام ويتبرعون لهم بالصدقات عند مرورهم بمدنهم (١) . ويمكن أن نلص من الخطاب الذي أرسله إتين كونت بلوا وشارتر إلى زوجته أديل بأوروبافى يونيو سنة ١٠٩٧ م من المعسكر الصليبي بالقرب من مدينة نيقية ، مدى كرم الامبراطور البيزنطى وحسن معاملته لهم، وعطف البيزنطيين عموما على الفقراء والمعوزين من الفرنج (٢) . وقد نهج المؤرخ البرت دكس نهج الفاروس إتين فى موقفه المحايد بين اللاتين والاعريق . وفى هذا كله اعتراف ضمنى بحسن نية الامبراطور والدولة البيزنطية إزاء اللاتين .

لقد شرحنا سياسة الكسيس حيال الفرنج والوسائل التى استعان بها لتنفيذ هذه السياسة ، ويحسن بنا أن نلقى نظرة سريعة على الجانب الآخر من الموضوع ، ونعنى موقف الصليبيين من الدولة البيزنطية .

ذكرنا أن الحركة الصليبية لم تكن قاصرة على أمة أو دولة أو جنس معين ، إنما اشتركت فيها جميع أمم الغرب الأوروبى من فرنسيين وإيطاليين وألمان وإنجليز وفلسكيين وغيرهم . واشتملت كذلك على عناصر من مختلف الطبقات ، فكان فيها النبلاء وكبار رجال الاقطاع والفرسان ورجال الدين ، وبجانهم أعداد غفيرة

(١) أنظر : Anonymi Gesta Francorum, Capitulum III, 147.

(٢) أنظر الخطاب المذكور فى : Stephani, comitis Carnotensis ad Adelem, uxorem suam, Epistola, R.H.C. - H. Occ., III, 885-6. أيضا فى : Hagenmeyer (Ed.), Epistolae et chartae, 138 - 40. ويحمد القارىء فى ختام الفصل الخامس ترجمة عربية لبعض فقرات الخطاب . أنظر أيضا الملحق الرابع بآخر الكتاب .

من عامة الشعب والعبيد وأرقاء الأرض والصوص والمجرمين وقطاع الطرق .
ولذلك فقد اصطبغت هذه الحركة بالصبغة العالمية إلى حد كبير ، كما اختلفت
أهواء ومشارب المشتركين فيها اختلافاً بينا عجبيا . أما الملاحظة الثانية فتتجلى
في أن الجماعات التي اشتركت في الحرب الصليبية الأولى كانت كثيرة العدد (١) ،
حتى لقد وصفتهم آن كومنين بأنهم قوم لا يعرفون النظام ، وأن في طبيعتهم شيء
من العنف والحدة والشراسة والاندفاع ، فضلا عن تقلبهم وعدم ثباتهم على رأي
أو حال (٢) . وهذا يفسر لنا سلوك هؤلاء الصليبيين اللاتين في الدولة البيزنطية .

لقد وجد الكثيرون في هذه الحركة ، وبخاصة العبيد والأقنان ، المنفذ المحقق
للافلات من أغلال الاقطاع وقيوده ونظمه التي كانت عبثا أثقل كواهلهم .
يضاف إلى ذلك أن البابا أربان الثاني كان قد وعد بغفران خطايا وآثام كل من
يشارك فيها ، وإن من يموت في سبيل المسيح يعتبر شهيدا وينهب إلى الجنة دار
الخلد والنعيم المقيم . كما ساهمت فيها عناصر كثيرة حبا للغامرة ورؤية بلاد
جديدة . ثم أن كل هذه الجماعات التي تتكون منها أغلبية الجيوش الصليبية كانت
جماعات غير منظمة ، لاسيما الحملات الشعبية الأولى التي كانت تتألف في معظمها
من عصابات من الغوغاء ليس لها مطامع سياسية واسعة . وقد اقتصر الدور
الذي قامت به على الاعتداء على السكان أو أعمال السلب في قرية من القرى
أو ضاحية من الضواحي . وقد أدى هذا في بعض الأحيان إلى توتر العلاقات

• One might have likened them to the stars of heaven or (١)
the sand poured along the edge of the sea • Cf. Alexiad, 263.

(٢) أنظر : Alexiad, 248, 251, 266.

بين بيزنطة والصليبيين ، ولكنه لم يؤثر تأثيرا عميقا في تطور العلاقات بينهما ، وسيترك هذا الدور الخطير ليقوم به رؤساء الفرنج وكبار رجالهم في الحملات النظامية .

وإذا انتقلنا إلى رؤساء الصليبيين وكبار رجال الاقطاع الذين اشتركوا في الحملة ، نلاحظ أن الذين لم يوقفوا منهم إلى ميراث اقطاعي واسع النطاق في بلادهم مثل بوهيمند النورماندى وبلدوين شقيق جودفري ، أصبحوا ينظرون إلى تلك الحملات الصليبية كوسيلة ناجحة لتأسيس إمارات جديدة يحكمونها في الشرق حسبما وعدهم البابا أربان الثانى . وخصوصا بعد أن وصلوا إلى القسطنطينية ، وبعد أن بهرهم ثراؤها الزائد وكنوزها الثمينة ، وهم قوم جشعون محبون للبال مغامرون يتطلعون إلى السيطرة والسلطان وامتلاك الأراضى كما وصفتهم الأميرة آن كومنين . (١) وسوف تتضح هذه النزعة بجلاء في علاقة رؤساء الصليبيين بالامبراطور الكيسى ، وفي مسألة انطاكية بالذات عندما قام النزاع بين بوهيمند والامبراطور ، والذي تطور فيما بعد إلى حرب مكشوفة بينهما .

ولهذا السبب ارتاب الكيسى في نوايا أولئك القوم ، وكان على حق في موقفه هذا ، إذا كدت أحداث السنوات التالية صدق مخاوفه . وليس أدل على ذلك من انحراف الحملة الصليبية الرابعة التى بشر بها البابا انوسنت الثالث بقصد الاستيلاء على مصر وبيت المقدس ، عن هدفها الرئيسى ومهاجمتها الدولة البيزنطية

(١) Alexiad, 266 . ويذكر المؤرخ ارنست باركر أن القوات الصليبية لم تعمل مستقلة عن مصالح بيزنطة فعسب ، بل صارت فى آخر الأمر معادية لها . انظر باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٠ .

واستيلائها عليها وتأسيس مملكة لانيينية بها استمرت أكثر من نصف قرن . فكان ذلك ثمرة أطاع أولئك القوم في دولة الروم الشرقية ، تلك الاطماع التي تكشفت منذ بداية الحركة الصليبية وحتى قبل قيامها في حملات جويسكار وابنه بوهيمند . ولذلك اعتبر بعض المؤرخين أمثال ادوين جون ديفز ، هذه الحملة وصمة عار في جبين المسيحية الغربية ونقطة سوداء في التاريخ الأوروبي الوسيط . وهم لهذا السبب لا يدخلونها في عداد الحركة الصليبية (١) .

ويقول المؤرخ شالندون إن بعض رؤساء الصليبيين كانوا من أهل الورع والتقوى ، وكانت حياتهم في الغرب تتم عن ذلك . ولكن لم يلبث أن زال هذا الشعور الديني الذي كانوا يظهرونه في أول الأمر ، وغلبوا المصلحة الشخصية على المنفعة العامة ، مما يؤكد ما سبق أن بيناه من أن دافع الدين والتقوى لم يكن العامل الأساسي في قيام الحركة الصليبية . ويستشهد المؤرخ على ذلك بسلوك وتصرفات بعض الزعماء أمثال جودفري وبلدوين وسان جيل وغيرهم (٢) .

(١) أنظر Davis, Invasion of Egypt, 1-3. ولهذا السبب أيضا جعل بعض المؤرخين مثل نورمان بينر سنة ١٢٠٤ م التي استولى فيها اللاتين على القسطنطينية هي نهاية الدولة البيزنطية . وحجتهم في ذلك أن الامبراطورية البيزنطية وإن كانت قد أهدت بعد ذلك واستمرت حتى أواسط القرن الخامس عشر ، إلا أن أحداثا ومؤثرات جديدة من الغرب جدت عليها ولم يعد للقسطنطينية نفسها من مجدها القديم إلا ظلا باهتا وشبها متهاككا . أنظر : بينر : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧١ - ٧٢ . راجع أيضا كلاري : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين - ترجمة وتقديم الدكتور حسن حبيشي (القاهرة ١٩٦٤) ، وبخاصة صفحات ٥٠ وما بعدها و ٧٦ وما بعدها و ٩٥ وما بعدها و ١٠٩ وما بعدها و ١٢٢ وما بعدها و ١٣٩ وما بعدها . هذا وترجع أهمية مذكرات روبرت كلاري أن مؤلفها اشترك في الحملة من بدايتها وشاهد بنفسه سقوط القسطنطينية في قبضة الغربيين .

(٢) Chalandon, Alexis Comnène, 162. أنظر أيضا باركر : الحروب

الصليبية ، ٣٢ و ٤١ .

يضاف إلى ذلك أن رؤساء الفرنج كانوا يتصفون بالكبرياء والصلف والغطرسة وصلابة الرأي حسباً وصفتهم ابنة الكسيس وحسباً كان يبدو من مسلكهم وتصرفاتهم . وكانوا ينظرون إلى البيزنطيين على أنهم هراطقة ، كما كانوا دائماً يشكون في نواياهم ومقاصدهم ، ولذلك لم يكن من السهل أن يتفاهم معهم الامبراطور . وقد صادف فعلاً صعوبات كثيرة في سبيل إقناعهم بوجهة نظره واخذاعهم لنفوذه وسيطرته . ولكنهم اضطروا في النهاية إلى الإذعان لرغبته بعد أن وجدوا أنفسهم في بلاد أجنبية لاحى لهم فيها ولا نصير . كما كانت العيون التي بعث بها الامبراطور لمراقبتهم تنبث من حولهم ، وأدركوا أنهم لن يستطيعوا القيام بأى عمل دون موافقته . ورأوا أن من مصلحتهم خطب وده والحرص على مساعدته لهم ، وعرفوا أن حياتهم متوقفة إلى حد كبير على كلمة يتفوه بها الامبراطور . ففى إمكانه أن يسهل لهم مسألة التكوين ، وفى وسعه أن يقطع عنهم هذه الامدادات وأن يجيهم إذا حادوا عن الطريق الذى حددده لهم ، أو أعمالوا النهب والتدمير أو أحدثوا الشغب والاضطراب . وامتداد الجيش بالمؤونة أمر له اعتباره وتقديره عند هؤلاء القوم . لهذه الأسباب وتحت ضغط هذه الظروف ، وجد رؤساء الجيوش الصليبية أنه لا مفر من قبول شروط الامبراطور وحلف يمين التبعية والولاء له . وفعلوا تم ذلك وعقدوا معه اتفاقاً فى مايو سنة ١٠٩٧ م ، ذلك الاتفاق الذى ستكون له نتائج بعيدة المدى فى تاريخ العلاقات بين اللاتين الكاثوليك والاعريق الارثوذكس .

لقد حقق الكسيس جانبا رئيسيا من خطته بمحافظته على دولته من هوان الفرنج ، والاتفاق مع زعمائهم الذين أقسموا له يمين الإخلاص . ومع ذلك

فإن الاتفاقية المذكورة لم تنفذ روحاً ونصاً ، وبخاصة عندما ثارت في الأفق مشكلة انطاكية وما ترتب عليها من مضاعفات في الأحقاب التالية ، الأمر الذي دفع مؤرخاً مثل كارل ستيفنسون إلى القول إن سياسة الكسيس قد فشلت لأنها لم تكن عملية أو صعبة التنفيذ ، ولكن بسبب سوء تصرفه حيال الأفرنج (١) والحقيقة أن خطة بيزنطة قد نجحت في بداية الأمر بفضل شخصية الكسيس نفسه الذي أجل سقوط دولته في أيدي اللاتين قرابة قرن أو يزيد . ولكن الخطة فشلت آخر الأمر بسبب أطماع اللاتين في بيزنطة وأملأها القديمة ، ونتيجة لطباعهم الخشنة وسوء سلوكهم .

وتحدثنا آن كومنين عن تصرفات أولئك القوم في الدولة البيزنطية بإفاضة وإسهاب . فقد كانت القسطنطينية تعج بهم ، وقد سلكوا فيها متسلكاً شائناً ، وكانوا لا ينجعلون من شيء ، تنقصهم العزيمة وقوة الإرادة لمقاومة نزعاتهم وشهواتهم وأطماعهم . وقد ذكرت كيف كانوا يؤمون القصر من الصباح الباكر ، فيدخلون وحاشيتهم على الإمبراطور دون أدنى مراعاة للذوق والتقاليد المرهية ، وكانوا لا يتركون للإمبراطور من الوقت إلا ما يكاد يكفي لتناول إفطاره . وقد شرحت كذلك كيف كانوا في مساء نفس اليوم يلاحقونه حتى باب غرفة نومه ليطلبوا منه تقوداً أو ليسألوه في إسداء نصيح أو جميل أو حتى لجرد التبسط في الحديث .

وهناك أمثلة أشد غرابة من ذلك ، نذكر من بينها أنه اتفق في يوم استقبال وسمى أن ذهب أحد كبار الأفرنج من البارونات فجلس على عرش الإمبراطور الذي

ظل واقفا متظاهرا بعدم رؤيته . وحين سحبه السكونت بلدوين أخو جودفري من كه ايبيده إلى مكانه ، مبينا له أنه يجدر بالمرء إذا ما وجد في بلد غريب أن يحترم عاداته وتقاليده ، إلتصب البارون واقفا وأخذ يتطلع إلى الامبراطور في شيء من السخرية والاحتقار وهو يتمم بلغة بلاده : « أنظروا ، ها كم مخلوقا يبق جالسا ، بينما كل هؤلاء القادة العظام واقفون » . ولم تغب عن الكسيس تمتمة هذا اللاتيني المتعطر س . فاستدعى أحد المترجمين ممن يجيدون اللسان اللاتيني ، وعرف منه مضمون ما تفوه به البارون المذكور . ومع ذلك ترك الحادثة تمر بسلام وكان شيئا لم يقع ، دالا على دهائه وصبره وبعد نظره وسعة حيلته وحسن تصرفه . واكتفى بعد انتهاء الاحتفال بأن انتحى جانبا بذلك الرجل الفرنجي موبخا إياه قائلا له ما معناه إنه بوسعه إبراز قوته وعضلاته ليس في بزنطة ، وإنما في القتال المرتقب ضد الأتراك (١) .

كيف تفسر سلوك هؤلاء الصليبيين ؟ الواقع أن ذلك يرجع إلى حد ما إلى أنهم لم يبلغوا المستوى الحضاري والثقافي والفكري الذي كان يتمتع به البيزنطيون ، وإلى طباعهم الخشنة وأخلاقهم الفظة (٢) . كما أن السياسة التي وجد الكسيس نفسه مضطرا لاتباعها معهم ، من حيث فرض الرقابة عليهم ، وبث العيون من حولهم لتتبع حركاتهم ورصد سكناتهم ، ومطالبتهم بأداء اليمين ، ومضايقتهم بمسألة التموين - تركت أثرا سيئا في نفوسهم . فلم يستسغ أولئك اللاتين هذه

(١) Alexiad, 263-4; cf. also Diehl, IX, 21-2. - ويذ كرشارل ديل (قس المرجع والصفحة) أن الكسيس أبدى صبرا عجيبا مقرونا بالحرس والمذر حبال الفرنج والأحداث التي مرت بها دولته ، وأنه ترك أجل الأثر في نفوس عدد منهم ، مثل لاتين كونت بلوا وشارتر .

Heer, Med. World, 98. (٢)

السياسة ، وساءم أن يعاملهم الامبراطور هذه المعاملة ، وكانوا من وجهة نظرم ينتظرون أن يعاملهم الكسيس معاملة أحسن من ذلك بكثير، حتى أنهم نشروا عنه وعن الإغريق عامة بعد عودتهم إلى الغرب أسوأ دعاية بين مواطنيهم كانت لها مضاعفاتها فيما بعد .

وسنرى في الصفحات التالية إلى أى حد نجح إمبراطور بيزنطة في تنفيذ سياسته عندما أصبح وجهها لوجه أمام القوات الصليبية الشعبية والنظامية ، والآثار التي ترتبت على احتكاك اللاتين الكاثوليك بالروم الأرثوذكس أثناء الحملة الأولى وفي الأحقاب التالية .

الفصل الرابع

الحملة الشعبية والكسيس كومنين

في العقود الأولى من القرن السابع الميلادي ظهر الاسلام في شبه الجزيرة العربية يدعو الناس بصفة عامة إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام ، والعرب بخاصة إلى الاتحاد والتآلف والمحبة ونبذ الفرقة والخلاف . ولم تمض بضعة سنوات حتى كانت هذه الدعوة الجديدة قد تمكنت ودانت لها كافة القبائل العربية التي أصبحت ترى فيها رمز وحدتها وشعار مجدها وأمل مستقبلها . وعلى هذا الأساس قامت الدولة العربية الفتية ، وخرجت من جزيرتها الصغيرة للفتح دفاعاً عن كيائها ونشرا لدعوتها وتأميناً لها من مناوشات جيرانها ومضايقاتهم المستمرة على الحدود . وانطلقت وراء حدودها لتضطرم بالدول المتاخمة لها . وكان من الطبيعي أن يبدأ الصراع بينها وبين دولة الروم ، ذلك الصراع الذي انتهى في سنوات قليلة باستيلاء العرب على الولايات الشرقية التابعة لهذه الدولة . فامتلكوا بلاد الشام وشرق آسيا الصغرى ومصر وشمال افريقية ، وواصلت جيوشهم تقدمها حتى وصلت إلى اسبانيا . وقام العرب بعدة محاولات في أخريات القرن السابع وأوائل القرن الثامن بقصد الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، ولكن لم يقدر لها النجاح بسبب متانة العاصمة ومناعة أسوارها (١) .

(١) من المراجع الحديثة عن الصراع بين العرب والروم منذ الفتح العربي حتى أوائل القرن الثامن ما يلي: Ostrogorsky, Byzantine State, 98-100, 103-5, 111-2, 142-7; Hussey, Byzantine World, 26; Diehl, L'Empire Byzantin, 52-4, 59; idem, Byzance, 9; Bailly, Byzance, 134; Baynes & Moss (Eds.), Byzantium, 308-10; Sullivan, Heirs of the Roman

هكذا كان الصراع سجالا بين العرب والروم منذ الفتح واستمر حتى القرن التاسع الميلادي ، وقد اقتضته الضرورة السياسية سلامة دولة العرب . وفيه وقفت بيزنطة موقف الدفاع عن نفسها بسبب الضعف الذي دب في أوصالها ، في وقت كانت فيه كفة العرب هي الراجحة (١) .

واستمر الحال هكذا إلى أن اعتلت الأسرة المقدونية عرش بيزنطة (٨٦٧ - ١٠٥٩م) ، فحدث انقلاب في ميزان القوى في المنطقة . إذ أخرجت هذه الأسرة عددا من الأباطرة الأقوياء الذين أخذوا على عاتقهم مهمة استرداد أملاكهم القديمة . وكان في مقدمتهم بازيل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦ م) مؤسس الأسرة ، وقسطنطين السابع (٩١٢ - ٩٥٩ م) ، وابنه رومانوس الثاني (٩٥٩ - ٩٦٣ م) ، وقفور الثاني فوكاس (٩٦٣ - ٩٦٩ م) ، ويوحنا تيمسكيس (٩٦٩ - ٩٧٦ م) ، وبازيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) . ففي عهدهم بلغت دولة الروم ذروة قوتها في القرون الوسطى . فاستتبت الأمور في الداخل ، بما سمح لأباطرتها بالتفكير في التوسع وبسط نفوذهم على حساب جيرانهم العرب ، فقامت بين الدولتين الحروب التي أحرزت فيها دولة الروم عدة انتصارات . وقد تحول مجرى تلك الحروب أيام بازيل الأول لمصلحة البيزنطيين ، ولو أن نتائجها كانت ضئيلة في بادئ الأمر . واستمرت هذه الانتصارات في عهد قسطنطين السابع الذي

Empire, 26, 29-30, 32; Atiyah, The Arabs, 32 sqq.; Gibb, Mohammedanism, 2 sqq.; Hitti, Hist. of the Arabs, 147 sqq., 160 sqq., 212 sqq., B. Lewis, The Arabs in History (London, 1958), 36 sqq., 49 sqq.

راجع أيضا ابراهيم أحمد المدوي : الأمويون والبيزنطيون (القاهرة ١٩٦٣) ، ص ٥٣ وما بعدها و ٨١ وما بعدها و ٢١٢ وما بعدها و ٢٢٤ وما بعدها .

(١) أنظر: على الحروب على: محمد والقومية العربية ، ص ٤٩ و ٥٢؛ جوزيف نسيم يوسف: الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ٢ .

استولى على مدينة حلب لفترة قصيرة عادت بعدها إلى العرب . ووصلت قوة
بيزنطة مداها أيام تقفور فوكاس الذى استولى على صقلية وقبرص وانطاكية
وبعض المدن فى آسيا الصغرى . بينما بلغت القوات البيزنطية حدود اورشليم
وبغداد فى عهد سلفه يوحنا تزمسكيس أو حنا الشميشق كما تسميه المراجع
العربية (١) .

وما ساعد بيزنطة على تحقيق تلك الانتصارات انها كانت فى أحسن حالاتها
فى الداخل والخارج . هذا فى الوقت الذى انتاب فيه العالم العربى بعض الضعف
والوهن . إذ دب الانحلال السياسى فى جسم الدولة العباسية التى انقسمت إلى
دويلات متعددة متنافرة . فقامت دولة الحمدانيين بالشام على اكتاف سيف
الدولة الحمدانى ، واستقل الطولونيون ومن بعدهم الاخشيديون بمصر ، وقامت
الحلقات بين الاخشيديين والحمدانيين . بينما ظهرت العناصر الفارسية التى أخذت
توطد نفوذها على حساب سلطان العباسيين ، وتستأثر بالسلطة الفعلية من
دونهم . وأصبح الخليفة العباسى العوبة فى أيدي الأمراء البويهيين ، ليس له من

(١) أنظر عن ذلك : Runciman, Byzantine Civilisation, 46 — 8; Ostrogorsky, 251 — 2, 257 — 8, 263 — 4; Bloy, Constantinople et Byzance, 13 — 49, 64 — 9, 108 — 10, 113 — 24; Atiya, Crusade, Commerce and Culture, 32—4.

راجع أيضا عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١١ وما بعدها ،
ومقدمات العدوان الصليبي ، ص ٦ وما بعدها و ٤٧ وما بعدها و ١٠١ وما بعدها و ١١١
وما بعدها و ١٤١ وما بعدها ، والامبراطور تقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة ، ص
٢٦ وما بعدها ؛ السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٢٩٣ — ٢٩٤ ، ٣٢٩ — ٣٣٣
و ٣٥٥ — ٣٥٦ و ٣٦٣ — ٣٧٣ و ٣٧٧ — ٣٨٤ و ٣٨٩ — ٤٠١ ، و ٤١١ — ٤٣٣
و ٤٧٢ — ٤٨٤ و ٥٢٢ — ٥٢٦ ؛ مصطفى الشكعة : سيف الدولة الحمدانى ، ص
١١٨ — ١٣٨ .

الحلقة سوى الاسم . فكان لهذا بطبيعة الحال آثاره السيئة على حدود العرب المشتركة مع بيزنطة (١) .

هكذا بلغت دولة الروم ذروة مجدها أيام الأسرة المقدونية في وقت ضعف فيه العرب وتشتت قواهم وتفتت وحدتهم ، مما حال دون مواصلة تقدمهم في أوروبا ، حتى لقد اعتبر أهل الغرب بيزنطة حامية أوروبا المسيحية الغربية ضد العرب في الشرق (٢) . ولكن بعد انقراض هذه الأسرة حلت محلها في الحكم أسرة ضعيفة هي أسرة دو كاس (١٠٥٩ - ١٠٨١ م) . وقد عمت الفوضى واضطربت الأمور داخل البلاد من جديد ، بسبب ضعف الجيش وانشغاله في المنازعات الداخلية والحروب الأهلية . فكان هذا مما شغل الأباطرة عن مواصلة حروبهم في الخارج . وانتهاز الأعداء المتربصون بها هذه الفرصة ، قاموا بتوجيه الضربات إلى حدودها الغربية والشرقية . فاستولى النورمان بقيادة روبرت جويسكار على مدينة باري جنوب إيطاليا سنة ١٠٧١ م ، ثم عبروا البحر الأدرياتي إلى سواحل البلقان . وكان جويسكار يفكر جدياً في غزو القسطنطينية نفسها ، إذ قام في عام ١٠٨١ م بمحاولة فاشلة لتنفيذ هذا المشروع الذي يعتبره بعض المؤرخين المحدثين من الحروب التوسعية الاقطاعية التي تركت أثراً سيئاً في نفس الكسيس ورعاياه ، سيبدو واضحاً عندما احتك اللاتين بالروم في الحرب الصليبية الأولى ، في وقت كانت فيه العلاقات بين الفريقين قائمة على الريبة والشك وسوء التفاهم .

(١) عمر كمال : الامبراطور تقيفور فوكاس ، ص ٨ - ١١ ، ومقدمات المدوان الصليبي ،

ص ٤٧ - ٨٦ .

(٢) راجع بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٧ . وقد ردد هذه الفكرة معظم المؤرخين المحدثين والاشتغلين بالتاريخ البيزنطي وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى .

وفي هذا الوقت بالذات تجميع الأتراك السلاجقة (١) على حدود أرمينية البيزنطية استعدادا لغزو آسيا الصغرى التي كانت لا تزال تحت حكم بيزنطة . وقد بدأ هذا العنصر التركي هجومه على أملاك الدولة الفاطمية بالشام . وكانت دولة الفاطميين في ذلك الحين في طور الاحتضار ، فالسلطة الفعلية في أيدي الوزراء والخلفاء معهم لا حول لهم ولا طول ، وليس لهم من الخلافة سوى الاسم . وكان في استخدام هؤلاء الوزراء للقب « الملك » إشارة إلى تلك السلطة الضخمة التي استأثروا بها (٢) . وفي ظل هذه الظروف استولى السلاجقة على مدينة بيت المقدس من الفاطميين سنة ١٠٧٠ م (٣) . ثم اتجهت جحافلهم نحو آسيا الصغرى حيث ألحقوا بجيوش الامبراطورية البيزنطية في السنة التالية هزيمة منكرة في موقعة ملاذكرد . وفيها تمكن السلطان السلجوقي ألب أرسلان من إلحاق شر أنواع الهزيمة بالامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV Diogenes (١٠٦٨ - ١٠٧١) . ويعتبر المؤرخ ستيفن رانسيان سنة ١٠٧١ التي سقطت فيها مدينة باري في قبضة النورمان ، والتي انتصر فيها التركمان على الروم في ملاذكرد ، نقطة تحول في التاريخ البيزنطي (٤) .

(١) حول السلاجقة والتعريف بهم وقيام دولتهم، أنظر عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق (القاهرة ١٩٥٩) ، ص ١٦ وما بعدها .

(٢) راجع عن ذلك ابن الأثير : الكامل في التاريخ (مجموعة الحروب الصليبية) ج ٤ ، ص ٥٥٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٤٠-٤٢ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ و ٣٤٥ - ٣٤٦ و ٣٦٣ ؛ أبو اليمن العليمي : الألس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٧٢ . انظر أيضا جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص ٢٧ وما بعدها .

(٣) القرطبي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣ ؛ ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨ - ٩٩ .

Runciman, op. cit., 51-2; cf. also : Oman, Art of War, (٤) I, 218-23; Ostrogorsky, 303-5; Daniel-Rops, 504-6; Mahmud, Story of Islam, 121-2.

وواصل الأتراك تقدمهم على حساب بيزنطة بعد أن أنفتح الطريق أمامهم في آسيا الصغرى ، فاستولوا على ازميز ونيقية ودوريليوم . ولم تأت سنة ١٠٧٥ م حتى وقعت مدينة انطاكية في قبضتهم ، وأضحت البلاد تواجه خطر هجومهم على القسطنطينية نفسها . وبدأ كما لو كانت بيزنطة عاجزة تماما عن وقف زحفهم داخل أراضيها . وهكذا اجتاحت السلاجقة آسيا الصغرى كلها ، وأحدثوا فيها النهب والتدمير ، وأحالوا الأراضي الزراعية إلى صحارى قاحلة ، وأتلفوا الطرق والقنوات . ذلك أنهم قوم رعويون لم يختصوا بزراعة الأرض وحرثها ، فلم يهتم كثيرا أن تتلف هذه الأرض . ونتيجة لما تقدم بات من العسير على الامبراطورية استرداد هذه المقاطعات ، بينما أدى ضياعها إلى فقدان بيزنطة مركزا حربيًا ممتازا ومصدرا هاما للحبوب والغلل . ثم انها لم تعد حامية الغرب الأوروبي كما كانت من قبل . واصبحت الحاجة ماسة إلى الاعتماد على الجند المرتزقة من أهل الغرب لصد خطر هذا العنصر التركي (١) . وفعلًا نرى الامبراطور مينخائيل السابع (١٠٧١ - ١٠٧٨) يطلب من بابا روما جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) العون والمساعدة لصد السلاجقة (٢) ، تلك الفكرة التي كادت أن تخرج على شكل حملة غربية لمساعدة بيزنطة ضد

(١) Runciman, op. cit., 52. — ويذكر شارل أومان أنه بعد موقعة ملاذ كرد وانتصارات الأتراك السريعة المتلاحقة على حساب الجناح الشرقى من الامبراطورية البيزنطية ، أصبحت القوات المرتزقة تكون الجانب الرئيسى من الجيش البيزنطى ، بعكس الحال أيام الأسرة المقدونية . وأصبح الفرنجة والبارديون والأتراك والبجائكية يكونون فرقا دائمة فى هذا الجيش . وكان الأباطرة يستأجرونهم فى الغالب من الامراء التابعين لهم ظهير مبالغ من المال .
أنظر كتاب : Oman, Art of War, I, 223

(٢) ويقول استروجورسكى إن هذه الدعوة أُنشئت آمال البابا لبذل المزيد من الجهود فى سبيل اتحاد الكنيستين على أساس السيادة العالمية لروما ، بعد قطيعة ١٠٥٤ م .

أولئك القوم ، لولا منازعات البابوية مع القوى العثمانية وعلى رأسها
الإمبراطور الألماني هنري الرابع .

وفي ظل هذه الظروف السيئة التي أحاطت بدولة الروم الشرقية من كل
جانب ، أنقرضت أسرة دوкас لتحل محلها أسرة كومنين (١٠٨١ - ١١٨٥ م) .
وكان أول أباطرتها هو الكسيس الأول كومنين (١٠٨١ - ١١١٨ م) ، الذي
عاصر الحملة الصليبية الأولى ، وكانت له فيها جولات ووصلات مع العرب
واللاتين على السواء . كان الكسيس بشهادة جميع المؤرخين القدامى ، وعلى
رأسهم ابنه آن ، رجل دولة ممتاز ، سياسيا محنكا من الطراز الأول ، يعرف
جيدا كيف يعالج الأمور والأزمات التي تواجهه ، وكيف يعد لكل أمر عده ،
وكيف يهيئ نفسه لكافة الاحتمالات . كان شديد الذكاء والفطنة والدهاء ، بعيد
النظر ، واسع الأفق ، خبيرا بمجريات الأمور والأحوال في كل من العالم
العربي والغرب الأوروبي ، مما ترك أكبر الأثر في توجيه سياسة بيزنطة في فترة
حكمه وإبعاد الأخطار المحدقة بها ، أو على الأقل تأجيل حدوثها . وقد رأينا أنه
لولا السياسة المرونة الحارمة التي اتبعها حيال اللاتين ، لوقعت البلاد في قبضتهم
مبكرا في آخريات القرن الحادي عشر . ولا شك أن الفضل يرجع إليه في تأخير
وقوعها في قبضة اللاتين حوالي قرن من الزمان ، عندما استولوا عليها في الحملة
الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ م ، وأحالوها إلى إمارة لاتينية تضاف إلى مستعمراتهم
المنهارة في الأراضي المقدسة (١) .

(١) جدير بالذكر في هذا المقام أن أباطرة بيزنطة قد امتازوا بصفة عامة بمعاملة السياسة
والدهاء والحكمة وبعد النظر . فضلا عن قوة شخصياتهم وأخلاصهم لبلدهم . فقد حرصت تلك
الدولة منذ البداية على ألا تبقى السلطة في قبضة حكام ضعاف يسيثون إليها ، بل جاهدت على
أن تكون السلطة دائما في قبضة رجال أشداء أقوياء يعرفون كيف ينهضون بها . وكانت =

لوحة رقم ١

ἡ ἐκκλησία τοῦ σώματος τοῦ Χριστοῦ
ἡ ἡλικία τοῦ σώματος τοῦ Χριστοῦ
ἡ ἐκκλησία τοῦ σώματος τοῦ Χριστοῦ
ἡ ἐκκλησία τοῦ σώματος τοῦ Χριστοῦ



الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين أمام المسيح

على أية حال ، لقد اتخذ الكيس الامبراطورية مما حل بها من ضعف واقسام في الداخل . وبعد أن دانت له السلطة أخذ يحارب بلا انقطاع في جميع الجبهات الخارجية . فتمكن بالحرب تارة والسياسة تارة أخرى من إبعاد النورمان عن دول البلقان بعد حروب دامية مع جويسكار وابنه بوهيمند استمرت من سنة ١٠٨١ م إلى ١٠٨٥ م (١) ، تلك الحروب التي اعتبرها بعض المؤرخين مقدمة للحركة الصليبية ، والتي تساعد على تفسير موقف بيزنطة من اللاتين الذين كان النورمان يؤلفون جانبا كبيرا منهم (٢) .

واجبات الامبراطور ومشاغله ومهام الحكم وأعباءه تلتهم كل وقته . وكان في العادة جنديا محاربا . ويتضح هذا من موقف الأباطرة البيزنطيين من القبائل والأجناس المتبريرة التي شقت طريقها في جوف الامبراطورية الرومانية الشرقية عبر الدانوب . وتتلخص هذه السياسة في توجيه تلك العناصر من بيزنطة غربا إلى إيطاليا ، فلما حدث عندما حاول القوط الغربيون تحت قيادة ملكهم المسمى الاريك اكتساح مقدونية في سنة ٤٠٠ م ؛ إلا أن بيزنطة تمكنت من إلحاق الهزيمة بهم سنة ٤١٠ م . فاضطر هؤلاء أن يبحثوا لهم عن مكان آخر يلتمسون فيه سبل العيش والإقامة ، فاتجهوا غربا إلى إيطاليا . ومثل آخر نراه في سياسة أسرة كومنين حيال الصليبيين الغربيين . إذ أن موقف الكيس كومنين ومن آتى بعده من الأباطرة البيزنطيين حيال أهل الغرب اللاتين كان له أكبر الأثر في الإبقاء على الدولة البيزنطية وعدم سقوطها في قبضة الغرب عند بداية الحركة الصليبية ، أو على الأقل تأجيل وقوع هذا الحدث قرابة قرن من الزمان عندما استولى عليها اللاتين في الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ . وهذا ما يمكن أن يقال أيضا بالنسبة لسياسة بيزنطة حيال جيرانها العرب والسلاجقة في الجبهة الشرقية ، وكذلك موقفها من جيرانها البلغار والآفار والروس والسلاف . أنظر عن ذلك هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى ، ص ٨ - ٩ . أنظر أيضا المراجع التالية .

Katz, Decline of Rome and Rise of Mediaeval Europe, 91-2; Runciman, Byzantine Civilisation, 81 - 2; Barker, Social and Political Thought in Byzantium, 21; Diehl, Byzance : Grandeur et Décadence, 53 ff., 67 ff.; idem, Histoire de l'Empire Byzantin, 139 ff.

Runciman, op. cit., 52; Ostrogorsky, 316-7; Setton, (١) Hist. of the Crus., I, 213-4; Daniel-Rops, 511-2.

Baynes & Moss, Byzantium, 28. (٢)

وفي تلك الاثناء أخذت الدولة السلجوقية تتحول إلى دول إقليمية صغيرة على رأس كل منها حاكم يتبع السلطان السلجوقي الأعظم ملك شاه في بغداد . وكانت فتوحاتها لا تزال مستمرة في آسيا الصغرى على حساب بزنطة . وقد حاول الكيسيس دون جدوى وقف زحفهم ، وباتت عاصمته معرضة لخطر هجومهم عليها بين وقت وآخر . لذلك لم يبدأ من الاتجاه صوب الغرب والبابوية في روما - وهي صاحبة الزعامة الروحية بين الأمم اللاتينية - للاستنجاد بهم ضد السلاجقة والعمل على وقف تيارهم ، مثلما فعل سلفه مينخائيل السابع . فبعث رسله إلى البابا أربان الثاني وإلى كبار رجال الاقطاع يدعوهم لإرسال المساعدات لنجدة إخوانهم في الشرق وحماية القسطنطينية ضد الخطر السلجوقي . وكان من الطبيعي أن تصادف هذه الطلبات هوى من البابا ومن الشعوب المسيحية الكاثوليكية في الغرب الأوروبي تحقيقاً لأطماعهم في كل من العالم العربي والدولة البيزنطية (١) .

تلك هي الحال التي وصلت إليها دولة الروم في الفترة السابقة لقيام الحركة الصليبية . محاولات عديدة في كلا الجهتين الغربية والشرقية هدفها اقتطاع أملاكها ، وعيون متجهة إليها تنتظر الفرصة المواتية للانقضاض عليها . فالنورمان وغيرهم من العناصر اللاتينية لهم معرفة سابقة بأحوالها وراثتها الفاحش عن طريق الجند المرتزقة الذين كانوا يعملون في خدمتها . والسلاجقة يعملون أيضاً مدى الضعف الذي انتابها هي والخلافة الفاطمية في مصر في ذلك الحين ، وباتوا يتحينون اللحظة المناسبة للقيام بهجومهم الكبير في المنطقة .

(١) أظن ما سبق من ٥٢ - ٥٤ من هذا الكتاب ، وكذلك الترجمة العربية لخطاب الامبراطور الكيسيس إلى أمير الأراضى الواطئة في الملحق الأول بآخر الكتاب .

هذا ولو أن الحرب الصليبية الأولى قد أعاقتهم عن تنفيذ مشروعهم بعد أن أصبحوا وجها لوجه أمام اللاتين القادمين من الغرب .

وفي غمرة هذه الأحداث التي كان العالم العربي ودولة الروم مسرحا لها، بدأت البابوية في روما تفكر جديا في نقل ميدان الحروب المسيحية المقدسة من الغرب اللاتيني إلى الشرق العربي . وفعلًا نرى أربان الثاني ينتهز هذه الظروف المواتية ليعلن مولد الحركة الصليبية في كليرمون في أخريات عام ١٠٩٥ م .

وكان هذا البابا يرى أن جيشا صليبيا منظما تحت رعاية روحية واحدة وقيادة عسكرية موحدة ، سيكون للحملة المزعومة التقدم والنجاح . ولعله عندما فكر في إرسال قوات إلى الشرق ، كان يعنى جيشا إقطاعيا منظما ، بخلاف تلك الجيوش الفردية غير المنظمة التي عرفتها أوروبا في حروب التوسع الإقطاعي التي سبقت قيام الحركة الصليبية . ونستشف ذلك من الإجراءات التي اتخذها بعد إعلان الحركة في كليرمون ، ومن جولاته الدينية التي قام بها في بلدان الغرب الأوروبي قبل عقد هذا المجلس في الفترة من أبريل إلى منتصف نوفمبر ١٠٩٥ م ^(١) . ولكن تعليماته في هذا الصدد لم تنفذ بدقة ، مما كان له أسوأ الأثر بالنسبة للحملة الشعبية التي سبقت قيام الجيوش النظامية . ذلك أن دعاة الحركة والمبشرين بها من أمثال بطرس التامسك ، سمحوا لكل من حمل الصليب بالتوجه إلى الأراضي المقدسة ، مما ترك أثره بالنسبة للعناصر المختلفة التي انضمت إلى الحملة . فقد وجدنا فيها أعدادا غفيرة من طعام الشعوب والمعوزين ورقائق الأرض ، فضلا عن المجرمين والمساجين وقطاع الطرق والقتلة واللصوص الذين لم يكن لهم بطبيعة الحال أي وازع ديني أو أي علم بفنون الحرب والقتال . هذا إلى

(١) أنظر مقال « الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية » ، ص ٢٠٢-٢٠٥ والحواشي .

جانب عدد من صغار النبلاء ممن كانت تدفعهم بدون شك الاطماع الشخصية ، ولم يهتموا بالغرض الديني بل اتخذوا منه مسوحا لتحقيق غاياتهم ، شأنهم في ذلك شأن العناصر الأخرى التي اشتركت في الحملة (١) .

وعلى هذا الأساس انقسمت الحملة الصليبية الأولى إلى قسمين متباينين متميزين عن بعضهما تماما : القسم الأول ويمثل الحملات الشعبية ، والثاني وهو الحملات النظامية التي قادها أمراء الاقطاع . وكانت الحملات الشعبية ، على شكل مجموعات مختلفة تحت زعامة أشخاص عديدين مثل جوتييه المعتمد ، وبطرس الناسك ، وفولكار ، وجوتشالك ، وغيرهم .

وكانت حملة جوتييه (٢) هي أول حملة شعبية قامت من أوروبا . فلم يرغب هذا الرجل في انتظار بطرس الناسك وجماعته ، بل سافر على رأس جيش من حوالي ٥٠٠٠ شخص يتكون من الطبقات المعتمدة من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال . وعندما بلغ هو ورجاله بلاد المجر ، أمر ملكها المدعو كولومان (٣) تزويدهم بما يحتاجون إليه من الأقوات . ولما وصلوا مدينة سملين Semlin

(١) Hitti, History of the Arabs, 636. — راجع أيضا جوزيف لسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ١١ - ١٢ .

(٢) فيما يتعلق بحملة جوتييه المعتمد ، انظر كتاب البرت دكس :

Albert d'Aix, R.H.C. — H. Occ., IV, 274-6.

ويعتبر ما جاء في الكتاب المذكور هو التاريخ المعاصر المسهب عن تلك الحملة ، وإن كان صحة ما أورده ماثرة وتساؤل . ويبدو بوضوح أن دكس أستقى معلوماته من شاهد عيان يحتمل أن يكون قد وضع مذكرات عن تلك الحملة وقلدت ولم تصلنا . أنظر من ذلك :

Runciman, Hist. of the Crusades, I, 121 n. 1.

(٣) يطلق عليه وليم الصوري Rex Colemanus . أنظر : Guillaume de Tyr, R.H.C. — H. Occ., I, lep., 47-8.

الواقعة على الحدود المجرية البيزنطية ، وقعت بينهم وبين المجرين مناوشات بسيطة لم تؤثر تأثيرا عميقا في العلاقات بين الطرفين . ثم واصلوا بعد ذلك سيرهم ، فعبروا نهر الساف Save ودخلوا أراضي الدولة البيزنطية حيث عاثوا فيها فسادا ، واصطدموا بالبيزنطيين الذين رفضوا إمدادهم بالموثون بسبب تهورهم وسوء مسلكهم . ولكن العلاقات عادت فتحسنت بينهما ، ومروا بعد ذلك بمدن نيش وصوفيا وأدرنة . وأخيراً في العشرين من مايو سنة ١٠٩٦ م بلغوا مدينة القسطنطينية التي سمح الامبراطور البيزنطي لهم بالإقامة في ضواحيها ، في انتظار وصول قوات بطرس الناسك وبقية الجيوش الصليبية (١) .

لقد أثارت عصابات جوتيه المعدم مخاوف بزنطة وشكوك الكسيس كومنين ، وأخذ منذ ذلك الحين يفكر جديا كيف ينجو بامبراطوريته من شرور هذه الجماعات وكيف يعاملها ، وكيف يستميلها اليه ويستعين بها في الوقت المناسب ، وأخيراً كيف يوقفها عند حدها إذا تمادت في غيها واستهتارها . وسيبدو هذا جليا في معاملة الامبراطور البيزنطي لبطرس ورجاله الذين كانوا في طريقهم إلى عاصمة ملوكه .

ولا خلاف أن مقدمة الحروب الصليبية تدور فعلا حول شخصية بطرس

(١) يلاحظ أن معظم المؤرخين اللاتين قد انحازوا صراحة إلى جانب الفرنج ضد البيزنطيين . فنجد مثلا البرت دكس يمدح جوتيه المعدم ويلقي اللوم على الاغريق فيما يتعلق بالأحداث التي وقعت بين الفريقين . وقد ورد ولیم الصوري مقاله البرت في هذا الصدد . أنظر :

Albert d'Aix, R. H. C.-H. Occ., IV, 275—6; Guillaume de Tyr, op. cit, 47-9; cf. also Runciman, Hist. of the Crusades, I, 122 — 3.

الناسك (١) ، تلك الشخصية الغامضة التي كان لها أكبر الأثر في قيام الجيوش الشعبية . ولا نعلم الكثير عن حياة هذا الناسك قبل الحرب الصليبية . ويعتقد أنه ولد في بلدة أميان Amiens شمالي فرنسا أو في ضواحيها . ويحتمل أن يكون قد سافر إلى الأراضي المقدسة ، ثم قفل عائداً إلى أوروبا دون أن يتمكن من الوصول إلى بيت المقدس بسبب مضايقات السلاجقة . وهناك من يقول إنه حج فعلاً إلى أورشليم ، وشاهد مضايقات السلاجقة للحجاج الغربيين ، وأخذ بعد عودته يثير شعور العالم المسيحي في غرب أوروبا ضد العرب في الشرق . ولا شك أن في وصف بطرس الإسماعيل التي لحقت بأولئك الحجاج كثير من المبالغة التي كانت تجد صدًى وتجاوباً في النفوس . (٢) وتقول الرواية إنه أخذ يحث دول أوروبا على غزو بيت المقدس ، وكان لدعايته أكبر الأثر في إشعال الحماس الديني في الغرب ، وفي التغاف الناس حوله لتخليص قبر المسيح (٣).

(١) كان معاصروه يعرفونه باسم « بطرس الضئيل » نظراً لضعفه . ولكن غطاء الرأس الخاص بالنسك الذي اعتاد إلبسه أضفى عليه لقب « الناسك » الذي اشتهر به في التاريخ . أنظر : Runciman, op. cit., I, 113.

(٢) Runciman, Hist. of the Crusades, I, 113. ونعرف من وثائق تلك الفترة أن الحجاج الأوربيين كانوا يقومون بحجهم إلى الأراضي المقدسة وهم هادئين مطمئنين دون أن يلحقهم أذى أو بصيهم مكروه ، وذلك عندما كانت بيت المقدس خاضعة للعرب . فقد اشتهروا بسعة صدرهم وتسامحهم الصادق في أمور الدين وفي الحريات الشخصية ، ولم يحدث أن تعرضوا للحجاج الغربيين الذين كانوا يرتادون الأراضي المقدسة بسوء حسبا ذكرت أبواق دعايتهم في أوروبا وقتذاك . فقد انطوى الدين الإسلامي على روح التسامح والمحبة ولا سيما مع أهل القمة والحجاج الغرباء . وإن كان أولئك الحجاج قد لقوا بعض المضايقات على أيدي السلاجقة ، فذلك لأن هذا العنصر كان حديث العهد بالإسلام ، ولم يكن قد تفهم بدمعانيه السامية وأن ما فاساه الحجاج اللاتين على أيدي البيزنطيين ، وهم المسيحيين الأغريق ، قد فاق بكثير ما لقيوه على أيدي التركمان ، وهم في طريق رحلتهم إلى أورشليم . أنظر : Atiya, Crus., Commerce and Culture, 39-40. Alexiad, 248-9; cf. also : Runciman, op. cit., loc. cit; (٣) Grousset, Crois., I, 5.

وكما كانت مسألة ذهابه إلى القدس موضع خلاف بين المؤرخين ، كذلك لا يوجد تحت أيدينا ما يؤكد أنه حضر مؤتمر كليرمون الديني ، أو أنه اتصل بالبابا أربان الثاني بخصوص الدعوة للحملة . فهذه كلها مجرد فروض واحتمالات تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث ليس هنا مجال الاقاضة فيها (١) .

وكيفما كان الأمر ، فقد كان بطرس هذا رجلاً شديد الذكاء ، قوى الإرادة ، يميل إلى الخشونة والزهد والتقشف في ملبسه ومأكله ، وفي حياته الخاصة والعامة . كما كان شديد الحماس ، يمتلك كل مواهب الخطيب الشعبي ، حتى أنه كان بمقدرته تحريك الشعوب بخطبه النارية وإثارة روح التعصب الكامنة فيهم ، وكانت شعوب الغرب المسيحي تعتقد أنه قديس وأن إرادة الله قد حلت فيه .

وأما عن صفاته الجثمانية ، فقد كان قصير القامة ، أسمر اللون ، مسناً بعض الشيء وقت قيام الحملة . وكان لا يأكل الخبز ولا اللحوم ، وغداؤه الوحيد السمك وقليل من النبيذ (٢) .

وكان جيش بطرس البالغ عدده قرابة ٧٠٠٠ (٣) يتكون من فرنسيين وألمان وفلنكيين ، وغالبية من المعدمين وأرقاء الأرض ، ومن الرهبان والشيوخ

(١) فيما يتعلق بأسطورة بطرس الناسك ودوره في الدعوة إلى الحركة الصليبية ، أنظر مقال : « الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية » ، ص ١٩٥ - ١٩٦ والحواشي .

(٢) Grousset, L'épopée des Crois., 12; Daniel-Rops, op. cit., (٢) 548; Runciman, op. cit., I, 313.

(٣) تذكر آن كومنين في كتابها *الالكسياد* (ص ٢٥١) أن عددهم بلغ ثمانين ألفاً من المشاة ومائة ألف من الفرسان . ولا شك أن هذا الرقم مبالغ فيه إلى حد كبير . وهذه ظاهرة ملحوظة عند المؤرخين العرب واللاتين في العصور الوسطى ، إذ كانوا يبالغون في ذكر أعداد الجيوش والقوات المحاربة ، وعدد القتل والأسرى في المعارك التي يخوضون غمارها .

والنساء والأطفال ، الذين لم يكن لديهم أى خبرة بفن الحرب والقتال واستعمال الأسلحة . وكان كل ما يحمله معظمهم هو العصي والفؤوس وغير ذلك من أدوات الحرث والزرع التى لا تقاس بما تتطلبه مثل هذه الحروب من استعداد كاف ومن عدة وعتاد . وقد اتجهوا نحو الشرق دون أن يعرفوا ما هم قادمون عليه من عمل وقضحيات ، أو يقدروا بعد الشقة ومسافة الطريق التى سيقطعونها ، أو حتى يفكروا فى أهم مشكلة من مشاكل الحرب فى أى عصر من العصور ، ونعنى بها مشكلة التموين ، التى ستكون سلاحا فعالا فى يد الامبراطور البيزنطى السكيس كومننن يشهره فى وجوههم كلما حادوا عن جادة الطريق ، أو عاثوا فسادا فى أراضى دولته .

على أى حال ، بدأ بطرس دعوته من غربى فرنسا متجها إلى الشرق حيث لاقت نجاحا عظيما فى نفوس أتباعه . ونزل هو وعصاباته التى ينقصها النظام وحسن الإعداد على سهول أوروبا وبلاد المجر والدولة البيزنطية ، وقد بدا منظرهم كأنهار عذبة وقد تدفقت مياهها بشدة من كل جانب . (١) ولم يكفوا منذ أن تركوا أوطانهم فى الغرب إلى أن نزلوا فى بيزنطة عن أعمال السلب وإشاعة الفوضى .

وقد مروا فى طريقهم بمدينة سملين (٢٠ يونيو ١٠٩٦) التى هاجموا وخربوها ، ثم استولوا عليها وقتلوا عددا كبيرا من سكانها المجريين . ويلقى المؤرخ اللاتينى البرت دكس اللوم والمسئولية على عاتق المجريين لاعتدائهم قبل ذلك على رجال الحملة الشعبية الأولى بقيادة جوتيه المعدم التى سبق أن مرت بأراضهم ، وثانيا لتآمرهم مع البيزنطيين على الغدر بالصليبيين . (٢) ويتناول

Alexiad, 249. (١)

Albert d'Aix, R.H.C.—H. Occ., IV, 276. (٢)

المؤرخ الفرنسى فرديناند شالندون هذا الرأى بالنقد والتحليل ، متبها البرت
دكس بالتحيز إلى جانب الفرنج . ويقول إن هؤلاء القوم مسئولون عن كل
ما حدث . ويعزز رأيه بمساوىء الصليبيين وأعمال العنف التى قاموا بها أثناء
مرورهم بالمانيا وغيرها من البلاد ، ثم العناصر المختلفة التى كانت تتكون منها
هذه الحملة الشعبية . (١) ولعل هذا الرأى هو الأقرب إلى الصواب نظراً لطبيعة
هؤلاء القوم واختلاف أهوائهم ومشاربهم . فقد تميزوا بعنادهم وطباعهم
الحادة وتهورهم الشديد واندفاعهم السريع . وكانوا يفقدون سيطرتهم على
أنفسهم لآتفه الأسباب (٢) .

والمهم أن حادثة سملين هذه مستوثر تأثيراً كبيراً فيما سيتلوها من أحداث .
فن ناحية سنرى كولومان ملك المجر يعامل الحملات الشعبية الأخرى معاملة
صيفة ، وستكون علاقته بزعماء الحملات النظامية مشوبة بالحيطة والحذر وعدم
الاطمئنان . ومن ناحية أخرى سيضطر البيزنطيون إلى اتباع سياسة حازمة حيال
الصليبيين جميعاً دون استثناء .

وعندما علم الفرنج باعتزام المجرين الانتقام منهم لما فعلوه بمدينة سملين ،
بادروا بعبور نهر الساف وكان ذلك فى ٢٦ يونيو ، ومروا ببلفراد . ولما سمع
أهل بلفراد بحوادث سملين ، تركوا المدينة خوفاً على حياتهم من شرور الفرنج
الذين أعملوا فيها السلب ، ثم واصلوا سيرهم إلى مدينة نيش التى بلغوها فى ٣ يوليو
وأقاموا أمامها . (٣)

(١) أنظر : Chalandon, Première Crois., 70—1.

(٢) Alexiad, 251.

(٣) تقع مدينة نيش على نهر مورافا فى قلب شبه جزيرة البلقان . أنظر أومان :

الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٦ .

ولما علم الامبراطور الكسيس بنزول اتباع بطرس في الاراضي البيزنطية. وما أحدثوه في الطريق ، رسم لنفسه سياسة معينة يسير عليها ليحمي امبراطوريته من عبث هؤلاء القوم الذين لم يكونوا يعرفون معنى الطاعة أو النظام . فأصدر أوامره إلى عماله على الأقاليم بمراقبتهم، وبث من حولهم الميون حتى لا يحميدوا عن الطريق المرسوم . وأمر بامدادهم بالزاد على طول الطريق بشرط التزام الهدوء . وكانت تعليماته إلى رجاله صريحة باستخدام القوة ضد الفرنج إذا عاثوا فسادا في أراضيه . وقد صاحبهم بعض الأشخاص الذين يحميدون اللاتينية للتفاهم معهم، وللعمل على تسوية أى خلاف قد يقع بين الفريقين . (١)

وبينما كان الصليبيون يعسكرون في ضواحي مدينة نيش قامت المفاوضات بين نيكيتاس Nikitas الحاكم البيزنطى على مقاطعة الدانوب وبين زعيم الفرنج . وأعرب الحاكم البيزنطى عن استعداده لإمدادهم بما يحتاجون اليه إذا لم يحدثوا أى شغب وقدموا الرهائن الكافية لضمان حسن نياتهم . وتم الاتفاق بين الطرفين على هذا الأساس، وسله بطرس الناسك الرهائن من الشخصيات البارزة في جيشه . ولم يحدث طيلة اليوم أى اعتداء من جانب الفرنج على المدينة ، حتى أن السكان أخذوا يوزعون عليهم الطعام ، ويجودون بالصدقات على البؤساء منهم . وقد أقاموا أمام نيش يوما واحدا دون حدوث ما يعكر الجو . وفي مساء ذلك اليوم أعاد الحاكم البيزنطى الرهائن التى كانت في حوزته الى بطرس . وبعد ذلك سرعان ماهاجم الفرنج مدينة نيش وأشعلوا النيران في ضواحيها . فلم يجد الجيش البيزنطى بدا من التدخل . ونشبت موقعة بين الجيشين قتل فيها كثير من الصليبيين، كما وقع عدد كبير منهم اسرى في قبضة البيزنطيين . وقد استولى الرعب على الجيش الصليبي الذى تشتت شمله ، حتى أنه لم يبق مع بطرس سوى بضع مئات ، بينما هرب

الباقون خوفا من أن يعمل فيهم جنود الامبراطور الذبح والتقتيل . واضطر الصليبيون - بعد أن قطع عنهم التموين - إلى الالتجاء إلى الحقول المجاورة للمدينة للحصول على ما يلزمهم من طعام . وبعد انتهاء الموقعة عمل بطرس على لم شمل جيشه ، ثم واصل سيره حتى بلغ مدينة صوفيا حوالي ٨ يوليو ١٠٩٦ م ، ولم يقع أى حادث خلال الطريق .

وفي تلك الأثناء كان الامبراطور الكسيس قد أحيط علما بوصول بطرس الناسك إلى صوفيا ، وبما أحدثه جنوده في كل من سملين ونيش من اضطرابات . فأوفد من قبله رسلا لمقابلته . وقد تمت المقابلة في صوفيا بين بطرس والرسال الذين أعربوا له عن حسن نية الامبراطور ، وأفهموه أن سيدهم يحذر عليه هو واتباعه الإقامة في أية مدينة أكثر من ثلاثة أيام . ووعدوه بامداده بما يحتاج إليه من مؤن إذا كفت عصاباته عن إحداث الشغب .

بعد ذلك واصلت العصابات الصليبية سيرها ، فمرت بمدينة فيليبوبوليس Philippopolis (١٧ - ١٨ يوليو) حيث أحسن إليها أهلها ، ومنها تقدمت إلى أدرنة (٢٤ - ٢٥ يوليو) . وهناك قابل بطرس مبعوثا ثانيا من قبل الكسيس أعرب له عن رغبة الامبراطور في رؤيته والتحدث إليه . وأخيرا وصل الزعيم الصليبي وعصاباته إلى القسطنطينية دون وقوع حوادث أخرى ، وكان ذلك في أول أغسطس من سنة ١٠٩٦ م .

وعندما وصل بطرس وجماعته إلى العاصمة البيزنطية ، وجدوا أن بعض القوات الصليبية الأخرى بقيادة جوتييه المعدم قد سبقتهم إليها . كما نزلت بالعاصمة جماعات من شمال إيطاليا ومن جنوبيها . وقد اتفق بطرس وجوتييه على توحيد قواتهما ، وتم التفاهم على أن تعمل الجماعات الإيطالية أيضا تحت إمرة بطرس .

غير أنه لا توجد أدلة ثابتة على أنهم قبلوه رئيساً عليهم . بل على العكس ، نجد أن اللومبارديين الذين عبروا آسيا الصغرى يبدو عليهم دلائل الفوضى وعدم النظام . ووجد بطرس أن مهمته غير سهلة في مثل هذه الظروف ، فقد أخذ عدد القوات التي تحت إمرته في الازدياد ، خاصة وأن القادمين الجدد لم يعترفوا بسلطته عليهم . وعلى الرغم من ذلك ، كان الجميع يميلون إلى تحميله مسؤولية ما آلت إليه الحملات الصليبية بسبب الدور الذي قام به حتى ذلك الوقت (١) .

كيفما كان الأمر ، عندما وصل بطرس إلى العاصمة ، ذهب لمقابلة الكسيس . وقد علت الدهشة وجه الامبراطور عندما رأى أمامه رجلاً في مسوح الرهبان ، بينما كان ينتظر رؤية قائد حربي . وقد رحب به الكسيس ، وأغدق عليه المنح والهدايا وغمره بالذهب والمال . كما أمر بتزويده بالمؤن ، وأسدى إليه النصيح بالتزام الهدوء والتريث أمام القسطنطينية إلى أن تصل الجيوش الصليبية الأخرى التي كانت في طريقها إلى العاصمة ، لأنه كان يعرف ضعف عصابات بطرس من الوجهة الحربية (٢) .

ويقول المؤرخ شالندون إن الكسيس كان يرغب في الانتفاع بأولئك الحجاج الذين قدموا مع بطرس ، ولكنه أدرك بثاقب نظره أنه لن يمكنه تلقي أية معاونة جدية منهم . فقد كان معظمهم من الرهبان والنساء والشيوخ والأطفال ، بينما كان العنصر العسكري معدوماً في جيشه (٣) .

Guillaume de Tyr, R.H.C. - H. Occ., I, lep., 56-7; cf. (١)

Chalandon, Première Crois., 75-6; Runciman, op. cit., I, 125-7.

Runciman, op. cit., I, 127; Chalandon, op. cit., 69—77. (٢)

Chalandon, op. cit., 75; cf. Oman, Art of War, I, 272. (٣)

ولكن الفرنج - وكانوا إذ ذاك يعسكرون في ضواحي العاصمة - لم يلبثوا أن عادوا إلى سياسة القرصنة ، وكان مسلكتهم شائنا وتصرفاتهم غير حميدة . ويبدو أن الكسيس لم يسمح لهم بدخول العاصمة لزيارة معابدها وكنائسها وآثارها . فقد كانت القسطنطينية تعج بالنفائس والكنوز ، (١) وهو يعلم سلفا جشع أولئك القوم وأطماعهم . وقد برهنوا فور وصولهم على ميلهم للفوضى . فنهبوا بعض قصور المدينة ودور اللهبها ثم أشعلوا النيران فيها ، وانتزعوا طبقات القصدير التي كانت تغطي واجهات الكنائس وقاموا ببيعها للرهبان (٢) . وغضب الامبراطور غضبا شديدا ، وضاق ذروعا بتصرفات بطرس وجماعته ، وخاف على عاصمته من عيبتهم خاصة بعد أن بهرتهم كنوزها . ورأى نفسه مضطرا إلى تغيير خطته حيالهم حماية لعاصمته منهم وحفظا لها من عدوانهم ، فبادر بنقلهم إلى جنفة البسفور الآسيوية (١٧ أغسطس ١٠٩٦م) حيث يمكنهم انتظار الجيوش الصليبية الأخرى القادمة من الغرب .

وأخذ الأسطول البيزنطي في نقل الفرنج إلى المكان الجديد الذي حددته الامبراطور لهم ابتداء من ١٧ أغسطس ، وقد استغرقت هذه العملية بضعة أيام . وما يؤسف له أنه ليست لدينا أية معلومات عن هذه الفترة التي مر عليها المؤرخون من لاتين وبيزنطيين مرور الكرام .

وعلى الرغم من ذلك فبعد عبورهم البسفور إلى آسيا الصغرى ، لم يتوقفوا لحظة واحدة عن ارتكاب الآثام ، كما أعملوا السلب في المنازل والكنائس .

(١) جدير بالذكر أن المؤرخ فوشيه ده شارتر قد بهر بالنفائس والكنوز التي شاهدها في العاصمة البيزنطية ، وسجل ذلك كله في كتابه .

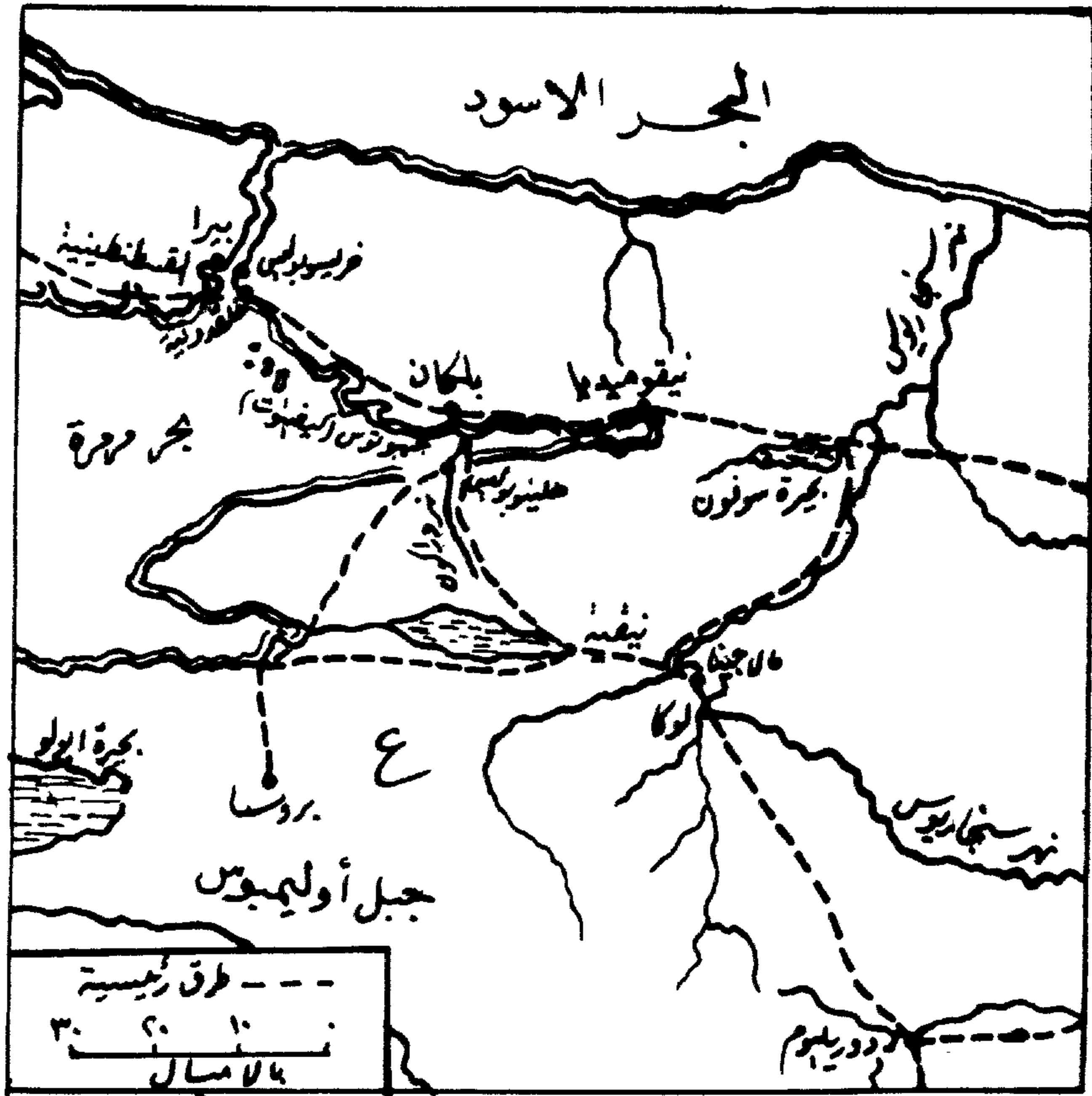
أظر : Foucher de Chartres, R.H.C.-H. Occ., III, 331—2

Anonymi Gesta Francorum, 113. (٢)

وأمرهم الامبراطور أن يبقوا في قلعة بلدة كسفيتوت Civitot الواقعة على الضفة الجنوبية لخليج نيقوميديا ، وهي القلعة التي كان قد شيدها لإقامة جانب من حرسه الانجلونورماندى . ولكي تصل عصابات بطرس إلى كسفيتوت ، فقد سلكت الطريق المؤدية من خلقيدونية إلى خليج نيقوميديا في الطرف الشرقى من بحر مرمرية . ثم عبرت ضفة الخليج الجنوبية إلى كسفيتوت . ويبدو أن هذه العصابات لم تعسكر كلها في تلك الناحية . إذ يتضح من إشارة وردت في كتاب المؤرخ المجمول ان الايطاليين والالمان لم يكونوا على وفاق مع الفرنسيين ، ولم يعترفوا بسلطة بطرس الناسك عليهم ، وانهم انفصلوا عنهم في نيقوميديا بعد أن اختاروا لهم رئيسا جديدا اسمه رينوه . ويحتمل كذلك ان عصابات الفرنج لم تعسكر كلها في كسفيتوت بسبب كثرتها العددية . ولهذا السبب أقام جانب منها في جهات أخرى على ضفة خليج نيقوميديا .

وكان مسلك هؤلاء القوم ، وبخاصة النورمان ، يتم عن وحشية فاقت كل وصف . وتذكر الاميرة آن أنهم قطعوا أطراف بعض الاطفال ، وثبتوا البعض الآخر على الواح خشبية ثم قاموا بشيهم على النار ، وأنزلوا شتى صنوف العذاب بالاشخاص الطاعنين في السن . ويستوى عندهم في ذلك المسلمون والمسيحيون الشرقيون ، فقد كانوا في نظرهم هراطقة لأنهم على غير مذهبهم . وعندما فاحت رائحة فعالهم ، وشاهد أهالى نيقية ما يدور حولهم ، فتحوا أبواب مدينتهم واندفعوا نحو الفرنج حيث التحموا معهم في معركة حامية قفلوا بعدها عائدين إلى ديارهم ، بينما رجع اللاتين إلى معسكرهم محملين بالاسلاب التي أمكنهم الحصول عليها . فكان هذا مدعاة لاقسام عصابات بطرس على نفسها ، كل يريد ان يكون له النصيب الاوفى من الغنيمة . وكان من أثر ذلك ان انسحب النورمان المعزوفون بجشهم من جيش بطرس ، وزحفوا بمفردهم على إحدى المدن الخاضعة للأتراك واسمها كسريجوردوس Xerigordus واستولوا

خريطة رقم ١



ضواحي القسطنطينية ونيقية
زمن الحملة الصليبية الأولى

عليها . ولكن الترك بعثوا بقوة كبيرة تمكنت من استعادة المدينة ، وأهملت
السيف في رقاب عدد من أولئك النورمان وأسرت البعض الآخر (١) .

لقد كانت إقامة بطرس ورجاله في كيفيتوت فترة تكاسل واسترخاء أطلقوا
فيها العنان لأنفسهم وشهواتهم ضاربين بنصائح الكسيس وأوامره عرض
الحائط ، فحددوا بذلك مصيرهم ومصير الحملات الشعبية بصفة عامة . وقد تركت
حياة البطالة والكسل أسوأ الأثر في نفوسهم ، وأضرت بالحملة ضررا بالغا ،
تكشفت عواقبه بوضوح عندما التحمت تلك العصابات غير المنظمة بقوات
السلاجقة المدربة أحسن تدريب بالقرب من نيقية .

وجدير بالذكر أن الكسيس لم يقصر البتة في التزاماته حيالهم ، فكان يمددهم
بالمؤن والزاد . وقد اعترف الصليبيون أنفسهم بأن سكان كيفيتوت كانوا
يزودونهم بكل ما هم في حاجة إليه - ولكنهم ، بالرغم من ذلك ، لم يكفروا عن
إتيان العنف في الجهات والضواحي المحيطة بمعسكرهم (٢) .

لم تكتف عصابات بطرس الناسك بهذا المسلك الشائن ، بل صممت على
مهاجمة الأتراك السلاجقة في عقر دارهم بالرغم من قصور أسلحتهم البدائية ،
معتمدين على أن انتصارهم سيتم بمعجزة إلهية . وتفصيل ذلك أن الأتراك
عندما تثبتوا من نوايا هذه الجماعات ، أخذوا يعدون العدة لملاقاتها وتأديبها .
ووضعوا الخطط الكفيلة بالقضاء عليها ، بأن نصبوا السكائن في مواضع مختلفة
على طول الطريق من المعسكر الفرنجي في كيفيتوت إلى مدينة نيقية ، بقصد الإيقاع

(١) Alexiad, 251; Tudebode, R. H. C. - H.Occ., III, 11—2.

وتطلق آن كومنين على القائد التركي الذي قاد المعركة اسم Elkhanes . ويرى المؤرخ رينيه
جروسيه أن المقصود بالكلمة المذكورة هو لقب « ايلخان » . ilkhân . انظر :

Grousset, Crois., I, 8n. 2.

Chalandon, Première Crois., 78-80. (٢)

بالقادمين من الفرنج في اتجاه عاصمتهم . ولما كان السلاجقة يعلون بجشع الفرنج وحبهم الشديد للمال ، فقد بعثوا اليهم باثنين من رجالهم أوهما الفرنسيين من اتباع بطرس ان القوات النورماندية التي انسلخت عنهم قد سبقتهم واستولت على نيقية ، وانها مشغولة بتقسيم ما وجدته بها من كنوز على أفرادها . وصح ما توقعه السلاجقة ، إذ أثار هذا النبأ ثائرتهم ، وقد كان لكاهن المال رنين غريب في آذانهم ، وعز عليهم ان يستولى النورمان دونهم على المدينة وأسلاها . وهكذا أخذت جموعهم تتوغل في غير نظام عبر آسيا الصغرى في الطريق إلى نيقية ، دون أى تقدير لمقدرتهم العسكرية ، ودون ترتيب صفوفهم واعداد أنفسهم إعدادا سليما للمعركة المرتقبة . وكانت النتيجة الطبيعية أن وقعوا في الكائن التي نصبها الأتراك لهم بالقرب من نهر درا كون Dracon . وسرعان ما تلقفتهم الجيوش السلجوقية ، فأعمت فيهم السيوف بلا رحمة جزاء وفاقا على تهورهم واندفاعهم ، وهزمتهم شر هزيمة بالقرب من نيقية . وقد ذهبت أعداد كبيرة من الفرنسيين والنورمان ضحية سيوف السلاجقة ، حتى أن الفرنج عندما كرموا جثث القتلى الملقاة على جانبي النهر لم تكون تلا كبيرا أوقة عالية أو رابية مرتفعة فحسب ، وإنما جبلا شاهقا ذا غور واتساع عميقين ، وكانت عظام القتلى تشكل هرما هائلا . ولم ينج من هذه المذبحة سوى بطرس ونفر قليل من اتباعه ، فلاذوا بالفرار وقللوا عائدين إلى هليينوبوليس Helenopolis . وعندما علم الامبراطور بما حل بهم ، خاف أن يقع بطرس في أيدي الترك ، فأرسل مندوبا من قبله على رأس قوة كبيرة مسلحة لانقاذه ومن تبقى معه . وتمكنت القوة البيزنطية من انقاذهم وإعادتهم سالمين إلى الكسيس الذي رحب بهم وعاملهم بالحسنى واللين . ولكنه أخذ يذكر بطرس بطيشه وتهوره ، مبينا له أن الكوارث التي حلت به وبقواته إنما ترجع لعدم أخذه بنصيحته التي كان قد أسداها له من قبل . وقد انكر بطرس أنه السبب فيما

حدث - ، والتي بدوره اللوم على من معه ، متذرعاً بأنهم لم يستمعوا إليه ، بل اتقادوا وراء شهواتهم متبعين إياهم بأنهم لصوص ومخربون (١) .

هذا ما ترويهِ الكاتبة آن كومنين بصدد حادثة نيقية . أما المؤرخ المجهول ، وهو أحد مؤرخي اللاتين الذين عاصروا الحملة الأولى وكتبوا عنها ، فيذكر أن الامبراطور عندما بلغه خبر فناء عصابات بطرس الناسك على أيدي التركان فرح فرحاً شديداً . ويستطرد قائلاً أن الكسيس مكنهم من اجتياز البسفور ، ولكنه احتاط لنفسه فأمر بنزع سلاحهم ، وأنه كان يعلم بوجود الأتراك في هذه الناحية فيكون في ذلك نهايتهم (٢) .

Alexiad, 251—2; cf. also : Tudebode, R.H.C.- H.Occ., (١) III, 113. وفيما يلي نص البرت دكس حول انقاذ الكسيس كومنين لجماعة بطرس الناسك:

... . Imperator, audito Petro de casu et obsidione suorum, misericordia motus est; et undique Turcopolis accitis, et cunctis nationibus regni sui, praecepit sub omni festinatione trans brachium maris fugitius et obsessis Christianis subvenire, et Turcos ob obsidione expugnatos effugare. Turci autem, Imperatoris edicto comperto, media nocte cum captivis Christianis et spoliis plurimis a praesidio moverunt; et sic inclusi et obsessi peregrini milites ab impiis liberati sunt. cf. Albert d'Aix, R. H. C.—H. Occ., IV, 289,

(٢) 129—130. - Anonymi Gesta Francorum, ولقد أمدنا كل من المؤرخ المجهول والبرت دكس بصورة حية ناطقة عن المذبحة وفناء معظم قوات بطرس الناسك فيها ، مع بيان الظروف والملابسات التي أدت إليها . ويبدو أن المجهول قد استقى المعلومات التي أمدنا بها من أحد أولئك الذين شاهدوا المعركة ونجا منها ليقص عليه تفاصيلها عندما التقى به في القسطنطينية . أما البرت دكس فنستشف من نصه العرفان بالجميل للامبراطور البيزنطي ، عندما تحدث عن كرمه وحسن معاملته لهم وتقديعه النصع اليهم ومبادرته بانقاذ من بقي منهم على قيد الحياة بعد المعركة . ولو أنه اتفق مع زميله مؤرخ حملة بوهيمند فيما ذهب إليه من أن الكسيس فرح بما حدث للفرنجية في نيقية السلاجقة .

أنظر تفاصيل المعركة في Albert d'Aix, R.H.C.-H. Occ., IV, 284-9. راجع أيضاً عن ذلك كتاب : Grousset, Crois., I, p. 9 n. 1. أنظر أيضاً النص الأول من الملحق الخامس بآخر الكتاب .

ولمتسائل أن يقول : هل كان هدف الكيس عندما ارسل الصليبيين إلى ضفة البسفور الآسيوية أن يلقى بهم إلى حتفهم ؟ أم أن السبب في حادثة نيقية يعزى إلى بطرس وعصاباته ؟ أم أن المسئولية مشتركة بين الجانبين البيزنطى والصليبي ؟ أم أن هناك عوامل أخرى خارجة عن إرادة كل من الكيس والفرنج أدت إلى وقوع المذبحة ؟ وما هى الآثار المترتبة عليها ؟

يرى بعض المؤرخين اللاتين ، وعلى رأسهم المؤرخ المجهول ، أن الامبراطور البيزنطى هو السبب فى ذلك . ويدعم هذا الفريق رأيه بقوله إن الكيس عندما اضطربت الأمور فى دولته نتيجة لأعمال السلب التى أحدثتها جموع بطرس فى نيش وفى صوفيا وفى القسطنطينية نفسها ، اضطر إلى الجهاد فى سبيل الخلاص منهم ، قبل أن يفلت الزمام من يده ويصبح من المتعذر علاج الموقف . ولذلك عمل بقوة على نقلهم من عاصمته إلى آسيا الصغرى ، لى يتقى شرهم ويلقى بهم إلى حتفهم أمام الأتراك السلاجقة . أما الفريق الثانى ، وعلى رأسه الأميرة آن كومنين البيزنطية ، فيقول إن بطرس الناسك وعصاباته هم السبب المباشر فى هذه الكارثة . إذ أنهم لم يستمعوا لنصيحة الامبراطور بالانتظار فى المكان الذى حدده لهم لحين وصول الجيوش النظامية ، بل تمادوا فى غيهم دون تقدير لعواقب الأمور .

والخلاصة أن هناك فريقان على طرفى تقيض فيما يتعلق بهذه المشكلة . الفريق الأول ، ويتكون من المؤرخين اللاتين الذين ناصرُوا بنى جلدتهم ضد البيزنطيين . أما الفريق الثانى فكان على رأسه الأميرة آن ابنة الامبراطور الكيس ، وقد انتصرت لأبيها ضد الفرنج . ويلاحظ أن الفريقين اتفقا على بعض النقاط واختلفا حول البعض الآخر . فمن المسائل التى اتفقا عليها ، ذلك المسلك المشين الذى سلكه رجال بطرس الناسك فى آسيا الصغرى ، وعدم تقصير بيزنطة

وامبراطورها وسكانها في مساعدتهم وتقديم النصيح والارشاد لهم ، واضطرار
ببزنطة آخر الامر إلى قتلهم إلى الضفة الاسيوية للبسفور لحماية العاصمة من
عبثهم. وأكّد الجميع أيضا أن الكسيس عندما علم بمذبحة نيقية ، بادر بإرسال فحدة
لا تقاذ من تبقى من رجال الحملة الشعبية على قيد الحياة . ومع ذلك فهناك بعض
النقاط التي تثار حولها الخلاف بين المؤرخين ، منها ما ذكرته آن كومنين من
أن بطرس اشترك في المعركة ، وأن أباه الامبراطور انتقذه وقلول قواته عندما
علم بما حل بهم ، بينما أكّد المؤرخ المجهول أن بطرس كان متغيبا في القسطنطينية
أثناء القتال . ويأخذ بهذا الرأي كثير من المؤرخين الغربيين المحدثين وعلى
رأسهم رينيه جروسيه وستيفن رانسيان (١) . كذلك ذكر كل من البرت دكس
ومؤرخ حملة بوهيمند أن الكسيس فرح عندما علم بأمر المذبحة ، بينما تؤكد آن
كومنين أن أباه علته الكتابة عندما بلغه النبا .

وبالمقارنة بين مختلف النصوص التاريخية والآراء المتضاربة في هذا الشأن ،
وبالتحليل الجامع الشامل ، يتضح أن السبب الحقيقي في هذه المذبحة لا يرجع
إلى الكسيس ، ولا يرجع إلى بطرس الناسك نفسه ، وإنما يرجع أولا وقبل كل
شيء إلى عصابات بطرس التي كان ينقصها النظام وحسن الإعداد والتوجيه والتي
لم يكن لها أي علم بفن الحرب والقتال . ومع ذلك فقد أقدمت على مهاجمة
السلاجقة ، وهم قوم صناعتهم الحرب ، ولم تستمع إلى نصيحة الامبراطور
بانتظار الجيوش الصليبية الأخرى النظامية ، حيث يمكنهم مجتمعين مواجهة
جيش الاتراك والتغلب عليه . يضاف إلى ذلك أن امبراطور الروم عندما أمر
بطرس ورجاله بعبور البسفور إلى آسيا الصغرى ، حذرهم من قوة السلاجقة
وأحاطهم علما بطرقهم في القتال ، كما يذكر كل من المؤرخ المجهول والكتابة

Grousset, Crois., I, 8; idem, L'épopée des Crois., 14; (١)
Runciman, Crus., I, 130, 132.

الاغريقية . وينفى المؤرخ شالندون تهمة القاء التبعة على الامبراطور ، ويقول إن الكيسيس أمر جنود بطرس بعد أن عبروا البسفور بأن يبقوا في قلعة كيفيتوت حيث كان يمدهم بالاقوات ، ولكنهم لم يستمعوا لنصيحته وضربوا بأوامره عرض الحائط ، وتوغلوا في آسيا الصغرى حيث انتهى الأمر بكارثة نيقية وفناء غالبيتهم (١) . وما يدل على حسن نية الامبراطور أنه بعد هزيمة بطرس وجماعته ، عمد إلى مساعدتهم في الخلاص من موت محقق ، فأرسل شزيمة من جنوده للاشتراك مع بطرس في استعادة فلول قواته إلى القسطنطينية حيث رحب بهم وأحسن معاملتهم . وان كان هذا يدل في الوقت ذاته على دهاته وبعد نظره ، تى يئسوا أمام الصليبيين بمظهر المدافع عنهم الذى يهمة أمرهم .

وأما فيما يتعلق باشتراك بطرس من عدمه في المعركة ، وعما إذا كان موجودا مع قواته أثناء القتال أم متغيبا بالقسطنطينية ، وعما إذا كان الكيسيس قد فرح لهذه الكارثة أم اغتم لها ، فإن ذلك لن يغير من الحقيقة الواقعة شيئا . هذا وان كنا نميل إلى الأخذ برأى الكتاب اللاتين المعاصرين للحملة ، ومن أتى بعدهم من المؤرخين الغربيين القدامى والمحدثين ، من أن بطرس كان بالقسطنطينية عند حدوث المذبحة . ولعل أن كومنين قد التبس عليها الأمر عندما ذكرت أن أباهما بادر باقراض بطرس وقلول قواته عندما علم بما جرى لهم . إذ كانت الكتابة الوحيدة المعاصرة لأحداث تلك الفترة التى أكدت ذلك . فضلا عن أنها لم تدون مذكراتها عن تاريخ حياة أبيها إلا بعد حوالى نصف قرن من انتهاء الحملة .

وانصافا لهذا الامبراطور ، وتقريراً للحقيقة والواقع ، نقول إن الكيسيس إنما أرسل عصابات بطرس الناسك إلى آسيا الصغرى لحوفه على امبراطوريته

من شرورها . ولكن ليس معنى ذلك أنه أبعد أولئك الفرنج من عاصمته ليلقى بهم جميعا عن عمد وسبق إصرار في أحضان الموت . فمذه مسألة من الصعب البت فيها برأى حاسم .

ولا شك أن تلك المذبحة قد أثرت في طبيعة العلاقات بين الصليبيين والبيزنطيين . إذ تأكدت مخاوف الامبراطور الكسيس أكثر فأكثر ، وأخذ يتوقع أسوأ الفروض والاحتمالات من قوم كان يعرفهم جيدا من قبل .

ولم تكن حملة بطرس هي آخر الحملات الشعبية التي وفدت من الغرب ، إذ قامت بعدها ثلاث عصابات من الجيوش الشعبية الألمانية بقيادة فولسكار Volkmar وجوتشالك Gottschalk وكونت اميك Comte Emich^(١) . وإن الجرائم التي اقترفتها هذه العصابات ، وإن لم تتعد الحدود المجرية ، إلا أنها نبهت الكسيس إلى الخطر الذي سوف تعرض له بلاده من الصليبيين ، الأمر الذي جعله يتخذ كافة الاحتياطات لحماية وعاياه ودولته من هبشهم . وسيترك هذا كله أثره في موقف الامبراطور البيزنطى من الجيوش النظامية الأخرى التي كانت في طريقها إلى الأراضى البيزنطية .

وهكذا أخفقت أول جماعات صليبية شعبية في تحقيق ما هدفت إليه . فلم تتمكن من الاستيلاء على بيت المقدس ، وتلقت ضربة شديدة على أيدي السلاجقة . كما أنها أخفقت في إقامة علاقات طيبة مع المسيحيين الاغريق الذين ارتابوا فيها وفي حقيقة نواياها . وإن من تبقى من القتل أو الأسر من جماعات بطرس ، فقد انتظروا قبالة العاصمة وفي ضواحيها لحين وصول القوات النظامية في الربيع التالى . وهكذا يسدل الستار على فصل مثير في تاريخ العلاقات العربية البيزنطية الصليبية ، ليبدأ مشهد جديد أكثر إثارة في رواية لم تم فصولها بعد .

(١) فيما يتعلق بالحملات الألمانية الشعبية ، أنظر : Runciman, Crus., I., 134—41; Grousset, Crois., I, 9—10 & notes.

الفصل الخامس

الحملات النظامية في بزنطة

لقد خرج الكسيس كومنين من حملتي جوتييه المعدم وبطرس الناسك الشعبيتين بدرس لن ينساه . وليس من السهل عليه أن ينسى ما سمعته له هذه العصابات من متاعب ومضايقات ، ولا تزال ذكرى الفظائع التي ارتكبتها في أراضي دولته ماثلة أمام عينيه . وأحس بما سوف تتعرض له امبراطوريته وعاصمة ملكه بصفة خاصة من الجيوش الصليبية الأخرى التي كانت في طريقها إلى القسطنطينية . لذا حدد الامبراطور موقفه منذ البداية حيال هذه القوات الصليبية المنتظر وصولها من حين لآخر . وتقوم سياسته بصفة عامة على أساس المحافظة على الامبراطورية من عدوان أولئك القوم ، والعمل على استمالتهم اليه ثم الانتفاع بهم قدر الاستطاعة في تحقيق أغراضه . وقد أكد لهم بأنهم إذا التزموا الهدوء ولم يقوموا بأعمال العدوان التي لوئت أسماء بطرس وفولكار وغيرهما ، فسوف يمدحهم بكل ما يحتاجون اليه من أقوات ومال خلال مرورهم عبر أراضيهم إلى أن يصلوا إلى حدود السلاجقة في آسيا الصغرى . أما إذا تصرفوا كقطاع الطرق ، فسوف يشهر سلاحه ضدهم مستخدما القوة مانعا عنهم التموين .

وعلى أى حال ، بعد قيام الجيوش الشعبية ، كانت الاستعدادات في غرب أوروبا قائمة على قدم وساق لسفر الجيوش الصليبية النظامية . وقد استغرق ذلك بعض الوقت بسبب الاعداد والتنظيم . (١) وقبل استعراض تاريخ هذه الحملات

(١) وجد البابا أوربان الثاني أن الحاجة ماسة إلى معونة الدول البحرية في الغرب لنقل الجند والعتاد عبر البحر إلى الشرق . ويبدو أن ذلك كان بناء على نصيحة ريمون ده سان =

في بزنطة ، وعلاقة اللاتين بالاغريق في هذه المرحلة مع بيان الآثار التي ترتبت عليها ، يحسن أن نتمهد لذلك بكلمة سريعة عن الموقف في الغرب الاوروبي وقتذاك (١) ، عله يعطينا صورة واضحة عن الوضع العام السائد هناك ، مما هيأ الجو لقيام العدوان الصليبي المنظم .

كانت أوروبا حتى أواخر القرن العاشر مرتعا خصيباً للفوضى والفساد والاضطرابات ، وذلك منذ تفكك امبراطورية شارلمان وانقسامها بين خلفائه . فانحطت الزراعة والتجارة والصناعة انحطاطا كبيرا ، وتدهورت الحضارة والمثل والقيم الخلقية تدهورا لم يسبق له مثيل في تاريخ تلك القارة . كما انتشرت الأمراض والأوبئة والمجاعات ، وعم الجهل واليأس . وشاع الفساد في الجهاز الكنسي البابوي ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى الإصلاح . ولذلك كان موقف الغرب حتى ذلك الحين دفاعيا ، ولم يكن باستطاعته القيام بحرب الاستيلاء على الأراضي المقدسة ، أو العمل على استرداد البلاد التي استقر فيها العرب مثل اسبانيا وصقلية وجنوب ايطاليا . وهكذا كان موقف أهل الغرب منذ الفتح

== جيل كونت تولوز . فأوفد مندوبين من قبله إلى جمهورية جنوة ، ومعهما خطابات يطالب فيها مساعدة الحملة . ووافقت جنوة على تزويد الجيش الصليبي بانتى عشرين سفينة . ولكنها أجلت في حرس وحذر أمر إرسال السفن حتى تتأكد من جدية الحركة الصليبية المزمع قيامها . وفي يوليو من عام ١٠٩٧ فقط أبحر هذا الأسطول من جنوة ، بينما حمل كثير من الجنوية شارة الصليب . أنظر كتاب كافارو الجنوى :

Caffaro, De Liberatione Civitatum Orientis Liber, R. H. C. - H. Occ., V, pt. I, 49-50.

(١) تناول المؤرخ سيدنى بنتر Sidney Painter الموقف في الغرب الأوروبي قبيل الحركة الصليبية بشيء من التفصيل والتحليل في الجزء الأول من موسوعة تاريخ الحروب الصليبية التي تشرف على إخراجها جامعة بنسلفانيا بمدينة فيلادلفيا في أمريكا . أنظر البحث المذكور في : Setton, Hist. of the Crus., I, 3-29 أنظر أيضا :

Atiya, Crus., Commerce and Culture, 47-52.

حتى أخريات القرن العاشر هو موقف الدفاع عن أنفسهم في معظم الأحيان ، وعن بلدانهم التي كانت تسقط الواحدة تلو الأخرى في قبضة العرب الذين كانوا في موقف القوة وكان مركز الثقل في صالحهم . ومع ذلك ، فقد كان الغرب لا يزال ، ولو من الناحية الشكلية النظرية ، وحدة كبرى في مجموعه ، له كنيسة واحدة هي كنيسة روما التي تدين بالمذهب الكاثوليكي ، وله عاصمة روحية واحدة هي روما و لغة رسمية واحدة هي اللغة اللاتينية ، وعلى رأسه بابا واحد هو البابا الروماني يدين له الجميع بالولاء .

وفي نهاية القرن العاشر ظهرت اسطورة تقول ان العالم سينتهي بنهاية الالف الاولى بما تخلفها من كوارث وأحوال ، وان المسيح سوف يظهر للمؤمنين به . فآدى هذا إلى ظهور موجة من الزهد والتقشف والتصوف والبعد عن ملذات الحياة ودنيوياتها . وأخذ الناس يتقربون إلى الله ويعملون على مرضاته بالتكفير عن ذنوبهم وخطاياهم . والأمر الذي لاخلاف فيه أن هذه الأسطورة لا تستحق الاعتبار لأنها لا تقوم على أساس على سليم ، وإن صادفت هوى في النفوس وقتذاك في وقت لقي فيه أدب الأساطير رواجا كبيرا بين مختلف طبقات الشعب . وهي وإن امتازت بشيء ، فإنما تمتاز بقيمتها الرمزية فحسب باعتبارها من أسباب نهضة القرن الحادى عشر في أوروبا (١) . فابتداء من ذلك التاريخ يحدث انقلاب في ميزان القوى بين العالم العربى والغرب الأوروبى . فبينما كان الغرب يستعيد قوته ويسترد أنفاسه اللاهثة بعد فترة طويلة من الضعف والالتهال ، كانت القوى العربية في تدهور مستمر وبخاصة في منطقة عربى البحر

(١) Coulton, Med. Scene, 102—3. - أظن أيضا ترجمته العربية : كولتون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة - ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف - ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٢) - ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

المتوسط . وكان من أثر ذلك أن استولى النورمان على جنوب إيطاليا خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر وعلى صقلية فى النصف الثانى منه ، مستغلين النزاع القائم بين العرب والروم لتحقيق أغراضهم . بل اتجهت أطماعهم إلى ميمنة نفسها محاولين ابتلاعها فى أخريات هذا القرن . وأما فى إسبانيا فقد أخذت الإمارات المسيحية فى الشمال ، وهى ليون وقشتالة وأرغونة ونافار ، تعمل على استعادة شبه الجزيرة الأيبيرية من العرب ، وكانت تلقى المساعدة من البلاد المسيحية المجاورة لها وخاصة من فرنسا . وقد أحرزت فى ذلك بعض النجاح الذى ينحصر فى استيلائها على مدينة طليطلة سنة ١٠٨٥ م ، رغم الانتصارات العديدة التى حققتها المرابطون ومن بعدهم الموحدون فى هذه المنطقة (١) . ولم يأت عام ١٠٩٥ م حتى كانت شبه الجزيرة مقسمة بين الأسبان المسيحيين فى الشمال وبين العرب المسلمين فى الجنوب ، واضمحى ميزان القوى متأرجحا بين الفريقين دون أن يتمكن أحدهما من إحراز نصر حاسم على الآخر (٢) . ولهذا الأسباب لم تسكن إسبانيا فى حالة تسمح لها بالاشتراك الفعلى فى حروب خارج أراضيتها (٣) .

وفى هذا الوقت كانت البابوية فى الغرب قد ثبتت دعائمها وتأصلت جذورها

Halphen, L'Essor de l'Europe, 47 - 51, 55-62; Arnold, (١) Legacy of Islam, 44-5; Mahmud, Story of Islam, 132-3; Oman, Art of war, I, 231; Pirenne, Med. Cities, 56-7. وللمزيد من المعلومات عن الصراع الدائر فى إسبانيا بين العرب والمسيحيين ، أنظر : بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ص ١٢٠ وما بعدها ؛ عبد الحميد العبادى : الجمل فى تاريخ الأندلس ، ص ١٧٢ وما بعدها ؛ سعد زغلول : العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور ، مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، المجلدان السادس والسابع ، ص ٨٤-٨٦ .

Setton, Hist. of the Crus., I, 39. (٢)

Setton, op. cit., I, 20-1; Lewis, Arabs in Hist., 125-6. (٣)

ولم يبق أمام البابوات إلا مواصلة السياسة التي كان قد رسمها لهم جريجورى الكبير فى القرن السادس فيما يتعلق باستقلال البابوية دينيا وسياسيا على حساب الحكام والأمراء العلبيين فى الغرب ، وعلى حساب الدولة البيزنطية فى الشرق أيضا . وكان هذا إيذانا ببداية الصراع العنيف بينها وبين القوى الزمنية فى الغرب ، وعلى رأسها الامبراطورية ، على الأمور الدنيوية . وقد حدث هذا فى عهد البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) ، وكان شخصا عريض الآمال ، حتى لقد اتهمه أعداؤه بالطموح وحب السيطرة . وفى نفس هذا الوقت كان يجلس على العرش الامبراطورى صبي صغير هو هنرى الرابع . فكانت هذه فرصة ذهبية انتهلها جريجورى لإعلاء شأن البابوية على منافستها الامبراطورية . وبدأ النزاع سافرا بين العاهلين سنة ١٠٧٥ م ، فقام أتباع هنرى بخلع جريجورى وتعيين بابا مناهض له ، بينما رد البابا على ذلك بحرمان هنرى وأتباعه . وسرعان ما نشبت الحرب بينهما التى انتهت بانتصار البابوية وإذلال الامبراطورية فى حادثة كانوسا الشهيرة فى تاريخ الكنيسة والبابوية بخاصة وفى تاريخ أوروبا الوسيط بصفة عامة .

وبعد موت جريجورى خلفه رجل ضعيف الشخصية لم يحقق شيئا يذكر هو البابا فيكتور الثالث (١٠٨٥ - ١٠٨٧ م) . وقد مات بعد ثلاث سنوات تاركاً مشاكل البابوية لرجل لا يقل عن جريجورى قوة وتفوقا ، هو البابا اربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) الذى واصل سياسة سلفه فى الافتتات على سلطان الامبراطورية . ولذلك لم تكن العلاقات طيبة بينه وبين خصمه الامبراطور . وكانت بينهما جولات وصولات انتهت بانتصار اربان الذى أصدر قرارا لحرمان الكنسى ضد هنرى . ولعل هذا يفسر لنا سبب عدم اشتراك هنرى بشخصه فى الحملة الصليبية الأولى التى دعا إليها هذا البابا فى ختام القرن الحادى عشر ، تاركا

هذا الدور يقوم به كبار رجال الاقطاع الالمان مثل جودفري وشقيقه بلدوين .

وإذا انتقلنا إلى فرنسا وإنجلترا ، نجد أن علاقة البابوية بملكيهما لم تكن بأحسن من علاقتها بالامبراطور الالمانى . فقد أصدر أربان قرار الحرمان الكنسى ضد فيليب الأول ملك فرنسا لعلاقته غير المشروعة مع خليلته برتراديه منتفرت Bertrade de Montfort ، كما هدد وليم الثانى ملك إنجلترا النورمانى بالحرمان لخروجه على تعاليم الكنيسة . ولهذا السبب لم يكن بوسعهما الاشتراك فى الحملة المزمع قيامها . وقد أناب فيليب شقيقه هيو جده فيرماندوا للاشتراك فى الحملة ، التى أسهمت فيها أيضا قوات رمزية من إنجلترا .

وفى نفس هذا الوقت كان النظام الاقطاعى فى الغرب قد بلغ ذروة نضجه واكتماله . فازداد نشاط الأمراء الاقطاعيين ومغامراتهم الجنونية زيادة ملحوظة ، كما كثرت محاولاتهم لتوسيع اقطاعياتهم على حساب جيرانهم فى تلك الحروب الدامية التى كانت تعتبر منظرا عاديا وقتذاك ، والتى عرفت فى التاريخ باسم حروب الحدود (١) . وتكاثر عدد السكان بشكل ملحوظ ، سواء أكانت تلك الزيادة بين طبقة الشعب والعبيد أو بين طبقة النبلاء والسادة الاقطاعيين ، وازداد تبعاً لذلك عدد الفرسان المحاربين الذين أصبحوا لا يملكون أراض أو اقطاعيات مثل بوهيمند النورماندى ومن على شاكلته . ولما كانت حرقهم الأولى التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم الجرمان هى الحرب والقتال ، فلم يكن لديهم أى مانع من الخدمة لحساب أى أمير أو سيد اقطاعى ، إرضاء لهذه الرغبة الكامنة فى

Halphen, op. cit., 3 ff., 23 ff.; Baldwin, Med. Church, (١)
99; Setton, Hist. of the Crus., I, 10—6, 26—7.

راجع أيضا لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج ٢ ، ص ٦٩٨ .

نقوسهم من ناحية ، وطعما فيما يصدق عليهم من أموال من ناحية أخرى .
ولهذه الأسباب مجتمعة كانت الحرب الصليبية الأولى هي حرب كبار رجال
الاقطاع ، بعكس الحملات التالية التي قادها ملوك الغرب في وقت كانت فيه
الظروف والأحوال تسمح لهم بالاشتراك بأشخاصهم فيها .

وهكذا بات أولئك النبلاء الذين لم يوفقوا إلى ميراث اقطاعي واسع في
بلادهم ينظرون إلى تلك الحملات كوسيلة ناجعة لتأسيس إمارات جديدة يحكمونها
في الشرق ، وقد سبق لهم أن اشتركوا في حملات قريبة الشبه بها في جنوب غربي
أوروبا . وفي هذا أيضا فرصة طيبة تتخلص فيها البابوية من مضايقات أولئك
القوم فيخلو لها الجو لبسط نفوذها الديني والدنيوي ليس على الغرب المسيحي
فحسب ، وإنما على الدولة البيزنطية والشرق العربي أيضا (١) . أما طبقة الأتقان
وعبيد الأرض ، وهي التي كانت تداوس بالاقدام وتئن تحت عبء الالتزامات
والقيود الثقيلة المفروضة عليها ، فقد وجدت في تلك الدعوة المنفذ المحقق للافتلات
من أغلال الاقطاع ، تحميتها في ذلك الكنيسة والبابوية (٢) تحقيقا للأهداف
الرئيسية الجوهريّة للفكرة الصليبية ، والتي كشفنا عنها في الفصل الثاني من
هذا البحث .

تلك هي الحال التي كان عليها الغرب قبيل قيام الحملة الأولى . أباطرة
وملوك محرومون كنسيا من البابا وليس بوسعهم الاشتراك في الحملة ، ورجال
إقطاع يتوقون لتوسيع نفوذهم وتأسيس مستعمرات جديدة لهم ، وفرسان
محاربون يريدون إبراز مواهبهم الحربية في ميدان القتال ، وأرقاء أذلاء يسعون

Lewis, Arabs in Hist., 150; Mahmud, Story of Islam, 132; (١)
Arnold, Legacy of Islam, 46 — 7; Pirenne, Med. Cities, 58.

Runciman, Crusades, I, 114. (٢)

بكل وسيلة للخلاص من عبودية الاقطاع . وأخيراً بابوية فرضت زعامتها الروحية والسياسية على سائر البلاد في الغرب الأوروبي في وقت كان فيه للدين تأثير كبير على الناس ، فأصبحت قوة مسموعة الكلمة مرهوبة الجانب . وقد هياً ذلك للبابا أربان الثاني مركز الرئيس الأعلى الذي لا منازع لسلطانه في الغرب ، فسعى بدون كلل ، يؤيده في ذلك الجهاز الكنسي كله ومن ورائه سائر شعوب أوروبا بكافة طوائفها وطبقاتها ، إلى تحقيق أمنية كانت تجيش في صدره ، وكان قد رسم خطوطها بدقة تامة ، تنفيذاً لتلك الأغراض البعيدة المدى التي رمى إليها في مد النفوذ الغربي إلى بزنطة والعالم العربي (١) .

ففي هذه الظروف أخذ الاقطاعيون النورمان والفرنسيون والألمان وغيرهم من بلدان الغرب الأوروبي في الزحف في ثلاث فرق صليبية كبيرة صوب القسطنطينية عاصمة الروم . فزحف اللوثارينجيون بقيادة جودفري دوق اللورين السفلى وأخيه بلدوين عن طريق بلاد المجر ، بينما زحف الفرنسيون بقيادة اتين كونت بلوا ، والبروفنساليون بقيادة ريمون ده سان جيل والمندوب البابوي ادھیار ده مونتی ، عن طريق إقليم ايليريا . أما النورمان فتحركوا برا وبحرا عن طريق دورادو برئاسة بوهيمند وابن اخته تنكريد . وبلغ عدد هؤلاء جميعاً حوالي ثلاثين ألف مقاتل (٢) .

وكان أول هذه الجيوش الصليبية هو جيش جودفري ده بويون . وقد

(١) أنظر مقال « الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية » ، ص ١٩٨ - ٢٠٥ .
(٢) أنظر لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج ٢ ، ص ٦٩٩ ؛ باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٩ . ويقول رانسيان إن عدد الجيوش الصليبية التي وفدت من الغرب ونزلت في الامبراطورية البيزنطية في الفترة الواقعة بين صيف ١٠٩٦ م وربيع ١٠٩٧ م ، كان يتراوح بين سبعين ألفاً ومائة ألف مقاتل . أنظر : Runciman, Crusades, I, 169 & Appendix II, 336—41; cf. also Heer, Med. World, 103—4.

اشترك معه أخوه بلدوين الذى سيكون له شأن كبير فى الحملة الأولى . وجاء معه أيضا أحد أقاربه واسمه بودان ده بورج Boudouin de Bourg الذى سيلعب اسمه هو الآخر فى هذه الحملة ، وسيصبح فيما بعد ملكا على المستعمرة اللاتينية التى أسسها الفرنج فى الأراضى المقدسة .

وجودفرى هذا من كبار رجال الاقطاع التابعين للامبراطورية الرومانية الألمانية ، ودوقيته هى منطقة اللورين السفلى ، وهى تقع على ضفة نهر الراين ، وتدخل فى نطاقها مناطق أردن Ardennes وهانو Hainaut وبرابان Brabant على الشاطئ الغربى ، وكولونيا Cologne واكس لاشابل على الشاطئ الشرقى . وأغلب هذه البلاد يتكلم الفرنسية ، ولو أنها تقع داخل ألمانيا نفسها . وقام الامبراطور هنرى الرابع بتنصيب جودفرى على هذا الاقطاع عام ١٠٨٩ م . وكان جودفرى من المؤيدين لسياسة الامبراطور فى نزاعه مع البابوية . ولكنه لم يذهب إلى أبعد من التأييد المعنوى ، ولم يقم بأى عمل حاسم فى هذا الصدد مما قد يشير حفيظة البابوية عليه . وكان يشغل معظم وقته قبل اشتراكه فى الحملة الصليبية فى حروب صغيرة محدودة ضد رجال الاقطاع المجاورين له . وهو يعتبر صورة كاملة للفارس الاقطاعى فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى . كان طويل القامة ، مفتول العضلات ، عريض المنكبين . كما كان محاربا شجاعا ، ومع ذلك فقد اشتهر بالورع والتقوى ، وبحسن سجاياه ودمائة خلقه (١) .

وتناول شخصية جودفرى بالدراسة والتحليل كثير من الكتاب اللاتين القدامى والمؤرخين الغربيين المحدثين . فمنهم من رماه بضعف الشخصية ، ومنهم

(١) أنظر : Grousset, Crois., I, 12; Daniel - Rops, 550. - وقد تناول

شخصية جودفرى وصفاته الجثمانية بالدراسة كل من جيبرت ده نوجان ووليم العورى .

أنظر : Guibert de Nogent, R. H. C. — H. Occ., IV, 229 — 30 — Guillaume de Tyr, R. H. C. — H. Occ., I, lep., 371.

من أشار إلى الأساطير التي رويت عنه ، ومنهم من اتخذ موقفا وسطا فوصفه بالآيزان والاعتدال . فمن الفريق الأول المؤرخ شالندون الذي يرى أن جودفرى لم يكن قوى الشخصية والإرادة ، وأنه رغم شجاعته التي اشتهر بها فى الغرب ، لم يظهر براعة ملوسة فى فن قيادة الجيش الصليبي فى الشرق ، وأنه رغم مركزه المرموق فقد كان تفوذه ضعيفا إذا ما قورن بزملائه من رؤساء الحملة الأولى أمثال بوهيمند وسان جيل وشقيقه بلدوين . ويعتقد شالندون أنه انتخب أول حاكم دنيوى لدولة الصليبيين المقتضية فى بيت المقدس لنفس هذه الأسباب التى تنحصر فى ضعف شخصيته وعدم طموحه ، وحتى لا يثير النزاع بين باقى رؤساء الفرنج (١) . أما شارل ديبل فىقول إنه نشأت حول شخصية جودفرى أسطورة يشوبها التحويل والمبالغة ، جعلت منه محرك الحروب الصليبية وبطلها (٢) . ولكن المؤرخ رينيه جروميه يرى أن اعتدال هذا الرجل ودعة أخلاقه كانا عاملين هامين فى تقريب وجهات النظر المختلفة المتضاربة بين رؤساء الجيوش الصليبية (٣) :

سافر مع جودفرى شقيقه بلدوين حسبما أسلفنا ، والذي أصبح بعد موته الحاكم الثانى على مملكة أورشلm اللاتينية . وقد ظهر طموحه وقوة شخصيته عندما استقل بإمارة الرها ، وعندما أصبح ملكا على القدس المحتلة فيما بعد . وكان هو الآخر طويل القامة ، قوى البنية ، مفتول العضلات . إلا أنه يختلف عن أخيه فى أنه

(١) Chalandon, Première Crois., 291.

(٢) Diehl, L' Europe Orientale, 19. - وفيما يتعلق بالأسطورة التى نشأت حول شخصية جودفرى ، التى ذكرها البرت دكس ، ونقلها عنه وليم الصورى ، انظر مقال : « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » ، ص ١٩٧ - ١٩٨ والعواشى .

(٣) Grousset, Crois., I, 13.

كان صارما حازما متعجرفا صلفا متكبّرا ، يمثل الخلق اللاتيني أصدق تمثيل . كما كان واسع الثقافة ، إذ أعد لأن يصبح من رجال الدين وليس من رجال الحرب . ولكن لأسباب غير معروفة تماما ، تحول عن سلك الرهبنة إلى سلك الفروسية . وما يذكّر عنه أنه أظهر مواهب ممتازة في ميدان القتال . كما اتضح فيما بعد أن من أهم صفاته الجشع والآنانية والطموح الذي لا يقف عند حد ، ومع ذلك فقد كان من رجال الإدارة والتنظيم . ويقترن هذا كله بالأعمال الضخمة في النظم الإدارية التي أدخلها على مملكة الصليبيين في الأراضي المقدسة .

ومؤرخ هذه الحملة هو البرت دكس الذي اشترك فيها ودون مشاهداته عنها في كتاب وصل إلينا مجد فيه جودفرى ونسب إليه الدور الأول في قيادة الجيوش الصليبية . والحق أنه كان متحيزا لسيده ، كما هي العادة بالنسبة لمؤرخي الغرب في القرون الوسطى ، إذ أن الدور الذي لعبه جودفرى كان أقل بكثير مما قام به باقي رؤساء الفرنج .

على أية حال ، قامت الحملة (١) حوالي ١٥ اغسطس سنة ١٠٩٦ م ، أى في نفس التاريخ الذي حدده البابا أربان الثاني لسفر الجيوش الفرنجية المتجهة إلى الشرق . ومرت بأراضي الدولة المجرية (٢) ، ثم نزلت على الدولة البيزنطية . ولما علم الكسيس (٣) بقرب وصول جودفرى وقواته ، أرسل مندوبين من قبله قابلوا

(١) ذكرت آن كومنين أن جيش جودفرى كان يتألف من عشرة آلاف من الفرسان وسبعين ألفا من المشاة . أنظر : Alexiad, 257. - ولا شك أن هذا الرقم مبالغ فيه إلى حد كبير .

(٢) كان المجرىون قد اعتنقوا المسيحية في ذلك الحين ، ولذلك سمحوا للجيوش الصليبية بالمرور عبر أراضيهم إلى البلقان فأراضي الدولة البيزنطية ، ومنها إلى آسيا الصغرى فالأراضي المقدسة . أنظر : Trevelyan, 149.

(٣) يلاحظ أن المؤرخ اللونارنجي يطلق على الكسيس كومنين في كتابه لفظ ملك =

الزعيم اللوثاريجي في مكان ما بين بلغراد ونيش ، وطلبوا اليه أن يمنع جنده من إحداث الشغب ، وعقدوا معه معاهدة بهذا المعنى . وقد بر الامبراطور البيزنطي بوعده للفرنج ، فأمد جودفري بما يحتاج اليه من المؤن في مدينة نيش . ثم واصل دوق لوثرانجيا السفلى وجنوده السير ، فمروا بأدرنة ومنها إلى سيليفري Silivry الواقعة على بحر مرمرة (حوالى ١٢ ديسمبر ١٠٩٦) . وهناك أطلقوا لأنفسهم العنان في أعمال العنف . وابتدع البرت دكس الأعداء لجودفري ، فيقول إن جنوده أقدموا على ذلك انتقاما من الامبراطور الكسيس الذي كان قد أسر أحد زعماء الصليبيين وهو هيوج ده فيرماندوا أخو فيليب الأول ملك فرنسا ، ورفض إطلاق سراحه (١) . وبالمقارنة بين ماترويه إبنة الكسيس وما يقوله البرت دكس ، يتضح لنا أن هيوج لم يكن أسيرا ، وأن الاضطرابات التي حدثت في سيليفري إنما تعزى إلى قوات جودفري التي لم تسكن تعرف النظام ، والتي جبلت على الفوضى (٢) . ويؤيد شالندون أقوال آن كومنين ، ويذكر أن هيوج لم يكن معتقلا ، بدليل أنه عندما ذهب بعد ذلك لمقابلة جودفري ، حدثه عن كرم الامبراطور وسخائه وحسن معاملته له وترحيبه به ، وأعرب له عن رغبته في العودة ثانية اليه . ويستطرد شالندون فيقول إنه ليس من المعقول أن تصدر

= الأغريق « Rex Graeciae » ويعبر عن كلمة « باسيلوس » Basileus اليونانية باللفظ « ملك » وليس « امبراطور » أنظر :

Albert d'Aix, R. H. C. — H. Occ., IV, 304, 305.

أما باقي المؤرخين اللاتين ، فيطلقون عليه عادة اسم « امبراطور الاغريق » Imperator Graecorum أو « الامبراطور الكسيس » Imperator Alexius . أنظر عن ذلك : Guibert de Nogent, R. H. C. — H. Occ., IV, 131; Tudebodus, R. H. C. — H. Occ., III, 11 etc.

Albert d'Aix, IV, 304-5; cf. Guillaume de Tyr, I, lep., 78-80. (١)

(٢) أنظر : Grousset, Crois., I, 15.

هذه الرغبة عن أسير ، وإن قوات جودفرى تذرعت بهذه الحجة الواهية بقصد السلب فحسب ، أو لتغطية موقفها لما بدر منها (١).

كيفما كان الأمر ، عندما علم الكسيس بما حدث في سيليفرى ، أرسل مندوبين (٢) من قبله إلى جودفرى ، طالبا منه المبادرة بوضع حد لأعمال التخريب ونهب الأهلىن ، ومواصلة الطريق إلى القسطنطينية . فتوجه إلى العاصمة التى وصلها فى ٢٣ ديسمبر ١٠٩٦ م حيث أقام هو وقواده وقواته قبالة أسوارها .

لقد شاب الغموض موقف جودفرى حيال الكسيس أثناء وجوده فى العاصمة البيزنطية ، الأمر الذى يجعل منه لغزا يصعب حله . وكان الكسيس حتى ذلك الوقت غير راض بالمرّة عن تصرفات اللاتين الغربىين الذين اتصل بهم . كما كان وصول القوات الفرنجية النظامية بمثابة خطر حقيقى يهدد دولته . ثم أن ذكريات الماضى القريب والبعيد جمعت إمبراطور الروم يخشى من هجوم صليبي كبير على عاصمته التى اشتهرت بثرائها الفاحش وذخائرها المقدسة . وكان هذا هو شغله الشاغل فى ذلك الحين (٣) .

لقد كان هدف الصليبيين الذى قاموا من أجله بحركتهم هو انتزاع الأراضى المقدسة من قبضة العرب والأتراك السلاجقة . ورأى الإمبراطور البيزنطى ببصيرته النافذة ألا يأتى إلى هذه القوات الهائلة التى وضعها الغرب تحت إمرته ،

(١) Chalandon, Première Crois., 118.

(٢) هما فرنسيان كانا يعملان فى خدمة الكسيس ، أحدهما يسمى رول بيليديلو Roul Peeledelau والثانى روجر Roger . أنظر : Chalandon, op. cit., 119.

(٣) Chalandon, op. cit., 119-20.

[illegible]

طريق الجيوش الصليبية النظامية في أراضي الدولة البيزنطية

وأن يستخدمها لخدمة مصالح امبراطوريته فيما يتعلق باسترداد املاكه التي كان الاتراك قد استولوا عليها منذ عهد قريب . وبالاختصار رأى الامبراطور أن يستغل التعصب الدينى عند الصليبيين لخدمة أغراضه السياسية فى إعادة مجسـد بيزنطة القديم . وكان هدف الكسيس هو إقناع جودفرى بوجهة نظره ، وأن يتم ذلك فى أقرب وقت حتى يتفرغ لباقي الزعماء اللاتين الذين كانوا فى طريقهم إلى العاصمة . ولتنفيذ هذه السياسة أرسل اليه هيوغ الفرسى الذى طلب منه مقابلة الامبراطور وحلف يمين الولاء له . ولكن جودفرى رفض مقابلة الكسيس وتقديم فروض الطاعة اليه ، وأخذ يعنف هيوغ قائلا له فى سخرية : وأنت الذى قدمت من بلادك باعتبارك سيدا تملك ثروة هائلة وجيشا كبيرا ، أراك تنحدر بنفسك من هذه المكانة السامية التى كنت تتمتع بها إلى مصاف العبيد والاقنان . والآن تشير على بأن أعمل نفس الشئ الذى أقدمت أنت عليه ، كما لو كنت قد أحرزت نصرا عظيما ! ، فأجابه هيوغ : « كان يجب علينا إذن البقاء فى ديارنا ، وألا نتدخل فى شئون غيرنا . ولكن طالما بلغ بنا الأمر إلى هذا الحد ، فقد أمسينا فى حاجة ملحة إلى حماية الامبراطور لنا . وسوف تتطور الأمور فى غير صالحنا إذا لم نرضخ لمطالبه . » ومع ذلك فقد أصر جودفرى على موقفه ، وصرف هيوغ دون أن يصل إلى نتيجة مرضية .

هكذا انتهت المحادثة بين الرجلين ، بينما آثار الأمير اللوثارنجى الانتظار أمام العاصمة إلى أن تصل الجيوش الصليبية الأخرى ، وحينئذ يمكنه بمساعدة باقى زعماء الفرنج تحدى الامبراطور ومضايقته ، فيضطر هذا الأخير إلى الاستسلام والتنازل عن مطالبه حتى لا يعرض عاصمته لخطر الجيوش الصليبية المتجمعة أمام أسوارها (١) .

(١) Alexiad, 261; cf. Grousset, Crois., I, 15-6. — أنظر رواية آن

كومنين كاملة فى الملحق الثالث بآخر الكتاب .

ويذكر شالندون أن خطة الكسيس كانت تتلخص في منع الفرنج من التجمع أمام أسوار العاصمة بأى ثمن ، وأنه فهم الغرض الخفى الذى كان يرمى اليه جودفرى . ولذا رأى أن يحسم المسألة بسرعة قبل وصول عدوه القديم بوهيمند ، وحاول حمل جودفرى على أداء يمين الإخلاص والتبعية له قبل أن يجتاز البحر إلى آسيا الصغرى لمقاتلة التركان . ولكن الدوق العنيد كان قد أظهر منذ البداية العناد والعداء للامبراطور ، ورفض اقتراح ميوج بالذهاب لمقابلتة وحلف اليمين . ومنذ ذلك الحين توترت العلاقات بينهما حتى أن الكسيس اضطر إلى استخدام سلاحه الوحيد تمشيا مع سياسته التى اتبعها حيال الفرنج جميعا ، فقطع التموين عن جودفرى وجنوده لحملهم على الخضوع لإرادته . وعندما رأى بلدوين أخو جودفرى ذلك ثارت ثائرتة ، وهاجم البيزنطيين وعاث فسادا فى ضواحي العاصمة ، فاضطر الامبراطور إلى نقلهم إلى مدينة بيرى Pera الواقعة على القرن الذهبى ليحسروا فيها ، وحيث لمسهل عليه مراقبتهم (١) .

حدث كل هذا فى أوائل يناير من عام ١٠٩٧ م وقد أقام جودفرى وجيشه فى بيرى طيلة الشهور الثلاثة الأولى من ذلك العام ، رافضا بإصرار مقابلة الامبراطور وحلف يمين الولاء له ، ذلك لأنه من وجهة نظره من كبار رجال الاقطاع التابعين للدولة الألمانية ، وكان يعتبر الحركة الصليبية ذات صبغة دينية بحتة وليس مسألة سياسية (٢) . ولهذا الأسباب رفض الدوق اللوثارنجى أن يقسم يمين التبعية للامبراطور البيزنطى ، وأرسل وفداً من قبله لينخبره بذلك . وكان

(١) Chalandon, Alexis Comnène, 178.

(٢) Albert d'Aix, IV, 306; Guillaume de Tyr, I, lep., 83.

وقد أوضحنا فى الفصل الثانى أن الحركة الصليبية كانت على العكس من ذلك ، وأثبتنا أنها اتخذت من عامل الدين ستارا تخفى وراءه أطماعها السياسية العدوانية التوسعية فى الشرق .

جودفرى ينتظر بفارغ الصبر وصول الجيش النورماندى بقيادة بوهيمند ، حتى يستطيع متى اجتمعت قواتهما أن يفعل ما يشاء ، وحينئذ يضطر الامبراطور إلى التنازل عن مطالبه والاذعان لرغبات جودفرى وباقي زعماء الفرنج . ولنفس هذا السبب جدد الكسيس الأمر لقواته بفرض رقابة شديدة على اللوئارنجيين ، كما ضرب الحصار حول معسكرهم لمنعهم من الاتصال بغيرهم من الفرنج ، خصوصا وأن بوهيمند كان فى طريقه فعلا إلى العاصمة . وخاف الامبراطور مغبة الأمور ، وعزم على التخلص من جودفرى والعمل على إيجاد تسوية سريعة للسألة ، ولكن دون جدوى . فقد أصر الأخير على موقفه رافضا الاذعان لمطالب الامبراطور . حينئذ قطع الكسيس عنهم كل ما كان يرسله اليهم من تموين ، وشدّد الرقابة عليهم . وترتب على ذلك حدوث مناوشات بين البيزنطيين والصليبيين سرعان ما تحولت إلى قتال مكشوف . فحاصر البيزنطيون الجيش اللوئارنجى فى مدينة بيررا ، ولكن جودفرى وبلدوين تخلصا من الحصار وتركا المدينة بعد أن نهباها وأشعلا النيران فيها ، ثم توجهتا بقواتهما ثانية إلى الضفة الأخرى من القرن الذهبى وهاجما أسوار القسطنطينية بشدة وعنف . وأخذ الفرنج يتعقبون البيزنطيين حتى بلغوا أحد أبواب العاصمة ويسمى باب بلاكرنيس Blakherne فأحرقوه وشرعوا فى نهب ضواحي العاصمة ، كما شرع عدد منهم فى مهاجمة باب جيروليمين Gyrolimne وأشعلوا النيران فيه (١) .

وقد أخذ البيزنطيون على غفلة من هذا الهجوم المفاجئ الذى قام به جيش جودفرى ، ولم يكونوا قد احتاطوا له أو أعدوا العدة لمواجهته . لذا ساد الهرج والمرج فى اللحظات الأولى من المعركة ، ليس بين السكان فحسب وإنما بين القواد

المسكرين أيضا . ولم تمض سوى فترة وجيزة حتى وضعت خطط الدفاع ، وأخذ الامبراطور بنفسه يلهب حماس الجند ، بينما شرع الجيش البيزنطى فى الرد على ضربات الفرنجة بمثلها . واستمر القتال بينهما إلى أن حل الليل . والظاهر أن المعركة لم تكن بالغة الأهمية ، إذ يقدر المؤرخ المجهول خسائر البيزنطيين بسبعة من القتلى فقط . ويذكر المؤرخون اللاتين أن الصليبيين أحرزوا نصرا فى هذه الليلة . أما ابنة الكسيس فتقول إن البيزنطيين هم الذين انتصروا والحقوا الهزيمة بأعدائهم . ويقول شالدون أنه لا يمكن تفضيل إحدى الروايتين على الأخرى . ولكن يتضح من سير مجرى الحوادث أن النصر لم يكن فى جانب الفرنج لا كثير من سبب . فقد أخفقوا فى الاستيلاء على القسطنطينية وهى الهدف الذى قاموا من أجله بهجومهم . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم تكن لديهم المعدات الكافية والآلات اللازمة لضرب حصار منظم حول العاصمة . يضاف إلى ذلك أنهم كانوا فى الواقع تحت رحمة الامبراطور فيما يتعلق بمسألة التكوين ، ذلك السلاح الفعال الذى كان يشهده فى وجوههم كلما دعت الضرورة إليه ، حتى أنهم اضطروا فى النهاية إلى نهب ضواحي العاصمة ليحصلوا على القوات اللازمة .^(١) ونلاحظ أيضا أن اذعان جودفرى فى آخر الأمر لمطالب الكسيس وموافقته على حلف اليمين ، دليل على أن النصر لم يكن فى جانبه .

واستمر الوضع بين شد وجذب لمدة خمسة أيام أو ستة ، وأخذت حال الفرنج تزداد سوءا على مر الأيام ، إذ لم يكن هناك من سبيل للاستعاضة عن المؤن التى قطعت عنهم . وتوالى الغارات التى كانت تقوم بها القوات الفرنجية من أجل الحصول على الطعام . وقد لجأ الكسيس مرة أخرى إلى أصدقائه من

الصليبيين الذين سبق أن حلفوا له يمين التبعية ، ومنهم هيوغ ده فيرماندوا ، بقصد إقناع جودفرى لأداء هذا اليمين وأوضح هيوغ لدوق اللورين السفلى الحالة على حقيقتها ، وأبان له أنه ليس بوسعهم إلا الرضوخ لرغبة الامبراطور طالما هو في حاجة اليه وتحت رحمته (١) .

وللرة الأخيرة توجه هيوغ إلى جودفرى يطلب منه مقابلة الكسيس ، فرفض الدوق وظل متشبثا بموقفه السابق . وأمام هذا الرفض المتكرر من جانب جودفرى وطد الكسيس عزمه على استخدام القوة العسكرية . فأمر جنوده بمهاجمة الجيش اللوثرانجي وتأديبه ، ووقعت بين الفريقين معركة شديدة انهزم فيها جودفرى ، واضطر في نهاية الأمر إلى رفع راية الاستسلام والاذعان لمطالب الامبراطور .

توجه جودفرى وبصحبه كبار البارونات إلى قصر البلاكرن الامبراطورى ليقدّموا لالكسيس فروض الطاعة ، بينما بقي بلدوين على رأس الجيش قبالة العاصمة . وسجد أمام الامبراطور الجالس على عرشه ، وحلف يمين الولاء والتبعية بين يديه متعهدا أن يكون دوجل الامبراطور ، . وقد نجح الكسيس في اقناع الدوق بوجهة نظره ، وتم الاتفاق بينهما (ابريل ١٠٩٧) على أن يرد الصليبيون جميع الأقاليم والمدن التي كانت في حوزة الدولة البيزنطية قبل موقعة ملاذكرد ، وذلك بعد إخراج الأتراك منها . وعلى ذلك فإن هذا القسم لا يتناول مدن الأناضول كنيقية ودوريليوم خصب ، وإنما يشمل أيضا المدن السورية مثل انطاكية والرها التي كانت تحت حكم بيزنطة إلى وقت قريب . وبعد أن أقسم جودفرى اليمين انحنى الكسيس وقبلة طبقا للتقاليد الاقطاعية . وقد أقسم

(١) Chalandon, op. cit., 127-8.

الرؤساء الذين كانوا في صحبته يمينا بمائة . (١) وسيكون لذلك الاتفاق أثره فيما بعد في تطور العلاقات بين الصليبيين والدولة البيزنطية طيلة قرن من الزمان .

وقد رحب الامبراطور بجودفري ومن كان معه خلال إقامتهم في القسطنطينية ، وغنمهم بالهدايا والمنح من ذهب وفضة ، وأمر بأن توزع عليهم الأقمشة والملابس الثمينة والخيول والبغال ، وغير ذلك من النفائس التي اشتهرت بها العاصمة . كما سهل لهم مسألة التعمين ، وأمر بصرف رواتب اكل فرد منهم ، بما يدل على أنه كان يعتبرهم جندا مرتزقة في خدمته . وفي اليوم التالي لتوقيع الاتفاق رحل جيش جودفري إلى آسيا الصغرى ، وأقام بمدينة بلسكان Pelekan انتظاراً لوصول الجيش النورماندى بقيادة بوهيمند بن دوبرت جويسكار (٢) .

من استعراضنا للحوادث السابقة يتضح لنا أن الكسيس قد أفسح صدره في بادئ الأمر لجودفري وجيشه ، وحاول أن يستميله اليه بسكاكة الطرق والوسائل . ولكن الدوق لم يكن يرغب في الاتفاق مع الامبراطور ، ورفض أكثر من مرة مقابله وحلف يمين الولاء له ، وأصر على موقفه هذا ، ولم تنفع

Alexiad, 261; Albert d'Aix, IV, 310-1; Guillaume de Tyr, (١) I, lep., 87-8. — وفيما يلي اليمين الذي أداء جودفري وباقي النبلاء ، حسبما ورد في كتاب البرن دكس : *Audivi de te quoniam miles et princeps potentissimus sis in terra tua, et vir prudentissimus ac perfectae fidei. Quapropter te in filium adoptium suscipio; et universa quae possideo in tua potestate constituo, ut per imperium meum et terra a facie praesentis et affuturæ multitudinis liberari ac salvari possit.* »

Alexiad, 261; cf. Grousset, Crois., I, 17-9; Chalandon, (٢) op. cit., 129.

معه وساطة الوسطاء ولا شفاعة الشفعاء . كما أن قواته لم تكف عن التحرش به ، حتى لقد انتهى بها الأمر إلى مهاجمة العاصمة نفسها محاولة الاستيلاء عليها . وأخيرا ضاق الامبراطور ذرعا بهذا الدوق ، خصوصا وأن جيش بوهيمند كان في طريقه إلى العاصمة ، وكانت خطته هي أن يحول دون تقابل الزعيمين أمام أسوارها ، حتى لا يقوموا بحركة عدائية ضده . وكان على حق في هذا ، إذ اتجهت نوايا جودفرى إلى التمهّل وإضاعة الوقت لحين وصول باقى الجيوش الفرنجية . وكان الكسيس يعرف تماما من هو بوهيمند وما هي أطماعه . لذا اضطر مكرها إلى استخدام القوة وقطع التموين ، وانهمزم الجيش اللوثارينجى ، وأذعن الدوق مرغا لمطالب الكسيس . وقدم إلى العاصمة حيث حلف يمين الاخلاص بين يديه ، ووافق على الرحيل إلى آسيا الصغرى (حوالى ٩ أو ١٠ أبريل سنة ١٠٩٧) فى انتظار وصول القوات النورماندية . ولا نعرف على وجه التحديد الظروف التى تم فيها نقل قوات جودفرى إلى الضفة الآسيوية للبسفور .

بعد أن أذعن جودفرى لمطالب الكسيس ، وبعد أن عبر البسفور إلى آسيا الصغرى ، كان على الامبراطور مواجهة المشكل الأكبر فى الحرب الصليبية الأولى ، ألا وهو الأمير بوهيمند النورماندى^(١) ابن روبرت جويسكار الذى مازال اسمه عالقا بأذهانه . وكيف لا وهو الذى عرض حياة دولته للخطر منذ بضع سنوات خلت فى الهجوم الذى شنّه النورمانديون على الدولة البيزنطية فيما بين

(١) لعب النورمان دورا كبيرا فى الحرب الصليبية الأولى؛ فقد اشترك فى مؤتمر كليرمون ثلاثة أساقفة نورمان ، وجمّلوا معهم عند عودتهم إلى بلادهم قرارات المجلس وأخبار الحرب المقدسة المزمع قيامها . ولكن يبدو أن الحملة الصليبية لم يكن لها دعاءة فى مقاطعة نورمانديا ، بعكس الحال فى باقى دول الغرب الأوروبى . أنظر :

Haskins, The Normans in European History, 211, 217.

عامى ١٠٨٠ و ١٠٨٥ . وكان من الجائز جدا وقتئذ أن يفقد الإمبراطور عرشه ودولته ، لولا أن انتهت الحرب بانتصار الكسييس واندحار النورمانديين (١) . وقد خرج بوهيمند من هذه الحرب بنتيجة تتلخص فى أنه ليس بوسعه مهاجمة الدولة البيزنطية فى أوروبا لقوتها وبأسها . ولذلك فقد عول منذ تلك اللحظة على تجربة حظه فى ميدان جديد عليه ينجح فيها أخفق فيه سابقا ، ويستوى عنده إن كان ذلك على حساب العرب أو على حساب بيزنطة نفسها .

ويحدثنا المؤرخ المجهول عن أسباب اشتراك بوهيمند فى الحركة الصليبية . فقد كان هذا الأخير يساعد سمه الكونت روجر الأول صاحب صقلية فى حصار مدينة أمالفي Amalfi الثائرة ، وسمع حينئذ أن جيوشا كثيرة من فرنسا ولوئارنجيا وألمانيا تتجه نحو الشرق لغزو الأراضى المقدسة . وبعد أن سألهم عن شعارهم ووجهتهم والهدف الذى ينشدونه من حركتهم ، سرعان ما ترك المدينة المحاصرة وتوجه بجيوشه صوب بيت المقدس (٢) . فقد وجد فى الفكرة الصليبية فرصة ذهبية للظهور بمظهر المسيحى الورع الذى يترك بلاده للدفاع عن المسيحية وتحرير قبر المسيح . ولكنه فى قرارة نفسه كان يفكر فى مصالحه الخاصة وأطماعه الذاتية التى مستكشف عنها الأيام .

ويفسر شالندون سياسة بوهيمند فىقول إن إيطاليا ضاقت بمطامعه ، بعد

(١) ويرجع الفضل فى ذلك إلى البنادقة الذين وقفوا إلى جانب الإمبراطور البيزنطى فى حربه ضد النورمان ، إذ قام أسطولهم بقطع طرق مواصلات النورمان ، مقابل الامتيازات التجارية الواسعة التى منحها لهم الإمبراطور فى دولته . أنظر :

Setton, Hist. of the Normans, 19 - 20; Pirenne, Economic and Social Hist. of Med. Europe, 20.

(٢) أنظر رواية المؤرخ المجهول فى كتابى جروسى وهاسكينز :

Grousset, Crois., I, 20; Haskins, The Normans, 213.

أن وجد فيها مسرحا لم يعد يصلح لتحقيق أغراضه السياسية . لذا تحمس لفكرة الحرب الصليبية تحمسا كبيرا حيث يمكنه تحقيق آماله العريضة . وما لاشك فيه أن بوهيمند كان على دراية تامة بالسياسة البيزنطية وبالمسائل الشرقية ، وكان يعرف مدى قوة بيزنطة ومبلغ ثروتها ومواطن الضعف فيها ، لأنه كان على صلة بها - كما رأينا - في الحروب التوسعية النورماندية (١) . وكان هذا السيد الطموح يهدف إلى إنشاء إمارة له في الشرق ، خاصة وأن أباه عين قبل موته ابنه الأصغر المسمى روجر بورسا Roger Borsa ليخلفه في الحكم . وهكذا بعد وفاة جويسكار وجد بوهيمند نفسه بدون أى ممتلكات في الغرب بعد أن آل كل شيء إلى أخيه الأصغر ، اللهم إلا من بعض الأملاك البسيطة التي أمكنه انتزاعها بالقوة في جنوب إيطاليا . لذا وجد في الحملة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق أطماعه الواسعة (٢) . ويثبت تاريخ بوهيمند نفسه ، وما كتبه عنه آن كومنين ، أنه قد فكر فعلا في الاستعانة بالدولة البيزنطية لتحقيق هذا الغرض (٣) . ويزيد أحد المؤرخين الغربيين المحدثين ، وهو شارل هومر هاسكنز ، الأمر وضوحا ، فيقول إن بوهيمند لم تكن تعنيه مصالح بيزنطة أو مسألة تحرير القبر المقدس ، وإن أهدافه اتجهت منذ البداية نحو تأسيس إمارة له في سورية ، مثلما فعل غيره من أفراد أسرته عندما كونوا ممالك لهم في إيطاليا وصقلية (٤) .

هذا عن بوهيمند وسياسته ، وأما عن صفاته الشخصية فتذكر المراجع أنه

(١) Chalandon, Première Crois., 132.

(٢) Chalandon, Alexis Comnène, 184; Haskins, Normans, 213.

(٣) Alexiad, 267.

(٤) Haskins, The Normans, 214. — انظر أيضا باركر : الحروب

الصليبية ، ص ٣١ .

كان خارق الذكاء ، لبقا مرنا ، سياسيا محنكا . وليس أدل على ذلك من مواقفه حيال الامبراطور البيزنطى وباقى زعماء الفرنج فى الحملة الأولى . ولم تكن تنقصه الصفات التى يتحلى بها الفارس الاقطاعى . وهو يعتبر بدون شك أبرز شخصية فى الحرب الصليبية الأولى ، ومن أمهر قادة الجيوش الصليبية على الإطلاق . وكان هو الرجل الذى تتجه إليه الأنظار فى المواقف الدقيقة الحرجة . ولم يكن هدفه هذه المرة القسطنطينية وإنما الشرق العربى ، إذ سبق أن خبر قوة الدولة البيزنطية فى حروبه ضدها . ولم يكن على استعداد للدخول فى جولة ثانية معها قد يفقد فيها كل شئ . وقد أفاده وجوده فى جنوب إيطاليا حيث كان البيزنطيون قد ثبتوا أقدامهم فيها لفترة طويلة ، وطبعوها بطابعهم الخاص إلى أن طردهم منها النورمان . كما كان على اتصال دائم بالعرب فى شمال افريقية ، وكان على علم بطابعهم وطرقهم فى الحرب والقتال .

ويقارن رينيه جروسيه (١) بين بوهيمند وأحد قواد الجيش البيزنطى من المرتزقة الغربيين واسمه روسيل (٢) Roussel de Bailleul ، وكان هذا الأخير قد اشترك فى موقعة ملاذكرد ضد السلاجقة ، ثم ثار بعد ذلك على الامبراطور البيزنطى ، وحاول تأسيس دولة نورماندية فى آسيا الصغرى مثلبا حاول بوهيمند فى البلقان . ولكن الكسيس لم يمكنه من بغيته ، وألحق به الهزيمة ، وقضى على مطامعه وهى لا تزال فى مهدها . وطمع بوهيمند فى تحقيق نفس الشئ الذى كان يصبو إليه روسيل (٣) . لقد تأكد بوهيمند من قوة الدولة البيزنطية فى البلقان ،

Grousset, Hist. des Croisades, I, 21; cf. also Runciman, (١)
Hist. of the Crusades, I, 62-3, 66-7.

(٢) للزيد من المعلومات عن روسيل هذا ، انظر :

Runciman, Hist. of the Crusades, I, 67 & n. 1.

Diehl, L' Europe Orientale, 20; Chalandon, Premi ère (٣)
Crois., 133.

وأنه لن يمكنه تحقيق مطالبه في القطاع الأوروبي منها . ولذلك عول على تأسيس إمارة له في آسيا ، ولا مانع لديه إن كان ذلك بمعاونة خصمه القديم الامبراطور البيزنطي أم لا . ولذلك كان لزاما عليه أن يعمل على اكتساب ثقته ، وأن يتظاهر له بالولاء والإخلاص إلى أن يتم له تحقيق أمله . ولكن مع كل هذا لم يتمكن من إزالة شكوك الامبراطور حياله (١) .

هذا عن بوهيمند ، أما عن الكسيس فقد كان بطبيعة الحال يتوجس خيفة من عدوه القديم . ولم ينس المضايقات التي سببها له النورمان في الحملة التي شنوها على الدولة البيزنطية قبل ذلك التاريخ ببضع سنوات . ولذلك كان يشك دائما في نوايا هذا الأمير النورماندي ، وإن تظاهر له بالمودة السطحية التي تخفى من ورائها الحيلة والحذر (٢) . وهذا ما استكشف عنه أحداث السنوات التالية .

لقد أكدت تلك الأحداث في ذهن الكسيس أنه مهما كانت الدوافع الرسمية للحملة ، فإن الهدف الحقيقي الذي كان الصليبيون يسعون اليه هو أن يضمّنوا لأنفسهم إمارات يحكمونها في الشرق . ولم يعترض امبراطور البيزنطيين على ذلك طالما أن دولته ستسترد كل الأراضي التي كانت تدخل في نطاقها قبل غزوات السلاجقة . وعلى هذا تحدت سياسته حيال الجيش النورماني بقيادة بوهيمند صديقه اللدود . (٣)

ومن الشخصيات البارزة التي اشتركت مع بوهيمند في هذه الحملة أخته المسماة Emma ، وابنها تنكريد (٤) الذي كان يشبه خاله في كثير من صفاته ،

(١) Alexiad, 264.

(٢) Chalandon, Première Crois., 132.

(٣) Runciman, op. cit., I, 145.

(٤) للزبد من البيانات عن إما وتنكريد، أنظر: 20 n. 2 Grousset, Crois.,

وقد سافر هو الآخر إلى الشرق وفي نيته تأسيس إمارة له هناك. وكذلك مؤرخ الحملة المعروف بالمؤرخ المجهول الذي شاهد أحداثها وسجلها لنا في كتاب لا يمكن إغفاله عند التعرض لتاريخ هذه الحقبة من الزمن . ويقدر عدد من ساهم في الحملة بخمسة فارس عدا المشاة .

وبعد إتمام الاستعدادات ، أبحر جيش بوهيمند من مدينة بارى Bari ، ومر بأترانت Otrante وبرنديزي Brindisi ، وكان ذلك في أوائل نوفمبر من سنة ١٠٩٦ م (١). ثم نزل في فالونا Valona ، ودورازو Durazzo ، وكانت الخيرات كثيرة متوفرة طوال الطريق . وبعد ذلك جمع بوهيمند جنوده في وادي دروبولي Dropoli ، وأمرهم ألا يعيشوا فسادا في الأراضي البيزنطية ، ألا يسلكوا مسلكا شائنا فيها ، وهدفه من ذلك ، بطبيعة الحال ، هو كسب ود الكسبيس تمشيا مع سياسته التي اختطها ومار عليها . ثم واصل الدوق سفره إلى كستوريا Castoria إحدى بلاد مقدونية (٢٥ ديسمبر) ، وأقام هناك لبضعة أيام . وقد حاول النورمان الحصول على ما يلزمهم من الطعام ، ولكن السكان - وكانت ذكرى حرب ١٠٨١ لا تزال باقية في أذهانهم - رفضوا أن يبيعوم أو يعطوم شيئا . فاستولى الفرنج عنوة على كل ما يلزمهم . ثم شدوا رحالهم من كستوريا إلى بيلاجونيا Pelagonia ، وفي أثناء الطريق أشعلوا النيران في بلدة بمن كان فيها من المراطفة الاغريق . وبعد أن أمضى الجيش بضعة أيام في بيلاجونيا وصل إلى نهر الفردار Verdar ، وهناك هاجم جيش الامبراطور المكون من الأتراك المكلفين بمراقبة الفرنج ، مؤخرة الجيش

(١) تحدثنا الكاتبة آن كومنين عن اشتباكات وقعت بين الاسطولين البيزنطي والنورماندي عند بداية الرحلة . ويعتقد شالندون أن هذه الرواية من نسج خيالها ، وليس لها أى نصيب من الصحة . أنظر : Chalandon, op. cit., 134.

النورماندى . ويقول شالندون إن هذا الاعتداء إنما كان انتقاما للبلدة التى أحرقتها النورمان بالقرب من ييلاجونيا . وعندما علم تنكريد بما حدث ، وكان قد عبر نهر الفردار ، ثارت ثائرتة وارتد على أعقابيه ، وشتت شمل القوات البيزنطية . ويرى كل من المؤرخ المجهول وراؤول ده كان ، أن تنكريد محق فى ذلك . وفيما يتعلق بالأسرى الاغريق الذين وقعوا فى قبضة الجيش النورماندى خلال هذه المناوشة ، فقد أطلق بوهيمند سراحمهم وتركهم لحال سبيلهم حتى لا يوغر صدر الامبراطور عليه ، وحتى يكسب رضائه وتأييده له فى تحقيق رغباته ؛ وحدث ذلك فى ١٨ فبراير سنة ١٠٩٧ م (١) .

وفى تلك الاثناء أوفد الكسيس رسلا من قبله إلى بوهيمند طلبوا منه أن يمنع جنده من إحداث الشغب فى الأراضى البيزنطية . وقام فى ذلك الحين نزاع بين بوهيمند وابن أخته تنكريد ، لأن هذا الأخير كان قد عزم على مهاجمة إحدى المدن البيزنطية ، بينما كان بوهيمند يرى عكس ذلك حتى لا تسوء العلاقات بينه وبين الامبراطور تنفيذا لخطته المرسومة . وهكذا بينما كان تنكريد يرى اتخاذ الشدة حيال البيزنطيين ، كان خاله يرى اصطناع السياسة واللين لحاجته إلى الكسيس والحاجة فى نفسه .

وعندما وصل بوهيمند وجيشه إلى سيرا Serra فى تراقية قابله مندوبين من قبل الكسيس ووعدوه بالهدايا النفيسة إذا استبق جيشه وذهب إلى القسطنطينية للشول بين يدى الامبراطور . وفى أول أبريل من سنة ١٠٩٧ م وصل بوهيمند إلى روسا Rossa بتراقية ، وقد قبل الانهاب إلى العاصمة تاركا جيشه بقيادة تنكريد ، آملا أن ينال تأييد الامبراطور بالنزول عند إرادته .

Raoul de Caen, R.H.C.-H.Occ., III, 607-10; cf. Chalandon, (١) op. cit., 135.

وعندما وصل الأمير النورماندى إلى القسطنطينية وحب به الكسيس واستقبله استقبالا لائقاً ، إذ أمر بإعداد الطنافس الجميلة والشيء الكثير من الذهب والفضة ، وغير هذا وذاك بما يبهر شخصاً مثل بوهيمند . وتصف آن كومنين قصة اللقاء الذى تم بين بوهيمند وأبيها وصفاً ممتعا شيقا ، يكشف فى صراحة عن حقيقة العلاقات بين الرجلين بصفة خاصة ، ويلقى ضوءاً كافياً على موقف كل من اللاتين والاغريق حيال الآخر بصفة عامة . ويبدو من سياق حديثها أنها كانت شاهدة عيان لهذا اللقاء العجيب . تقول إن أباهما استقبل الأمير النورماندى مرحباً بحياً ، وإن الابتسامة لم تكن تفارق وجهه ، وأنه أخذ يسأله عن أحواله وعن رحلته ، والمكان الذى ترك فيه باقى النبلاء الذين جاءوا معه من الغرب . وكان بوهيمند صريحاً واضحاً فى إجابته على الأسئلة التى وجهها إليه الكسيس . فلم يحاول إخفاء أى شيء حتى يسترد ثقة الامبراطور فيه . وعندما أخذ الكسيس يذكره مازحاً بعدائه القديم له ، أجابه بوهيمند قائلاً : « بالرغم من أننى كنت وقتذاك خصمك وعدوك ، إلا أننى قادم الآن بمحض إرادتى كصديق مخلص وفى لجلالتك . » وكأنه يريد أن ينتزع من رأس الامبراطور تلك الفكرة السيئة التى يعرفها عنه . وهكذا يبدو من سياق المحادثة أن كلا من الرجلين كان يرتاب فى صاحبه ، ويحاول قدر الاستطاعة معرفة حقيقة نواياه وإزالة شكوكه حياله ، بالتظاهر بالود السطحى وتنامى الماضى المزعج . وتذكر الكاتبة الاغريقية أن الامبراطور لم يشأ أن يطيل الحديث مع غريمه القديم فى أول لقاء بينهما ، وبعد أن اطمأن إلى أنه لن يتردد فى أداء يمين الإخلاص صرفه قائلاً : « لا بد أنك متعب من رحلتك ، ويحسن بك أن تذهب لتتال قسطاً من الراحة . ويمكننا التحدث غداً اليوم فى كل ما يعنيننا من أمور . » لقد دل الكسيس على حكمة وبعد نظر فى موقفه من بوهيمند . وأدركت

ابنته آن ذلك ، فكتبت عن أيها تقول : « لقد اشتهر الامبراطور بقدرته التي
تدعو إلى الاعجاب في الحكم على أى فرد ، وفي الغوص إلى قرارة نفسه وكشف
خبيثة نواياه . وكان على حق في موقفه من بوهيمند ، لعله بما كانت تنطوي
عليه نفسه من حقد وخبث ودهاء . »

وتذكر الكاتبة أن الكسيس ، رغبة منه في الاحتفاء بصديقه اللدود ، أمر
باعداد وليمة فاخرة له . ولكن بوهيمند رفض تناول الطعام خشية أن يكون
الامبراطور قد دس له السم فيه ليتخلص منه ويتق شره . ولم يفصح عن شعوره
هذا ، بل قام بتوزيع الطعام على رجال الامبراطور ، كما لو كان ذلك تصدقا منه
عليهم . وبعد ذلك أمر باعداد طعام خاص له بمعرفة رجاله الذين أحضرهم معه .
ولم يترك الحادث يمر بسلام ، بل أخذ يستفسر في اليوم التالي عن حال أولئك
الذين تناولوا من طعام الامبراطور ، اعتقادا منه أنهم أصبحوا في عداد
الأموات . وعندما تيقن أنهم أصبحوا معافون وأحياء يرزقون ، أبدى اعتذاره
وتأسفه متعللا أنه عندما شاهد المائدة المملوكة وعليها مختلف ألوان الطعام ،
رجع بذاكرته إلى أيام حروبه ضد الامبراطور ، وخشى أن يكون قد دس له
السم لقتله . وتعقب آن كومنين على تصرف الأمير النورماندى بأنه لا يصدر إلا
عن رجل خبيث شرير . وهكذا كان الكسيس يشك دائما في نوايا بوهيمند بن
جويسكار ويتوجس خيفة منه ، وكان بوهيمند نفسه ينظر بعين الريبة إلى
الامبراطور البيزنطى (١) .

وتحدثنا ابنة الكسيس عن جشع بوهيمند وأطماعه ، فتقول إن أباهما خصص
له غرفة فاخرة في قصره ، وملأها بمختلف أنواع التحف والنفائس حتى أنه كان

(١) Alexiad, 265-6; cf. Chalandon, Première Crois., 133-6.

يتعذر على المرء أن يجد شبرا من الأرض يسير عليه . وكاف رجاله بمراقبة الأمير عند تقديم تلك الهدايا إليه ، للتعرف على نواياه . وتقول الكاتبة إن بوهيمند عندما رأى كل هذه الكنوز لم يتمالك نفسه وصاح قائلا : « لو كنت أملك كل هذا لأصبحت منذ زمن بعيد سيداً على كثير من البلاد . » فأجاب رسل الكسيس إن سيدهم أمر بارسال هذه الهدايا الفاخرة إليه دون مقابل . وابتسم بوهيمند راضياً شاكراً . ولكنه لم يلبث أن غير رأيه ولم تـمض لحظات على موافقته بقبول الهدايا ، وأمر بإعادتها ثانية إلى الكسيس ، موجهها الحديث إلى الرسل في نعمة جافة غاضبة : « لم أكن أتصور أبداً أن يلحق بي الامبراطور مثل هذا العار . خذوا هذه الأشياء وأعيدوها إلى ذاك الذي أرسلها . » وتذكر الرواية أن بوهيمند عندما أبصر الرجال يستعدون لحمل الكنوز ، عز عليه أن تضيع منه ، وعدل عن رأيه السابق بسرعة مبدية سروره واغتباطه بتقبلها ، ولعله أقدم على ذلك حتى لا يشك الامبراطور في حقيقة نواياه إذا ما رفض هداياه . أو لعل الطمع أعماه وخشى أن تضيع عليه هذه الفرصة .

ولهذه الحادثة البسيطة مغزاها ودلالاتها في الكشف عن حقيقة دوافع الأمير النورماندى بمخاصة ، وعن طباع اللاتين بصفة عامة . وفي ذلك تقول الأميرة آن كومنين « إن اللاتين قوم متقلبون لا يثبتون على رأى ولا يقفون على حال ... » وتخص بوهيمند بكلمات لاذعة ، فتقول إنه « تغير في لحظات كما تغير الحرباء لونها ، فقد كان في طباعه خبث ولؤم . كما كان على استعداد لتكليف نفسه لكافة الاحتمالات ، وقد فاق جميع اللاتين جرأة وخداعا ، وإن كان دونهم هدة ومالا ... » وتزيد الكاتبة الأمر وضوحا ، فتروى أنه عندما غادر بلاده إلى الشرق لم يكن يملك من حطام الدنيا شيئا . فتظاهر بالرغبة في زيارة القبر المقدس ، وإن كان في قرارة نفسه يسعى سعيًا خفيا لتأسيس مملكة له ، أو اقتفاء خطى أبيه

جويسكار في محاولة هدفها الاستيلاء على بيزنطة إن استطاع إلى ذلك سبيلا (١). على أى حال ، حاول بوهيمند قدر الاستطاعة إخفاء حقيقته ، والتصرف في حدود الخطة التي رسمها لنفسه ، والتي تتلخص في العمل على كسب الكسيس إلى صفه لتحقيق أغراضه وتبديد شكوكه حياله ، ولو أدى الأمر إلى مناصرته له ضد باقى زعماء الفرنج ، على أن يتنكر له في الوقت المناسب ومتى دعت الضرورة إلى ذلك كما سيحدث في مسألة انطاكية (٢) وتأكيذا لهذه الخطة أقسم بوهيمند بين يدي الكسيس بيمين التبعية والولاء دون أى معارضة أو تردد . وجاد عليه الامبراطور بكثير من الذهب والفضة والأحجار الكريمة . ويتضح مما سبق أن هذا الأمير حاول إرضاء الكسيس قدر الاستطاعة وبكافة الطرق والوسائل ، وأن يتظاهر له بالود حتى يتمكن من تحقيق أغراضه في الشرق . وفعلا ظهرت حقيقة نواياه حينما طلب من الامبراطور أن يمنحه وظيفة د خادم الشرق الأكبر ، . وهذه الوظيفة أهميتها بالنسبة لبيزنطة ، إذ تعنى أن يكون صاحبها سيدا على أنطاكية وضواحيها . ولما تبين الامبراطور ما يرمى اليه بوهيمند ، لم يعطه ردا صريحا قاطعا ، وظل يراوغه ويمنيه بالرجاء حتى لا يخيب أمله فينقلب ضده . وأخيرا وعده باقطاعه أرضا في منطقة انطاكية طولها ١٥ يوما وعرضها ثمانية أيام . وأقسم له الامبراطور أنه سوف لا يحنث بيمينه إذا ما بر هو بقسمه الذي قطعه على نفسه (٣) . ويعال شالندون موقف الكسيس بقوله : « اعتقد أن الكسيس حينما وعد بوهيمند باقطاعه اقلية في منطقة انطاكية ، إنما اضطر إلى ذلك رغما عنه لإرضاء الأمير النورماندى حتى لا تسوء العلاقات بينهما . » (٤)

(١) Alexiad, 266; Diehl, L'Europe Orientale, 20. - أظن التفاصيل

في الملحق الثالث بآخر الكتاب .

(٢) Chalandon, Première Crois., 133.

(٣) Alexiad, 267; cf. Grousset, Crois., I, 22—3.

(٤) Chalandon, Alexis Comnène, 186.

ويذكر المؤرخ المجهول أن الامبراطور وعد بوهيمند زيادة على ذلك بالمحافظة على سلامته وسلامة رجاله . كما تعهد بإرسال جيش بيزنطى لحراسة الفرنج برا وبحرا ، وبإمدادهم بما يلزمهم من مؤونة . وقال إنه أن يسمح لأحد بأن يتعرض لجيش بوهيمند بسوء وهو في طريقه إلى القبر المقدس (١) .

أما عن تذكر يد فقد استاء من سياسة خاله ، وعبر البسفور دون أن يمر بالقسطنطينية حتى لا يؤدى القسم المطلوب ، ولحق بالجيوش الصليبية الأخرى المتجهة صوب نيقية . هذا فى الوقت الذى قام فيه بوهيمند بدور الوسيط الشفيح بين الكيس وبقى زعماء الفرنج تنفيذا لخطته وحرصا على حسن صلته بالامبراطور (٢) . واهل أوضح دليل على ذلك موقفه من الخلاف الذى نشب بين الكيس وريمون ده سان جيل أحد زعماء الحملة الأولى . إذ يذكر المؤرخ المجهول أن ريمون أقام فى ضاحية من ضواحي العاصمة ، رافضا بعناد الذهاب إلى القسطنطينية لحلف اليمين . وبلغ به الأمر أن أخذ يفكر فى وسيلة ينتقم بها من جيش الامبراطور . وقد أوضح بعض كبار الفرنج ، وعلى رأسهم جودفرى وروبرت كونت نورمانديا ، لريمون ده سان جيل أنه لا يجدر بالمسيحيين أن يقاتلوا بعضهم بعضا ، وأنه من الأفضل التفاهم مع الامبراطور . أما بوهيمند فكان أكثر صراحة ، إذ أكد لكونت تولوز أنه سيقف إلى جانب الامبراطور إذا تعرض له بأذى أو سوء . وعندما استشار ريمون كبار قومه ، أجابوه أن من مصلحته الرضوخ لرغبة الكيس . حينئذ أقسم باحترام حياة الامبراطور وشرفه ، متعهدا بعدم التعرض له . ولكن عندما دعى لحلف يمين

(١) Anonymi Gesta Francorum, 173.

Raoul de Caen, R.H.C.-H.Occ., III, 612-4; cf. Chalandon, (٢) Première Crois., 137.

التبعية ، رفض ذلك رفضا باتا . وبهنا من هذا الموضوع أن موقف بوهيمند من كونت تولوز يوضح بجلاء أنه كان قد اتفق مع الامبراطور البيزنطى اتفقا ثنائيا مستقلا ، وذلك بخلاف الاتفاق العام الذى عقد بين الكسيس وزعماء الفرنج (١) .

نستخلص مما سبق ذكره أن البيزنطيين كانوا بلا شك يربون جانب بوهيمند أكثر من أى رئيس آخر من رؤساء الفرنج ، ولهم فى ذلك عذرهم . فقد خاف الكسيس أن يعمل بوهيمند على تحقيق مشاريع أبيه روبرت جويسكار فى الدولة البيزنطية ، مع أن الامير النورماندى كان مقبلا وكله استعداد للاتفاق مع البيزنطيين ، بل أفصح عن رغبته لحلف اليمين آملا أن يكسب بذلك تأييد الامبراطور له فى تحقيق مشاريعه السياسية فى الشرق ، تلك المشاريع التى أخفق فى تنفيذها فى القطاع الغربى من الامبراطورية . ولا شك أن ثقته بالاغريق لم تخل من التحفظ . وقد ساد التفاهم فى الظاهر بينه وبين البلاط البيزنطى منذ البداية ، وإن كانت عوامل الريبة بادية متوفرة بين الجانبين ، خاصة وأنه كانت لها مهادنات سبقت قيام الحملة ، كما أعقبها أحداث أكدتها وعمقتها .

وبما ينبغى ذكره أن هذا الامير ترك فى ذاكرة الأميرة الاغريقية آن كومنين أثرا لايمحى . فقد وصفته فى كتابها بأنه « عملاق ، احمر الشعر ، هريض المنكبين ، ذو عينين براقتين زرقاوين ، له ضحكة عالية رنانة ، جميل الصورة ، أديب لبق بارع حلو الحديث . » ثم تستطرد فى وصفه فتقول : « ويبدو أنه كان يحمل بين جوانحه البطولة والحب ، ولم يكن يفوقه سوى والدى الامبراطور فى الثراء والبلاغة وباقي الصفات الحميدة التى حبت بها الطبيعة . » ومن العجيب

(١) سنتناول هذا الاتفاق بشئ من التفصيل فى الفصل التالى من الكتاب . أنظر أيضا رواية كل من آن كومنين والمؤرخ المجهول فى الملحقين الثالث والخامس بآخر الكتاب .

حقا أن آن كومنين التي كانت تبغض اللاتين بغضا شديدا كتبت عن بوهيمند تقول : « لا يوجد في الامبراطورية الرومانية قاطبة رجل له مثل شخصية بوهيمند وصفاته . » (١)

بماذا نفسر امتداح الكتابة الاغريقية للأمير النورماندي ؟ لعل ذلك يرجع إلى مالمسته الاميرة الصغيرة من نواحي البطولة والشجاعة التي اتصف بها هذا الرجل الطموح ، ثم ما سمعته من ابيها عن مغامراته السابقة في اراضى الدولة البيزنطية .

على أى حال ، كان الوافق تاما بين الكسيس وبوهيمند ، ومستثمر العلاقة بينهما في جو يسوده التفاهم حتى سنة ١٠٩٨ م عندما تظهر في الافق مشكلة انطاكية . وهنا يقلب بوهيمند الامبراطور ظهر المجن ، وتظهر شخصيته على حقيقتها دون أى رتوش ، ويكشف عن خبيثة نواياه ، ويقوم النزاع سافرا بينه وبين الامبراطور ، ذلك النزاع الذى سيؤثر تأثيرا بالغا في تطور العلاقات بين الصليبيين والبيزنطيين طيلة القرن الثانى عشر .

وقامت بعد ذلك الحملة البروفانسالية ، ورئيسها هو ريمون الرابع ده سان جيل كونت تولوز ومركيز بروفانس (١٠٨٨ - ١١٠٥ م) . وقد عين البابا اربان الثانى ادهيار ده مونتى أسقف مدينة بوى رئيسا ووحيا لتلك الحملة التي اشترك فيها كثير من الفرسان ورجال الاقطاع من مقاطعه لانجويدوق Languedoc بجنوب فرنسا . ويعتبر ريمون هذا من أقوى قادة الحملة الصليبية الاولى ، إن لم يكن اقوام على الاطلاق .

(١) أنظر رأى آن كومنين في بوهيمند والنورمان في كتابي شارل ديبل :

Diehl, *L'Europe Orientale*, 20; idem, *Figures Byzantines*, 2ème Série, 35.

ونعرف عن هذا الرجل أنه كان مسنا وقت قيام الحملة ، كما اشتهر بالورع والتقوى . وقد عرف بتأييده المطلق للبابوية ، سواء في نزاعها المعروف مع الامبراطورية والقوى الزمنية الأخرى ، أو فيما كانت تدعو اليه من حروب مقدسة ضد العرب في اسبانيا . وكان ريمون هو الآخر على علم كاف بأحوال العالم العربي لاتصاله به عن طريق الحرب في اسبانيا (١) . كما كان شجاعا مقداما ، صريحا في رأيه لا يخشى المجاهرة به ، صلبا حازما إلى حد التعنت ، ويتضح هذا بجلاء في موقفه من الكسيس عندما رفض بإصرار حلف اليمين له . وهو أول من تطوع من رجال الاقطاع في ملك الحرب الصليبية ، وتم ذلك بعد بضعة أيام من انتهاء مؤتمر كليرمون ، مما يحملنا على الاعتقاد أنه كان على اتفاق مع البابا في هذا الشأن قبل انعقاد المؤتمر المذكور . ويحتمل أيضا أن أربان قد فكر في تعيينه قائدا حرييا للحملة المزمع قيامها ، وأن يكون ذلك تحت إشراف البابوية ، مثلما عين الأسقف أدهيار رئيسا روحيا لها . وكان الاتفاق تاما بين ريمون وأدهيار ، إذ ترجع العلاقات بينهما إلى عهد بعيد ، كما كانت أسرة الأسقف تعمل في تبعية السكونت .

كان المفروض أن هذا الجيش هو الذى أعد ليكون الجيش الصليبي الموحد . ولكن قامت جيوش أخرى ، وتعقدت المسألة تعقيدا كبيرا كما رأينا . ويلاحظ أن هذا السكونت كان ينزع دائما إلى الرئاسة والسيطرة ، وإلى فرض ارادته على باقى الفرنج . وبما لاشك فيه أن وجود الأسقف فى جيشه كان عاملا هاما على التخفيف من غلوائه والتوفيق بينه وبين الآخرين ، حتى أنه بعد موت أدهيار سرعان ما نشب النزاع بين سان جيل وبوهيمند حول انطاكية ، ولم يوجد من يتوسط بينهما .

وماضى سان جيل يدلنا على أنه قدم إلى الشرق مدفوعا بعامل التقوى على عكس زميله بوهيمند ، وذلك استجابة لنداء البابوية وفقا لرواية المؤرخ الفرنسى شالندون . ويقول ميخائيل السورى انه سبق له الحج إلى الأراضى المقدسة قبل قيام الحملة الصليبية الأولى (١). كما أن مسلكه فى الطريق أثناء الحملة ، وبالنسبة للأحداث التى وقعت حتى قيام مسألة انطاكية يؤيد ذلك . فكثيرا ما كان يعرض نفسه للخطر فى سبيل رجاله وأفراد جيشه . ثم أن موقفه من الامبراطور البيزنطى ورفضه أداء يمين التبعية له يدل على عناده وكبريائه ، وانه كان مدفوعا ولو ظاهريا بالعامل الدينى . وحتى قبل سفره إلى الشرق ، قطع على نفسه عهدا بعدم العودة إلى بلاده والبقاء فى الأراضى المقدسة حتى يموت فيها . ولكن أحداث السنوات التالية أكدت أن هذا الورع الذى اتصف به سان جيل لم يكن عميقا متصلا حسبا كان يبدو من مواقفه فى المراحل الأولى من الحركة ، كما أكدت أن هذا الرجل لم يكن يقل عن زملائه اللاتين طمعا وجشعا وحبا للسلطان ، الأمر الذى يكشف عن أهداف الحركة الصليبية من بدايتها . فقد انتهى به الأمر إلى أن أصبحت له أطماع مادية ، شأنه شأن غيره من زعماء هذه الحملة ، أو لعل هذه الأطماع كانت كامنة فى قرارة نفسه ، ولم يكشف عنها إلا فى الوقت المناسب . وقد سعى فى ذلك سعيًا حثيثا حتى نجح آخر الأمر فى الحصول على منطقة طرابلس الشام لنفسه ولأسرته من بعده .

لقد اشترك مع ريمون كثير من الفرسان ورجال الاقطاع ، وكذلك مؤرخ الحملة المسمى ريمون داجيل ، وهو خادم كنيسة الخاصة الذى ترك لنا كتابا

(١) ... Dans ce temps, et tandis que les Turks dominaient à Jérusalem et sur tout le littoral, un chef nommé Saint — Gilles vint visiter la Cité sainte ... » Cf. Michel le Syrien, R.H.C. - Doc. Arm., I, 327.

عن الحملة لا يقل في قيمته عن تأليف زملائه ممن اشتركوا فيها وسجلوا أحداثها .
وأخيرا في خريف عام ١٠٩٦ قامت الحملة من جنوب فرنسا ، ومرت بشمال
إيطاليا وباستريا وكرواتيا ودلماشيا والبانيا ومنها إلى مقدونية . ولم يقع أثناء
الطريق حادث ما ، إذا استثنينا موقف الكرواتيين العدائي ، حتى لقد اضطر
الكونت أن يدافع عن نفسه ضد اعتداء السكان عليه وعلى رجاله . ثم واصل
الجيش سيره إلى دورازو عن طريق راجوزا Raguse وسكوتاري Scutari .
وأقام كونت تولوز علاقات ودية مع يوحنا كومنين حاكم منطقة دورازو ،
وهو ابن الامبراطور الكسيس كومنين . وكان الامبراطور قد كلف جيشه
المكون من البجاناتية والكومان والترك والبلغار (١) ، بمراقبة القوات

(١) الواقع أن أباطرة بيزنطة تعلموا من مصير الامبراطورية الرومانية القديمة درسا مفيدا ،
وذلك فيما يتعلق بتكوين جيوشهم . فالمعروف أن أباطرة الرومان الغربيين تركوا أبناء جلدتهم
في الكتائب الرومانية ينغمسون في حياة اللهو والترف ، بينما استخدموا الجرمان كجند مرتزقة
لحماية دولتهم والعمل على حفظ الأمن والنظام فيها . ولكن تلك الكتائب التيوتونية التي
استخدموها للمحافظة على ملكهم كانت هي المعول الذي هدم تلك الامبراطورية . والسبب في
ذلك أن أولئك الجند المرتزقة كانوا من جيش واحد وأصل واحد ، وكان من السهل تجميع
كلتهم تحت إمرة قائد واحد يوجههم إلى قلب الامبراطورية . وهذا ما حدث بالفعل في أخريات
عهدا . أما الأباطرة الشرقيون - ومن بينهم الكسيس كومنين - فقد لجأوا إلى طريقة أخرى
يمسكن بها علاج المساويء التي نجمت عن وحدة الجنس في صفوف الجيش الغربي . فلم يقتصروا
في استخدام المرتزقة على الجند الجرمان وغيرهم من المتبربرين الذين جعلوا منهم عدة كتائب .
ولكن استخدموا أيضا الجند المرتزقة من أجناس أخرى مختلفة وميول مختلفة وفي بعض الأحيان
من أديان مختلفة ، وبذلك يضمنون عدم توحيد كلمة الجيش المتشعب في الأصل والاتجاه والجنس
والدين والعادات والتقاليد تحت إمرة رجل واحد . فلا يمكن جمع كلتهم وتوجيهها ضد
الامبراطورية أو الجالس على العرش الامبراطوري . ولذلك نجد إلى جانب كتائب الجرمان كتائب
من الفرنجة والنورمان والهنغار والروس ، وعناصر من الأتراك كالبجاناتية والكومان
والتركوبول وغيرهم . وكان هذا - بلا شك - من بين العوامل التي أدت إلى بقاء الامبراطورية
الرومانية الشرقية حوالي عشرة قرون بعد زوال الدولة الرومانية القديمة . أنظر عن ذلك
المراجع التالية :

البروفانسالية أثناء اجتيازها لأراضي امبراطوريته ، وذلك على نحو ما فعله مع الجيوش الصليبية الأخرى ، وتنفيذا لسياسته العامة حيال الصليبيين (١) .

وبينما كانت قوات سان جيل تعبر نهر بيلاجونيا ، حدث اشتباك بينها وبين الجيش البيزنطي . وتفصيل ذلك أن الأسقف أدھمار ابتعد قليلا عن معسكر رفاقه ، فهاجمه الترك وأوقعوه على الأرض فأصيب بجرح في رأسه ، ثم سلبوه مامعه . ولولا نزاع نشب بين مهاجميه في أيهم له الفضل في أسر الأسقف والقبض عليه ، لقتل عليه ولأصبح في عداد الأموات . وبعد أن أتقذ كونت تولوز الأسقف ، أتم هو ورجاله سيرهم إلى أن وصلوا إلى قلعة تسمى بوكينات Bucinat ، وكان الخطر محققا بهم من جميع الجهات . وعلم الكونت أن الأتراك يريدون مهاجمة جيشه في هذه المنطقة ، فمكن لهم بمساعدة بعض الفرسان . ثم اقتض عليهم وقتل عددا كبيرا منهم ، ولذا الباقون بالفرار خوفا على حياتهم . وفي تلك الأثناء وصل خطاب من الامبراطور البيزنطي يؤمن فيه سان جيل وجماعته على حياتهم ، ثم واصل الجيش البروفانسالي السير إلى سالونيك ، وقد اضطر الأسقف إلى التخلف نظرا لمرضه ، وبقي معه نفر قليل من الجيش (٢) .

بعد ذلك واصل الجيش تقدمه حتى بلغ مدينة روسكوى ، وقد أظهر سكانها العداء للصليبيين الذين اضطروا إلى استخدام القوة ، فهاجموا المدينة واستولوا على

Runciman, Byzantine Civilisation, 15-6; Ostrogorsky, Hist. = of the Byzantine State, 304, 319 ff., 328 n. 3, 348; Diehl, Byzance: Grandeur et Décadence, 38, 41; Hussey, The Byzantine World, 15, 52, 97; Oman, The Art of War in the Middle Ages, 11-2.

Grousset, Crois., I, 23 - 4. (١)

Raimond d'Agiles, R.H.C.-H. Occ., III, 237. (٢)

استحكاماتها وعاثوا فيها فسادا . ولم يلبث البيزنطيون أن قابلوا هذا العدوان بمثله عندما مر اللاتين بمدينة رودستو Rodosto . ولكن الفرنجة نجحوا في صد هجمات الترك والبجاناتية الذين كانوا جندا مرتزقة في الجيش البيزنطي . وفي تلك الأثناء قابل سان جيل سفراءه الذين كان قد أوفدهم إلى الامبراطور الكسيس ، وكان بصحبتهم رسل من قبل الامبراطور طلبوا إليه أن يستبق قواته إلى القسطنطينية لمقابلة سيدهم . وكان الامبراطور البيزنطي قد أحسن استقبال سفراء كونت تولوز ، وغمرهم بهداياه واستألفهم إليه بسياسته ولباقته . وترك هذا أثره في نفوسهم ، فأخبروا سيدهم الكونت أن جود فرى وبوهيمند وكونت ده فلاندرز يرجونه التوجه قوا إلى العاصمة لمقابلة الامبراطور ، وحثه على الاشتراك مع الصليبيين في صراعهم المرتقب ضد الأتراك . ويتهم مؤرخ الحملة ريمون داجيل سفراء كونت تولوز بأنهم استجابوا لمطالب الكسيس ، وانصاعوا له بفضل هداياه وسياسته الماكرة وحسن معاملته لهم (١) .

على أى حال قبل سان جيل هذه الدعوة ، وترك جيشه وواصل سيره مع جماعة قليلة صوب العاصمة لمقابلة الامبراطور . ويعتقد مؤرخ الحملة أن الكسيس أراد بهذه الحملة إبعاد الكونت عن رجاله ، حتى يتمكن الجيش البيزنطي من مهاجمة القوات البروقانسالية والتغلب عليها بسهولة . وهكذا نراه يلقى اللوم والتبعة على البيزنطيين ، شأنه في ذلك شأن باقي المؤرخين اللاتين مثل فوشيه ده شاتر والمؤرخ المجهول . ويفند شالندون هذه التهمة قائلا إنها تهمة باطلة ، وإن الهدف الذي كان يرمى إليه الكسيس هو إقناع كونت تولوز بوجهة

(١) انظر ميخائيل السورى : قس المصدر السابق ونفس الصفحة .

نظره أسوة بما فعله مسيح باقي رؤساء الفرنج الذين توافدوا تباعا على القسطنطينية .

وبعد سفر سان جيل بقليل نشبت معركة بين قواته وبين الجيش البيزنطي في ظروف يشوبها الغموض ، ولم نعرف منها من كان البادئ بالعدوان . وقد منى الفرنج هزيمة شديدة ، إذ تشتت شملهم وسلبوا أسلحتهم وعتادهم إلى الجيش البيزنطي . ويذكر شالندون أن هذه المعركة حدثت على اثر تعدى الفرنج على مدينة روسكوى وغيرها . (١) ولما علم كونت تولوز بالكارثة التي لحقت بقواته ، وكان قد وصل إلى القسطنطينية ، استاء كثيرا واستبد به الغضب . وقد ترك هذا الحادث أثره في نفس سان جيل وفي موقفه من الامبراطور عند مقابلته إياه ، أو لعله اتخذ ذريعة للتشدد في موقفه من الكسيس .

عندما وصل الكونت إلى القسطنطينية أحسن الامبراطور استقباله ، وطلب منه أداء اليمين كما فعل باقي رؤساء الفرنج . وهنا نلاحظ أن الكسيس كان مستمرا في تنفيذ سياسته التي رسمها لنفسه بدقة تامة . وقد رفض الكونت رفضا باتا إجابة الامبراطور إلى طلبه ، لأنه كان يعتبر نفسه تابعا لسيد آخر غير الكسيس وهو البابا أربان الثاني . إلا أنه أفهم الامبراطور بأنه إذا وعده بالاشتراك في الحملة ضد السلاجقة لغزو بيت المقدس ، فإنه سوف يضع نفسه وأملاكه وذويه تحت تصرفه . ولكن الكسيس رفض التعهد بذلك ، متذعرا بأنه لا يمكنه ترك دولته معرضة لخطر جيرانه من الألمان والهنغار والكومان ، الذين

(١) Chalandon, Première Crois., 144-5.

كانوا يغيرون عليها من وقت لآخر^(١). وهكذا نرى أنه في الوقت الذي تمكن فيه الكسيس من إقناع هيوج وجود فرى وبوهيمند وغيرهم من كبار الفرنج بحلف اليمين ، رفض سان جيل بعناد أداء القسم المطلوب .

لم ينته الامبراطور وكونت تولوز إلى اتفاق ودى ، وكانت الانباء الخاصة بهزيمة البروفانساليين قد وصلت القسطنطينية . وأبدى ريمون استياءه الإهانة التي لحقت به وبقواته على أيدي رجال الامبراطور ، وأصر على الانتقام لنفسه . ولعله وجد في هذه الحادثة فرصة طيبة للتشبيث بموقفه ، فأوعز لعدد من فرسانه باتهام الكسيس بالتقصير من جانبه في حماية قواته . وأجاب الامبراطور بأنه علم أن قوات ريمون عانت فسادا في بلاده وأسامت معاملة الأهلين ، وأنه الأجدر بالكونت ألا يجار بالشكوى أو يتحدث في هذا الموضوع . ولما كان الكسيس يرغب في حسم الموضوع ، فقد وافق على أن يجرى تحقيق لمعرفة من البادى بالعدوان . ولم تكن نتيجة التحقيق في صالح كونت تولوز بعد أن ثبت عدم صحة دعواه .

Respondit comes : “ Se ideo non venisse, ut dominum (١) alium faceret aut alii militaret, nisi illi propter quem patriam et bona patriae suae dimiserat. Et tamen fore, si imperator cum exercitu iret Iherosolimam, quod se et suos et sua omnia illi committeret.” Sed imperator excusat iter, dicens: “Praemetuere se Alemannos et Ungaros et Comanos, aliasque feras gentes, quae imperium suum depopularentur, si ipse transitum cum peregrinis faceret...” Cf. Raimond d'Agiles, R. H. C. — H. Occ., III, 238.

ومهما كان الأمر ، فقد أصر ريمون على موقفه ؛ واسكنه وجد في النهاية أن تشبته سوف يضر بالهدف الصليبي الذي جند اللاتين له كل امكانياتهم . وفي هذه الأثناء وصل إلى العاصمة بقية الجيش البروفانسالي وعلى رأسه الأسقف أدهير . وقد حاول الأسقف التوفيق بين الامبراطور وسان جيل ، وأخذ كل من جودفري وكونت ده فلاندرز على عاتقهما إقناع سان جيل أن عناده سيؤثر تأثيرا سيئا على الحرب الصليبية ، وقد يؤدي إلى فشلها في نهاية الأمر . وأوضحوا له أنه ليس من الصالح العام أن يتقاتل المسيحيون ، والآتراك السلاجقة واقفون لهم بالمرصاد في نيقية على بعد بضعة كيلو مترات من معسكرهم . كما حاول كل من ميوج وجودفري إقناع سان جيل بحلف اليمين المطلوبة . أما بوهيمند فقد انحاز صراحة إلى جانب الامبراطور في موقفه ضد البروفانساليين ليحافظ على حسن صلاته به تنفيذاً لسياسته التي اتبعها حياله .

وأخيرا قبل ريمون ده سان جيل تحت إلحاح زملائه وضغط الظروف وخشية اتقسام الصفوف ، أن يقسم هو ورجاله باحترام حياة الامبراطور وشرفه ، ولكنه رفض حتى النهاية حلف يمين التبعية والولاء بالمعنى المعروف من هذا اليمين في الغرب الأوروبي . وعندما ترك كونت تولوز الامبراطور كانت العلاقة بينهما متوترة بعض الشيء ، حتى أن الكسيس لم يصدق عليه من المنح والهدايا مثلها فعل مع باقي رؤساء الفرنج (١) .

تلك هي أخبار الجيوش اللوثرانجية والنورماندية والبروفانسالية ، أما الجيش

Raimond d'Agiles, R. H. C. — H. Occ., III, 238; cf. (١)
Chalandon, Première Crois., 146—7.

الفرنسي الرئيسي بقيادة روبرت كونت نورمانديا واتين كونت بلوا ، فقد استبقه هيوغ ده فيرماندوا المعروف بهيوغ العظيم أخو فيليب الأول ملك فرنسا، وكان أول من وصل من زعماء الفرنج إلى القسطنطينية . ولم يستطع فيليب الاشتراك بشخصه في الحملة بسبب قرار الحرمان الذي أصدره البابا ضده ؛ ولكنه شجع أتباعه على حمل شارة الصليب والذهاب إلى الأراضي المقدسة ، وعين أخاه قائداً للحملة .

كان هيوغ شديد الكبرياء ، متعجرفا ، لم يكن يتمتع بمخصال القادة الكبار أو كفءاتهم، ولم يقيم بأي دور هام في الحملة اللهم إلا دور الوسيط بين الكيس وباقى الزعماء الفرنج كما رأينا آنفا . وقد أرسل خطابا إلى الامبراطور قبل وصوله قال فيه : « ليسكن في عليك أني أعظم من أنجبتهم السماء ... » ، وبذلك كشف عن جانب من طباع اللاتين . ثم طلب منه أن يستقبله بما يليق بشخصه العظيم من ترحاب وتكريم . وعندما استلم الامبراطور رسالة الكونت أرسل إلى عماله في الأقاليم طالبا منهم استقباله استقبالا لائقا عند وصوله ، مع إحاطته علما بحركاته ومسكناته . وهذا دليل على ذكاء الكيس ودبلوماسيته وبعد نظره .

ابتدأ هيوغ العظيم رحلته من الغرب ، ولكن عاصفة عاتية هبت في الطريق فدفعته به ومن كان معه على ساحل ايروس ، ووقع في أيدي البيزنطيين . وقد أكرم الحاكم البيزنطي وفادته تنفيذا لتعليمات الامبراطور ؛ ثم أرسله معززا إلى القسطنطينية حيث استقبله الكيس بحفاوة بالغة كان لها أجل الأثر في نفسه (١) .

وكان هيوغ موضع رقابة من وراء الستار . وقد تبين الكسيس أن لديه رهينة ثمينة في شخص هذا الرجل ، ورأى بصيرته النافذة أن يستخدمه في مفاوضاته مع باقي زعماء الفرنج . لذا نراه يعامله بالحسنى واللين ، ولم يجد أدنى صعوبة في الحصول على موافقته على أداء يمين التبعية والولاء له (١) . وغمره بالهدايا النفيسة ، وإن كان قد واصل سياسته بقصد الحد من حريته (٢) .

وبما يجدر ذكره أن الامبراطور قد استخدم هيوغ في تذليل الصعاب التي قامت بينه وبين زعماء الفرنج الآخرين ، وفي محاولة إقناعهم بوجهة نظره . وقد رأينا مثلاً لذلك في توسطه لدى كل من جودفري وريمون ديه سان جيل . والواقع أن الدور الذي لعبه هيوغ سهل على الكسيس مهمته إلى حد كبير .

وبعد ذلك بفترة من الزمن وصلت الحملة الفرنسية الرئيسية بقيادة روبرت كورتهيز أمير نورمانديا (٣) Robert Courteheuse ، وصهره اتين كونت

(١) Diehl, L'Europe Orientale, 19.

(٢) Runciman, Crusades, I, 144. - وقد ذكرت آن كومنين أن الحاكم البيزنطي حنا كومنين لم يطلق هيوغ مطلق الحرية . بينما أوضحت المصادر الغربية - وبخاصة المؤرخ المجهول والبرت دكس - أنه احتجز كأسير غير مرغوب فيه . أنظر :

Gesta Francorum, 14; Albert d'Aix, 304.

ولكن مسلك هيوغ حيال الأحداث التي وقعت فيما بعد ، وبخاصة علاقته الطيبة بالامبراطور البيزنطي وقيامه بدور الوسيط بين الكسيس وباقي زعماء الفرنج تؤكد خلاف ذلك . أنظر تحليل رانسيان لموقف البيزنطيين من هيوغ . Runciman, op. cit., I, 144 n. 2.

(٣) هو الابن الأكبر لوليم الفاتح ، ويطلق عليه معاصروه اسم « الدوق الطيب » لطيبة قلبه وحسن سجاياه . وقد قام برهن دوليته لأخيه المسمى وليم روفوس William Rufus ، حتى يتسنى له جمع المبالغ اللازمة للاتفاق على الحملة . ويبدو أنه لم يكن عضواً فعالاً في الجيش الصليبي ، بالرغم من أنه قاتل جنبا إلى جنب مع باقي الزعماء الفرنج في نيقية واطاكية ، كما ساهم معهم في الاستيلاء على القدس . أنظر :

Haskins, The Normans, 212; Runciman, Hist. of the Crus., I, 165.

بلوا وشارتر (١)، وروبرت الثاني أمير الأراضي الواطئة (٢). واشترك في هذه الحملة أيضا ارنولف Arnulf الخادم الخاص لكنيسة الدوق ، والذي لمع اسمه فيما بعد عندما أصبح بطريقا لبيت المقدس. وكذلك المؤرخ فوشيه ده شارتر الذي سجل لنا أحداثها في حواية له باللاتينية باسم «أعمال الفرنجة الحاجين إلى بيت المقدس». مر روبرت واثين بايطاليا حيث باوكهما البابا اربان الثاني في روما ، ثم واصلتا سيرهما برفقة الجيش إلى مدينة بوى . وبعد ذلك أبحرا من برنديزي إلى البلقان (١٥ ابريل سنة ١٠٩٧) ، ونزلا في دورازو ، ومنها إلى سالونيك التي أقاما فيها أربعة أيام ، ثم واصلتا السير صوب القسطنطينية (٣) .

(١) اشتهر اثين هذا بسمة علمه واطلاعه . وكان فارسا بارزا ، وشاعرا رفيقا ، وعرف عنه الجرأة والكرم . وقد تزوج من ابنة وليم الفاتح ملك انجلترا المسماة أديل Adèle . ويكاد يكون الوحيد من بين الفرنج الذي امتدح بصدق وإخلاص الكسيس والبيزنطيين ؛ فقد اتى على الامبراطور وقومه بدون تحفظ . ونستدل على ذلك من خطايه الذين أرسلهما من الشرق إلى زوجته في أوروبا . وقد انتخب رئيسا للجيش الصليبي بعد استيلاء اللاتين على مدينة نيقية ، واشترك في موقعة هوريليوم وحصار انطاكية . ولكنه لم يحتمل شدة القتال وقسوة الحياة وانتشار المجاعة والوباء ، فهرب من الميدان عائدا إلى الغرب . وهناك أخذ الجميع يعيرونه لفراجه من ساحة القتال ، وكان على رأس هؤلاء زوجته أديل . ولذلك اتهم أول فرصة موالية ، واشترك في الجيش الصليبي الذي قام من الغرب سنة ١١٠١ م بقيادة وليم كونت بواتيه ولكنه قتل في موقعة الرملة الثانية سنة ١١٠٢ م على أيدي الفاطميين . أنظر عن ذلك : : Setton, Hist. of the Crus., I, 276—7, 349—65; Runciman, op. cit., 165, 232 sqq.

(٢) هو روبرت الثاني ده فلاندرز أمير الأراضي الواطئة ، وابن روبرت الأول الذي زعم بعض المؤرخين أن الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين أرسل يستنجد به سنة ١٠٨٨ م ضد الأتراك السلاجقة . راجع عن ذلك : - Guibert de Nogent, R.H.C. H.Occ., IV, 131; Runciman, op. cit., I, 166; Setton, op. cit., I, 275.

(٣) Chalandon, Première Crois., 148.

ويظهر أن الامبراطور الكسيس لم يلق أية صعوبة في إقناع رؤساء هذه الحملة بحلف يمين التبعية والولاء . وقد بهر فوشيه ده شارتر بما حوته القسطنطينية من النفائس والجواهر الثمينة النادرة . ويذكر هذا المؤرخ أنه لم يحدث أى احتكاك أو تصادم بين الجيش الفرنسى والبيزنطيين ، وأن الامبراطور كان يمدح بما يلزمهم من المؤن ، كما سمح لهم بالتوجه للصلاة فى كنائس العاصمة ، ولكن فى جماعات قليلة وفى ساعات معينة ، حفظا على النظام ومنعا من حدوث الشغب . وقد قبل كل من كونت نورمانديا وكونت بلوا أداء يمين التبعية والإخلاص الذى طلبه الامبراطور دون أى اعتراض . وبعد ذلك أغدق عليهم الأموال والهبات والجواهر (١) .

وجدير بالذكر أن الكونت اتين كتب عندما كان مقبلا بقلعة كيفيتوت بالقرب من نيقية خطابا إلى زوجته أديل بأوروبا يمتدح فيه الامبراطور البيزنطى ، ويقول إنه استقبل بالحفاوة الزائدة والإكرام البالغ ، وأن الامبراطور أحسن إليه وأغدق عليه المال ، وغمره بالهدايا النادرة ، وعامله كما لو كان ابنا له . ويستمر فى الثناء على الكسيس قائلا : « حقا يا عزيزتى لقد ألح على جلالته ومازال يصر على أن يتولى رعاية أحد أبنائنا وأن يتبناه ... ولا يوجد تحت قبة السماء من هو أعظم من هذا الرجل ، فقد غمر كل رؤسائنا بالمنح والهدايا ، وكذلك فعل مع كل فرساننا ، كما أطعم جميع الفقراء ... » ثم يستطرد فيذكر أن سفن الامبراطور كانت تحمل إليهم الطعام من القسطنطينية إلى قلعة كيفيتوت

Foucher de Chartres, R.H.C.—H. Occ., III, 332-3; cf. (١)
Grousset, Crois., I, 27.

حيث كانوا يسكرون انتظاراً لمهاجمة الأتراك . واختتم الكونت اتين خطابه بقوله : « لا أعتقد أنه يوجد في زماننا رئيس أو زعيم له مثل شخصية الامبراطور وصيته الذائع . حقا أن أباك يا عزيزتي أعطانا الكثير من الهدايا النفيسة ، ولكن ذلك لا يقاس بالنسبة لما أضفاه علينا الامبراطور ، (١) . وإن دل هذا على شيء فانما يدل على شعور بعض اللاتين نحو السكيس ، وعلى الأثر الحسن الذي تركه في نفوسهم في هذه الفترة من التاريخ .

ولعلنا نلاحظ من استعراضنا للوقائع السالفة أن هذه الحملة الصليبية الأخيرة لم تصطدم بالعقبات التي واجهت الحملات السابقة لها ؛ ذلك لأن الجيوش الصليبية

Hagenmeyer, *Epistolae et Chartae*, 138—40; cf. Diehl, (١)

L'Europe Orientale, 22. — وفيما يلي مقتطفات من الخطاب المذكور :

« Imperator vero digne et honestissime, et quasi filium suum me diligentissime suscepit, et amplissimis ac pretiosissimis donis dotavit ... Vero, mihi dilecta, ejus imperialis dignitas me persaepe monuit et monet, ut unum ex filiis nostris ei commendemus ... In veritate tibi dico, hodie talis vivens homo non est sub coelo. Ipse enim omnes principes nostros largissime ditat, milites cunctos donis relevat, pauperes omnes dapibus recreat ... Nostris quoque temporibus, ut nobis videtur, non fuit princeps universa morum honestate adeo praeclarus. Pater, mi dilecta, tuus, multa et magna tradidit, sed ad hunc pene nihil fuit ... » Cf. Stephani, comitis Carnotensis ad Adelem, uxorem suam, *Epistola*, R. H. C. — H. Occ., III, 885 — 6.

أنظر أيضا الترجمة العربية للخطاب في الملاحق الرابع بآخر الكتاب نقلا عن طبعة هاجينباير .

التي سبقتها إلى القسطنطينية كانت قد مهدت لها الطريق إلى حد كبير ، كما أزيلت العقبات والعراقيل ، وذهلت الصعاب ، وساد التفاهم بين البيزنطيين وزعماء الفرنج قبل وصول الجيش الفرنسي . ولذلك عندما مر هذا الجيش بأراضي دولة الروم الشرقية ، لم يحدث أى احتكاك بينه وبين الإغريق ، وكانت علاقات رؤسائه مع الامبراطور على أحسن ما يكون .

الفصل السادس

اتفاقية القسطنطينية ومشكلة انطاكية

أخذ الصليبيون يتوافدون على القسطنطينية واحداً في إثر الآخر . وقد عمل الامبراطور الكسيس جاهداً على استمالتهم إليه ، واكتسابهم إلى جانبه ، وإخضاعهم لسيطرته ، واستخدامهم لمصلحته ، مستمينا في ذلك بالسياسة والمال وحسن المعاملة والدهاء حيناً ، وباستخدام القوة وفرض الرقابة المشددة والتلويح في وجههم بمسألة التكوين حيناً آخر . ووفق الامبراطور إلى حد كبير في تحقيق الهدف الذي كان يصبو إليه . ويكفي أن قالت عنه ابنته آن إنه كان ماهراً في إعداد نفسه لكافة الاحتمالات ، وقد اشتهر بلباقته وحسن تصرفه في الوقت المناسب (١) .

وكان هيوغ أخو فيليب الأول ملك فرنسا هو أول من وصل من زعماء الفرنج إلى عاصمة الامبراطورية ، وقد مثل بين يدي الامبراطور الذي لم يجد صعوبة في إقناعه بحلف يمين التبعية والولاء (٢) . وقد أصبح من أخلص أعوانه ،

(١) Alexiad , 262.

(٢) يرتبط هذا اليمين بنظام الاقطاع الذي كان سائداً في الغرب الأوروبي وقتذاك . وقد مر بعدة تطورات تاريخية اعتباراً من القرن السابع ، إلى أن بلغ ذروة نضجه واكتماله خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر . والاقطاع هذا يرتبط بالأرض ارتباطاً وثيقاً ، فكان الامبراطور يهبها للملوك ، وهؤلاء يهبونها للنبلاء ، والنبلاء لمن دونهم إلى أن تصل إلى رقيق الأرض في أسفل السلم الاقطاعي . وكان التابع يقدم القيام بواجباته الاقطاعية لسيده المتبوع بعد أن يحلف بين يديه يمين الطاعة والولاء قائلاً مامعناه : « اني أصبح تابلك ياسيدي ، وأنت ولي نعمتي عن اقطاع كذا وكذا . واني أعذك بحمايتك والدفاع عنك في الحياة وحتى =

واستغله الامبراطور في محاولة إقناع باقي الزعماء اللاتين بوجهة نظره . ثم تبعه جودفري ، ونعرف أنه تردد في بادئ الأمر في موقفه من الامبراطور ، وأنه رفض مقابلاته وتقديم فروض الطاعة له ، إلا أن الظروف الملحة القاسية ووساطة هيو ج دفعته في النهاية إلى الإذعان لرغبة الكسيس وأداء يمين الولاء . أما بوهيمند فقد أبدى رغبته منذ البداية في الاتفاق مع الكسيس وإقامة علاقات ودية معه ، ولم يتردد في حلف اليمين تنفيذاً لخطته التي سار عليها ، وهي المحافظة بشتى السبل على حسن صلته بالامبراطور حتى يساعده في تحقيق مطامعه السياسية

== الموت. ومن أهم الواجبات المفروضة على التابع الاقطاعي هي الطاعة والولاء التام لمبتوعه، ومساعدته بالقتال في صفوفه ، والاجتماع به من وقت لآخر للتشاور معه في كل ما يهم السيد أمره من الشئون العامة ، مثل اعلان الحرب أو السلم أو عقد المعاهدات . فضلا عن الالتزامات والقيود والواجبات الثقيلة التي ألزم التابع بأدائها لسيدته المتبوع مثل الرسوم والعشور والاحتكارات وما إلى ذلك . أنظر كوبلاند وفينو جرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا - ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ص ٦ وما بعدها و ٦٤ وما بعدها ؛ كولتون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة (الترجمة العربية) ط . ثانية - ص ٣٨-٤٤ و ٧٣ وما بعدها . Stephenson, Med. Feudalism, 18-9; Downs, Basic Doc., 48-53. ولعل هذا يفسر لنا سر إصرار الكسيس على أن يؤدي له هؤلاء اللاتين يمين التبعية والولاء بمعناه المعروف في الغرب وقتذاك ، مع ما يرتبط به من قيود والتزامات وواجبات لم يكن من السهل التمسك منها ، إلا إذا نكث التابع يمينه مثلاً فعل بوهيمند عندما استأثر بانطاكية رافضاً اغادتها إلى بيزنطة . وجدير بالذكر أن هذا النوع من الاقطاع الغربي لم يكن سائداً في الدولة الرومانية الشرقية حيث كانت السلطة كلها تتركز في شخص الامبراطور باعتباره ممثل الله على الأرض . وكانت بيزنطة على علم بهذا النوع من الاقطاع الغربي لم يكن سائداً قبل قيام الحملة الصليبية نفسها بوقت غير قصير ، وعن طريق استخدام الغربيين في جيوشها كمرتزقة ، وعن طريق حروب الاتساع الاقطاعي التي قام بها النورمان في القطاع الغربي من بيزنطة . ولذا أراد الكسيس بدهائه أن يربط الفرنج بنظمهم وقوانينهم التي ألفوها ودرجوا عليها في بلادهم، حتى يضمن ولائهم له ويستخدمهم لتحقيق مصالحه . وحول الاقطاع البيزنطي ، أنظر هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ١٠-١١ والحواشي و ص ٩١-٩٦ والحواشي .

فى الشرق . وكذلك لم يجد الامبراطور البيزنطى صموده فى حث كل من روبرت كونت نورمانديا واتين كونت بلوا على حلف اليمين . ولكن ليس معنى ذلك أن الطريق كان ممهدا أمام الكسيس على طول الخط ، فقد اعترضته بعض الصعاب فى سبيل إقناع عدد من كبار الفرنج بالانضواء تحت لوائه . فقد رفض ريمون ده سان جيل كونت تولوز رفضا باتا أن يقسم يمين التبعية للامبراطور ، مما أدى إلى توتر العلاقات بينهما ولو إلى حين . وقد قبل هذا الكونت بعد توسط بوهيمند وغيره من زعماء اللاتين أن يحلف بالمحافظة على حياة الامبراطور وشرفه وعدم التعرض له . وعلى أى حال ، فقد أصبحت العلاقات بين الرجلين فيما بعد على أحسن ما يكون ، وبات كونت تولوز من أخلص أعوان الامبراطور ، الأمر الذى حدا بالاميرة آن كومنين أن تكتب عنه قائلة : « كان الكسيس يقدره بنوع خاص ليقظته وإخلاصه وحسن سيرته ، ولعله أنه ما كان ليضع شيئا فوق الحق . وكان سان جيل يبرز الجميع كتنفوق الشمس على النجوم » (١) . وكما رفض كونت تولوز أداء اليمين ، كذلك رفض تنكريد ابن أخت بوهيمند الذهاب إلى القسطنطينية وتقديم فروض الطاعة لشخص الامبراطور . ولكن موقف هذين الرجلين لم يؤثر تأثيرا كبيرا على العلاقات بين الصليبيين والدولة البيزنطية بصفة عامة على الأقل فى هذه المرحلة من تاريخ الحملة .

لقد تدرع الكسيس بالصبر المقترن بالحزم والدهاء خلال مرور الجيوش الصليبية بأراضى امبراطوريته وبعاصمة ملكه . وكان لسياسته التى استنتها أثرا ملحوسا فى انضمام كثير من الفرنج إلى جانبه ، وعلى رأسهم هيوج واتين كونت بلوا ، وفى امتداح بعض مؤرخى الحملة من اللاتين له ، مثل البرت دكس وفوشيه

Alexiad, 267; cf. Diehl, L'Europe Orientale, 21. (١)

ده شارتر . كما وجد رؤساء الفرنج أنه من الأفضل أن يحل الوفاق محل الشقاق بينهم وبين الامبراطور حتى يتالوا عطفه ويكسبوا تعضيده ، ويتفرغوا للمهمة التي تركوا أوطانهم وبلادهم من أجلها ، ألا وهي محاولة الاستيلاء على الأراضي المقدسة وتأسيس إمارات لهم بها .

لقد كانت الظروف إذن تستدعي ضرورة الاتفاق بين الكسيس والفرنج ، على الرغم من تضارب المطامع واختلاف الأهداف . فكان زعماء الفرنج أنفسهم يشعرون بوجوب تأييد البيزنطيين لهم لمواصلة حملتهم التوسعية حتى تصل إلى الهدف الذي ينشدونه ، بالاستيلاء على أراض جديدة يحكمونها في الشرق . أما بيزنطة فقد رأت استخدام هذه الجيوش الصليبية لمصلحتها وتحقيق أهدافها السياسية ، كما كانت تقدر ما قد يقدمه لها جيش الصليبيين من خدمات لاسترداد أملاكها القديمة في آسيا الصغرى من الأتراك السلاجقة الذين كانوا قد استولوا عليها منذ عهد قريب . وفي مايو سنة ١٠٩٧ م عقدت بالقسطنطينية اتفاقية بين الكسيس وزعماء الفرنج ، نصت على شروط خاصة تعهد بها الطرفان .

تعهد الصليبيون بأن يعيدوا إلى حظيرة الامبراطورية الأراضي والأقاليم التي كانت تابعة لها فيما مضى وذلك بعد تخليصها من قبضة السلاجقة ، كما تعهدوا بأن يقسموا للامبراطور يمين التبعية والإخلاص ، وأن يصبحوا أتباعا له وجندا مرتزقة في خدمته . أما الكسيس فقد تعهد في مقابل ذلك بمساعدة الصليبيين والمحافظة على سلامتهم خلال مرورهم عبر أراضي دولته . كما وعدهم بأن يسهل لهم مسألة التموين ، وأن يضع فرقة من الجيش البيزنطي تحت تصرف زعماء الفرنج عند ابتداء الحملة (١) . هذا ما رواه المؤرخ شارل ديل عن الاتفاقية ،

= Diehl, L'Europe Orientale, 22; Baldwin, Med.Church, 102. (١)

ويذكر شالندون أن الكسيس تعهد أيضا بالاشتراك في الحرب الصليبية ، وأن يكون على رأس الجيش المتجه صوب بيت المقدس ، وأنه سلم ابنه وصهره كرهائن على احترام تنفيذ المعاهدة . ويستطرد نفس المؤرخ قائلا إن بوهيمند كانت له اليد الطولى في عقد هذه المعاهدة . ويعمل شالندون ذلك بقوله إن تاريخ إبرامها هو مايو سنة ١٠٩٧ م ، أى عقب وصول بوهيمند إلى القسطنطينية مباشرة (١) .

لقد كانت الاتفاقية بصفة عامة محددة واضحة ، وتركت آثارها البالغة في تطور العلاقات بين الفرنج والبيزنطيين خلال القرن الثاني عشر . فعندما وضع اللاتين أيديهم على انطاكية ، نكثوا عهدهم وبدلوا على حقيقتهم وكشفوا عن أهداف حركتهم . ولو أن بيزنطة لم تياس في المطالبة بتسليم انطاكية إليها تنفيذا للاتفاقية . كذلك ثار الخلاف بين المؤرخين حول البلاد التي نصت المعاهدة على

ويذكر نورمان بينزان الدولة البيزنطية لم تجد صعوبة في معرفة تكتيكات الفريين والتعرف على أفسيتهم ، وأن الكسيس تمكن بسياسته ودبلوماسيته من الانتفاع بفكرة اليين الاقطاعي المعروف عند أولئك القوم في تثبيت حقوق دولته على كثير من الأراضي التي تم غزوها .
أنظر Baynes & Moss, Byzantium, 30.

(١) Chalandon, Alexis Comnène, 188; cf. Ostrogorsky, 322.
وقد أشارت آن كومتين إلى مضمون الاتفاقية في صدر حديثها عن القسم الذي أداء جودفري إلى الامبراطور البيزنطي ، فـكتبت تقول :

• ... He went to the Emperor and swore the oath which was required from him, namely, that whatever towns, countries or forts he managed to take which had formerly belonged to the Roman Empire, he would deliver up to the Governor expressly sent by the Emperor for this purpose • Cf. Alexiad, 261.

وهذا هو نفس القسم الذي أداء باقي زعماء الفرنج عندما اجتمعوا بالكسيس في عاصمة دولته . أنظر نفس المصدر ، ص ٢٦٣ .

إعادتها إلى بيزنطة ، وهل هي تلك التي كانت تدخل في نطاق الامبراطورية في أوائل القرن الحادى عشر ، أى قبل موقعة ملاذكرد سنة ١٠٧١ م ، وعلى وجه التحديد أيام بازيل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥) ، أم شملت أيضا المقاطعات القديمة للامبراطورية الرومانية الشرقية في عهد هرقل (٦١٠ - ٦٤١) أوجستينيان مثلا (٥٢٧ - ٥٦٥) ؟ وإن سريان المعاهدة على تلك المناطق كان يعنى ليس فقط إعادة انطاكية والرها إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية ، وإنما إعادة البيت المقدس أيضا . وهذا أمر بعيد الاحتمال . ويبدو أن مزاعم بيزنطة بصدد هذه النقطة بالذات لم تكن واضحة تمام الوضوح ، ولم تشر إليها أن كومننين في كتابها الألكسياد ، خاصة إذا عرفنا أن بيزنطة فقدت سلطانها على القدس منذ فترة طويلة باستيلاء العرب عليها سنة ١٦ هـ / ٦٣٧ م أيام الامبراطور هرقل . ثم أن أسرة كومننين لم تتوان عن المطالبة بالسيادة على كل من أنطاكية والرها ، في حين أنها لم تفكر في المطالبة بالقدس أو طرابلس الشام ، وهما مدينتان لم تمتد اليهما الفتوحات البيزنطية في القرن العاشر الميلادى (١) .

ويدلى جورج استروجورسكى بدلوه في هذا الموضوع . يقول في كتابه

(١) أنظر : Grousset, L'épopée des crois., 18.

ويعلق المؤرخ شارل أومان على هذه الاتفاقية قائلا إنه لو كان بوسع الكسيس كومننين توجيه الجيش الصليبي لتحقيق مصالحه فحسب ، لكان قد استخدمه في اجلاء السلاجقة عن يثينية وليدية وفريجية ، وهى مناطق في المرتبة الأولى من الاهمية بالنسبة لبيزنطة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لو كان الفرنجة ساءة أنفسهم وبوسعهم التصرف كما يحلو لهم دون ضبط أو تدخل من جانب بيزنطة ، لاتجهوا رأسا إلى كيليكية عبر آسيا الصغرى ، ولكانت انطاكية - وليست بالمان آسيا الصغرى - هى أول هدف لهم . ولما لم يكن بوسع أى فريق التفاوض من مطالب الفريق الآخر بسبب تشابك المصالح وتداخلها ، فقد عقدت اتفاقية ترضى كليهما ؟ وخلاصتها أن يستولى الفرنجة على نيقية ويبعدونها إلى البيزنطيين ، ثم يواصلون بعد ذلك حملتهم ضد فلسطين . أنظر : Oman, Art of War, I, 238.

« تاريخ الدولة البيزنطية ، إن الحركة الصليبية كما تصورها الغرب اللاتيني ، كانت بالنسبة للامبراطورية البيزنطية شيئا مختلفا تمام الاختلاف . ذلك أنه لم يجد جديد في الحرب القائمة بين البيزنطيين وجيرانهم العرب أو السلاجقة . لقد كانت بالنسبة للبيزنطيين حصيلة ضرورة سياسية ملحة . ولقد اعتبروا غزو الأراضي المقدسة ، التي كانت في وقت ما أرضا بيزنطية ، من واجب الدولة وليست فرضا واجبا على المسيحية جمعاء . كانت هذه هي نقطة الخلاف الأولى بين وجهتي النظر اللاتينية والبيزنطية . ثم أن الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية جعل من غير المستحب ، أكثر من أى وقت مضى ، وجود أساس لعمل مشترك بينهم وبين أهل الغرب . وكان كل ما تطمع فيه بيزنطة هو قوات مرتزقة تعمل في خدمتها بأجر وليس قوات صليبية بالمعنى المفهوم (١) . وفي موضع آخر يقول استرجورسكى إنه على الرغم من أن مجيء الصليبيين إلى أراضي الدولة البيزنطية قد قلب خطط الكيسيس ومشاريعه رأسا على عقب وكان تهديدا إيجابيا لدولته ، إلا أنه عمل على الاستفادة بهم لخدمة مصالحه الخاصة ومصالح بلاده قدر استطاعة ، وذلك عندما طلب من اللاتين أداء يمين التبعية والولاء له وأن يتعهدوا بأن يعيدوا إليه كل المدن والبلدان التي يستولون عليها والتي كانت تتبع في الماضي الامبراطورية البيزنطية ، وذلك مقابل الوعود التي بذلها لهم . وعلى هذا الأساس عقدت اتفاقية ١٠٩٧ بينه وبينهم (٢) .

ويضيف جون هاسى John Hussey الى ما تقدم قائلا إن الكيسيس عندما طلب جنودا مرتزقة من الغرب لم يهدف من وراء ذلك التوجه إلى البيت المقدس مباشرة للاستيلاء عليه . فقد كانت هناك أمور أخرى أكثر أهمية والحاحا من

(١) Ostrogorsky, op. cit., 320.

(٢) Ostrogorsky, op. cit., 322.

البيت المقدس ، وتمس أمن الدولة مباشرة . ولقد جعلت التقاليد الامبراطورية والحاجيات الملحة لبيزنطة من المستحيل على أى امبراطور بيزنطى أن يتصور حركة صليبية بمفهومها الغربى . لقد كان مفهوم الحملة التى يريد الكسيس مختلف عما يقصده اللاتين فى امرين رئيسيين على أقل تقدير . لقد كانت الحرب بين بيزنطة والمسلمين أمراً عادياً مألوفاً وليست شيئاً جديداً أو مستجداً . وعلى هذا يجب - من وجهة النظر البيزنطية - تدبير مثل هذه الحرب بروح واقعية تدخل فى حسابها كافة خصائص ومميزات السياسة البيزنطية . لذا كان من العبث التوجه الى مدينة بيت المقدس مباشرة للاستيلاء عليها ، لأن مثل هذا التصرف كان يعنى ترك المؤخرة فى آسيا الصغرى غير محمية بما فيه الكفاية . وقد يكون من الضرورى الاتفاق مع المسلمين إذا كانت الظروف فى غير هذه الجبهة تستلزم ذلك ، كان تقوم ثورات فى البلقان أو هجوم غادر يشنه النورمان . ويتفق هاسى مع زميله استروجورسكى أنه من وجهة نظر جغرافية يبدو أن الحرب مع المسلمين فى آسيا الصغرى وسورية وفلسطين هى من اختصاص الامبراطورية الرومانية الشرقية بخاصة ، وليست مسئولية العالم المسيحى كله بصفة عامة (١) .

وكيفما كان الامر فقد وجد الكسيس كومنين أنه مضطر أمام الامر الواقع إلى عقد الاتفاق الذى أشرنا إليه حماية لدولته ، مع العمل فى نفس الوقت على الاستفادة إلى أقصى حد يمكن من القوات الصليبية التى قذف بها الغرب إلى الشرق . وهنا يجدر بنا أن نذكر أن هذا الاتفاق ما كان ليتم أو يخرج إلى حيز التنفيذ لولا جهود الكسيس كومنين الذى رسم لنفسه سياسة خاصة محبوبة محكمة الأطراف ، اتبعها بدقة تامة ، ونفذها بحذافيرها مع جميع رؤساء الفرنج الذين

(١) Hussey, The Byzantine World, 56-7.

توافدوا تباعا على عاصمة امبراطوريته . وقد نجح الامبراطور إلى حد كبير فيما كان يرى إليه حتى الوقت الذي تم فيه عقد الاتفاقية ، وهو حماية دولته من اللاتين ، ثم الحصول على موافقتهم بالانضمام إليه والدخول في خدمته كجند مرتزقة ، والتعهد برد ممتلكاته إليه بعد الاستيلاء عليها . وسنحاول فيما بعد أن تبين مدى محافظة واحترام كل من زعماء الفرنج والامبراطور الكيس لتعهداتهم التي نصت عليها اتفاقية القسطنطينية ، والآثار التي ترتبت عليها وانعكست نتائجها على العلاقات بين اللاتين والإغريق من ناحية وبين اللاتين والعرب من ناحية أخرى .

وكيفما كان الأمر ، فلم ينس الامبراطور الكيس أن يزود الجيوش الفرنجية المختلفة قبل رحيلها عن العاصمة والتوجه لمحاربة السلاجقة ، بإرشاداته ونصائحه . فحذروهم من التركان وأحاطهم علما بطرق محاربتهم ، لأن كان أعلم منهم بهذا العنصر وبوسائله في الحرب والقتال (١) . وبعد ذلك سافر الفرنج وعبروا البسفور إلى آسيا الصغرى حيث التحقوا بالقوات الصليبية الأخرى المتجمعة هناك .

وتقول آن كومنين في صراحة إن أباهما الامبراطور تنفس الصعداء بعد رحيل القوات اللاتينية عن عاصمة ملكه نتيجة لأعمال التخريب التي تسببت في حدوثها . وتذكر أن الكيس أبقى ريمون ده سان جيل إلى جانبه بعض الوقت ، وأنه كثير ما كشف له عن شكوكه في نوايا الفرنج وما يتوقع أن يحدث لهم خلال الطريق . وتستطرد الكاتبة البيزنطية قائلة : « ولطالما ردد الامبراطور هذه الأقوال على مسامعه ، وفتح له مغاليق نفسه » . ولما كان الامبراطور يثق

(١) Alexiad, 264. وهذا ما يؤكد أيضا الكتاب اللاتين الذين عاصروا الحملة وشاهدوا أحداثها ، مثل المؤرخ المجهول ، وريمون هاجيل ، والبرت دكس ، وفوشيه ده شارتر ، واتين ده بلوا ، ومن أتى بعدهم من المحدثين كرينيه جروسيه ورالسيان .

في سان جيل ثقة كبيرة ، فقد طلب منه مراقبة عدوه القديم بوهيمند ، والعمل على رده إذا حث بقسمه ، مع إحباط مشاريعه العدوانية بكل الطرق والوسائل . وهذا يؤكد أن الامبراطور كان لا يزال يشك في نوايا الأمير النورماندى ، ويتوقع إخلاقه باليمين الذى أداه له . وقد عزز كونت تولوز مخاوف الكسيس عندما ذكره بأن بوهيمند قد ورث الغدر ونكث العهد عن آبائه وأجداده ، وأنها ستكون معجزة حقاً إذا ما حافظ على قسمه . وبعد أن وعد سان جيل الامبراطور ببذل قصارى جهده لتنفيذ تعليماته في هذا الصدد ، استودعه وأسرع لينضم إلى الجيش الفرنجى في آسيا الصغرى (١) .

وسرعان ما توجهت هذه الجموع الهائلة من اللاتين المتمطشين للغزو وسفك الدماء صوب حدود السلاجقة ، ووصلوا عاصمتهم نيقية في ٦ مايو سنة ١٠٩٧ م . وتقع هذه المدينة على مسافة يسيرة من خليج نيقوميديا ، وقد اشتهرت بمناعتها وحصانتها ، نظراً لثانة أسوارها والبحيرة الكائنة في جنوبها (٢) . وهناك أقام الفرنج خيامهم استعداداً للحرب . وسرعان ما ضربوا الحصار حول المدينة تمهيداً للاستيلاء عليها ، وكان يساعدهم في هذه المهمة جيش بيزنطى أرسله الكسيس بقيادة تاتيكوس Tatikios . كما كان الامبراطور يرسل إليهم تباعاً الإمدادات من المؤن والأقوات عن طريق البر والبحر تنفيذا للاتفاقية . ولما كان يوجد في جنوب المدينة بحيرة واسعة لها أهمية كبيرة بالنسبة للأتراك حيث كانوا يضعون فيها سفنهم ، فقد بعث زعماء الصليبيين إلى الامبراطور يطلبون منه إرسال قوارب لمنع الترك من استخدام هذه البحيرة . فأرسل لهم الكسيس

(١) Alexiad, 267-8. انظر التفاصيل في الملحق الثالث بآخر الكتاب .

(٢) انظر خريطة خط سير الصليبيين في آسيا الصغرى وشمال الشام ، ص ٢٣٠ من هذا الكتاب .

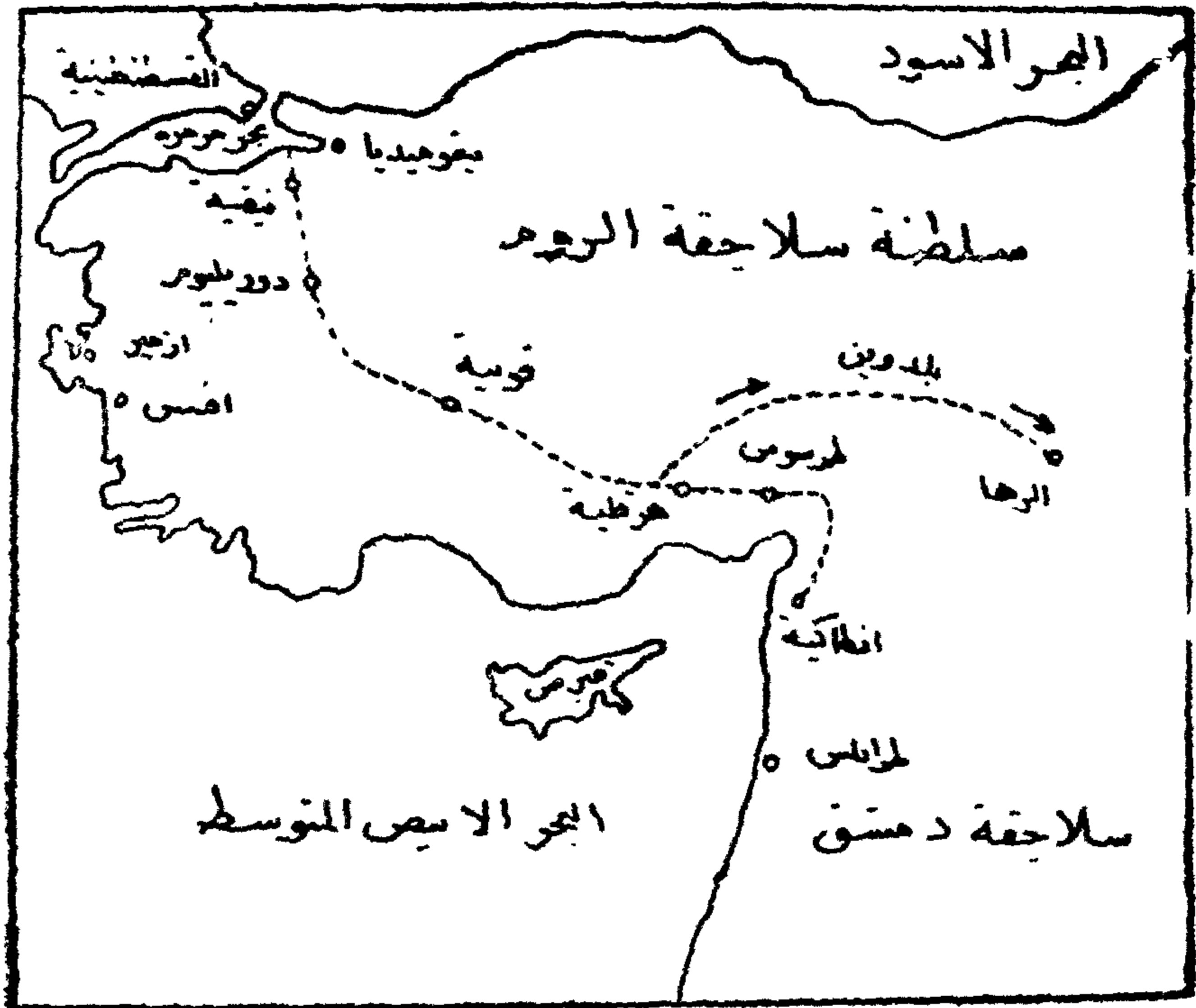
عددا من القوارب بها جماعة من رجاله المدججين بالسلاح لمساعدتهم في عملية الحصار. وقد صعد الاتراك عند مرأى هذه القوات المسلحة وتلك الاستعدادات الهائلة، فأرسلوا وفداً من قبلهم إلى الامبراطور يخبره باستعدادهم لتسليم المدينة له على شريطة أن يتعهد بالمحافظة على حياتهم وسلامتهم. وقد وافق الامبراطور على ذلك حتى لا يعرض المدينة للخطر. وفي أواخر يونيو سنة ١٠٩٧ م سلمت المدينة لالكسيس، وكان فرحه عظيماً بعودتها إلى حظيرة امبراطوريته، وأمر بتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ابتهاجاً بهذا النصر^(١). ويقول المؤرخ اللاتيني ريمون داجيل إن الامبراطور وعد الفرنجة وكبار رجالهم بإعطائهم كل ما في نيقية من ذهب وفضة وخيول ومتاع. كما وعدهم بأن ينشئ في المدينة ديراً للاتين على مذهبهم الكاثوليكي وملجأ للفقراء من الصليبيين. وأغدق المال على جميع رجال الجيش حتى يحاربوا في صفوفه^(٢).

وإن الباحث المدقق في تأليف المؤرخين اللاتين يجد أن الوسيلة التي لجأ إليها الكسيس للاستيلاء على المدينة لم ترق لهم كثيراً. وهم يعلمون ذلك بقولهم إن

(١) Anonymi Gesta Francorum, 177-94; cf. Foucher de Char-
tres, R. H. C.—H. Occ., III, 494. ولم يخف هذا الأمر على الكتاب العرب،
فوجد ابن الأثير في كتابه ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥، يقول إن «الفرنج عند ظهورهم
هاجموا ملك الروم ووعدوه بأن يسلموا إليه أول بلد يفتحونه، ففتحوا نيقية وهي أول
مكان فتحوه.»

(٢) «... Promiserat Alexius principibus et genti Francorum, quod totum aurum et argentum, et equos, et omnem suppellectilem quae intus erat eis redderet; et monasterium Latinum, et hospitium pauperibus Francorum ibi faceret; praeterea tantum da propriis unicuique pe exercitu daret, ut illi semper militare velint ...» Cf. Raimond d'Agiles, R. H. C. — H. Occ., III, 239-40.

خريطة رقم ٣



خط سهر الصليبيين في آسيا الصغرى وشمال الشام

الامبراطور عندما وجد الفرنج يستعدون لآخذ نيقية عنوة ، خشى أن تقع في أيديهم ويرفضوا تسليمها إليه طبقاً للإنفاقية . ولما كان هدفه هو العمل بكافة الوسائل على إعادتها إلى حظيرة بيزنطة ، ورغبة منه في ألا تصاب المدينة بسوء على أيدي أولئك القوم ، فقد بادر بمفاوضة الأتراك لتسليمها إليه دون قتال أو سفك للدماء . ولهذا السبب وافق على شروطهم في أن يخرجوا من المدينة سالمين مقابل ذلك .

ويبدو أن اللاتين كانوا على حق فيما ذهبوا إليه . إذ ذكرت آن كومنين أن الامبراطور كان يود الاشتراك بشخصه مع الافرنج في قتال الأتراك لولا خشيته من أعدادهم الغفيرة التي كانت مصدر قلق دائم بالنسبة له . لذلك وجد أنه من الأفضل الإقامة في مدينة بلسكان القريبة من نيقية انتظاراً لما قد تسفر عنه الأحداث ، وحتى يكون على علم بمجريات الأمور والاحوال أولاً بأول . وتستطرد الكاتبة فتقول إنه أدرك بشاقب نظره أنها سوف تكون ضربة قاسية إذا أخفق في احراز أى نصر عسكري في مثل هذه الظروف الموانية . وهي لا تخفى أن أباهما كان يود استعادة مدينة نيقية بدون أى مساعدة من قبل الفرنج ، وذلك حتى لا يتسلبها منهم بعد امتلاكها تنفيذاً لتعهداتهم له ، ومن يدري فربما يخلون بهذه التعهدات . ولهذا أخفى نواياه على الكتبان ، وأرسل أحد خواصه واسمه بوتومايت Butumites إلى المدينة لإقناع أهلها بتسليمها له مقابل تأمينهم على حياتهم ، وكلف رسوله أن يعمل في ذات الوقت على إثارة مخاوف الأماي من الفرنج ، وما سوف يتعرضون له من الويلات على أيديهم إذا وقعت المدينة في قبضتهم (١) . وقد نجحت هذه الخطة المزدوجة في هودة نيقية إلى بيزنطة .

وتكشف هذه الرواية أن الكيس كان يرقاب دائماً في نوايا ضيوفه اللاتين ، وكان يتوقع إخلالهم بمهودم إذا ما اتفردوا دونه بامتلاك حاضرة السلاجقة ، وأنهم قد يمتنعون عن إعادتها إليه ضاربين باتفاقية مايو ١٠٩٧ عرض الحائط . وقد رأينا كيف أباط حديثه مع كونت سان جيل اللثام عن مخاوفه . وربما يكون الكيس على حق في موقفه من اللاتين ، خاصة وأن أحداث الشهور التالية أثبتت صدق هذه المخاوف . ولا شك أن أهل الغرب كانوا يعملون هم أيضاً لحسابهم الخاص دون أن يعيروا مصالح بزنطة أى اهتمام . ويصح القول أيضاً أن هذا الموقف من جانب الكيس - على الرغم من الحجج التي تعمل بها - فيه خروج على الاتفاقية .

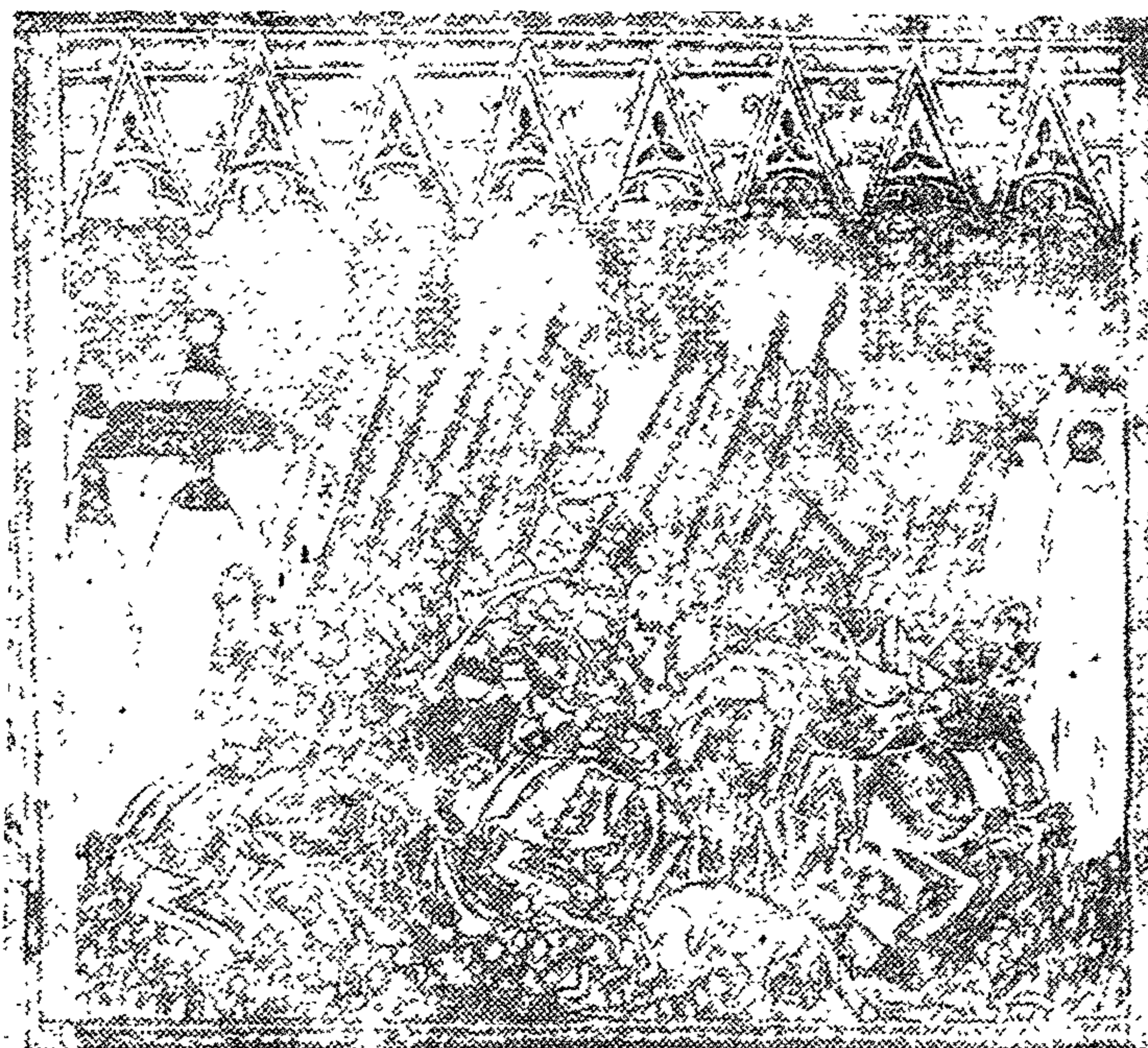
وكيفما كان الأمر ، فقد أعيدت نيقية إلى حكومة الامبراطورية (٢٦ يونيو ١٠٩٧) بعد أن استمرت تحت حكم السلاجقة ١٦ عاماً . وأصبح بوسع القسطنطينية التنفس بحرية بعد إجلاء التركان عن هذا المعقل الأمامي الحصين (١) . وبالرغم من تلك الاتصالات الخفية التي جرت بين البيزنطيين والسلاجقة حول مدينة نيقية ، فمن الثابت أن تسليم المدينة إلى بزنطة كان مطابقاً للاتفاق المبرم بين الكيس ورؤساء الصليبيين . ويقول بعض المؤرخين إن البيزنطيين عندما تسلموا المدينة لم يسمحوا للفرنج بزيارتها إلا في جماعات قليلة . والواقع أن الجيش البيزنطي لم يقدم على ذلك إلا منعاً للسلب وإحداث الشغب . أما الكيس فقد جند حاميه من بين أولئك الصليبيين الذين انضموا تحت لوائه وقبلوا الدخول في طاعته . ويقول المؤرخ جروسية إن الكيس وفي بكل تعهداته التي نص عليها الاتفاق ، حتى أن رؤساء اللاتين ذهبوا إليه في اليوم التالي للاستيلاء .

على نيقية لشكره وتهنئته قبل أن يتوغلوا في آسيا الصغرى . وقد وافى الصليبيون الامبراطور في الموعد الذى ضربه لهم ، ولم يعارض أحد منهم في تسليم المدينة إليه ، وجددوا له القسم ماعدا تنكريد وسان جيل اللذان أصرا منذ البداية على عدم التعهد بأى قسم الامبراطور (١) . كذلك تخلف اتين كونت بلوا عن الذهاب مع بقية الزعماء الفرنج لتهنئة الامبراطور ، حتى يتسنى له المحافظة على المدينة والدفاع عنها ضد أى هجوم مفاجئ .

لقد كانت نيقية هى أول مدينة طبق عليها الاتفاق بدقة تامة ، وذلك بصرف النظر عما قيل حول الكيفية التى سلت بها إلى الكسيس . فقد نفذ كلا الطرفين تعهداته التى نصت عليها الاتفاقية ، فسهل لهم الامبراطور من ناحيته مسألة التكوين وساعدهم عسكريا وزودهم بنصائح وإرشاداته ولم ييخل عليهم بشئ . وغير ذلك فإنه كافاً أولئك الفرنج وأحسن إليهم بعد الاستيلاء عليها . وكذلك سلم الفرنج من ناحيتهم المدينة للكسيس تنفيذاً لتعهداتهم التى أقسموا على احترامها . وقد عارض كل من تنكريد وسان جيل ، ولكن موقفهما لم يؤثر تأثيراً كبيراً فى العلاقات بين اللاتين والدولة البيزنطية .

غادر الجيش الصليبي نيقية فى الأيام الأخيرة من شهر يونيو سنة ١٠٩٧ م ، وعلى وجه التحديد فى الفترة الممتدة من ٢٦ إلى ٢٩ من ذاك الشهر ، ويحتمل أنهم تركوها على دفعات . وأخذوا يتوغلون فى آسيا الصغرى متجهين صوب الجنوب الشرقى . وفى أول يوليو اصطدموا بجيش الأتراك بقيادة قلع أرسلان فى مدينة دوريليوم (اسكى شهر) ، حيث قامت معركة حامية بين الفريقين أثبت فيها الفرنج عدم درايتهم بفن التكتيكات الحربية . وكادت أن تلحق بهم هزيمة كبيرة لولا أنهم تمكنوا فى النهاية من التغلب على الترك نظراً لكثرتهم العددية

لوحة رقم ٢



موقعة دوريليوم

من ناحية وتنازع الأتراك فيما بينهم من ناحية أخرى . وتم لهم الاستيلاء على المدينة على الرغم من الشجاعة الفائقة التي أبدأها الترك في القتال (١) . ولهذا النصر أهمية خاصة ، إذ فتح لهم الطريق إلى الأراضى المقدسة . وينظر المؤرخون إلى معركة دوريليوم باعتبارها من المعارك الفاصلة في التاريخ ، شأنها شأن موقعه ملاذكرد قبل ذلك الوقت بحوالى ربع قرن . ففيها تمكن اللاتين من القضاء على سلطان السلاجقة لعدة أجيال قادمة في وقت كانت فيه القوى العربية في المنطقة ضعيفة منقسمة على نفسها ، مما هيا للدخيل الأجنبي فرصة إحراز هذه المكاسب السريعة الخاطفة .

واصل الصليبيون بعد ذلك تقدمهم نحو الجنوب ، فاستولوا على قونية وهرقلية بعد أن قاسوا الأمرين من شدة الحر والعطش ومن هجمات التركان الفجائية . وعندما وصلوا منطقة أرمينية في جبال طرسوس تغيرت الأحوال لصالحهم ، إذ مد لهم سكانها من الأرمن المسيحيين يد المساعدة ، وأحسنوا استقبالهم ومعاملتهم ، وزودهم بكل ما كانوا يحتاجون إليه من مؤن وأقوات . ولولا ذلك لربما أخفق الفرنج في مواصلة الزحف ، ولألحق بهم السلاجقة هزيمة منكرة ، ولعادوا إلى ديارهم بخفي حنين دون أن يقضوا لبائتهم . ولكن هذه المساعدات التي تلقوها من الأرمن هيات لهم الجو لمواصلة العدوان المسلح والتوغل في الشرق العربي . فبعد أن عبروا جبال طرسوس بلغوا مدينة انطاكية ، وكان ذلك في أكتوبر من عام ١٠٩٧ ، وسرعان ما ضربوا الحصار حولها (٢) .

(١) أنظر : Oman, Art of War (A. D. 378—1515), 71.

(٢) Grousset, Crois., I, 31-43; Oman, Art of War, I, 272-8; Mahmud, Story of Islam, 134.

وفيا يتعلق بتعاون الأرمن مع الصليبيين ضد العرب خلال الحركة الصليبية ، أنظر كتابي « الوحدة ومركبات البقطة العربية » ، ص ٤١ و ٤٢ .

وفي تلك الاثناء انفصل كل من بلدوين شقيق جودفري وتنكريد ابن أخت
بوهيمند عن الجيش الصليبي الرئيسي بحثاً وراء أطماعهما ، واتجها نحو منطقة
كيليكية في آسيا الصغرى . ولما كان كل منهما يعمل لحسابه الخاص ، فقد
تعارضت مصالحهما واصطدما أكثر من مرة ودب الخلاف بينهما ، ولم يعبرا
مصالح بيزنطة واتفاقية القسطنطينية أى اهتمام . وقد اضطر بلدوين آخر الأمر
إلى ترك المنطقة لتنكريد باحثاً عن صيد جديد في تلك الرقعة من العالم التي
تفيض لبنا وعسلا بنص قول البابا أربان نفسه . ووجد ضالته في مدينة الرها
التي توجه إليها حيث تبناه صاحبها الأرمني المسن المسمى ثورس ^(١) Thoros ،
وأشركه معه في الحكم . ولم تمض فترة طويلة حتى اغتال الأرمن حاكمهم هذا .
ويتهم بعض المؤرخين ، ومن بينهم متى الأرمني ، بلدوين قاتلين إن له يد في
مصرعه ، وإنه اشترك مع زوجة ثورس في تدبير المؤامرة لينخلو له الجو ، ثم
تزوج منها بعد ذلك لكي يضفي على حكمه في البلاد صبغة شرعية . وكانت الرها
هذه هي أول مستعمرة لاتينية يؤسسها الفرنج في الشرق العربي في أعالي الفرات ،
وكان بلدوين شقيق جودفري هو أول من تولى أمرها . وقد تمت هذه الأحداث
في أوائل عام ١٠٩٨ م ^(٢).

(١) فيما يتعلق بثورس أنظر :

Matt. d'Edesse, R. H. C.-Doc. Arm., I, 30 n. 1; Grousset, L'Empire du Levant, 183-4, 297.

Matt. d'Edesse, I, 37-8 & 38 n. 4; Michel le Syrien, (٢)

R. H. C. - Doc. Arm., I, 328; Foucher de Chartres, R. H.C. —
Grousset, Crois., I, 43-68 & notes: راجع أيضا: H. Occ., III, 496-7.

وكما كانت الرها هي أول إمارة يؤسسها الفرنج بالعام في الحملة الأولى ، كذلك كانت أول
إمارة يسقطها العرب بعد ذلك التاريخ بحوالى نصف قرن من الزمان عندما استولى عليها
عماد الدين زنكي سنة ١١٤٤/٨٥٣٩ م من جوسلين الثاني . انظر عن ذلك : ابن القلانسي:
ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ ؛ ابن الأثير : أتابكة الموصل ، ص ١١٨ - ١٢٥ ؛
أبو عامر : الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٦ - ٣٧ . راجع أيضا كتاب :

Grégoire le Prêtre, R. H. C.-Doc. Arm., I, 157.

وهكذا نجد أنه بعد الاستيلاء على نيقية يواصل الصليبيون سيرهم في آسيا الصغرى ، وكانوا كلما يستولون على مدينة من الأتراك يردونها إلى بيزنطة ، بينما كان الامبراطور يمدم من جانبه بكل ما هم في حاجة اليه . وبذلك يمكن القول بأن الاتفاق بين اللاتين والبيزنطيين قد نفذ خلال مرور الجيش الصليبي بآسيا الصغرى ، إذا استثنينا مدن كيليسكية التي لم يطبق عليها الاتفاق ، إذ رفض تنكريد وبلدوين - بعد الاستيلاء عليها - إعادتها إلى الامبراطور ، ذلك لأن أولهما لم يكن مقيدا بأي قسم مع الكسيس ، أما بلدوين وإن كان قد حلف له فيما بعد بيمين الولاء ، إلا أنه لم يقم أى وزن لهذا القسم وكان على استعداد لخرقه متى دعت الظروف إلى ذلك . ولهذا السبب رفض بلدوين رد الرها إلى الامبراطور بعد أن سلمها الأرمن له دون حرب أو قتال . ومع ذلك لم تؤد مسألتى كيليسكية والرها إلى إثارة المشاكل أو قوتر العلاقات بين الفريقين ، وترك لمسألة انطاكية القيام بهذا الدور (١) .

لقد ظل الاتفاق قائما بين الفرنج والبيزنطيين خلال عبور الجيوش الغربية في آسيا الصغرى ، ولكن لم تلبث أن تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال عندما أصبح الفرنج أمام انطاكية في أكتوبر سنة ١٠٩٧ م . وما أن وصل الجيش إلى هذه المدينة حتى ضرب الحصار حولها ، وقد استمر ذلك بضعة أشهر (أكتوبر ١٠٩٧ - يونيو ١٠٩٨) . وكانت مدينة حصينة غاية الحصانة ، فالجبال تحيط بها من الشرق والجنوب ، والأنهار من الشمال والغرب ، الأمر الذى أكسبها قوة

(١) Ostrogorsky, 322-3. ويذكر المؤرخ المذكور (نفس المرجع ، ص ٣٢٢)

أن الكسيس تمكن فعلا بمساعدة الفرنج من استعادة النفوذ البيزنطى على الجزء الغربى من آسيا الصغرى .

هائلة ومناعة طبيعية (١). وكان يحكمها آنذاك ياغي سيان التركمانى ، وهو رجل عرف بشجاعته وشدة بأسه ، كما كان سياسياً عنكاً وقائداً ممتازاً . وما أن علم بحركة الفرنج حتى استعد لمنازلتهم وقتلهم ، وزود المدينة بالمؤن التى تكفيها لعدة أشهر . ولكن انقسام الأتراك وقتذاك حال دون تحقيق النصر على الصليبيين . وكما أن انقسام السلاجقة أدى إلى هزيمتهم فى انطاكية ، كذلك أدت مسألة انطاكية إلى إثارة النزاع بين بوهيمند والكسيس بصفة خاصة وإلى قوتر العلاقات بين اللاتين والروم الإغريق بصفة عامة .

ذكرنا أن بوهيمند النورماندى كان طموحاً إلى حد كبير، وله مطامع سياسية بعيدة كان يصبو إلى تحقيقها . وعرفنا أنه اشترك فى الحرب الصليبية على أمل أن يؤسس له إمارة لاتينية فى الشرق . وكان هدفه هو الاستيلاء على انطاكية لنفسه، إذ أدرك أنها تفضل بيت المقدس نفسها من الناحيتين التجارية والاستراتيجية (٢). ولقد حاول تحقيق هذا الهدف فى أول الأمر بمساعدة الدولة البيزنطية وتعزيد الكسيس ، ولذلك كانت خطته التى رسمها لنفسه منذ أن حل فى بيزنطة هى أن يعمل على تخدير أعصاب الإمبراطور بذكائه ودهائه وسياسته الماكرة ، وأن يتظاهر له بالود والولاء . وفعلاً نراه يجمع جنده فى وادى دروبولى Dropoli وينصحهم بالتزام الهدوء فى بداية رحلته من الغرب ، وبألا يسيثوا إلى إخوانهم الإغريق خلال مرورهم عبر الأراضى البيزنطية . ونراه فى مناسبة أخرى يطلق سراح بعض الأسرى البيزنطيين الذين كانوا فى حوزته إثر مناوشة وقعت بين

(١) أشاد الرحالة والجغرافيون العرب بذكر أهمية انطاكية وحصانيتها . راجع التفاصيل فى : القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٢٩ ؛ أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٥٧ ؛ ابن الشحنة : الدر المنقب ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) Haskins, The Normans, 214.

النورماندين وجيش الكسيس حتى يكسب بذلك وضاء الامبراطور. وأخيرا نراه لا يتردد في حلف يمين التبعية بين يدي الكسيس، وقام بدور الوسيط بينه وبين رؤساء الفرنج ، كما كان أول الداعين للاتفاق معه . وبالاختصار حاول بوهيمند إرضاء الامبراطور البيزنطي بكافة الطرق حتى لا تسوء العلاقات بينهما ، ولكي يحصل على تأييده له ومساعدته إياه في تحقيق مطامعه في الشرق . ولقد أبان بوهيمند عن حقيقة نواياه عندما طلب من الكسيس أن يسند إليه منصب « خادم الشرق الأكبر » ، أو بكلمة أخرى أن يجعله حاكما على منطقة انطاكية والأقاليم المجاورة لها . ولما كان الامبراطور يشعر في قرارة نفسه بحقيقة ما يهدف إليه هذا الأمير النورماندي ، فقد رفض إجابته إلى طلبه ، معللا إياه بالأمل حتى لا تسوء العلاقات بينهما .

على أي حال ظل بوهيمند على حسن صلاته بالامبراطور ، ولم يظهر له العداء عساه أن يظهر منه بحله المنشود . واسكن بعد أن يثس من تحقيق أمنيته بمساعدة الامبراطور ، وبعد أن وجد أن سياسته لم تأت بالثمرة المرجوة ، غير خطته وقلب لالكسيس ظهر الجبن ، وبعد أن كان من أكبر أهوانه ومناصريه أصبح من ألد أعدائه ومعارضيه . ومنذ تلك اللحظة عمل على الاستيلاء على انطاكية دون موارد ورغم إرادة آل كومنين ، ومهما كلفه هذا من ثمن . ورسم لنفسه خطة جديدة مزدوجة تدل على بعد نظره وسعة حيلته . فكان عليه أن يتخلص أولا وقبل كل شيء من الجيش البيزنطي بقيادة تاتيكيوس الذي كان يعاون الجيش الصليبي في حصار انطاكية . وبعد ذلك كان عليه أن يحصل من رؤساء الفرنج على وعد صريح بالتنازل له عن إمارة انطاكية بعد غزوها . وقد عمل فوراً وبدون إبطاء على تنفيذ خطته بما عرف عنه من حكمة ودهاء .

لقد رأى بوهيمند بفراسته أنه اذا استمر جيش تاتيكيوس يعاون الفرنج

إلى أن يتم الاستيلاء على المدينة ، فإن هذا القائد سيطالب بردها الى حظيرة الامبراطورية تنفيذاً لمعاهدة القسطنطينية التي كان بوهيمند نفسه أول المفاوضين لها الداعين اليها . وكان الموقف يحتاج الى شيء من الحيلة ، وهذا ما لم يكن ينقص الأمير النورماندى . فقد أوحى تاتيكوس أن باقى زعماء الصليبيين يهتمونه بخيانتهم وبالاتفاق مع الأتراك ضدهم ، وأنهم يدبرون مؤامرة لاغتياله . وقد فجحت الخطة ، إذ خاف القائد البيزنطى على حياته ، وترك المعسكر الصليبي (بنابر أو فبراير ١٠٩٨) متذرعاً بالذهاب لإرسال إمدادات ونجدة جديدة من بيزنطة للجيش الصليبي (١) . ولكن المؤرخ المجهول يدافع عن سيده بوهيمند قائلاً إن تاتيكوس هرب فى أثناء عملية الحصار عندما أصبح الجيش الصليبي فى مركز حرج ، وعندما علم بأن جيشاً تركياً كبيراً فى طريقه الى انطاكية لتطويق الفرنج . ولذا تملكه الخوف ، واعتقد أن الجيش التركى سوف يفتك بالجيش الفرنجية ففر هارباً حتى لا يعرض حياته للخطر (٢) .

وبعد أن تخلص بوهيمند من الجيش البيزنطى المساعد بقيادة تاتيكوس ، وسواء أكان فرار هذا القائد خوفاً من أن يبطش به الفرنج نتيجة لخدعة بوهيمند أم خشية من الجيوش التركية التى كانت فى طريقها الى انطاكية ، فقد عمل الأمير النورماندى على تنفيذ الشق الثانى من خطته ، وهو التخلص من منافسة باقى زعماء الفرنج له . ويقول المؤرخ المجهول إن بوهيمند بعد أن اتفق مع أحد ضباط حامية انطاكية المسمى فيروز على أن يسهل له الدخول الى المدينة ، وبعد أن وثق أنها ستسلم له ، تقدم الى باقى رؤساء الفرنج وطلب منهم أن يملكوه المدينة بعد الاستيلاء عليها . ولكنهم لم يوافقوا على طلبه فى أول الأمر ،

(١) Grousset, Crois., I, 80-1.

(٢) Anonymi Gesta Francorum, 261-2.

قائلين له انهم سيتقاسمونها فيما بينهم بعد امتلاكها لانهم اشتركوا جميعاً في عملية الحصار . وقد ابتسم بوهيمند عندما سمع هذا الكلام ، وانسحب في الحال دون أن ينبس بحرف واحد . ولكن سرعان ما تغير الموقف ، وبات الجيش الصليبي مهدداً بالخطر ، وكان جيشاً تركياً بقيادة كربوغا حاكم الموصل في طريقه الى المدينة . فاستغل بوهيمند - وكان مسيطراً على الموقف - هذه الفرصة السانحة لتحقيق أهدافه . وعقد زعماء الفرنج مجلساً قرروا فيه استمدادهم للتنازل عن المدينة لبوهيمند حالما يتم الاستيلاء عليها . أما ريمون كونت سان جيل فقد رفض التعهد بذلك ، وسيكون هذا سبباً لإثارة النزاع والتخاصم بين الرجلين فيما بعد (١) .

بعد أن نجح بوهيمند في تنفيذ خطته بشقيها ، وبعد أن استوثق من أن المدينة المحاصرة ستؤول إليه فور امتلاكها ، أخذ يحارب بكل ما أوتي من قوة ، وأظهر شجاعة فائقة في أثناء الحصار ، غير مبال بالصعاب التي واجهته حتى انتهى الأمر بسقوطها واستيلاء الفرنج عليها في ٣ يونيو ١٠٩٨ م .

وفي هذه الأثناء وصل الجيش التركي بقيادة كربوغا إلى انطاكية وضرب الحصار حولها ، وتخرج موقف الفرنج في الداخل تهرجا كبيرا ، وسمت الجماعة وانتشر الوباء وتعذرت الأقوات ومات عدد كبير منهم ، وكانت حياة الباقين قاب قوسين أو أدنى . وضيق كربوغا عليهم الخناق ، حتى أن السكونت اتين الذي كان زعماء الفرنج قد انتخبوه قائداً على الجيش ، تظاهر بالمرض وهرب من المعسكر إلى بلاده خشية الموت . وفي طريقه قابل الامبراطور الكسيس الذي كان متجها صوب انطاكية بجيش كبير ، وأخبره أن الترك قد ضيقوا الحصار على

الفرنج الذين أصبحوا مهملين بالفناء داخل المدينة . فاستولى الرعب على الامبراطور ، وتراجع بسرعة حتى لا يصيبه ما أصاب الجيش الصليبي المحاصر داخل انطاكية .

وهكذا كانت الامور تسير بالنسبة للصليبيين المحاصرين من سيء إلى أسوأ ، رغم ما أبداه بوهيمند من شجاعة وحزم . وظهرت في تلك الاثناء التي بدا فيها التخاذل واضحاً بين الفرنج ، بعض الاساطير والرؤيات التي كانت تهدف إلى إثارة الحماس الديني وتقوية الروح المعنوية المنهارة بينهم . ظهرت هذه الاساطير لتؤدي دورها على مسرح الاحداث وقتذاك . ومنها ما تروى أن أحد اللاتين شاهد في منامه قديساً من القديسين ، بينما ادعى البعض أنهم رأوا المسيح أو العذراء . وهناك من يقول بأن الخطاب الذي زعم فريق من المؤرخين أن الكسيس كومنين أرسله إلى روبرت أمير الاراضي الواطئة لم يصدر عن الامبراطور البيزنطي ، وإنما وضع في غرب أوروبا في تلك الفترة بالذات بقصد حث الغربيين على ارسال النجدة إلى اخوانهم الفرنج المحاصرين داخل المدينة . ولعل أهم هذه الاساطير أسطورة افرنجي يدعى بطرس برنولماوس زعم إثر رؤيا ظهرت له في المنام أنه اكتشف الحربة المقدسة التي طعن بها المسيح في جنبه . ولا شك أن الهدف من أمثال هذه الرؤيات التي ظهرت وقتذاك ، هو العمل على رفع الروح المعنوية بين أفراد الجيش الفرنجي حتى يواصلوا القتال إلى أن يحققوا غايتهم من حملتهم . كما أنها تبين بجلاء كيف استغل أهل الغرب العامل الديني لتحقيق أطماعهم ومآربهم في رقعة الشرق العربي . وكان من أثر هذه الخزعبلات أن تبدل الحال ، وألح بوهيمند حماس الجند وكان اليأس قد استولى عليهم وكادوا أن يستسلموا ، فهبوا هبة واحدة وقاموا في وجه الأتراك

والحقوا بهم الهزيمة ، ولأذ كربوغا وجماعته بالفرار (٢٨ يونيو ١٠٩٨)^(١). وبعد أن تم النصر للفرنجة استولوا على قلعة المدينة . وكانت الأبراج العليا في حوزة بوهيمند ، ولكن سرعان ما التجأ إلى القوة ، وطرده قوات سان جيل وروبرت وجودفري من القلعة ووضع يده عليها . ولم ينس الأمير النورماندى أن رؤساء الفرنجة قد وعدوه بمنحه انطاكية بعد الاستيلاء عليها ، لاسيما وأن الفضل الأول في ذلك يرجع إليه . لذا طلب منهم في أواخر يونيو من سنة ١٠٩٨م أن يملكوه المدينة ، وأن يسلبوه أبوابها وحصونها التي كانت لا تزال في قبضتهم . وقد استجاب الكل إلى طلبه ما عدا سان جيل الذي كان يطمع مثله في إمارة انطاكية . لذلك رفض التنازل عن المراكز التي كان يحتلها ، وأخذ في تحصينها . وعلى هذا أصبح يتنازع المدينة - بعد أن تنازل جودفري وروبرت عن حقوقهما فيها - كل من بوهيمند وسان جيل . وكان الأول يحتل الأجزاء الشمالية والشرقية والوسطى بما في ذلك القلعة ، بينما كانت المنطقة الجنوبية الغربية من نصيب سان جيل وهي مدينة انطاكية الحالية^(٢) . ويذكر المؤرخ المجهول أن سان جيل رفض تسليم المدينة إلى الأمير النورماندى حتى لا يحنث بقسمه الذي أداه للإمبراطور . وقد عقد زعماء الفرنجة عدة اجتماعات في كنيسة القديس بطرس بالمدينة لحسم النزاع القائم بين الرجلين . فعرض بوهيمند على المجتمعين الاتفاق الذي أبرمه معهم والذي ينص على تنازلهم عن انطاكية له ،

(١) Raimond d'Agiles, 253-7; Anonymi Gesta Francorum, 353-80; Matt. d'Edesse, 39-43; cf. Hitti, Hist. of Syria, 593 & notes. أنظر أيضا رواية أبي المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ ، عن قصة الحرية المقدسة .

(٢) Grousset, Crois., 108-10.

بينما أطلعهم سان جيل على نص اليمين الذي أقسمه بين يدي الكسيس بناء على نصيحة بوهيمند نفسه ، ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة حاسمة مرضية (١) . وليس من السهل تفسير موقف سان جيل ، وهل كان ذلك رغبة صادقة منه في المحافظة على اليمين الذي أداه الامبراطور البيزنطي ، أم طمعاً في الاستحواذ على المدينة لنفسه ، أم استجابة لطلب الكسيس الذي كلفه بمراقبة بوهيمند والسعي دون تحقيق أطامه على حساب بيزنطة قبل مغادرته القسطنطينية إلى آسيا الصغرى . فهذه مجرد احتمالات لا تزال في حاجة إلى مزيد من البحث والاستقصاء للوصول إلى رأى نهائى بشأنها . هذا ولو أن أحداث السنوات التالية تعزز الرأى القائل بأن سان جيل كان يطمع مثل بوهيمند فى تأسيس إمارة له ولأسرته من بعده .

وإذا انتقلنا إلى حق بيزنطة فى انطاكية نرى أن معاهدة القسطنطينية كانت تنص على إعادة المدينة وجميع الممتلكات التى كانت فى حوزة الدولة البيزنطية قبل موقعة ملاذكرد إلى حظيرة الامبراطورية بعد الاستيلاء عليها ، وقد أقسم زعماء الفرنج بذلك . كما اشترك الامبراطور الكسيس فى الحرب الصليبية على هذا الأساس .

ويذكر جروسيه أن جودفرى ، وروبرت ده فلاندرز ، وروبرت ده نورمانديا ، قد بوا بقسمهم وصمموا على إعادة انطاكية إلى الامبراطور بعد

(١) Anonymi Gesta Francorum, 394-5. - وجدير بالذكر أن امبرواز مؤرخ حملة ريتشارد قلب الأسد امتدح فى كتابه الذى وضعه شعراً عن تلك الحملة ، كلا من بوهيمند وابن اخته تنكريد ، قائلاً إن النصر الذى أحرزاهما وباقي الفرنج بالاستيلاء على انطاكية يعتبر من الأمور التى تروى فى التاريخ . ويهنا أن نوضح أن نفمة التعصب ووجهة النظر القريية حيال تلك الأحداث تظهران بجلال فى شعر امبرواز . أنظر :

أن تم لهم فتحها ، بينما كان كل من بوهيمند وسان جيل يعمل لحسابه الخاص كما رأينا سابقا . وبناء على ذلك عقد زعماء الفرنج اجتماعا آخر في أوائل يوليو ١٠٩٨ م حضره ريمون ده سان جيل وبوهيمند ، وقرروا إرسال هيو ج ده فيرماندوا وبلدوين ده هانو إلى الامبراطور يطلبون اليه الحضور لتسلم المدينة تنفيذاً للاتفاقية المبرمة بينهما . وقد قتل بلدوين في الطريق على أيدي جماعة من الترك في خدمة الجيش البيزنطي . أما هيو ج فواصل سيره إلى القسطنطينية ، ولكنه لم يعد إلى رفاقه ثانية .

لقد كان الصليبيون على استعداد لإعادة انطاكية إلى الامبراطور على شريطة أن يشترك معهم في الحملة ضد بيت المقدس ، وأن يقدم بما يحتاجون إليه من أقوات . ولكن الكسيس ترك هذه الفرصة تمر دون أن يستغلها لمصلحته ، ولم يعطهم رأياً صريحاً قاطعاً في هذا الشأن . هذا باستثناء موقف بعض كبار اللاتين من أمثال بوهيمند وسان جيل وبلدوين وتنكريد الذين كانوا يعملون منفردين عن باقي زملائهم وعن الامبراطور الكسيس نفسه . ويجب ألا يغرب عن البال أن جميع الأطراف المعنية من لاتين واغريق على السواء كانت تسعى لتحقيق مصالحها الذاتية فحسب دون نظر إلى أي اعتبار آخر . وأنه لهذا السبب تداخلت المصالح ، وتضاربت الأهواء ، وثارَت الخلافات ، واصطدم اللاتين بعضهم ببعض ، كما اشتبكوا مع البيزنطيين . ويعتبر هذا انعكاساً للخلافات العميقة ، الحضارية واللغوية والسياسية والمذهبية ، التي كانت قائمة بين اللاتين والاغريق منذ قرون عديدة سبقت الحركة الصليبية نفسها .

وأخيراً في إبريل سنة ١٠٩٩ م قرر الصليبيون السير بجحافلهم صوب بيت المقدس . وفي هذه الأثناء وصلهم خطاب من الكسيس يفصح فيه عن استعداده

للاشتراك معهم في الحملة على أن يردوا اليه انطاكية وأن ينتظروه حتى شهر يوليو من تلك السنة . وقد وصلت هروض الامبراطور بعد أن فات الوقت وبعد أن أفلت الزمام ؛ إذ قرر الزعماء ألا ينتظروه ، وأن يواصلوا السير بقواتهم الجارية صوب أورشليم . هذا في الوقت الذي عزز فيه بوهيمند مركزه في انطاكية رافضا تسليمها إلى بيزنطة ، مما أدى إلى قيام النزاع ونشوب الحرب بينهما لمدة طويلة . ولعل هذا هو الذي حدا بالامبراطور الكسيس إلى تغيير موقفه من الصليبيين بصفة عامة ، وإلى ازدياد روح العداء والبغضاء بين الفريقين .

وفي الوقت الذي تعهد فيه الكسيس بالاشتراك مع الصليبيين في حركتهم ، يقال إنه كان على اتصال بأعدائهم الفاطميين في مصر ، وأنه عقد معهم اتفاقا سريا (١) . وان دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الكسيس لم يكن صادق الرغبة في مساعدة اللاتين في هذه المرحلة من الحملة . أو لعله بعد أن تكشفت له نواياهم ، أراد أن يحمي ظهره من عدوانهم فاتفق مع جيرانه الفاطميين ضدهم . ويقول شالندون إن اغتصاب بوهيمند لمدينة انطاكية أثار غضب الامبراطور وسخطه على الصليبيين مما دفعه على الاتفاق ضدهم مع الفاطميين ، بينما يعزو جروسيه ضياع المدينة من قبضة الكسيس إلى تردده وعدم مطالبته بها ، وأنه لو كان قد أصر على إعادتها إلى حظيرة امبراطوريته لثم له ذلك .

ومما يدل على حسن نية الصليبيين حيال البيزنطيين أنهم بعد الاستيلاء على انطاكية أحسنوا معاملة سكانها والبطريق البيزنطي يوحنا الرابع وأعادوا تنصيبه على الكرسي البطريركي في احتفال عظيم ، ولم يفرقوا بين الطقوس اللاتينية

(١) جدير بالذكر أن أمر هذا الاتفاق السري الذي عقد بين الكسيس والفاطميين ورد ذكره في المصادر العربية فقط ، بينما لم تتعرض له الأصول العربية بكلمة واحدة . ولهذا يجب عند تناوله توخي الحيلة والحذر .

والطقوس الإغريقية . ولكن بعد أن اتفق مع الفاطميين ضد الصليبيين ، إن صحت الرواية الغربية في هذا الصدد ، تغير الموقف وأخذوا يتحولون عنه . وكان بوهيمند في ذلك الحين قد ثبت قدمه نهائياً في انطاكية وتخلص من منافسة سان جيل له ، ثم عزل البطريق البيزنطي وعين محله بطريقاً لاتينياً هو برنولد ده فالانس Bernold de Valance . فكان هذا إيذاناً بتحول انطاكية إلى مستعمرة لاتينية (١) ، وستستمر هكذا لمدة مائة وسبعين سنة تقريباً (١٠٩٨ - ١٢٦٨) عندما استعادها العرب نهائياً في مايو من عام ١٢٦٨ (٦٥٨ هـ) أيام السلطان الظاهر بيبرس (٢) . ولعل هذا الموقف من جانب بوهيمند يكشف كيف اصطنع اللاتين في بادئ الأمر سياسة اللين والدهاء حيال الاغريق وشعائهم ، ولما استتب لهم الأمور ظهروا على حقيقتهم ، فأزالوا الطقوس الأرثوذكسية وأحلوا محلها طقوسهم الكاثوليكية . وهذا يعزز ما سبق أن أوضحناه فيما يتعلق بموقف اللاتين من بيوت الله من مساجد وكنائس شرقية ، ويلقى ضوءاً على حقيقة اتجاهات العدوان الصليبي (٣) .

وإذا كان بعض المؤرخين الغربيين المحدثين أمثال جروسيه قد وقفوا إلى جانب اللاتين في نزاعهم مع الكسيس كومنين والبيزنطيين فيما يتعلق بمشكلة انطاكية ، فقد وجد فريق آخر ألقى اللوم على الصليبيين وعلى رأسه شارل ديل . يقول هذا المؤرخ إن الفرنج لم تكن لديهم رغبة صادقة في مواجهة الامبراطور

(١) Grousset, Crois., I, 110—5, 137—40.

(٢) راجع التفاصيل في : التورى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، لوحة ٩٤-٩٦ ؛ الكتي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٨٧ و ٨٩ ؛ المقرئى : السلوك ، ج ١ قسم ٢ ، ص ٥٦٧-٥٦٨ ؛ أبو المحاسن : التجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٦ .

(٣) أنظر ما سبق ، ص ٦٩ - ٧٠ من هذا الكتاب .

البيزنطى والتفاهم معه للوصول إلى حل يرضى الطرفين . وكان من أثر ذلك أن العلاقات بينهما آلت إلى شبه انقصام . ويستطرد ديل فيذكر أنه ليست هناك قرائن تثبت أن الكسيس لم يرحب بأولئك القوم ولم يفرهم بالمال ، وأنه بما وزعه عليهم من مبالغ طائلة كان بوسعهم تخصيصها لمحاربة الأتراك والتغلب عليهم ، وأن الكسيس قد وفى بتعهداته قبلهم . وهذا لا يمكن أن يقال عن الصليبيين بعد أن نكثوا العهد برفضهم إعادة انطاكية إلى بيزنطة . ويختتم دفاعه بأن هذا يكفى للحكم بما يقرب من الصحة على حقيقة العلاقات بين الكسيس والفرنج خلال الحرب الصليبية الأولى (١) .

وبالطبع بعد أن تباينت آراء المؤرخين فيما يتعلق بموقف كل من اللاتين والاغريق حيال الآخر حول مشكلة أنطاكية ، لنا أن نتساءل : هل حافظ كل من الكسيس والصليبيين على تعهداتهم التى نصت عليها اتفاقية القسطنطينية فيما يختص بهذه المسألة ؟ وعلى كتف من تقع مسؤولية المضاعفات الخطيرة التى نتجت عن تأزمها ؟

يرى البعض أنه كان يجب على الصليبيين إعادة أنطاكية إلى بيزنطة تنفيذاً للاتفاق المبرم مع الكسيس ، وأن اغتصابهم المدينة على هذا الوجه يعتبر تجاهلاً فاضحاً للاتفاق ونكثاً بالوعد المقطوع ، وأن ذلك كان ايذاناً بوقوع أحداث جسام فى السنوات التالية . وفعل لم يتنازل البيزنطيون عن حقوقهم فى أنطاكية ، مما أدى إلى اشتعال نيران الحرب بين بوهيمند والكسيس . وكانت هذه المسألة فى القرن الثانى عشر على رأس المسائل الشائكة فى سياسة بيزنطة فى سورية ، والىها أيضاً يرجع السبب فيما بذله خلفاء الكسيس من جهودات للتسلط على

خلفاء بوهيمند (١) . هذا بينما يرى فريق آخر من المؤرخين أن الكسيس هو المستول الاول عن ضياع حق بيزنطة في أنطاكية . ويعزون ذلك إلى تروده وتهاونه وعدم تنفيذه لبعض الشروط التي نصت عليها معاهدة مايو ١٠٩٧ م ، في حين أن الفرنج بادروا بإرسال مندوب عنهم يطالب الامبراطور البيزنطي بالحضور لاستلام المدينة ، وأنه لم يمر هذا النداء أى التفات في الوقت الذي أخذ يتفاوض فيه مع دولة الفاطميين بمصر لتكوين جبهة مشتركة ضد بوهيمند واللاتين .

ولكن بالمقارنة بين مختلف النصوص يتضح أن هذه الأقوال مبالغ فيها إلى حد كبير . حقيقة أن معاهدة القسطنطينية تنص على إعادة أنطاكية إلى الكسيس بعد الاستيلاء عليها ، ولكنها نصت أيضاً على تعهد الامبراطور بالاشتراك مع الصليبيين في حروبهم ضد السلاجقة ، ومساعدتهم حريياً وامدادهم بالموونة . فهل ساعد الكسيس الفرنج ، أو بر بتعهداته لهم في هذه المرحلة من الحملة ؟ يرى الباحث المدقق أن الامبراطور أدخل بوعوده . حقيقة أن جيشا بيزنطيا بقيادة تاتيكوس كان يعاون الصليبيين عند حصار أنطاكية ، ولكن هذا القائد هرب في أثناء الحصار قبل أن يتم الاستيلاء على المدينة . ومهما كانت البواعث التي دفعته إلى ذلك ، فإن فراره قبل سقوط أنطاكية يعتبر تجاهلاً للاتفاق . وهذا ما يمكن أن يقال أيضاً بالنسبة للكسيس نفسه عندما قابله اتين ده بلوا وهو في طريقه إلى أنطاكية ، وأخبره بالحال التي وصل اليها الفرنج المحاصرون داخل المدينة ، وكيف أنهم باتوا مهددين بالخطر أثناء حصار كربوغاها ، فأثر السلامة ورجع بقواته من حيث أتى . بمعنى أن الامبراطور وقائده تركا الفرنج بدون

أى مساعدة في هذه المرحلة من حملتهم . حقيقة لقد بر الكسيس بتعهداته للصليبيين خلال مرورهم في آسيا الصغرى ، ولكننا لا نجد مصدراً يؤيد الرأي القائل بأنه أمدم بما كانوا في حاجة اليه في أثناء عملية حصار أنطاكية ، وهذا يعتبر إخلالاً لشرط أساسى في المعاهدة . يضاف إلى ما تقدم أن الكسيس رفض الاشتراك في الحملة ضد بيت المقدس ، أو على الأقل لم يعطهم وعداً صريحاً بذلك ، هذا في الوقت الذى كان فيه على صلة بالفاطميين . وإن صح هذا فإنه يكفى لهدم حق بيزنطة في المطالبة بملكية أنطاكية . وعلى أى حال ، فقد سنحت الفرصة لالكسيس لاسترداد المدينة والظهور بمظهر الزعيم الدينى ، ولكنه تركها تمر دون أن يستغلها . وأخيراً فإن اغتصاب اللاتين لأنطاكية ما كان ليتم لولا ضعف الامبراطور وتردده في المطالبة بها . وقد وجد بوهيمند الطموح في تردد الكسيس وإخلاله بتعهداته فرصة ذهبية لتحقيق حلمه المنشود .

وكيفما كان الأمر ، فلقد كان استيلاء اللاتين على أنطاكية يعتبر من أكبر انتصاراتهم الحربية منذ أن قاموا بحركتهم في أخريات القرن الحادى عشر . وإذا قرأنا ما كتبه المؤرخون الغربيون عن هذا الحدث ، نلص الاثر الذى تركه في نفوسهم وفي نفوس مواطنيهم في غرب أوروبا . لقد تغنى أهل الغرب بهذا النصر لأجيال طويلة ، إذ أنه فتح أمامهم الطريق إلى الأراضى المقدسة .

ويعتبر الاستيلاء على تلك المدينة ومن بعدها بيت المقدس ، دعاية للحركة الصليبية لا تقل بحال عن نداء البابا اربان الثانى أو دعاية بطرس الناسك وغيره من الوعاظ والمبشرين . وكانت هذه الانتصارات السريعة المتلاحقة التى أحرزها أولئك القوم في غفلة من الزمن هى المحرك الضخم لذلك المجهود الذى بذلته أوروبا خلال ثلاثة قرون من الزمان لى تحتفظ بسيطرتها على هذه البقعة المقدسة التى اغتصبتها من أصحابها العرب مدعية أنها كانت ترى فيها مهدداً روحى .

لقد غالى الكتاب اللاتين المعاصرون للحملة في حكمهم على الكسيس بسبب
حلاقاته بالصليبيين . كما كانت يمين التبعية التي طلبها من رؤسائهم باعثة على
استيائهم الشديد . ويبدو ذلك واضحا في كتبهم وتأليفهم . وحاول أولئك
المؤرخون انتحال مختلف الأعذار للفرنج لما حسبوه نوعا من الإذلال المتعمد
من جانب البيزنطيين . وصرح أحدهم بأن مثل أولئك الجنود البواسل لم يفعلوا
ما فعلوه إلا بعد أن وجدوا أنفسهم مدفوعين إلى ذلك بحكم الضرورة ؛ إذ لم يكن
بوسعهم مقاومة المسيحيين الإغريق . ويقول مؤرخ آخر إن أولئك القوم رفضوا
أن يعودوا إلى بلادهم قبل أن يتمموا ما قدموا من أجله ، وانهم لهذا السبب
إستاءوا من الكسيس وتصرفاته . ولم يترددوا في اتهامه بالمكر والخداع
والخيانة ، كما نسبوا إلى رعاياه الكذب والجبن ، واتهموا الإغريق بصفة عامة
بأنهم السبب في الهزائم العديدة التي حلت بالصليبيين فيما بعد . مع أنه من الإنصاف
القول بأن عدم كفاءة القادة اللاتين ، وتنافسهم ، وتنازعهم فيما بينهم ، ثم
ما كانوا يتميزون به من عدم التبصر وانعدام الإرادة - كل هذا كان السبب
فيما حل بهم من كوارث وويلات .

وإذا أمعنا النظر في مجريات الأمور وجدنا أن الاختلافات بين العنصرين
تجعل التقام بينهما يكاد أن يكون مستحيلا . ويحتمل أيضاً أن الاتفاق بين
الإغريق واللاتين لم يكن في منتهى الإخلاص . فكان الامبراطور البيزنطي
يريد الانتفاع بالفرنج لصالحه ؛ بينما هم من ناحيتهم لم يفكروا في الغزو والفتح
إلا لحسابهم الخاص . ولعل هذا هو أقرب الآراء إلى الحقيقة والواقع .

ورغما عن الأخطاء والنزاع والانشاقات بين الصليبيين أنفسهم وبينهم
وبين البيزنطيين ، فقد كانت نتائج عام ١٠٩٩ لاشك فيها . إذ ثبتت أقدام
البيزنطيين في آسيا الصغرى ، وتم تأسيس مستعمرات لاتينية في سورية . وقد

كان من الممكن لو اتفق الصليبيون والبيزنطيون وقتذاك على مهاجمة الأتراك ، أن يحرزوا نصراً حاسماً عليهم . ولكن مسألة أنطاكية والخلافات السابقة حالت دون ذلك .

كان بوهيمند يهدف بعد أن أصبح سيداً على أنطاكية إلى توسيع رقعة إمارته . وقد حاول عام ١٠٩٩ بمعاونة البيازنة انتزاع اللاذقية من قبضة البيزنطيين ، وهاجم عام ١١٠٠ مدينتي حلب واقامية ، وكانت الأخيرة قد ردت إلى دولة الروم . ومع أنه وقع في أيدي الأتراك في نفس العام ، إلا أن ابن أخته تنكريد الذى تولى شئون أنطاكية في فترة غيابه في الأسر ، كان يتابع سياسة خاله في التوسع على حساب بيزنطة . وكان من مصلحته ألا يطلق سراح بوهيمند في وقت قريب . لذلك لم يحاول التفاوض لإطلاق سراحه .

قام تنكريد بتولى شئون أنطاكية نيابة عن خاله خير قيام ، دالا بذلك على بعد نظره . فهو لم يحمل لقب أمير أنطاكية . وعلى الرغم من أنه مك عملة باسمه ، إلا أن هناك أسطورة دينية مكتوبة بلغة يونانية رديئة أطلقت عليه اسم « خادم الله » . وكان يطلق على نفسه في بعض الأحيان لقب « الأمير الجليل » . Grand Emir . وكان أمراً محتملاً ومتوقعا أن رأى العام الأنطاكي سوف يقف حائلاً أمامه إذا تمادى في مطامحه . وكان النورمان لا يزالون يعتبرون بوهيمند قائداً . وكان لبوهيمند صديق مخلص في شخص البطريرك اللاتيني المدعو برنارد ده فالانس ، الذى كان قد عينه قبل وقوعه في الأسر مباشرة . ومن أجله أيضاً طرد الأمير الأسير البطريرك الاغريقي يوحنا الرابع John the Oxite . وكان تنكريد يسير على نفس سياسة خاله . ففى الداخل عمل على تثبيت الإدارة في الإمارة ، وتحويل الكنيسة الشرقية إلى المذهب اللاتيني الكاثوليكي . أما في

الخارج فقد سعى إلى الإثراء على حساب البيزنطيين والامراء المسلمين المجاورين . ومع ذلك فقد كانت مطامحه محلية أكثر منها عالمية ، وذلك على العكس من خاله .

على أية حال ، بادر تنكريد بالهجوم على اللاذقية واستولى عليها في عام ١١٠٢ . وكان امتلاك هذه المدينة ذا أهمية كبيرة ، إذ أنها تفتح للإمارة منفذا إلى البحر وإلى الغرب . وقد شغلت هذه السياسة المعادية بال الامبراطور البيزنطي ، مما حمله على الاتفاق مع ريمون ده سان جيل ضد النورمانديين . بل إنه في سبيل مضايقة النورمانديين ، عاون سان جيل على تثبيت أقدامه في طرابلس الشام عام ١١٠٢ (١) . ولما عاد بوهيمند من أسره إلى أنطاكية في ربيع عام ١١٠٣ طالبه الامبراطور البيزنطي بحزم بإرجاع المدينة اليه . ولكن بوهيمند رفض اجابته إلى طلبه وقامت الحرب بينهما . واتخذ البيزنطيون هذه المرة موقف الهجوم ضد بوهيمند ، واستولوا على كيليسكية وأدنه Adana وماميسترا Mamistra . ثم ضربوا الحصار حول اللاذقية ، واستولوا على بعض المراكز الاستراتيجية الهامة على الساحل . وفي نفس الوقت كان الأتراك من الجهة الأخرى يهاجمون الصليبيين ، وأنزلوا بهم هزيمة نكراء عام ١١٠٤ عند مدينة حران ، وحاصروا الرها بعد ذلك بفترة وجيزة .

ولما وجد بوهيمند أنه ليس بمقدرته في مثل هذه الظروف قتال البيزنطيين بمفرده ، اعتزم التوجه إلى الغرب بغية التبشير بحرب صليبية جديدة ، ولكنها ليست ضد العرب هذه المرة ، وإنما ضد امبراطور الدولة البيزنطية . وقد أفلح بحيلة بارعة من اختراق صفوف البيزنطيين التي كانت تراقب الساحل السوري .

(١) حول طرابلس الشام وتأسيس إمارة صليبية بها ، أنظر السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي (الاسكندرية ١٩٦٧) - ص ١٣٥ وما بعدها .

ووصل إلى كوفو ، ومن هناك أرسل كتاباً إلى الكسيس يتحداه فيه تحدياً صريحاً . ويشير في هذا الخطاب الذي احتفظت بنصه الأميرة آن كومنين إلى الحروب التي قادها والده روبرت جويسكار ضد الامبراطورية ، ويختتمه بقوله : « وحالما أصل إلى القارة (يعنى أوروبا) سأجمع من حولى اللومبارديين والصليبيين والألمان وكافة المواطنين الأفرنج ، وكلهم مشهود لهم بالشجاعة الفائقة . وسأثير الاضطرابات فى الامبراطورية الرومانية التى تحكمها . وبمساعدة هؤلاء الرجال ، سأجعل الدماء تسيل أنهاراً فى المدن والبلدان التى تحت إمرتك ، حتى يحين الوقت المناسب لاثبت قدمائى فى بيزنطة . »

وفى يناير سنة ١١٠٥ بلغ بوهيمند مدينة بوى ، وكان موضع الحفاوة فى كل مكان حل به . وضم اليه البابا أحد رجال الدين للدعاية للحرب الصليبية التى كان يزمع القيام بها . واستقبله بعد ذلك فيليب الأول ملك فرنسا وزوجه من ابنته ، وقدم له كافة التسهيلات اللازمة . وقد نسب الأمير النورماندى فشل الحملات التى قام بها الفرنج ضد العرب فى الشرق فى أعوام ١١٠١ و ١١٠٢ و ١١٠٣ إلى الكسيس والبيزنطيين . ونجح فى إثارة الرأى العام فى الغرب الأوروبى ضد البيزنطيين متهما إياهم بخيانة اللاتين وتوجيه الطعنات لهم من وراء ظهورهم . ولم يكلفه جمع الجيوش لحملة الجديدة أى مجهود . وفى خريف عام ١١٠٧ كان قد حشد حوالى ٣٤ ألف مقاتل . وهبط بهذا الجيش فى مدينة أفلونا Avlona ، وضرب الحصار حول مدينة دورازو . وهكذا تعيد حملة ١٠٨١ نفسها بعد مضى ما يقرب من ربع قرن ، مع فارق أساسى وهو أن الكسيس كانت تحت إمرته هذه المرة قوات كبيرة لمحاربة خصمه العنيد ، كما كان أسطوله يسيطر على البحر . وسرعان ما هاجم الجيش البيزنطى بوهيمند براً وبحراً ، واشتد فى قتاله حتى وجد نفسه محاصراً داخل معسكره . ولم تلبث قواته أن تملكها اليأس ،

والت الادبار بعد أن أضناها الجوع وبعد أن أثر عليها رسل الامبراطور . ولم يجد بوهيمند بدا من طلب المفاوضة وايقاف القتال . وسمح الكسيس لخصمه القديم بمقابله بشروط تمس كرامته وكبريائه ، الا أنه كان مضطراً لقبول هذه الشروط المهينة . وذهب إلى المعسكر البيزنطى حيث نوقشت بنود المعاهدة الجديدة التى عرفت باسم معاهدة ديفول Treaty of Devol التى نصت على اعتراف الامير النورماندى بتبعيته للامبراطور ولنجله من بعده ، وحلف يمين التبعية والولاء بين يديه . كما تعهد ألا يحمل السلاح ضده مرة أخرى ، وألا يقوم بهجوم جديد على اراضى الدولة البيزنطية مما يعرض سلامتها للخطر ، وأن يقاتل فى سبيله مهما كانت الظروف ، وان يكتفى بالاراضى المنصوص عليها فى المعاهدة وهى التى تنازل له عنها الكسيس . كما وعد بوهيمند أن يعيد إلى بيزنطة جميع البلدان التى فتحها والتى كانت من أملاكها من قبل . وتنفيذاً للاتفاقية أعاد بوهيمند كيليكية واللاذقية إلى حظيرة الامبراطورية . وذلك خلاف مواقع أخرى على الساحل . وفيما يتعلق بانطاكية فقد تسلمها بوهيمند اقطاعاً من الكسيس الذى بادر بممارسة سلطانه فيها ، فأمر الا تتبع بطريركية انطاكية الطقوس اللاتينية الغربية ، وأن يكون بطريقها ارثوذكسيا يختاره الكسيس من بين هيئة رجال الدين بكنيسة سانت صوفيا البيزنطية . وفى شروط أخرى نصت عليها الاتفاقية يبدو مدى ما لحق بالامير النورماندى من الهذلة بعد انكماش إمارته . وقد غمر الامبراطور الامير بوهيمند بالخلع كعادته ، وأسبغ عليه لقب Sebaste ، أى المحترم ، وتم توقيع المعاهدة سنة ١١٠٨ .

ولمعاهدة ديفول سنة ١١٠٨ أهمية لا تقل بحال عن معاهدة القسطنطينية سنة ١٠٩٧ . فهى تسلط الضوء على الحال الذى كان الكسيس كومنين يفكر فيه للمشكلة الصليبية . لقد كان مستعداً للسماح لآى أمير لاتينى بأن يتولى إدارة

المناطق الواقعة على الحدود بما في ذلك انطاكية ، طالما أن هذا الأمير مرتبط به بموجب واجبات التبعية الاقطاعية وفقا للتقاليد اللاتينية الغربية ، وطالما أن بيزنطة تمارس نفوذها وسلطانها بطريقة غير مباشرة بواسطة الكنيسة الشرقية . بالإضافة إلى أن الكسيس كان يدرك بحكم منصبه أنه مسئول عن سلامة المسيحيين الشرقيين .

ومع ذلك فقد ظلت المعاهدة حبرا على ورق . ولكنها قضت على بوهيمند الذي لم يحسر بالمرّة على استعراض عضلاته أو حتى مجرد الظهور مرة أخرى في الشرق . فإنه بعد أن تحطمت آماله على هذا الوجه أبحر إلى إيطاليا تاركا وراءه كل شيء ، ونزل في لومبارديا حيث وافته منيته عام ١١١١ م دون أن يتسنى له العودة إلى انطاكية ثانية ومواصلة كفاحه ضد الإمبراطور . وقد ترك طفلين قاصرين من زيجته الفرنسية ليرثا حقوقه في انطاكية .

وكان هذا نصراً عظيماً لالكسيس بعد أن باشر بنفسه العمليات الحربية والمفاوضات الدبلوماسية . إذ تمكن من أن يلحق الهزيمة بمخصمه الذي وقف عقبة كأداء في طريقه منذ أن تولى العرش ، والذي كان بدون شك أبرز شخصية في الحرب الصليبية الأولى . وقد كان هذا النجاح من دواعي الفخر والسرور في القسطنطينية ، ويمكننا التثبت من ذلك مما كتبه آن كومنين في هذا الصدد . على أن هذا الفرح لم يدم طويلاً ، إذ رفض تنكريد الذي خلف خاله في انطاكية رفضاً باتاً تنفيذ شروط المعاهدة ، وواصل سياسة بوهيمند وفتوحاته ، فاستولى على اللاذقية في عام ١١٠٨ ، وعلى جانب من إقليم كيليكية عام ١١٠٩ . ولم يكن من السهل إيقافه عند حده بدون استخدام القوة . ولم تؤت المفاوضات التي أجراها البيزنطيون في طرابلس وبيت المقدس لهذا الغرض النتيجة المرجوة . وفي

عام ١١١٢ توفي تنكريد ، ورغم ذلك لم يطرأ أى تغيير جوهري على الموقف المتأزم ، ولم يكن الكسيس نفسه فى مركز يسمح له بالتدخل العسكرى لنسوية هذه التركة المثقلة بالمشاكل . وعلى ذلك فقد ظلت مسألة انطاكية على ما هى عليه . وكانت هذه المشكلة جديرة بأن تحتل مكانة هامة فى التاريخ البيزنطى فى القرن الثانى عشر (١) .

(١) Diehl, L'Europe Orientale, 24-7; Ostrogorsky, 323-4; Runciman, Crusades, II, 32-6, 39-55.

ويلاحظ أن بيزنطة لم تنهون فى العمل على تثبيت حقوقها فى انطاكية طبقا لما اهدت ١٠٩٧ و ١١٠٨ ، متخذة سياسة اللين أو الحرب تارة وسياسة التزاوج السياسى تارة أخرى . وقد واصل كل من يوحنا كومنين (١١١٨ - ١١٤٣) ومانويل الأول (١١٤٣ - ١١٨٠) سياسة الكسيس فى هذا الشأن . بل ان مانويل - فى سبيل تدعيم النفوذ البيزنطى فى انطاكية - تزوج من الأميرة مارى الانطاكية . كما استغل الحملة الصليبية الثانية لتثبيت السيادة البيزنطية على تلك الامارة . فبعث الى لويس السابع وهو فى طريقه بقواته من أوروبا الى الشرق ، يحرص عليه تموين الجيش الفرنسى مقابل اعتراف لويس بسلطان بيزنطة على انطاكية . ولكن هذا العرض لم يلق قبولا من لويس مما أدى الى غضب مانويل وقيام النزاع بينه وبين قادة الحملة الصليبية ، بل والاتفاق مع مسعود سلطان قونية ضدهم . وقد سر بيت كومنين لفشل الحملة الصليبية . ولم ييأس أباطرة بيزنطة فى المطالبة بحقوقهم فى انطاكية ، الى أن جاءت الحملة الرابعة سنة ١٢٠٤ وأسست لها إمارة لاتينية فى القسطنطينية نفسها . فكان هذا مما شغل البيزنطيين فى المنى عن المطالبة بانطاكية الى العمل على تحرير بلادهم من ربة اللاتين . أنظر :

Diehl, L'Empire Byzantin, 147-50; Chalandon, Comnènes, II, 289-90; Runciman, Crusades, II, 359-60.

راجع أيضا حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ٥١ .

وللعز يد من المعلومات والتفاصيل عن أحداث السنوات التى تلت عودة بوهمند من الأسر الى امارته فى انطاكية سنة ١١٠٣ الى حين وفاته سنة ١١١١ ، أنظر من المصادر العربية مؤلفات ابن الأثير (السكامل فى التاريخ) ، وابن القلانسى (ذيل تاريخ دمشق) ، وابن العديم (منتخبات من تاريخ حلب) ، وابن الجوزى (مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان) . ومن المصادر الأجنبية راجع تآليف البرت دكس ، ورامول ده كان ، وفوشيه ده شارتر ، ومتى ألرهاوى ، وميخائيل السورى ، وآن كومنين .

الفصل السابع

حركة اليقظة العربية

في القرن الثاني عشر

ان الاسترسال في تتبع مشكلة انطاكية وما أثارته من خلافات حادة بين اللاتين الكاثوليك والروم الأرثوذكس كان لها أثرها في تطور العلاقات بينهما في الأحقاب التالية ، لا يبعدنا عن مواصلة الحديث عن تقدم الغزاة الأجانب في المشرق العربي ، وهو الهدف الرئيسى من حركتهم العدوانية .

لقد وقعت انطاكية في قبضة اللاتين كما وقعت من قبلها نيقية ودوريليوم وغيرهما من البلدان التي كانت في حوزة السلاجقة . والواقع أن السبب الرئيسى في نجاح الفرنج في الاستيلاء عليها لا يرجع إلى صفات خاصة تميزوا بها دون خصومهم كالجرأة أو الشجاعة ، وإنما يرجع أولا وقبل كل شيء إلى اتقسام السلاجقة على أنفسهم . وهو ما أوضحه المؤرخ شارل أومان في كتابه « تاريخ فن الحرب والقتال في العصور الوسطى » . فلو كان رضوان صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق قد اتفقا وقتذاك لألحقا بالعدو الدخيل شر هزيمة ، ولحالاً بينه وبين التوغل في آسيا الصغرى وشمال الشام . ولكنهما على الرغم من الخطر الدائم الذى كان يهددهما ، وبدلاً من الاتحاد لمواجهة هذا العدو المشترك ، لم يبدلا أى مجهود في سبيل وقف التقدم الصليبي في المشرق العربي (١) .

(١) محمد جمال الدين سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، ص ١٢٨-١٢٩ ؛ السيد الباز العريبي : مصر في عصر الأيوبيين ، ص ٦ ؛ عبد الرحمن زكى : معركة المنصورة ، ص ٩ - ١١ .

وكما أن الخلافات التي نشبت بين الصليبيين وبعضهم البعض من جهة ، وبين بيزنطة من جهة أخرى ، ستؤدي في النهاية إلى استحالة القضاء على القوى العربية الواعية في منطقة الشرق الأوسط ، فإن الخلاف المستحكم بين ملوك العرب وأمراءهم سيؤدي أيضاً إلى تحقيق حلم اللاتين ، ولو إلى حين ، وهو الاستيلاء على اورشليم والأراضي المقدسة وتأسيس مستعمرات لاتينية بها . فقد كان العالم العربي آنذاك منقسماً على نفسه سياسياً ومذهبياً . ففي مصر خلافة الفاطميين الشيعة على غير وفاق مع خلافة العباسيين السنية في بغداد ، وقد دب في أوصالها الضعف والانحلال . فالانقسام بينهما سياسى ودينى ، والتناحر على أشده . وهكذا نجد أن كلا الفريقين كان آخذاً في التدهور ، بينما القبائل التركمانية ومن بينها السلاجقة تختطف من أملاك الفاطميين أو العباسيين على السواء ما يمكن اختطافه من الأقاليم كما حدث مثلاً عند استيلائهم على بلاد الشام من الفاطميين . وكانت سلطنة السلاجقة قد انقسمت هي الأخرى إلى دويلات صغيرة يحكم كل منها أمير مثلاً حدث في حلب وانطاكية ودمشق (١) . يحدث كل هذا والعدو الفرنجى واقف يترصد بالعرب الدوائر ، وهو مغتبط أشد الاغتياب لهذا الانقسام الواضح في صفوفهم . وإذن لا عجب إذ كانت هذه هي حال العرب في الشرق من أن ينتصر عليهم الصليبيون بعد وصولهم إلى القسطنطينية واختراقهم الأناضول واستيلائهم على المعاقل الأمامية في آسيا الصغرى وشمال الشام . ولا عجب أيضاً أن يتم هذا كله في سنوات معدودات (٢) .

(١) راجع عن ذلك : Grousset, Sum of Hist., 173-4; Lane-Poole, Hist. of Egypt, 163; Mahmud, Story of Islam, 83, 133, 134; Setton, Hist. of the Crus., I, 96-7. راجع أيضاً : القريرى : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٨٧ - ٢٩١ .

(٢) Oman, Art of War, I, 233. ويذكر أومان (نفس المرجع والصفحة) =

على أية حال ، كان غزو انطاكية تجربة حية كشفت عن حقيقة نوايا أولئك القوم ، وأن هدفهم الحقيقي لم يكن تحرير قبر المسيح حسبما كانوا يدعون ، وإنما تحقيق المطامع الذاتية والرغبة الكامنة في نفوسهم في التوسع والسيطرة وبسط النفوذ والسلطان والعمل أولاً وقبل كل شيء على تصفية الوجود العربي والقضاء على الحضارة العربية . فبعد أن فرغوا من انطاكية ، واصلوا الزحف بقيادة ريمون ديه سان جيل إلى بيت المقدس ، متجنبين الاحتكاك بالمدن الحصينة . وأخيراً في ٧ يونيو سنة ١٠٩٩ م بلغوا المدينة المقدسة (١) ، وكانت إذ ذاك في قبضة الفاطميين الذين استغلوا انشغال السلاجقة في الشمال ضد الفرنج ، وقاموا بانتزاعها منهم في أخريات أغسطس سنة ١٠٩٨ م . وكان حاكمها من قبل مصر يدعى الأمير نحر الدولة . وفي الحال ضربوا الحصار حولها الذي استمر من ٧ يونيو إلى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م . وقد قاسى الغزاة الأمرين بسبب نقص الذخيرة وقلة المياه وحرارة الجو في مثل هذا الوقت من العام ، فضلاً عن الدور الباسل الذي قامت به الحامية العربية داخل المدينة في سبيل دفع اللاتين عنها .

== أنه لم يكن من السهل على القوات الصليبية إحراز أى نصر عسكري في الشرق بسبب ضعفها من الوجهة الحربية . فلم تكن هناك قيادة موحدة يدين لها الجميع بالولاء ، بل وجدت عدة جيوش إقطاعية معتقة متفرقة وفدت من غنى أنحاء الغرب الأوروبي ، وكان ينقصها النظام وحسن الأعداد والترتيب والامام الكافي بالتكتيكات الحربية السليمة . ومع ذلك فقد أفلحت في الاستيلاء على انطاكية وبيت المقدس وغيرها من البلدان بسبب انقسام العرب وقيام المداة والبغضاء والتنازع بينهم وقتذاك . ولولا ذلك لما أمكن الفرنج إحراز أى نصر عسكري على قوات كانت تفوقهم أعداداً وترتيباً وتنظماً وتسريباً .

(١) كان الاتراك قد انتزعوا هذه المدينة من الفاطميين سنة ١٠٧٠ م متهمين فرصة ضعفهم ، وظلت بأيديهم حتى سنة ١٠٩٨ م عندما استردها الفاطميون بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش مستغلين انقسام الاتراك على أنفسهم وقتذاك وانشغالهم مع الصليبيين في الشمال ، ومينوا الأمير نحر الدولة حاكماً عليها من قبلهم . انظر عن ذلك : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ ؛ ابن الوردي : تمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١١ .

لوحة رقم ٣



بيت المقدس من جبل الزيتون

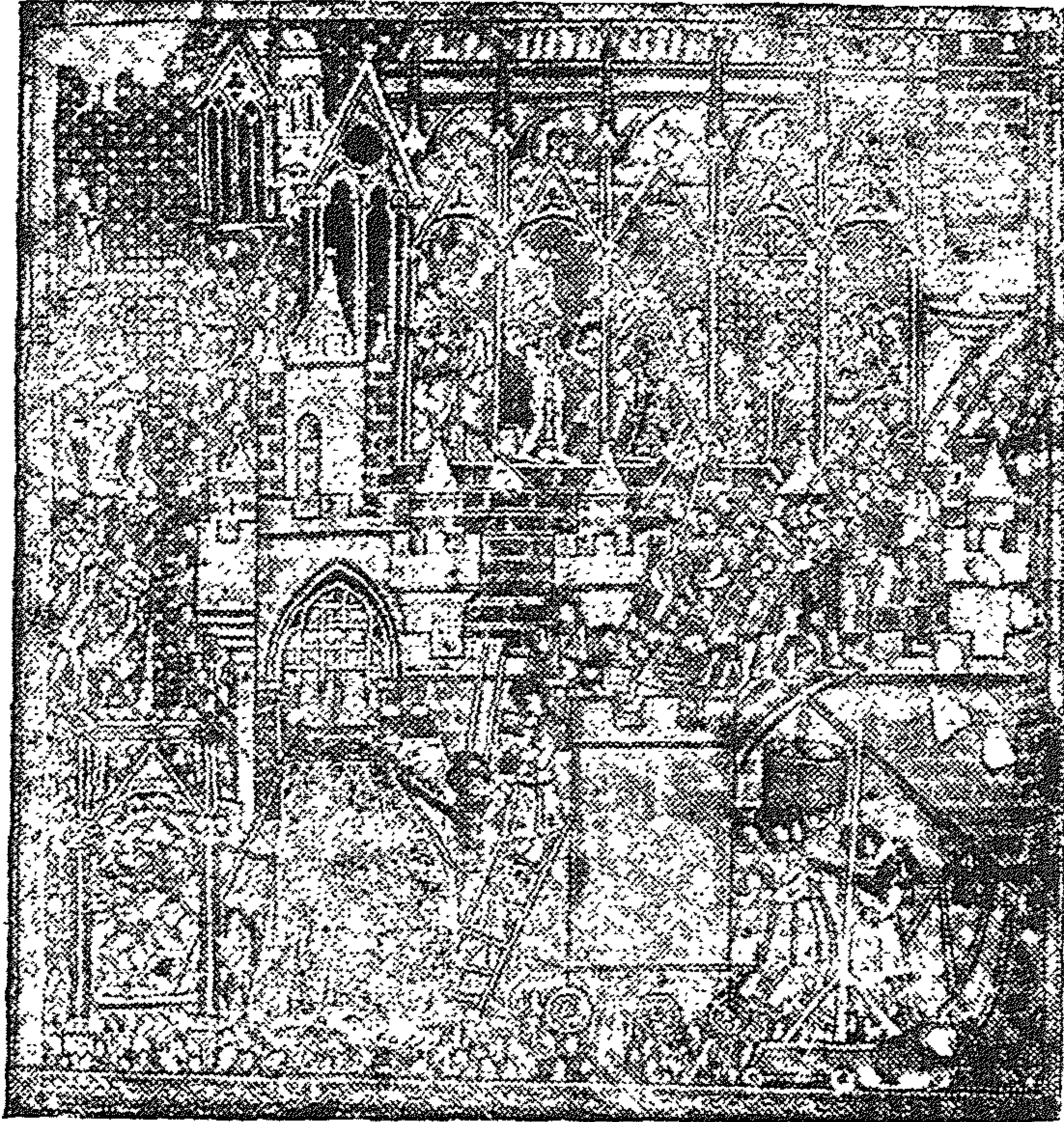
وتظهر في الصورة قبة الصخرة والمسجد الأقصى إلى اليسار ،
وكنيسة القيامة خلف قبة الصخرة إلى اليمين

وكان هذا أمراً طبيعياً . فكما كانت القدس من الأماكن المقدسة عند
المسيحيين ، كذلك كانت تعتبر من الأماكن المقدسة عند المسلمين حيث أسرى
الله برسوله ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . وأخذ الفرنج يشتدون
في قتال المدينة إلى أن وجدوا منفذاً في ناحية منها لم يهتم العرب بتحصينها ،
فدخلوا منه بجيوشهم وخيلهم ، وأخذوا يتعقبون الأهالي الآمنين الذين وجدوا
أنفسهم وقد أحاط بهم العدو الماكر من كل جانب ، فاجأوا إلى قبة الصخرة
والمسجد الأقصى للاختصام بهما ، إيماناً صادقاً منهم أنهم سيجدون فيها أمناً
وسلاماً من بطش الفرنج وغدرهم ، وأنه مهما بلغ تعطش أولئك القوم لسفك
الدماء ، فلن يجرؤا على اقتحام الأماكن المقدسة وإتيان المنكر فيها . ولكن
الفرنج لم يراعوا حرمة بيوت الله ، وأخذوا يعملون فيهم سيوفهم دون رحمة
أو هوادة ودون مراعاة لعامل السن أو الجنس ، حتى سالت الدماء أنهاراً وخاض
فيها الغزاة إلى ركبهم (١) .

ولم يكتف المغيرون بذلك ، بل كشفوا عن تعصبهم وحقدهم على العروبة
والعرب في موقفهم من بيوت الله ، عندما حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة لاتينية
سموها « معبد السيد » ، *Templum Domini* ، كما استخدموا المسجد الأقصى
لمصلحتهم ، وأطلقوا عليه اسم « معبد سليمان » ، *Templum Solomonis* .
وقسموه إلى ثلاثة أقسام ، فجعلوا القسم الأول كنيسة والثاني مسكناً للفرسان
الداوية والقسم الأخير مستودعاً ل ذخائرهم . ثم اتخذوا بعد ذلك السرايب التي
تحت المسجد اسطبلات لحيواناتهم . وهذا يكشف في ذات الوقت عن أحد دوافع

Raimond d'Agiles, 291 sqq., Albert d'Aix, 470 sqq., cf. (١)
Lane-Poole, Hist. of Egypt, 164. - أنظر أيضاً ابن القلانسي: القيل ، ص ١٣٦
وما بعدها . وتناول الدكتور حسن حبشي تفاصيل استيلاء الفرنج على القدس في كتابه :
الحملة الصليبية الأولى ، ص ٨١ وما بعدها .

لوحة رقم ٤



امتلاء الصليبيين على بيت المقدس

الحركة الصليبية ، وهو العمل على جعل العالم العربي أرضاً لاتينية قديماً بالكاثوليكية على مذهب روما ، والقضاء على الإسلام وثقافته من المنطقة ، وعلى المسيحية الشرقية وديانتها الأرثوذكسية (١) .

تلك هي وحشية الأوروبيين التي تميزت بها أعمالهم واعتبرت وصمة عار في جبين المسيحية الغربية . وهي وحشية تحدث عنها الكتاب الغربيون الذين عاصروا أحداث تلك الحركة وكانوا شهود عيان لها ، أمثال ريمون داجيل وفوشيه ديه شارتير ووليم الصوري ، وهنهم قتل المحدثون مثل جروسيه ورانسيان وغيرهما من المتخصصين في تاريخ الحركة الصليبية . فكانوا إذا ما حلوا ببلد عربي يأتون على الأخضر واليابس ، ويقتربون الفحشاء ، ويسيلون السماء أنهاراً ، ويرتكبون من الجرائم البشعة ما تقشعر من هول الأبدان وتشمئز من ذكره النفوس . كما كانوا في حملاتهم لا يفرقون بين المحاربين والنساء والشيخ والاطفال . فالكل عندهم سواء ، يقتلون وينهبون من يصادفونه منهم ، ويعيشون فساداً في القرى والبلد التي يحلون بها . ثم يقومون بعد ذلك بصبح الجهات التي يقتصبونها ويؤسسون إمارات لهم بها بصبغة لاتينية كاثوليكية بحثة ، بعد أن يزيلوا منها الشعائر الإسلامية والمسيحية الشرقية (٢) . ولا شك

(١) أنظر عارف باشا العارف : تاريخ القدس ، ص ٧١ - ٧٢ و ٧٤ . وجدير بالذكر أن هذه كانت نفس السياسة التي ساروا عليها عندما أغاروا على الديار المصرية في حملتي جان ديه برين ولويس التاسع ؛ إذ أحالوا مسجد دمياط إلى كنيسة لاتينية وعملوا على تثبيت شعائرم وطقوسهم بالمدينة . أنظر : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، لوحة ١٨٧ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٨ ؛ ابن الوردي : تكملة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٣٧ . راجع أيضاً :

Joinville, (ed. Wailly), 98; Rothelin, R. H. C.-H. Occ., II, 594.

(٢) من المراجع العربية التي تحدثت عن وحشية العدوان الصليبي في الشرق العربي يجب أن نذكر المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٢ ؛ ابن العباد : سفريات القهب ، ج ٥ ، ص ٥٥ .

أنهم وجدوا في ضعف العرب وانقسامهم في بداية العدوان الصليبي فرصة ذهبية لارتكاب تلك الشرور والآثام .

وهكذا انتهى الأمر باستسلام المدينة المقدسة ووقوعها في قبضة الغربيين في منتصف يوليو من عام ١٠٩٩ (١) . وبذلك تتحقق لهم أحلام كانت تداعب خيالهم في يوم ما ، ويؤسسون مملكتهم الصليبية في تلك الأرض العربية ، ويجعلون على رأسها أحد زعمائهم وهو جودفري دوق النورين السفلى الذي قسمها إلى إمارات إقطاعية (٢) وزعها بين زملائه ، وكأنها تركة آبائهم وأجدادهم يتقاسمون فيها بينهم ، وليست أرضاً عربية اغتصبوها من أهلها مستغلين في ذلك فرصة تفككهم وانقسامهم . وفي ذلك يقول مارشال بلدوين انه هلى ضوء تجارب الغرب المعروفة في التوسع والاستعمار ، يمكن اعتبار الإمارات

ص ٦٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٨٣-٨٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٨ و ١٢٩ ؛ ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٣٧ . راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ١٥ - ١٩ .

(١) يذكر ابن القلانسي (الذيل ، ص ١٣٧) أن العساكر المصرية بقيادة الأفضل قامت لتجدة المدينة ولكن بعد فوات الوقت . فنزل الأفضل بظاهر هسقلان انتظارا لوصول الأسطول المصري في البحر . وقد انتهز الفرنج هذه الفرصة ، فهاجموا عليه وهم في نشوة التصارم والحقوا به الهزيمة ، وأعملوا سيوفهم في القوات العربية . ويقال إن عدد القتلى من الفرسان والمتطوعة بلغ زهاء خمسة آلاف نفس ، وكان ذلك في ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ . أنظر أيضا أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٩ .

(٢) يذكر الاستاذ كوبلاند انه لم تكن توجد حكومة القطاعية نموذجية في دولة من الدول الأوروبية في العصور الوسطى نظرا لاختلاف ظروف هذه الدول ، وأتينا لانجد مثالا نموذجيا للحكم القطاعي إلا مملكة الأورويون معهم من بلادهم إلى الشرق أيام الحروب الصليبية ، حيث أسسوا مملكتهم في أرض أجنبية عنهم وعلى نط قطاعي أوروبي الذي لم يكونوا يفهمون نظاما غيره للحكم . أنظر كوبلاند : الاقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا ، ص ٢٤ (ترجمة الدكتور زيادة) .

الصليبية التي تم تأسيسها في شرق البحر الأبيض المتوسط هي الفصل الأول في تاريخ أوروبا الطويل فيما وراء البحار (١) .

يتضح مما سبق أن الدور الأول من الحركة الصليبية قد تميز برجحان كفة الصليبيين الغزاة على العرب أصحاب البلاد . ويمكن تحديد هذا الدور زمنياً ببداية الحرب الصليبية الأولى وتحقيق هدفها بتأسيس المستعمرات اللاتينية الأربع في الأراضي المقدسة ، وما أعقب ذلك من الاستيلاء على بعض المعاقل والقلاع والمدن الساحلية بالشام في السنوات القليلة التي تلت قيام هذه الحرب (٢) . وقد تم هذا في وقت كان فيه الشرق العربي منقسماً على نفسه ، مما أعجزه عن مواجهة العدوان الغربي ، وبما هيا لللاتين فرصة تحقيق اتجاهااتهم الاستعمارية في هذه المنطقة من العالم باسم الدين وتحت قناعه (٣) .

وليس من المسير أن ندرك أن أهل الغرب كانوا يعلمون تماماً ، ومنذ اللحظة الأولى ، أنه بوسع العرب في مصر والشام وشمال العراق ، إذا اتحدت جهودهم واتفقت كلمتهم وتكثرت قواهم في صدق وإخلاص ، أن يدفعوا عنهم الخطر

(١) Baldwin, Med. Church, 103.

(٢) جدير بالذكر في هذا المقام أن المؤرخ رينيه جروسبه قسم الحروب الصليبية إلى ثلاثة أدوار رئيسية ، وهي التي جعلها أساساً لمؤلفه الكبير وكتابه المختصر عن تلك الحروب. الدور الأول وهو الذي رجعت فيه كفة الصليبيين على العرب ، والدور الثاني وهو فترة التوازن بين الفريقين المتحاربين ، والدور الثالث والأخير وهو دور اختصار العرب على الصليبيين الذي انتهى بطردهم من الأراضي المقدسة باستغلال عكا من قبضتهم سنة ١٢٩١. أنظر قد الدكتور عزيز سوريال عطيه مؤلف جروسبه الكبير في تاريخ الحروب الصليبية في المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الأول ، ص ٣١٦ - ٣٢٧ .

(٣) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ، ص ٦٠ وما بعدها . أنظر أيضاً كتاب :

Mahmud, Story of Islam, 134.

الصليبي ، وأن يعملوا على القضاء على الفرنج بشق الطرق والوسائل . ثم أن العرب أنفسهم لم ينسوا بعد أن ما أحرزه أولئك الدخلاء من نجاح سريع في بداية حركتهم العدوانية ، إنما كان بسبب ضعف القوى العربية واتقسامها . وأنهم كلما اتحدوا كلما كان ذلك بشيراً بحركة بعث عربي ووثبة مباركة وانتفاضة عملاقة تعقبها حملات مضادة على الغزاة وإماراتهم في الشرق . ففي اتحادهم وقوتهم قضاء على اللاتين المعتدين وعلى كل أثر لهم ، وفي ضعفهم واتقسامهم خذلان لهم وتمكين لنفوذ أهدائهم في المنطقة (١) . وليس أدل على ذلك من أن الفتوحات العربية شرقاً وغرباً في القرن السابع ما كانت لتتم لولا اتحاد العرب واثفاق كلمتهم على صعيد واحد ، في وقت نزل فيه القرآن الكريم بالوحى على رسول الله يدعو فيه العرب جميعاً إلى الاتحاد والتآلف والمحبة ونبذ الفرقة والخلاف . وقد أكدت الانتصارات العربية الحاسمة في القرنين الثامن والتاسع أنه بوسع العرب إذا اتحدوا أن يأتوا بالمعجزات . ففي خلال هذه الفترة القصيرة من عمر الزمن ، تمكنوا من امتلاك بلاد الشام وشرق آسيا الصغرى ومصر وشمال أفريقيا ، وأصبحت قواتهم على أبواب القسطنطينية عاصمة دولة الروم الشرقية التي باتت عاجزة تماماً عن الوقوف أمام هذا التقدم . كما استولى العرب على بعض الجزر في البحر المتوسط ومن أهمها قبرص ورودرس . هذا في الجبهة الشرقية ، أما في الجبهة الغربية فقد امتدت الفتوحات العربية حتى أسبانيا ،

(١) جوزيف نسيم يوسف : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ، ص ٢٣ - ٢٤ ، ولويس التاسع في الفرق الأوسط ، ص ١٦٧ وما بعدها . وقد تناولت هذه الفكرة بالدراسة في كتابي « لويس التاسع في الفرق الأوسط » ، وبخاصة في الفصلين الثالث والرابع ، ص ١١٦ - ٢٠٣ ، عندما أشرت إلى المحاولات المتكررة التي قام بها الملك الفرنسي لويس التاسع لتحقيق الاطماع الصليبية في الشرق ، مستغلاً في ذلك اتقسام العرب ومنازعاتهم الطارئة وقتذاك ، وكيف أن العرب عندما اتحدوا تمكنوا من توجيه الضربة القاسية إلى قلب القوى الصليبية في المنطقة .

ومنها عبروا جبال البرانس ووصلوا إلى فرنسا نفسها ، وإن لم تساعد الظروف على بقائهم هناك . كما استولوا على جزيرة كريت ووقعت صقلية وجنوب إيطاليا في قبضتهم . (١)

ولعل من أهم نتائج قيام الدولة العربية الفتية وحركة الفتح في الجبهتين الشرقية والغربية ، ما أكده المؤرخون ، القدامى والمحدثون ، من أن البحر الأبيض المتوسط الذي كان فيما مضى بحراً رومانياً غريباً ، أصبح الآن بحراً عربياً تنتشر على طول شواطئه مدن وبلدان عربية ذات حضارة عربية وتتكلم اللسان العربي (٢) .

ولكن الموقف تغير عندما بدأ الضعف يدب في أوصال هذا العالم العربي الكبير . وكانت انتصارات الروم في القرن العاشر أيام الأسرة المقدونية على حساب ضعف القوى العربية عندما دب الانحلال السياسي في كيان الدولة العباسية وقتذاك . وهذا ما يمكن أن يقال أيضا بالنسبة لانتصارات أهل الغرب في الحملة الصليبية الأولى في ختام القرن الحادى عشر . إذ أقبلوا في تحقيق أطماعهم ، وتأسيس مستعمرات لهم في الشرق لتكون شوكة في جنبات الدول العربية ، وكان ذلك أيضا على حساب العالم العربي ، الأمر الذى سهل على الغزاة مهمتهم في بلاد غربية عنهم ، وفي أرض غير أروضهم وملك غير ملكهم . فقد انصرف الحكم العرب والسلاجقة بسبب الانقسام والمنازعات والحروب التى قامت بينهم ، وحالة الضعف التى استشرت في أوصالهم ، عن الجهاد ضد الغزاة القادمين من الغرب

(١) أنظر ماسبق ، ص ٧٧ ح ١ و ١٤١-١٤٢ من هذا الكتاب .

(٢) أنظر من ذلك : Pirenne, Economic and Social Hist. of Med. Europe, 2-3; idem, Med. Cities 15-16.

راجع أيضا كتابي : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ١ - ٥ .

ووقف تيارهم الجارف (١) .

وغير خاف أنه لو كان قد قدر للقوى العربية الاتحاد عند قيام الحملة الصليبية الأولى ، لما تمسكن اللاتين إطلاقاً من إحراز أى نصر عسكري أو سياسى فى الشرق العربى ، ولقضى العرب عليهم قبل أن يصلوا إلى فلسطين ويؤسسوا مستعمراتهم بها . ولو قدر لهم الاتحاد عندما حل الصليبيون بأراضيهم ، ونسوا ما بينهم من خلافات ، وغلبوا الصالح العربى العام على المصالح الشخصية ، لما أتاحوا للدخلاء فرصة العمل على تثبيت دعائم دولتهم ، ولا استطاعوا أن يحفظوا فلسطين من عبث الطارق الدخيل .

ومع ذلك فبالرغم من النجاح المصطنع السريع الذى حققه الفرنج خلال سنوات قلائل نتيجة لظروف طارئة تتعلق بالمنطقة ، فالتنا نلس بوضوح أن كيانهم بالشرق بدأ متداعياً متهاكاً منهاراً . ذلك أن دولتهم ولدت ضعيفة هزيلة لا تقوى على الوقوف على قدميها ، ولا تتوافر فيها مقومات الدول والحكومات التشريعية ، وكانت عوامل الضعف تنخر كالسوس فى مجتمعهم الصليبي منذ اليوم الأول ، نذكر منها ضآلة موارد المالية ، وقلة المحاربين الذين كانوا تحت إمرتهم ، وتضارب مصالحهم وتباين مشاربهم ، واختلاف أجناسهم ، وانحلالهم الخلقي ، وفتور الحماس الدينى عذم بشكل ملحوظ . فضلاً عن الخلافات المستمرة بين الفرنج الجدد الوافدين من الغرب والفرنج القدامى المستوطنين فى الشرق ،

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤-١٣٥ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ،

ج ٢ ، ص ١٦-١٧ . وفي هذا المعنى يقول الكاتب الفرنسى دانيال رويس :

• La désunion de l'Islam devait aider grandement l'entreprise chrétienne. » cf. Daniel—Rops, La Cathédrale et la Croisade, 543.

أظن أيضاً : باركر : الحروب الصليبية ، ص ٣٨ (الفرجة العربية) .

حول المصالح الذاتية وامتلاك الأراضى (١). وأخيرا شعورهم بأنهم يعيشون بين أصحاب البلاد الأصليين الذين يتطلعون إلى اليوم الذى تتحد فيه صفوفهم توطئة لتوجيه ضربتهم القاضية واسترداد أراضيهم المسلوبة .

وكان يقابل ذلك من الجانب الآخر إحساس العرب بالعدو الجاثم المهدق بهم ، وشعورهم أن وجود إمارات اللاتين بين ظهرانهم كان يشكل خطرا جسيما يجب عليهم القضاء عليه قبل أن يستفحل ويسرى في بقية أجزاء الوطن العربى ، الأمر الذى أدى إلى ظهور بوادر البعث العربى ضد اللاتين الغرباء اعتبارا من السنوات الأولى من القرن الثانى عشر (٢) . وعلى هذا يمكن القول بأن الضعف الذى انتاب العالم العربى فى أخريات القرن الحادى عشر ، كان هو نفسه مصدر يقظته وقوته فى القرن الثانى عشر . وشاءت الظروف السيئة ألا يظهر على المسرح العربى عند بداية العدوان زعيم يستطيع تكوين جبهة عربية قوية متحدة ضد أولئك القوم . وكان الفرنج يواجهون فى هذه الفترة المبكرة أمراء متفرقين متخاصمين حسبما أسلفنا . فاستغلوا هذه الظروف إلى أقصى حد ممكن ، وعملوا على الإيقاع بين الحكام العرب تمكيننا لنفوذهم (٣) .

(١) أنظر فشر : أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٨٣ و ١٨٥ .

(٢) تناول الدكتور حسن حبشى فى كتابه « نور الدين والصليبيون » ص ١٣ وما بعدها ، المراحل التى مرت بها حركة الإفاقة والتجمع العربى فى القرن الثانى عشر ، وأثرها فى تكوين جبهة قوية لمقاومة الفرنج الدخلاء وطردهم من أرض العروبة .

(٣) يذكر جروسى أن الصليبيين عندما بلغوا شمال الشام لم يترددوا لحظة واحدة فى التحالف مع الفاطميين بمصر ضد السلاجقة ، مستغلين الخلافات السياسية والمذهبية القائمة بينهما ، وبذلك يخلو لهم الجو لتحقيق مآربهم العدوانية . وهكذا بينما كان الأتراك مغولين مع الفرنج فى شمال الشام ، تمكن الفاطميون من استعادة بيت المقدس . ولكن ما أن استولى اللاتين على انطاكية وألحقوا الهزيمة بالتركان ، حتى انقلبوا على الفاطميين وانزحوا البيت المقدس منهم فى سنة ١٠٩٩ . أنظر عن ذلك مؤلف كل من رينيه جروسى وستانلى لين بول : =

ولكن العرب عندما استشعروا بهذا الخطر الدام المهدق بهم ، بادروا إلى توحيد صفوفهم ولم شملهم لمقاومة الفرنج وطردهم من ديارهم . وقد ظهرت بوادر هذا البعث بشكل عاص في مصر والشام وشمال العراق ، بظهور بعض القوى الإسلامية الفتية التي أخذت على عاتقها مهمة توحيد العرب لمقاومة الفرنج ودرء خطرهم (١) . وهنا بدأ اللاتين يحسون بالخطر المائل ، وأن مقامهم إلى زوال إن أجلا أو عاجلا (٢) ، وكانت دولتهم آنذاك في طور التدهور والانحلال (٣) . وأصبحت المسألة مسألة زمن فحسب .

كل هذا أوجد حالة من التوازن بين الفريقين : العرب أصحاب الديار والفرنج الدخلاء ، بحيث لم يتمكن أى منهما في هذا الدور الثاني من الكفاح من إحراز نصر حاسم على خصمه (٤) . وقد وجدت عدة ظروف ساعدت الغزاة في

Grousset, Sum of Hist., 174 - 5; Lane - Poole, Hist. of Egypt, 164.

وجدير بالذكر أن سياسة الإبقاء والتفريق بين العرب كانت سياسة عامة اتبها حكام مملكة بيت المقدس اللاتين كلما سنحت لهم الفرصة بذلك . ولكنها منيت بالفشل آخر الأمر بعد أن تكسفت أمرها ، وبعد أن تسكتل العرب لدفع العدوان عن ديارهم .

(١) أنظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨١ ؛ ابن الأثير : اتابكة الموصل (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية) ج ٢ قسم ٢ ، ص ٣٣ ؛ Albert d'Aix, R. H. C. - H. Occ., IV, 670; Matt. d'Edesse, R. H. C. - Doc. Arm., I, 91-4, 96-7.

(٢) ابن القلانسي : الذيل ، ص ٣٣٣ و ٣٣٩ - ٣٤٢ ؛ ابن الأثير : اتابكة الموصل ، ص ١٩٤ و ٢٠٧ و ٢١٩ - ٢٢٤ و ٢٣٣ - ٢٣٦ ؛ ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ٢١٩ ؛ راجع كذلك : Guillaume de Tyr, I, 2e. p., 895-7.

(٣) أنظر نظير سعادوى : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، ص ١٢ - ١٣ . وكذلك : Mahmud, Story of Islam, 136.

(٤) تناول جروسية بالدراسة المركزة الدور الذي تعادلت فيه كفة كل من العرب والصليبيين في كتابه المختصر عن الحروب الصليبية . أنظر :

Grousset, L'épopée des crois., 136-61.

أنظر أيضا كتابي : الوحدة وحركات البقطة العربية ، ص ٢١ - ٢٦ .

هذا الدور من المحافظة على كيانهم المتداعي ، منها سياسة بناء الاستحكامات والقلاع وتحصين المدن الساحلية ، واستغلالهم أى انقسام بين العرب والعمل على بذور الشقاق بينهم ، ثم قدوم مجندات أو جماعات من المجاج الأوروبيين المسلحين ، وإن كان ذلك بصفة غير منتظمة وبأعداد غير كافية . فضلا عن سياسة التزاوج التي درجوا عليها للربط بين مختلف الامارات اللاتينية المتنازعة ، والعمل على توحيد صفوفها قدر الاستطاعة . وأخيراً استعانة أوائك القوم بالجماعات الرهبانية العسكرية ، وبأساطيل الجاليات الإيطالية التجارية في الاستيلاء على الموانئ العربية بالساحل الشامى ، نظير اتفاقيات يتقاسم فيها الطرفان المكاسب والأسلاب . ولولا ذلك لانتهى الأمر في هذا الدور بتفوق العرب على الصليبيين الذين كانوا محاطين من الشمال والشرق والجنوب الغربي بقوات أعدائهم التي كانت تنتظر الفرصة المواتية للقيام بدورها الإيجابي في المنطقة . وقد انحصر أفرنج الشام في شريط ضيق على الحوض الشرقى للبحر المتوسط^(١) ، وباتوا يعلمون جيدا أنهم هالكون لا محالة . ولم يكن أمامهم إلا أحد أمرين كلاهما مر . إما أن ينجوا بحياتهم عن طريق البحر عائدين إلى بلادهم ، وإما أن يقذفوا في البحر بواسطة قوات أعدائهم القوية المتربصة لهم وفي الوقت المناسب .

هذا عن اللاتين ، أما العرب فلم يكن أمامهم في هذه المرحلة من الكفاح سوى طريقين لا ثالث لهما . إما أن يسدوا على اللاتين الطريق الساحلى شرقى البحر المتوسط ، ولم يكن هذا بالأمر المستطاع وقتذاك ، نظرا للقلاع والموانئ التي كان العدو يتحصن بها على طول الساحل . وحتى إحراز النصر النهائي عن هذا الطريق لم يكن مضمون النتائج بسبب الظروف التي شرحناها . فضلا عن الخوف

من حدوث نكسات أو ثغرات في الداخل قد ينفذ منها العدو ، وبذلك يفوت الفرصة على الشعوب العربية في طرده من ديارها ، أو على الأقل تأخير إتمام هذه العملية . أما الحل الثاني فهو أن يبادر العرب بتكوين جبهة متحدة متماسكة من أقصى الشمال في الشام والعراق إلى أقصى الجنوب في مصر ، بحيث تطبق على دولة الغزاة من جميع الجبهات ، وتدفعها بقوة وعنق نحو البحر حتى تنكش وتنقلص شيئاً فشيئاً إلى أن ينتهي الأمر بزوالها . وهذا ما حدث بالفعل في الدور الثالث والآخر من هذه الحروب .

وفي هذا الدور برزت أسماء إسلامية لامعة مثل عماد الدين زنكي ، وابنه نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي مؤسس أسرة الأيوبيين بمصر ، والذي تمكن من تكتيل الصفوف والعمل على نبذ الفرقة والانقسام لتحل محلهما عوامل القوة والمنعة^(١) . وانتهى الأمر بتوحيد الجبهة العربية المفككة بالشرق الأوسط من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، من العراق إلى القاهرة ، ومن الفرات إلى النيل ، في دولة عربية واحدة مسموعة الكلمة مرهوبة الجانب يعمل لها العدو الدخيل ألف حساب . وقد أمكنها في فترة قصيرة تطويق ممتلكات اللاتين بعد أن قضت على كل أمل لهم في الامتداد والتوسع^(٢) . وبعد أن اطمأن صلاح الدين

(١) من المصادر العربية الهامة عن جهاد هؤلاء الزعماء المسلمين الثلاثة في سبيل توحيد الجبهة العربية توطئة لتوجيه الفريعات الأخيرة ضد المستعمرين نذكر ابن العديم : تاريخ حلب (مجموعة الحروب الصليبية - المؤرخون الفرقيون ، ج ٣ ، ص ٦٥٨) ؛ ابن الأثير : انباكة الموصل (نفس المجموعة السابقة ، ج ٢ قسم ٢ ، ص ٦١ - ٦٥ و ١١٨ - ١٢٥) ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٢ و ٣٤ و ٣٦ - ٣٧ . ومن المراجع الحديثة انظر كتاب : الباز العريق : مصر في عصر الأيوبيين ، ص ١٤ ومابعدها ؛ جمال الدين الفيال : تاريخ مصر الإسلامية - ج ٢ (الاسكندرية ١٩٦٧) ، ص ١٢ - ٢٠ ، ٦٣ - ٧٨ .

Baldwin, Med.Church, 104; Grousset, Sum of Hist., 176, (٢)
179-80; Lewis, Arabs in Hist., 152-3.

إلى سلامة الكيان العربي الواحد ، قام بجهاذه المعروف ضد الفرنج الغزاة الذي انتهى بهزيمتهم شر هزيمة في موقعة حطين سنة ١١٨٧ م ، وطردهم من البيت المقدس في أكتوبر من نفس العام ليعود إلى أهله وأصحابه . وبذلك كان قد تحدد بصفة نهائية مصير دولة اللاتين التي خلقوها في قلب العالم العربي ، واعتدل ميزان القوى في المنطقة لصالح العرب . وترك لخلفاء صلاح الدين من الأيوبيين والمماليك ، توارثهم القوى الشعبية المتفجرة في المنطقة ، مهمة إتمام هذا الجهاد المقدس ، إلى أن انتهى الأمر بطرد الفرنج من أرض العروبة في آخريات القرن الثالث عشر ، عندما استرد السلطان الأشرف خليل آخر معاقلهم الحصينة بالساحل الشامى وهى عكا في سنة ١٢٩١ م . وبقيت بعد ذلك بضعة معاقل ساحلية سقطت في قبضة العرب تباعا في نفس العام (١) . وكانت محاولات الأوروبيين إحياء الروح الصليبية البغيضة في القرن الرابع عشر مجرد فكرة هزيلة عفا عليها الزمن ، ولم يقدر لها النجاح بعد أن شهد العالم بشقيه تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية خطيرة ، كان لها أثرها في سير مجرى الأحداث .

وبتدهور سلطان الكنيسة والبابوية في الغرب في آخريات العصور الوسطى ، وظهور عصر النهضة ، أدرك الأوروبيون أن الفكرة الصليبية بمعناها المألوف لم تعد تصلح قناعا لإخفاء أطماعهم القديمة في العالم العربي ، بل أصبحت مجرد ذكرى لماض بغيض . وأخذ العالم يتجه نحو مثل ومبادئ مغايرة لما كان معروفا في العصور الوسطى . وأخذت صجلة التاريخ تشق طريقها في سرعة مذهلة وسط أحداث وتقلبات هامة شهدتها عصرنا الحديث . وقامت حربان عالميتان قلبتا الأوضاع وميزان القوى في العالم رأسا على عقب . وظلت أطماع أهل الغرب

(١) فيما يتعلق بجهاد المماليك ضد الصليبيين وتأثيره ، أنظر : سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٥١ - ٦٩ ؛ جمال الدين الشبال : تاريخ مصر الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٠١ وما بعدها و ٢٣٥ وما بعدها .



اللاتيني في منطقتنا كما هي دون تغيير ، بالرغم من التغير الجوهرى الذى طرأ على كافة الظروف من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وعسكرية وغيرها. لم تزل الاطماع الاستعمارية ولم تتغير ، وإنما الشيء الوحيد الذى زال هو الرداء الذى ألبسوه هذه الاطماع . فبعد أن كان رداء صليبياً فى عصر يقبل مثل هذه الأوضاع ولا يفهم شيئاً سواها ، خلع اليوم رداءه ، وكشف عن حقيقة البغيضة التى لا سند لها إلا الظلم والطغيان .

كما سبق يمكن أن نستخلص عدة حقائق هامة تتعلق بدور الشعب العربى فى صد المستعمرين الأورويين أيام الحروب الصليبية . (١) وأولها أن مصر كانت خلال الكفاح الدامى المرير عبر القرون المتعاقبة ، قلب العروبة النابض بالحياة ، ومقلها المنيع ، ومركز إمدادها بالرجال والمال والميرة والسلاح (٢) . ومنها كانت تنبعث دائماً صيحة الجهاد الحقنة ضد الغزاة الصليبيين ومن أتى بعدهم (٣) . كما تحمل شعبها وحده العبء الأكبر فى مواجهة الحملات الصليبية وصدّها . وكما شهد الجامع الأزهر من خطب كانت تلقى من فوق منبره أمام الآلاف المؤلفة من أبناء الشعب العربى الذين قامت على أكتافهم مهمة الحفاظ على أرض العروبة من أطماع الطامعين والنمازين للفرص . لقد حملت مصر فى صدق وإخلاص لواء

(١) تعرضت فى كتابى « الوحدة وحركات اليقظة العربية لإبان العدوان الصليبي » ص ٤٥ - ٦٤ ، لأهم الآراء والاستنتاجات التى يمكن استخلاصها من العدوان الصليبي على العالم العربى والدروس المستفادة منه ، وذلك فى شئ من التفصيل والتعليل .

(٢) أنظر عن ذلك جمال الدين الشيال : مجل تاريخ دمياط (الاسكندرية ١٩٤٩) ، ص ٧٠ ؛ St. Lane-Poole, A Hist. of Egypt in the Middle Ages, 218; idem, The Story of Cairo, 193.

(٣) حول الجهاد المقدس ضد الصليبيين الغزاة ، وفضائل بيت المقدس والحام ، أنظر ص ٩٤-٩٦ والحواشى من هذا الكتاب .

الزعامة ، وإليها بلا شك يرجع الفضل الأول في تكتيل القوى العربية وإجلاء الفرنج الدخلاء عن العالم العربي (١) . وهي وإن كانت قد حملت هذا اللواء في الماضي أيام الفرنج والمغول وغيرهما من الغزاة ، فلا زالت تحمله عن جدارة واستحقاق حتى اليوم ممثلة في جمهوريتنا العربية الفتية .

وإن الحديث عن الوثبات العربية ودور مصر الإيجابي فيها إبان العدوان الصليبي، يقودنا إلى مسألة جوهرية بالغة الأهمية تؤكد لنا الأحداث التي تعرضت لها المنطقة ، وهي أن فكرة توحيد الجبهة العربية في كيان متكامل غير منقسم ووحدة واحدة لا تتجزأ ، تعتبر مرحلة هامة أساسية من مراحل جهاد العروبة ضد الدخلاء . ذلك أن الوطن العربي عندما كان منقسماً على نفسه ، لم يكن بوسعها إطلاقاً الوقوف في وجه الغزاة الصليبيين ، أو إحراز أى نصر حاسم عليهم . وإن كل الحملات التي قامت ضد المغيرين كانت حملات ضعيفة لم يقدر لها النجاح بسبب الخلف والانشقاقات . وكان أعداؤه يعلمون ذلك تمام العلم ، ويستغلون سياسة الفرقة والتمزيق لتحقيق مآربهم . ولكن عندما تكتل العرب ، كان بوسعهم مواجهة خصومهم صفاً واحداً وجيشاً واحداً ، وأخيراً وطناً كبيراً واحداً . وكانت هذه خطوة أولى في طريق النصر على العدو الرابض في فلسطين . وهذه ظاهرة دورية عامة في تاريخ العروبة والعرب منذ القدم وحتى يومنا هذا . وقد رأينا شواهد لها في العصور الوسطى عقب حركة الفتح وفي أيام صلاح الدين . أما اليوم فإننا نعيش فعلاً في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا . وقد أثبتت الأحداث أنه ضماناً للنصر الحاسم الأكيد ، يجب أن تسبق عملية الجهاد الأكبر عملية لا تقل عنها خطراً وشأناً ، ألا وهي عملية توحيد الجبهة

(١) أنظر ص ٤٢-٤٣ من كتاب فلسفة الثورة للرئيس جمال عبد الناصر؛ راجع أيضاً: Lewis, Arabs in Hist., 153.

العربية . فهي مرحلة أولى ضرورية من مراحل هذا الجهاد المقدس (١) .

أما الحقيقة الثالثة التي نود الإشارة إليها ، فهي أن الازمات التي تعرض لها الوطن العربي أيام العدوان الصليبي ، أوضحت بما لا يدع مجالا للشك أن الشعوب العربية لم تكن بمعزل عن تلك الأحداث . فقد أثبتت وعياً كبيراً وفهماً عميقاً لمجريات الأمور والأحوال ، وأكدت وجودها وعروبتها حتى في أوقات الضعف والتفكك . والمصادر العربية والافرنجية غنية بالأمثلة الدالة على ذلك . فعندما كان اللاتين الدخلاء يهاجمون إحدى الدول العربية ، كانت الشعوب العربية تهب من كل مكان للانتقام منهم والإغارة على ممتلكاتهم . ونلس هذا بوضوح في شتى مراحل الحركة الصليبية . ولنضرب مثلاً بالحملة الصليبية السابعة . فعندما هاجم لويس التاسع ملك فرنسا مدينة دمياط واستولى عليها ، بادر الشعب السوري بالهجوم على معاقل اللاتين المتبقية لهم بالساحل الشامى ، وذلك بقصد مضايقتهم ومحاولة صرفهم عما هم قادمون عليه (٢) . وكان هذا هو نفس ما يحدث عندما تتعرض بلاد الشام لعدوان غربي ، فيبادر إخوانهم في الجنوب إلى مساندتهم ضد العدو المشترك . وللمقاومة الشعبية دور مجيد في دفع الخطر الغربي عن الوطن العربي . نذكر منها موقف أهالي المنصورة من حملة لويس التاسع (٣) ،

(١) أوضح المؤرخ وليم ستيفنسون أن السياسة العامة التي سار عليها الزعماء والحكام العرب إبان العدوان الصليبي ، هي الامتناع قدر الاستطاعة عن مهاجمة الإمارات اللاتينية بالشرق ، أو المغامرة في حرب خطيرة مع اللاتين في الوقت الذي كانوا يؤسسون فيه دولتهم . انظر : Stevenson, Crusaders in the East, 723-4.

(٢) انظر ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، لوحة ٣٥٧ ب ؛ القرينى : السلوك ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٣٢٧ ؛ وكذلك كتابي : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ، ص ٢٣ وما بعدها .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، لوحة ٣٦٦ ا ؛ القرينى : السلوك ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٣٥٠ ؛ انظر كذلك :

Joinville, (ed. Wailly), 120; Rothelin, R. H. C.-H. Occ., II, 605.

وموقف أهل الشام من الحملات التي تعرضت لها بلادهم . كذلك وجد ارتباط روحى وثيق بين أهل المشرق والمغرب ، فبينما كان الأولون يجاهدون ضد الفرنج فى شرقى البحر المتوسط ، كان إخوانهم المغاربة يجاهدون هم أيضا ضد الأوربيين فى غربى ذلك البحر (١) . فكل هذا يعبر عن وحدة متينة ربطت بين العرب جميعا من المحيط إلى الخليج ضد العدو المشترك .

وثمة مسألة أخرى ترتبط بسابقتها وتتعلق بفكرة القومية العربية التى هى أساس الوحدة العربية الشاملة ، وعما إذا كانت مثل هذه الهزات العنيفة التى كان العالم العربى يتعرض لها من حين لآخر هى السبب فى خلقها ، أم كانت هذه الهزات مجرد عامل ساعد على إيقاظها وبعثها من مرقدتها . لقد تناول هذه المسألة بالبحث بعض الكتاب المحدثين ، نذكر منهم جوستاف فون جرونباوم الألمانى Gustave von Grunebaum (٢) ، وكلود كاهن الفرنسى Claude Cahen (٣) . وخلاصة أقوالها أن الخطر الصليبي لم يكن الدافع الأساسى لحركة الوحدة العربية التى يمكن إرجاع أصولها إلى ما قبل قيام الحركة الصليبية نفسها بفترة طويلة . كما ذكرنا أن الاستعمار الغربى لم يهدد إطلاقا قلب العالم العربى ، ولم يستطع بالرغم من كل شيء أن ينفذ إلى صميمه ويستقر فيه . ولكن العالمين المذكورين لم يوضحا لنا صراحة أصول الوحدة العربية وجذورهما العميقة .

(١) انظر سعد زغلول : العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب ، ص ٨٤ وما يليها ، وكذلك كتابى « الوحدة وحركات اليقظة العربية » ، ص ٦٠ - ٦١ والحواشى ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وإثارهم فى الأندلس ، ص ٢٨٩ - ٢٩١ و ٣٣١ - ٣٣٢ ، والمغرب الكبير - ج ٢ (مصر الاسلامى) ، ص ٧١٨ - ٧٣٨ و ٧٩٨ - ٨٠١ و ٨٠٥ - ٨١٥ و ٨١٩ - ٨٢٨ .

(٢) انظر : جرونباوم : حضارة الاسلام ، ص ٥٠ و ٥٢ (الترجمة العربية) .

(٣) Cahen, La Syrie du Nord, 374-7. انظر عن ذلك أيضا كتاب

الدكتور عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ١٤١ - ١٤٣ .

رهما وإن لم يبتأ برأى نهائى قاطع فى هذه المسألة ، إلا أن أحدث البحوث التاريخية والأثرية التى قام بها أستاذنا الكبير الدكتور أحمد فكرى فى كل من المدخل والجزء الأول من موسوعته ، مساجد القاهرة ومدارسها ، أثبتت وجود نظرية الوحدة العربية منذ أن وجد العرب ، وذلك فى ناحية هامة من نواحي الحضارة العربية ، ونعنى بها الفنون التى تعتبر مرآة صادقة تنعكس عليها آمال الشعوب ومثلهم ومبادئهم وأفكارهم ومنهجهم فى الحياة (١) . وإذا تتبعنا هذه النظرية فى شتى مناحى الحضارة والحياة عند العرب من المحيط إلى الخليج ، نجد أنها نظرية أصيلة متأصلة ، تعبر عن وحدة عضوية شاملة كاملة ، ثابتة متمكنة ، راسخة الدعائم ، متينة البنيان . وحدة لها أصولها وجذورها وعناصرها منذ أقدم عصور التاريخ . وحدة فى اللغة وفى الأصل وفى الجنس وفى الأرض وفى التاريخ ، فضلا عن وحدة فى التقاليد والعادات والثقافة والفكر والنظم الاجتماعية والتراث الحضارى العريق (٢) . وحدة كانت تبعثها وتوقظها من غفوتها أحداث الزمان

(١) أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ، ص ٤٣ - ٤٩ ؛ مساجد القاهرة ومدارسها - ج ١ (العصر الفاطمى) ، ص ٢١٠ - وقد أكد الدكتور فكرى هذه النظرية فى أكثر من موضع فى الكتاتين .

(٢) من حسن الحظ أن المكتبة العربية أصبحت الآن عامرة بمصنفات الكتب العربية والمحررة التى تناول فكرة القومية والوحدة العربية بالدراسة الجادة والبحث العميق ، مع بيان عناصر هذه الوحدة وتتبع أصولها وجذورها . منذ أقدم عصور التاريخ حتى يومنا هذا . انظر : الحروبولى : القومية العربية ، ص ٢٠ وما بعدها ، ص ١١٨ وما بعدها . ويعدد اللواء أ . ح محمد فوزى والاستاذ محمود حافظ فى كتابهما : القومية العربية ، ص ٣٣ و ٣٤ و ٩٠ و ١١٢ و ١٣١ عناصر القومية فى الأمة العربية ، ومى وحدة اللغة ، والأصل ، والدين ، والتاريخ ، والوحدة الجغرافية ، مما جعل الأمم العربية وحدة واحدة متميزة عن غيرها من الأمم . ويضيف الدكتور الحروبولى فى مؤلفه : القومية العربية ، ص ٢٢ وما بعدها ، إلى المقومات السالف الإهارة إليها ، وحدة التقاليد والعادات والثقافة والنظم الاجتماعية التى تعتبر المقياس الحقيقى لتحديد العربى من غيره . انظر أيضا : Lewis, Arabs in Hist., 9-13.

للقوف في وجه العدوان الأجنبي ، في شتى صورته ومظاهره ، وفي مختلف عصوره ، وأيا كان مصدره (١) .

وعلى هذا يجب أن نفرق بين فكرة الوحدة العربية كحقيقة واقعة من المكابرة إنكارها ، وبين حركات اليقظة والإفاقة التي كانت تنبعث من وقت لآخر عندما يستشعر العرب بالخطر ويفيقون من غفوتهم ، فكان هذا بطبيعة الحال ، ما يذكر تلك الوحدة ويؤكد وجودها . وللعروبة تاريخ طويل مع الاستعمار حافل بالوان التضحية والجهاد والاستشهاد في سبيلها .

ولقد استمرت هذه الرابطة العربية المقدسة تؤدي دورها بنجاح تام ، وتدفع عن العروبة غائلة المعتدين . وكثيرا ما أثار هذا دعر المستعمر وأوقع الحبل والاضطراب في صفوفه . فكان يتحين الفرص للنيل منها والتشكيك فيها كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، تحقيقا لمصالحه بطبيعة الحال . ولم يعدم أن يجد في مختلف العصور بعض الضعفاء المتخاذلين الذين كانوا يتعاونون معه في سبيل

== ويوضح الدكتور إبراهيم جعه في كتابه : ايدولوجية القومية العربية ، ص ٤١ وما بعدها و ص ٩٢ وما بعدها ، أن القومية العربية هي حركة أصيلة غير مستعارة ، وأنها حقيقة تاريخية ناجمة لاجال لانكارها . أما جاك بولين ، فيحاول في كتابه المسمى « مع القومية العربية » ، ص ١٥ وما بعدها التعريف بهذه القومية ، مع شرح نشأتها وتطورها منذ العهد العثماني ، والدور الذي قامت به في محاربة الاستعمار لتحرير الوطن العربي . ونهج هذا النهج ساطع المصري في كتابه : نشوء الفكرة القومية ، ص ١٨٧ وما بعدها و ص ٢٢٨ وما بعدها و ص ٢٦٠ وما بعدها . ومن الكتب القيمة التي ظهرت أخيرا في السوق العربية مؤلف الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى : الكيان العربي بين القومات والامكانيات - بيروت ١٩٦٥ . وقد تناول فيه بالبحث والدراسة والتعريف الكيان القوي العربي وأساسه ومقوماته ، أنظر بتأنيده صفحات ٢١٣ وما بعدها و ٢٢١ وما بعدها و ٢٥٢ وما بعدها .

(١) أنظر عن ذلك جمال الدين الشيال : وحدة مصر وسورية في العصر الاسلامي ، ص ٣٠ .

مصالحهم الخاصة ، ولكن أمثال هؤلاء لم يكونوا أكثر من قش لا يلبث أن تذروه رياح الحرية المتمثلة في تجمع الشعوب العربية الواعية المتحررة ، وابتلائها حول المخلصين من أبنائها وقادتها ، والأمثلة على ذلك في تاريخ العروبة - قديما وحديثا - عديدة لا تحصى .

وهكذا ظل الاستعمار يعمل جاهداً مستميتاً على إعاقة أى نهضة عربية شاملة أو وثبة عربية مباركة ، وعلى أن يفتت وحدة العرب كلها بدت في الأفق بادرة توحى بإبرازها . وكما قامت الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادى عشر للاستيلاء على فلسطين باسم الدين وتحت قناعه الزائف ، كذلك خلق الاستعمار اسرائيل - وليدة وعد بلفور - بعد ذلك التاريخ بثنائية قرون أو يزيد لتكون عيناه ومغلب قط في البلاد العربية المجاورة . وكما جهد الصليبيون في تحقيق أهدافهم العدوانية بسبب تفكك العرب وقتذاك ، كذلك نجح أحفادهم في انشاء وطن قومى لليهود في فلسطين المقتسبة سنة ١٩٤٨ نتيجة لاتقسام الحكم العرب وتبعثر قواهم . وكان هذا بداية الحرب التى قامت بين الدول العربية وبين اسرائيل والتى استمرت حتى يناير ١٩٤٩ (١) . وكلنا يعرف نكبة العرب في هذه الحرب ، وما تخللها من مأس و غدر وخيانات عجلت بتلك النهاية الاليمية . وكما أفاق العرب في القرن الثانى عشر إلى وحدتهم لمواجهة العدوان الصليبي إلى أن انتهى الأمر بالقضاء عليه تماماً في أخريات القرن الرابع عشر ، كذلك بدأ أهل العروبة يفيقون بعد ثورة ٢٣ يوليو المباركة ليؤدوا دورهم الكبير على مسرح الأحداث ، وهم يعلنون تماماً أن أمامهم طريقاً شاقاً طويلاً وعراً . وكما تطلب هذا جهاد الآباء والأجداد في الماضى الغابر السحيق ، كذلك يتطلب منا اليوم

جهد الأبناء والأحفاد لتحقيق مجد العروبة ، وحتى تحتل الأمة العربية مكانها
الصحيح اللائق بها بين أمم العالم .

وان أفضل وأصدق ما يمكن أن نختم به هذه الدراسة عن الوحدة واليقظة
العربية ، هو أحد الأقوال المأثورة للسيد الرئيس جمال عبد الناصر ، العرب
أمة واحدة ، ذلك أول الطريق وآخره ، ووسيلة المجد وغايته ، . ففي هذا القول
من العبر البينة والمعاني العميقة والدروس الخالدة ، ما يغني عن أى شرح أو
إفاضة أو تعليق .

خاتمة

يتضح من دراساتنا السابقة أن الحركة الصليبية تعتبر مرحلة هامة رئيسية من مراحل الصراع الطويل بين الشرق والغرب الذي يمتد منذ عهد اليونان والرومان القدماء حتى وقتنا هذا . وهي في الوقت ذاته حركة لها كياناتها ومقوماتها الخاصة بها . ثم أنها فوق هذا وذاك تعتبر فصلاً هاماً في تاريخ الاستعمار . وإن الباحث المدقق في تاريخ الاستعمار الحديث في العالم العربي سيجد أن جذوره تمتد إلى زمن الحروب الصليبية في العصور الوسطى . فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الحملات الصليبية هي حملات استعمارية توسعية تحت قناع الدين . ويمكن القول دون مغالاة إن الاستعمار الذي تعرض ولا يزال يتعرض له العالم العربي في المشرق والمغرب في العصر الحديث هو نوع من الحروب الصليبية ، أو هو امتداد لها بصورة جديدة وفي ثوب مغاير .

لقد سارع أهل الغرب الأوروبي إلى الشرق العربي منذ آخريات القرن الحادي عشر ، وهم يتحرقون شوقاً للاستيلاء على الأراضي وتأسيس الممالك والإمارات لحسابهم الخاص ، ولكنهم تسبوا تحت اسم الدين والرغبة في اقتاذ قبر المسيح لتحقيق غاياتهم ، في وقت كان فيه للدين مكانته التي لا تخفى على أحد ، حتى أنهم كانوا عندما يفكرون في إعداد عدوان جديد يلجأون إلى الناحية الدينية ضماناً لنجاحه . فنزلوا أول ما نزلوا في الأراضي المقدسة بحجة تحرير كنيسة القيامة ، وتهيئة طريق آمن للحجاج الغربيين إلى أرض فلسطين . ثم أسسوا مستعمراتهم في الأراضي المقدسة . ولكن صلاح الدين بعد أن وحد الجبهة العربية استعاد القدس منهم في آخريات القرن الثاني عشر . وتوالت بعد ذلك هجراتهم على مصر خلال القرن الثالث عشر . ولسكى يخفوا أغراضهم التوسعية ، ادعوا أنه لا بد

من القضاء على مصر أولاً باعتبارها زعيمة العالم العربي حتى يسهل عليهم امتلاك
أورشليم . ثم اتجهت أطماعهم آخر الأمر نحو الشمال الأفريقي ، عندما أغار لويس
التاسع على تونس سنة ١٢٧٠ م ، وعندما كرر نفس المحاولة لويس الثاني دوق
بوربون بهجومه على المهديّة سنة ١٢٩٠ م . وكانت حجّتهم في العدوان على شمال
أفريقية أن الاستيلاء عليها سوف يسهل لهم الوصول إلى الديار المصرية عبر
الصحراء الغربية ، ومنها يمكنهم مواصلة الزحف شمالاً إلى الأراضي المقدسة .

وهكذا نرى أنه باسم الدين وتحت شارة الصليب هاجم اللاتين الشعوب العربية
في مصر والشام وشمال أفريقية . وباسم الدين وتحت شارة الصليب أيضاً تعددت
حملاتهم الاستعمارية على العالم العربي منذ آخريات القرن الحادى عشر إلى آخريات
القرن الرابع عشر ، تلك الحملات التي لم يقدر لها النجاح ، والتي كان فشلها بمثابة
نهاية حلم كبير للاوروبيين الغربيين . ولقد صدق الأستاذ برنارد لويس عندما قال
ان المرحلة الأولى من العدوان الصليبي التي تميز باستقرار الغزاة في سورية ،
كانت عبارة عن نوع من الاستعمار الاستيطاني ، أعقبته عميّة التمثيل والمضغ (١) .
ومع ذلك فقد اصطبغت آراء كثير من المؤرخين الغربيين المحدثين بصبغة قومية
بحّة تبدو فيها نفمة التعصب واضحة ، بما بعد بها وبهم عن الحق والأمانة
العلية . ومن هؤلاء دانيال روبس الذي قال ان المسيحية الغربية افتتحت
بالحروب الصليبية صفحة مجيدة في تاريخها (٢) .

ويمكن القول بناء على ما تقدم إن الحركة الصليبية لا زالت قائمة إلى يومنا

(١) Lewis, Arabs in Hist., 150 sqq.

(٢) “Une page admirable de son histoire s’ouvrit” Cf.

Daniel — Rops, 547,602.

هذا (١)، وأنها لم تصل إلى نهايتها المحتمية بعد طالما ان الاستعمار الغربي لا زال ينظر إلى العالم العربي من المحيط إلى الخليج بأعين ملوثة بالحق والكرامية والشر والاطماع .

على أية حال ، لقد أدى قيام الحركة الصليبية إلى احتكاك القوى الثلاث التي كانت موجودة على مسرح الأحداث في ذاك الحين ، ونعني بها العالم العربي والغرب الأوروبي وبيزنطة . فقد ارتبطت هذه القوى ببعضها أشد الارتباط ، وتفاعلت فيما بينها ، واشتبكت مصالحها ، بحيث لا يمكن للتصدي للعدوان الصليبي فصل أحدها عن الأخرى أو غض الطرف عنها . ويمكن تقسيم الصراع بين هذه القوى الثلاث قبل قيام الحركة نفسها إلى مرحلتين رئيسيتين : المرحلة الأولى وتبدأ بالفتح العربي منذ أوائل القرن السابع وتمتد حتى القرن التاسع الميلادي تقريباً . وفيها التزمت أوروبا في الجبهتين الشرقية والغربية جانب الدفاع عن نفسها بسبب الضعف الذي أصاب أوصالها ، في وقت كانت تتقدم فيه الأمة العربية الفتية دفاعاً صادقا عن عقيدة تؤمن بها وحفظاً على كيائها وتأميناً لمجتمعها الجديد . ولذلك كان ميزان القوى في هذا الدور في صالح العرب الذين أحرزوا انتصارات سريعة ضخمة شرقاً وغرباً حتى أصبح البحر المتوسط بحراً عربياً خالصاً بعد أن كان فيما مضى رومانياً . أما المرحلة الثانية من الصراع فهي تمتد من القرن العاشر حتى قيام الحركة الصليبية . وفيها ينقلب ميزان القوى لصالح الروم واللاتين الذين أخذوا يستعيدون قوتهم وتماسكهم ، فاستردوا الكثير من البلاد التي كانت في قبضة العرب ، في وقت أصاب فيه العالم العربي بعض التفكك والوهن . ولذلك عندما قام العدوان الصليبي كانت الظروف مواتية لأن يحقق

الغرب الأوروبي تلك الانتصارات السريعة التي لم يكن يحلم بها في يوم ما ، وان كان قد قدّمها فيما بعد بنفس السرعة التي تمت بها .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان أول احتكاك مع بداية العدوان بين الكاثوليك الغربيين والروم الأرثوذكس . وقد رأينا أن العلاقات بينهما لم يكن يسودها الاخلاص التام المتبادل والتفاهم الودى والرغبة الصادقة في حل ما أشكل بالطرق الودية . فكان البيزنطيون يريدون الانتفاع بالفرنج لخدمة أغراضهم السياسية ، بينما هم من جانبهم لم يفكروا في الغزو والفتح إلا لمصلحتهم الخاصة . وكانت العلاقات بينهما في أثناء الحملة الأولى مزيجاً من المتناقضات ، اختلط فيها سوء النية من جانب الفريقين بحسن المعاملة في بعض الأحيان . وكان الوازع الأكبر على ذلك هو شعور الطرفين بما قد يجنيه من المنفعة بالتعاون مع أخيه . فإذا تعارضت المصالح ظهر كل فريق على حقيقته ، وأوضح مثل لدينا موقف بوهيمند من الكسديس عندما ثارت في الأفق مشكلة انطاكية . وكانت هذه العلاقات نموذجاً لما ستكون عليه الصلات بين اللاتين والاعريق في الحملات التالية . وقد ساعدت أوجه الخلاف العديدة بينهما ، لا سيما في الأمور المذهبية ، في أوقات كثيرة إلى ازدياد سوء التفاهم . فلم ينس الغربيون الكاثوليك أن البيزنطيين الأرثوذكس كانوا ضالين عن جادة الدين الحقيقي في نظر الكنيسة الرومانية ، بما جعلهم مكروهين في الأوساط اللاتينية . ويرجع هذا العداء إلى ما قبل قيام الحركة الصليبية بقرون عديدة ، وعلى وجه التحديد إلى أوائل القرن الرابع عندما انتقل قسطنطين الكبير إلى القسطنطينية واعترف بالمسيحية كدين رسمي للدولة . ومنذ ذلك الحين والخلافات قائمة بين شقّي العالم المسيحي إلى أن وصلت ذروتها بقطيعة سنة ١٠٥٤ م . ولذلك عندما قامت الحرب الصليبية الأولى لم تجد أرضاً صالحة للتفاهم بين مسيحي الشرق والغرب . وقد كشفت كتابات

المؤرخين اللاتين وآواؤهم في البيزنطيين ، عن العداء القديم المتأصل بين الطرفين . وبالمثل نجد الكاتبة الاغريقية آن كومنين تتناول في كتابها العنصر اللاتيني بالقدح والذم الشديدين . لقد كان كل منهما يحقد على الآخر ويعتبره مهرطقاً لأنه على غير مذهبه .

ولاشك أنه واجهت بيزنطة الكثير من المتاعب بسبب احتكاكها بالغريبيين في الحملة الاولى . وقد وصلت سيطرة الدوافع الدنيوية مداها ونهايتها المنطقية في الحملة الرابعة عندما أصبحت الحركة الصليبية أداة للغزو استخدمها اللاتين ضد المسيحيين في الشرق . (١) وكانت النتيجة أن قُتت هذا الغزو وحدة الدولة البيزنطية التي عاشت منذ ذلك الحين شبه محتضرة إلى أن انتهى الأمر بسقوطها في قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣ م (٢) .

وإذا عدنا إلى أهداف اللاتين في إعادة بيزنطة إلى حظيرة الكاثوليك ، نجد أنهم أخفقوا في ذلك إما إخفاق . فقد كانت الخلافات المذهبية قائمة فعلاً قبل الحركة ، وزادت الحملات الصليبية من حدتها . ولذلك فشلت جميع المحاولات التي بذلت في القرون التالية للتوحيد بين الكنيستين الشرقية والغربية . (٣) ولا زالت بابوية روما تسمى حتى اليوم لتحقيق هذا الاتحاد ، ورأب الصدع الذي ترجع جذوره إلى أعماق التاريخ ، والذي زادت القرون المتعاقبة شدة وعمقاً وتعقيداً .

(١) أنظر : Ostrogorsky, Byzantine State, 368.

(٢) عندما وصل الإفرنج في الحملة الاولى إلى البسفور كانت ازميز ونيقية في قبضة السلاجقة . وكانت الفتيحة السريعة هي ابعاد السلاجقة حتى قلب اناتوليا ، مما ترتب عليه تأجيل استيلاء العرب على القسطنطينية حتى أواسط القرن الخامس عشر . وكان هذا الأمر بادياً للعيان في اخريات القرن الحادى عشر . أنظر . Grousset, Sum of Hist., 191.

(٣) أنظر : Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 261-8; Heer, Med. World, 98-9.

وجدير بالذكر أن الدعوة التي وجهتها بابوية روما من الفاتيكان إلى عقد مجلس الكنائس العالمي المسكوني في أكتوبر ١٩٦٢ م هي إلا استمرار لنفس السياسة التقليدية القديمة التي سارت عليها بابوية القرون الوسطى ، لاسيما بعد الانشقاقات المذهبية المعروفة داخل الكنيسة المسيحية . وإن يكون هذا المجمع المسكوني في نظر الباحث المدقق في وقتنا هذا أكثر من محاولة طلية في شكلها ومظهرها ، تعود به وبذاكرته إلى قرون طويلة مضت وذهبت بمثلها ومبادئها إلى غير رجعة . إذ ترك العداء التقليدي القديم بين شقي العالم المسيحي آثاره الوخيمة حتى هذا اليوم بالنسبة لاتباع الكنيستين الشرقية والغربية (١) .

وإذا كانت العلاقات بين مسيحي الشرق والغرب في الحملة الأولى وما تلاها من حملات قد اتخذت هذه الصبغة العدائية في أغلب الأحيان ، فقد كان هذا أيضاً هو الطابع المسيطر على العلاقات بين العرب واللاتين . وقد حدد طبيعة هذه العلاقات منذ البداية فكرة نزول الغزاة الأوروبيين في قلب الوطن العربي للعمل على استعمار واستغلال خيراته وتفتيت وحدته . ولا يجب أن ننسى أن أهل الغرب كانوا يعتبرون العربي - مسلماً كان أم مسيحياً شرقياً - غير مؤمن لأنه على غير مذهبهم . ولذلك امتدت أحلامهم إلى محاولة صبغ العالم العربي بالصبغة الكاثوليكية عن طريق البعثات التبشيرية التي تعتبر في الواقع جزءاً متما للفكرة الصليبية نفسها .

ولكن هذه كلها كانت أضغاث أحلام . فلم تحقق الحركة الصليبية شيئاً مما استهدفه الغرب ، سواء بالنسبة لانتهاء الشقاق الديني بين المسيحيين ، أو فيما يتعلق بالفكرة التبشيرية أو تحقيق الأطماع الاستعمارية التوسعية في المنطقة

(١) أنظر Heer, Med. World, 96, 98.

العربية (١). ولقد أدى فشل الحركة إلى تراجع المسيحية الغربية مؤقتاً عما ادعته لنفسها من حقوق لوجود لها في فلسطين . ووقع هذا الفشل على الأوروبيين وقع الصاعقة ، وأعقبته كوارث اقتصادية أطاحت بآمالهم . إذا اضطر الفرنج إلى ترك مخازنهم ومستودعاتهم التي كانوا يمتلكونها في الشرق العربي ، ورفعوا راية الاستسلام للماليك الذين احتسكروا التجارة مع الشرق الأقصى ، فتجمعت لديهم ثروات طائلة ، بينما ارتفعت أثمان البضائع التي كان الغرب في حاجة ماسة إليها من الشرقيين الأوسط والأقصى . ولذلك لم تكفد تمضي خمسون سنة على رحيل آخر جندي صليبي عن الأراضي المقدسة ، حتى كان عرب آسيا يهاجمون أوروبا من أضعف نقطة فيها وقتذاك ، ونعني بها الامبراطورية البيزنطية (٢) .

وإذا ضربنا صفحا عن نتائج العدوان الصليبي التي جاءت خيبة لآمال الغربيين على طول الخط ، فلا يجب أن ننفل أن هذا العدوان أكد تأكيذا قاطعا وجود فكرة الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج ، تلك الفكرة التي امتدت جذورها إلى مئات السنين . ولقد أدرك العرب بعد سنوات قلائل من انتهاء الحملة الصليبية الأولى وتأسيس المستعمرات الفرنسية في فلسطين ، أنه لن يتأتى لهم تصفية حسابهم مع الاستعمار إلا إذا تمت وحدتهم ، تلك الوحدة التي يؤكدونها شعورهم العميق المتأصل بقوميتهم وعروبيتهم . ولذلك كانت حركة التكتل والاقافة أيام عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود والبطل صلاح الدين الأيوبي ، رد فعل طبيعي للسيطرة الصليبية التي رزحت تحتها بلدان الشرق العربي وقتذاك . وكان تحقيقها كافيا للقضاء على النفوذ اللاتيني في المنطقة وضياع مصالح الغرب فيها ؛ لاسيما فرنسا التي فقدت زهرة شبابها وفرسانها في حروب خارجية لم تعد عليها بأية

(١) أنظر : Trevelyan, Shortened Hist. of England, 142.

(٢) أنظر : Grousset, Sum of Hist., 192.

قائدة . وقد أدرك ذلك أحد المؤرخين المحدثين ، إذ قال إنه كان الأجدر بفرنسا أن تحتفظ بقواها ومواردها لمشروعات تتصل بشئونها الحيوية اتصالا مباشرا مما يعود عليها بالنفع والفائدة ، أو لعلاج مشاكلها واضطراباتها الداخلية (١) .

ولو تركنا جانب أحداث الماضي ، وأمعنا النظر في أحداث الحاضر ، نجد التشابه العجيب في أهداف الاستعمار وغاياته وإن اختلفت الأساليب والوسائل . ونجد كذلك التشابه الكبير بين عرب الأمس والعرب اليوم ، فالشعوب العربية هي لم تتغير . إذ سرعان ما تتسكتل وتتجمع إذا ما أحاق بها خطر أو أصابها مكروه ، وذلك دفاعا عن وحدة كياناتها ومصيرها ووجودها . لقد حدث هذا في القرون الوسطى عقب ظهور الاسلام وإبان العدوان الصليبي ، ونراه يحدث اليوم في وقت خلق فيه الاستعمار اسرائيل في قلب المنطقة العربية لتكون رأس جسر له ، ولتعمل على تفتيت وحدتها وإعاقة توحيدها . وتعتبر ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ حدا فاصلا في تاريخ العرب الحديث ، بين عهد كانوا فيه منقسمين مشتتين يرزحون تحت نير الاستعمار الظاهر أو المقنع ، وبين عهد بدأوا يستنصرون فيه بالخطر ويهبون من كل مكان في الوطن العربي لتجميع قواهم وتوحيد جهودهم حتى يصل جهادهم إلى تحقيق الهدف المنشود .

(١) أظن : Waugh, Hist. of Europe, 27٠

الملاحق

تمهيد

يستهدف هذا البحث تسليط الضوء على الفكرة الصليبية بما تنطوي عليه من اتجاهات عدوانية توسعية استعمارية ضد كل من العالم العربي ودولة الروم . كما يكشف عن العلاقات المتشابهة المعقدة المتداخلة في بعضها بين كل من العرب واللاتين الغربيين والروم البيزنطيين إبان الحملة الصليبية الأولى ، والآثار المترتبة على تلك العلاقات ومضاعفاتها في الأقطاب التالية وحتى اليوم .

والملاحق السبعة التالية لها صلة مباشرة بموضوع البحث ، فضلا عن أهميتها التاريخية . فهي تتضمن نصوصا ووثائق مستقاة من مصادر أصلية وضمت زمن العدوان الصليبي ، ومؤلفوها كتاب موثوق بهم ، شهد خمسة منهم بداية العدوان ، بينما عاصر اثنان العدوان في مرحلة احتضاره . وبعض هذه النصوص والوثائق لا يزال بلغته الأصلية التي دون بها ، مثل خطاب كل من الكسيس كومنين واثين ده بلوا ونص فوشيه ده شارتر . وبعضها مترجم إلى اللغات الحديثة ، مثل كتاب الألكسياد الذي نقلته إليزابيث داوس من اليونانية القديمة إلى الإنجليزية ، وكذلك كتاب « تاريخ إنجلترا » لمؤلفه متى الباريزي الذي نقله ج. ا. جيل من اللاتينية إلى الإنجليزية ، وقصيدة الشاعر الفرنسي ولیم رتيف المترجمة من الفرنسية القديمة إلى الإنجليزية والتي نشرها ج. ماسون في مؤلفه « فرنسا في العصور الوسطى من عهد هيوج كاييه حتى بداية القرن السادس عشر » .

ويتضمن أحد هذه الملاحق مقتطفات من كتاب الألكسياد للأميرة آن كومنين ، وهي تعبر عن الأحداث من وجهة نظر بيزنطية . وقد وضعنا عناوين

جانبية لهذه المقتطفات توضيحا لها . ويصور ملحقان آخران الأحداث من وجهة نظر غربية بحثة ، وهما يتضمنان نصوصا مأخوذة من كتابي المؤرخ المجهول وفوشيه ده شادتر . ويمثل ملحق رابع وجهة نظر محايدة ، ونعني بذلك خطاب اتين ده بلوا أحد زعماء الحملة الأولى . وثمة ملحقان أحدهما للكاهن متي الباريزي والثاني للشاعر ولیم رتف ، يشتملان على مقتطفات تعبر عن وجهة نظر متحررة متعلقة في تلك العصور التي تميز فيها الغرب بالتزمت الديني . وهناك ملحق يتضمن وثيقة مشكوك في صحتها وضعت في الغرب الأوروبي عند بداية الحركة الصليبية لتحقيق أغراضها العدوانية ، وتقصد بذلك الخطاب المنسوب إلى الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين . وقد ذيلنا الترجمة العربية للوثائق والنصوص المشار إليها بعدد من التعليقات والايضاحات في الحواشي .

يتضمن الملحق الأول ترجمة مقتطفات من الخطاب الذي يقال إن الامبراطور البيزنطي الكسيس الأول كومنين بعث به إلى روبرت الأول أمير الأراضى الواطئة حوالى عام ١٠٨٨ ، يستحثه فيه دو وأهل الغرب على القدوم لنجدة الدولة البيزنطية ثم التوجه للاستيلاء على الأراضى المقدسة . وقد ثارت حول هذا الخطاب كثير من الشكوك ، وقامت حوله كثير من النظريات بعضها يعتقد في صحته وينسبه إلى الكسيس والبعض الآخر ينادى بزيفه وبأنه مرسوم عليه . ولكل فريق حججه التي يرتكز عليها . والشئ الثابت أنه لا توجد تحت أيدينا ، حتى الآن ، أدلة قاطعة حاسمة تثبت صحة الخطاب أو تنفي صدوره عن امبراطور البيزنطين (١).

(١) تعرضت للخطاب في شئ من التركيز والايجاز في الفصل الثاني من هذا الكتاب (أنظر ص ٥٢ - ٥٤) . وتناولته بالتفصيل والنقد والتحليل في مقال « الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية » - مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية - العدد ١٦ - الاسكندرية ١٩٦٣ - ص ١٨٨ - ١٩٥ .

يبدأ الخطاب بمقدمة قصيرة تتضمن التحية والسلام من الامبراطور البيزنطى إلى أمير الاراضى الواطئة والمستولين فى الغرب . وينتقل واضع الخطاب بعد ذلك مباشرة إلى الحديث عن تهديد الاتراك السلاجقة للدولة البيزنطية واستيلائهم على جانب كبير من أملاكها فى آسيا الصغرى حتى أصبحت القسطنطينية معرضة للسقوط فى قبضتهم بين وقت وآخر . وبعد أن تعرض الخطاب للحالة السيئة التى وصلت إليها دولة الروم وقتذاك ، يلتمس مرسله العون والمساعدة من الأمير الفلنكى ووبرت الأول . وحتى يستحثه هو وأهل الغرب لنجدة بيزنطة ، نراه يحذرهم بأن القسطنطينية سوف تقع غنيمة باردة فى قبضة الاتراك إذا لم يبادروا بإتقاذها . وفى سبيل ذلك يضرب واضع الخطاب ، فى خبث ومكر ودهاء ، على الوتر الدينى ، وهو يعلم مدى تأثيره فى نفوس الغربيين فى وقت اتسم فيه الغرب بالتعصب الأعمى فى هذه الناحية . إذ أعلن أنه توجد فى العاصمة البيزنطية آثمن آثار ومخلفات السيد المسيح وكثير من الذخائر الدينية وبقايا أجساد القديسين التى سيفوز بها الاتراك إذا لم يسرع الغربيون بوضع أيديهم عليها . وإذا كان للعامل الدينى أهميته فى إثارة النعرة الدينية لدى أهل الغرب ضد المسلمين فى الشرق ، فلم ينس واضع الخطاب تقديم المغريات المادية وهو على علم بمشجع اللاتين وحبههم الزائد للمال ، الأمر الذى أكدته آن كومننن أكثر من مرة فى كتابها « الألكسياد » . فقرأه يحدثنا عن ثراء القسطنطينية وما تحويه من نقائس وكنوز لا توجد فى أى مكان آخر فى العالم ، والتى ستكون من نصيب اللاتين إذا بادروا بالحضور لإتقاذ بيزنطة من خطر السلاجقة . وفى خاتمة الخطاب دعوة صريحة موجهة إلى الغربيين لإرسال النجادات لمساعدة الدولة البيزنطية ، ثم التوجه للاستيلاء على الاراضى المقدسة وتخليص قبر المسيح .

تلك هي محتويات الرسالة التي يجب تناولها في شيء من الحيلة والحذر، والتي يزعم المؤرخ اللاتيني جيبرت ده نوجان أنه أعطانا نصها ، والتي يرى الكاتب بول ريان أن واضعها هو روبرت الراهب . كما يجب اعتبارها محرقة رغم استنادها على حقيقة واقعة . ذلك أن روبرت الأول أمير الأراضي الواطئة كان قد ذهب للحج إلى الأراضي المقدسة، وعند هودته حوالي عام ١٠٨٧ مر بأراضي الامبراطور البيزنطي ، ووعد الكسيس كومنين بإرسال خمسمائة فارس اليه لحماية دولته من خطر السلاجقة . وحوالي عام ١٠٨٨ أو عام ١٠٨٩ ، أرسل الكسيس يذكر روبرت بوعده له . وكان الأمر لا يعدو أكثر من طلب جند مرتزقة يعملون في خدمة الدولة البيزنطية مقابل أجر يتقاضونه على ذلك . ولهذا السبب اتجه الكسيس إلى البابا اربان الثاني يرجوه تسهيل إرسال الجند المرتزقة للعمل في خدمته . وقد دعم المؤرخ فرديناند شالندون هذه النظرية في كتابه عن الكسيس كومنين (١) .

والواقع أنه يوجد فارق كبير بين فكرة إرسال جند مرتزقة كطلب الكسيس كومنين ، وبين إرسال حملة لاتينية غربية كبيرة تعمل لحسابها الخاص مستقلة في ذلك عن بيزنطة . وإن مسألة قيام حملة صليبية بالمعنى المفهوم من الفكرة الصليبية في الغرب ، لا يجب إرجاعها إلى طلب الكسيس كومنين وإنما إلى الدور الذي قام به الجهاز الكنسي البابوي في أوروبا وعلى رأسه بابا روما اربان الثاني في أواخر القرن الحادي عشر (٢) .

(١) أنظر مقال « الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية » ، ص ١٨٨ وما بعدها وص ٢٠٠ . وفيما يتعلق باستخدام بيزنطة الجند المرتزقة ، أنظر ص ١٤٦ و ٢٠٧ ح ١ من هذا الكتاب ، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في أكثر من موضع من الكتاب .

(٢) أنظر ما سبق ص ٥٦-٥٧ من هذا الكتاب ؛ راجع أيضا كتاب :

وهذا يقودنا إلى الملحق الثاني ، وهو يشتمل على نص منقول من كتاب المؤرخ اللاتيني فوشيه ده شارتر يتحدث فيه عن الأحوال السائدة في الغرب الأوروبي عندما دعا البابا أربان الثاني إلى عقد مؤتمر كليرمون الكنسي في نوفمبر ١٠٩٥ . وإن نظرة سريعة إلى هذا النص تعطينا فكرة واضحة عن الظروف والأوضاع في الغرب قبل قيام الحرب الصليبية الأولى ، من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية . وقد تعرض المؤرخ بعد ذلك ، في جمل قصيرة سريعة ، للخطر الذي يواجهه الحجاج الغربيون وهم في طريقهم إلى الأراضي المقدسة بسبب مضايقات الاتراك السلاجقة ، فضلا عن تهديدهم البيزنطة . وتحدث آخر الأمر عن عقد مؤتمر لمعالجة هذه المسائل ، وهو مؤتمر كليرمون نسبة إلى المدينة التي عقد فيها .

ويلقى المؤرخ ميخائيل السورى ، الذى كانت ظروف إقامته في الشرق تؤهله لمعرفة أسباب التدخل اللاتيني في شئون فلسطين ، ضوءا واضحا على ماتقدم ، عندما يتحدث عن السلاجقة ومضايقتهم للحجاج الغربيين الذين يذهبون لزيارة بيت المقدس وكنيسة القيامة . وكانت هذه هي الركيزة التي ارتكز عليها البابا أربان لتحقيق مشروعه الصليبي ضد كل من العالم العربي والدولة البيزنطية ، والذى يبدو أنه قد احتفظ بسريته مدة طويلة قبل أن يعلنه على الملأ . وقد أوضح شالندون أن فكرة إرسال حملة صليبية إلى الشرق لم تختصر في ذهن البابا الرومانى إلا في وقت متأخر ، وأنه لم يكشف عنها إلا بعد أن فضجت تماما وبعد أن استعد لها الاستعداد الكافى (١) .

(١) أنظر التفاصيل في مقال « الدافع الشخصى في قيام الحركة الصليبية » ، ص ١٩٨ وما بعدها .

ويشتمل الملحق الثالث على مقتطفات من كتاب «الأكسياد» الأسيدي
آن كومنين عن الحملة الصليبية الأولى بشقيها الشعبي والنظامي. وهي تعبر عن وجهة
نظر البيزنطيين حيال الأحداث التي كانت أراضى بيزنطة والشرق العربي مسرحاً
لها في بداية العدوان الصليبي. كما تكشف بوضوح عن سوء التفاهم الذي كان
قائماً بين اللاتين والبيزنطيين أو بين أهل الغرب الكاثوليكي وأهل الشرق
الأرثوذكسي، والذي كانت جذوره العميقة ترجع إلى ما قبل قيام الحركة
الصليبية بقرون عديدة. وهي تكشف أيضاً في أسلوب لاذع عن الصفات التي
يتميز بها أهل الغرب، وأهمها الجشع والطمع وحب المال والغطرسة والصلف
والتعالي، فضلا عن حقد وكراهيتهم للمسلمين والمسيحيين الشرقيين. وهي تؤكد في
أكثر من مناسبة تخوف بيزنطة من اللاتين الغربيين الذين لم يستدعهم الكيس،
ولمّا علم بوصولهم إلى أراضى دولته عن طريق الإشاعات والأقاويل.
لقد أثار قدوم هذه الجيوش الجرارة مخاوف بيزنطة، وتعتبر أحداث الحملة
الصليبية الرابعة خير دليل على ذلك. ويمكن أن اللاتين - حسبما يتضح من
كتابات آن - كانوا مصدر قلق ومتاعب لبيزنطة أكثر من السلاجقة المحدثين بها
المطبقين عليها (١).

وفي صراحة وبساطة تتحدث الكاتبة الإغريقية عن حقيقة دوافع العدوان
الصليبي على كل من العالم العربي ودولة الروم، فتقول إن الطامعين أمكنهم
التأثير على السذج وبسطاء العقول الذين كانت تدفعهم الرغبة الحقيقية للحج إلى
الأراضى المقدسة. أما أصحاب الأهواء والمصالح فقد كان هدفهم الاستيلاء على
القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية وإقامة إمارة لاتينية بها، ثم التوجه

(١) للمزيد من المعلومات عن وجهة نظر آن كومنين في اللاتين، أنظر :

Zoé Oldenbourg, Les Croisades (1965), 82 ff.

للاستيلاء على الأراضى التى كانت وقتذاك فى قبضة السلاجقة وإتمام الزحف إلى الأراضى المقدسة . وتستشهد آن بموقف بوهيمند النورماندى من أيها أثناء الحملة الأولى وبعد انتهائها عندما برزت إلى الوجود مشكلة انطاكية ، كما تشير إلى أطماع أييه روبرت جويسكار فى بيزنطة قبيل قيام الحملة الأولى بسنوات معدودات ، الأمر الذى سبب لدولة الروم جرحا عميقا لا يلىتم . وهى توضح كيف استغل أصحاب الأطماع شخصا مثل بطرس الناسك الذى كان يدعو للحركة فى الغرب ، فى القيام بمحملتهم لتحقيق أغراضهم فى الشرق . وهكذا يظهرون بمظهر الورع والتقوى ، وإن كانوا فى الحقيقة أبعد ما يكون عن ذلك . هذا ، وتعتقد آن كومنين أن بطرس الناسك هو الذى قام بتنظيم الحركة الصليبية . ولعل ذلك يرجع إلى أن أول احتكاك حدث بين البيزنطيين واللاتين الصليبيين كان بمقدم بطرس الناسك ومن معه من الرعايا (١) . وقد ثبت بعد الدراسة أن أسطورة بطرس هذه ليس لها نصيب من الصحة ، ويجب حذفها نهائيا من سجل التاريخ (٢) . وجدير بالملاحظة أيضا أن الكاتبة الاغريقية عندما كانت تتعرض لأبيها الكسيس ولظفره وشخصيته ، كانت تتناوله فى عبارات يبدو فيها التملق والإطراء . فهو ، فى نظرهما ، ملك الملوك ، وأعظم من أنجبتهم السماء ، وأشجع الشجعان ، وأغنى الأغنياء . ويبدو هذا بوضوح فى المقارنة التى عقدتها بينه وبين عدوه اللدود بوهيمند النورماندى (٣) .

أما الملحق الرابع فهو يشتمل على ترجمة فقرات من الخطاب الذى أرسله

(١) أنظر من ذلك Runciman, Crusades, I, 117 n. 1.

(٢) أنظر مقال « الدافع الشخصى » ، ص ١٩٥-١٩٧ .

(٣) أنظر Runciman, op. cit., I, 71 n. 1 - ونجد تحليلا دقيقا مركزا

لشخصية الكسيس كومنين فى كتاب شالاندون .

Chalandon, Essai sur le Règne d'Alexis Comnène, 51-2.

إتين كونت بلوا وشارتر إلى زوجته أديل في الغرب. والخطاب محرر من معسكر الجيش الصليبي بالقرب من مدينة نيقية في ٢٤ يونيه من سنة ١٠٩٧ . وكان إتين قد أرسل قبل ذلك خطابا آخر إلى زوجته ، بعث به إليها من مدينة القسطنطينية ، ووصف فيه رحلته إلى العاصمة البيزنطية . ولكن هذا الخطاب - لسوء الحظ - فقد ولم يصلنا (١) . وتكمن أهمية الخطاب الذي تحت أيدينا في أن كاتبه لاتيني غربي أثنى على الكسيس والبيزنطيين ، بينما وقف زملاؤه اللاتين أمثال المجهول وفوشيه ده شارتر وريمون داجيل موقف العداء الصريح من بيزنطة وإمبراطورها ، بسبب العداء القديم المستحكم بين شقي العالم المسيحي نتيجة الاختلافات الحضارية واللغوية والثقافية والجنسية والجغرافية - تلك الاختلافات التي ساعدت على قيام سوء التفاهم بين اللاتين والبيزنطيين عندما تقابلا وجها لوجه في الحملة الصليبية الأولى . وعلى هذا يبر إتين في رسالته عن وجهة نظر محايدة غير متعنتة تضي على أقواله أهمية خاصة .

ويتضمن الملحق الخامس ثلاثة نصوص من كتاب المؤرخ المجهول (٢) عن الحملة الأولى : النص الأول ويتحدث عن وصول بطرس الناسك إلى القسطنطينية ومذبحة نيقية التي قضى فيها قضاء تاماً تقريباً على الحملة الشعبية . ويلقى المجهول اللوم صراحة على الكسيس متها إياه بأنه السبب فيما حدث لبطرس ورجاله معبرا بذلك عن وجهة نظر غالبية اللاتين . ويتعلق النص الثاني بوصول جودفرى دوق اللورين السفلى وجيشه إلى العاصمة البيزنطية ، ويكشف المؤلف فيه عن حقيقة العلاقات بين جودفرى وبين إمبراطور البيزنطيين . أما النص الثالث فهو خاص بيمين التبعية والولاء الذي أداه زعماء الفرنج بين يدي

(١) أنظر عن ذلك Runciman, op. cit., I, 169 n. 1.

(٢) قام الدكتور حسن حبشي بترجمة كتاب المجهول إلى العربية تحت اسم « تاريخ الفرنجة وحجاج بيت المقدس - القاهرة (دار الفكر العربي) ١٩٥٨ (الطبعة الثانية) .

الكسيس بناء على طلبه ، مع تحليل الأسباب التي دعت اللاتين لأداء هذا القسم .
وتكشف هذه النصوص الثلاثة كيف كان الغرييون يصورون الأحداث
ويتصورونها ، وكيف كانوا يتصرفون ، وفيما كانوا يفكرون ، وماذا كانت
مواقفهم حيال الأحداث التي مروا بها ومرت بهم ، وحقيقة مشاعرهم
وأحاسيسهم ، وماذا كانوا يخشون في دخيلة نفوسهم .

ويحتوى الملحق السادس على ترجمة مقاطع من القصيدة التي كتبها باللغة
الفرنسية الوسيطة الشاعر وليم رتيف (١٢٤٥-١٢٨٥) الذي عاش عصر احتضار
الفكرة الصليبية . وفيها يسخر من الجهاز الكنسي البابوي ومن رجال الدين
في الغرب ، كما يندد بالفكرة الصليبية التي لم تعد تلقى القبول والرواج في أوروبا
بعد أن انقضت الناس من حولها ، وبعد أن زال الحماس المصطنع الذي صاحب
بدايتها ، وبعد أن بدأ كل فرد في الغرب يتجه إلى مصالحه الخاصة والدول إلى
مساكها الداخلية .

وقد تناول رتيف ذلك كله في أسلوب ساخر تهكمي عبر فيه تعبيرا صادقا
عن موقف ذوي التعقل من الرجال الأحرار في الغرب وقتذاك من أمثال
الإمبراطور الألماني فردريك الثاني (١٢١٥ - ١٢٥٠) والكاهن الإنجليزي متى
الباريزي (المتوفى سنة ١٢٥٩) ، والذي يحتوى الملحق السابع والأخير على
مقتطفات من كتابه المعنون « تاريخ إنجلترا » . وفيها يتهم تهما لاذعا مريرا
على الجهاز الكنسي البابوي في الغرب ابتداء من البابا حتى أصغر قس . كما
يهاجم الفكرة الصليبية مجوما عنيفا وصريحا . ولهذه التصريحات دلالتها
وأهميتها ووزنها . فقد صدرت عن أحد رجال الدين اللاتين الأحرار لتعبر - في
بساطة - عن موقف ذوي البصيرة والتعقل والنظرة البعيدة الواقعية ، في وقت

كانت فيه الكنيسة اللاتينية تسير بخطى سريعة نحو التدهور والانحلال بسبب الفساد الذى تغلغل فى كيانها .

وجدير بالذكر أن المصادر التاريخية والأدبية الغربية التى عاصرت العدوان الصليبي وكتبت عنه ، فضلا عن الآداب الشعبية ، قد تناولت العدوان بالنقد والسخرية والتهكم . وهى تكشف عن وجود شعور شعبي فى الغرب ضد الفكرة الصليبية وغير متحمس لها . كما تكشف عن تطور الحالة النفسية للجماهير فى الغرب وقتذاك . وهذا أمر له أهمية كبرى فى تفهم الرأى العام الغربى ومعارضته للعدوان الصليبي ضد العرب ، وتقديده بهذا العدوان ، وشكه وتشككه فيه وفى قيمته وجدواه ونتائجه . وم سواء أكانت هذه المعارضة وذلك الشك فى الفكرة الصليبية من جانب الغربيين لأسباب تتعلق بشئونهم الخاصة ومصالحهم الذاتية ، أم لعدم إيمانهم أساسا بفكرة الحرب والعدوان - فإنها تكشف عن وجود رأى عام معاد للحرب ضد العرب كان يسرى كالتيار فى الغرب . وغير خاف أن هذا كان سندا قويا لموقف العرب ولقضيتهم العادلة لا يمكن التهوين من شأنه . كما كان عاملا له أثره فى تقويض دولة الغزاة فى الشرق العربى فى عصر العدوان الصليبي فى وقت كان فيه ميزان القوى قد اعتدل لصالح العرب (١) .

(١) جدير بالذكر أن المراجع الغربية الحديثة التى تناولت الحركة الصليبية بالنقد ، والى كشفت فى أسلوب على عن معارضة الرأى العام الغربى للعدوان الصليبي ضد العرب ، قليلة جدا . ولا يزال هذا الموضوع فى حاجة إلى مزيد من البحث والمعالجة . ومن أهم الكتب التى تعرضت له نذكر :

Lenient, Satire en France au moyen âge; P. Throop, Criticism of the Crusade, Amsterdam, 1940.

الملحق الأول

مقتطفات من خطاب الامبراطور البيزنطي
الكسيس الأول كومنين الى روبرت الأول أمير
الأراضي الواطئة (حوالي عام ١٠٨٨). (١)

من امبراطور القسطنطينية إلى السيد الأجل اللورد روبرت أمير الأراضي
الواطئة ، وإلى جميع كبار رجال المملكة المؤمنين بالعقيدة المسيحية ، وإلى رجال
الدين والدنيا - تحية وسلاما ...

أيها السيد العظيم حامى العقيدة المسيحية . . أود أن أحيطك علماً بما وصل
إليه تهديد البجائكة (٢) والأتراك (٣) للامبراطورية الاغريقية المسيحية
المقدسة (٤) . فهم يعملون فيها السلب والتخريب كل يوم ، ويتوغلون في
أراضيها دون انقطاع . وكمن مذابح وتقتيل وجرائم تفوق حد الوصف
بقترونها ضد المسيحيين الاغريق (٥) ، فضلا عن السخرية والتحقير ...
فانهم يذبحون الاطفال والشباب داخل أماكن التعميد ، حيث يريقون دماء
القتلى محتقرين بذلك المسيح .

(١) هذه هي الترجمة العربية للنص اللاتيني للخطاب نقلا عن طبعة هاجينماير .
أظن : Epistola Alexii I komneni imperatoris ad Robertum
I comitem Flandrensem (circa annum 1088); cf. Hagenmeyer,
H. (ed.), Epistolae et chartae ad historiam primi belli sacri
spectantes, Heidelberg, 1901 (pp. 129-136).

(٢) أنظر ماسبق ، ص ١٢٨ ح ١ من هذا الكتاب .

(٣) المقصود السلاجقة .

(٤) المقصود بذلك الدولة البيزنطية . ويلاحظ أن الخطاب يشير إلى البيزنطيين بلفظ

« الاغريق المسيحيين » .

(٥) أي البيزنطيون .

لقد استولى أولئك القوم على كل البلاد الواقعة بين بيت المقدس وبلاد
الاعريق . إذ امتلكوا بلاد اليونان كلها ، بما في ذلك أجزاءها العليا ، وهي
كبادوكية الصغرى ، وكبادوكية الكبرى ، وفريجية ، وبشينية ، وفريجية الصغرى
أى طرواده ، وكذلك بنطش ، وغلاطية ، وليدية ، وبمفيلية ، وأيسورية ،
وليكية ، وجزائر خيوس وميتيلينا الرئيسة . كما وضعوا أيديهم على مناطق وجزائر
أخرى حتى تراقية ، وغير هذا وذاك مما لا يقع تحت عد أو حصر . ولم يبق الآن
تقريبا سوى القسطنطينية .

لذا استخلفك بحجة الله ، وباسم جميع المسيحيين الاعريق ، أن تمد لنا
والمسيحيين الاعريق يد العون والمساعدة ؛ وذلك بتقديم جميع الجنود المسيحيين ،
من كبير وصغير ، فضلا عن العامة ممن يتسنى جمعهم من بلادك ...

وبناء على ذلك ، يجب أن تحاربوا بكل ما أوتيتم من قوة وشجاعة قبل
سقوط القسطنطينية (١) . وستسعدون ويكون لكم في السماء أجرا عظيما .
ومن الأفضل أن تكون القسطنطينية في حوزتكم وليست في قبضة الأتراك ،
لأن بها آمن آثار السيد ، وهى الصليب الذى صلب عليه ، والسوط الذى ضرب
به ، والرداء القرمزى الذى ألبسوه إياه وتاج الشوك ... وكذلك الملابس التى
نزعته عنه أمام الصليب ، وقطعة كبيرة من خشب الصليب الذى صلب عليه ،
ورأس يوحنا المعمدان وخصلات شعره بأكلها ولحيته ، فضلا عن بقايا
أجساد كثير من القديسين ...

فاذا لم يحفزهم (٢) كل هذا للقتال ويفضلون عليه الذهب ، فسوف يجدونه

(١) الحديث هنا موجه إلى أهل الغرب .

(٢) المقصود أهل الغرب .

في هذا المكان أكثر مما يوجد في العالم كله . فكناثس القسطنطينية ملأى بكنوز من الفضة والذهب والحلى والأحجار الكريمة والمنسوجات الحريرية التي تستخدم في صنع الأردية والملابس التي تكفي جميع كناثس العالم ...

سارعوا إذن بكامل رجالكم ، وحاربوا بكل ماosلكم من قوة حتى لا تقع كل هذه الكنوز والثغائس في أيدي البجائنة والآتراك (١) . إذ ينتظر وصول مستين ألفا منهم بين وقت وآخر ...

ولهذه الأسباب مجتمعة ، إعملوا قبل فوات الأوان كيلا تفقدوا ملكة مسيحية ، وما هو أهم وأعظم قبر المسيح (٢) . وسوف يكون جزاؤكم ليس الدينونة في هذا العالم وإنما ثواب الآخرة عند الله .

[نهاية الخطاب]

(١) أنظر مادة « الأتراك » لبارتولد Barthold في دائرة المعارف الإسلامية، وكذلك مادة « السلاجقة » لهوتسما Houtsma في دائرة المعارف البريطانية .
(٢) يعرف أيضا باسم كنيسة القيامة والقبر المقدس .

الملحق الثانى

رواية المؤرخ اللاتينى فوشيه ده شارتر
عن الظروف التى دعا فيها البابا الرومانى
اربان الثانى الى مؤتمر كليرمون الكنسى
فى نوفمبر ١٠٩٥ . (١)

فى سنة ١٠٩٥ ميلادية كان هنرى الذى يلقب امبراطورا يقبض على أعنة
الحكم فى المانيا ، وكان فيليب آتشد ماسكا على فرنسا . هذا ، بينما أخذ الفساد
يتغلغل فى كافة أنحاء أوروبا ، الأمر الذى تسبب فى تزعزع العقيدة المسيحية .
وكان يشرف على مدينة روما فى ذلك الحين البابا أربان الثانى . وكان رجلا كفء .
حسن السيرة والخلق . وقد أبدى هذا البابا مهارة ونشاطا فائقين فى إدارة شئون
الكنيسة المقدسة ، كما بذل قصارى جهده للنهوض بها .

وكان البابا يدرك هذه الأمور . لقد لاح أن العقيدة المسيحية أخذت تسير
بخطى واسعة نحو التدهور والانحلال على أيدي الجميع من رجال الدنيا والدين ،
عندما طرح أمراء الاقطاع جانبا فكرة السلم ، وأصبحوا فى نضال مستمر بعد
أن وقع الخلف بينهم . وكانت خيرات الأرض نهبا للطامعين . وأسرا الكثيرون ،
وكبلوا بالأغلال والقي بهم فى غياهب السجون ، ولم يستردوا حريتهم إلا بعد
أن دفعوا الثمن غاليا ، والا كانوا يعرضون لمختلف أنواع العذاب التى لا يمكن
تصورها . ومات كثير من الناس بسبب ما قاسوه من شدة الجوع والعطش
وما عانوه من قسوة البرد ووطأة الإرهاق (٢) .

(١) هذه هى الترجمة العربية للنص اللاتينى نقلا من « مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية » .
أظهر : Foucher de chartres, Gesta Francorum Iherusalem
Peregrinantium (1095 — 1127), ed. R. H. C. — H. Occ., III,
Paris, 1866 (p. 311).

(٢) أظهر ماسبق ، ص ١٧٥ — ١٧٨ من هذا الكتاب .

هذا ، وقد خربت الأماكن المقدسة ، وأحرقت القرى والأديرة ، ولم يسلم أحد من الأذى . وأصبح كل ما يتصل بأمور الدين والدنيا محلا للسخرية . وبلغ البابا أن الأتراك أخذوا من المسيحيين الاغريق بعض المناطق الداخلة في نطاق العالم الروماني ،^(١) وأخضعوا هذه البلاد لحكمهم بعد هجوم مدمر عنيف . ونتيجة لذلك أودى البابا في عاطفته الدينية وحلت فيه إرادة الله . فعبر الجبال ونزل في بلاد الغال^(٢) حيث عقد مؤتمرا دينيا في مدينة يطلق عليها اسم كليرمون^(٣) . وكان قد دعا إلى هذا المؤتمر سلفا من طريق مندوبين وسفراء من قبله كان قد بعث بهم إلى كل مكان^(٤) .

(١) المقصود الامبراطورية الرومانية الشرقية .

(٢) المقصود غالة أي فرنسا .

(٣) أورد خطاب البابا أربعة من المؤرخين الصليبيين المعاصرين له هم فوشيه ده شارتر ، وروبرت الراهب ، وبودرى ده بورجي ، وجيبرت ده نوجان . وهناك مؤرخ خامس متأخر نسبيا هو وليم مالمسبوري ، أثبت الخطاب بعد قرابة ثلاثين سنة من تأليفه . أنظر : William of Malmesbury, Gesta Regum (ed. W. Stubbs,), Rolls Series, 2 vols., London, 1887-9, cf. Vol. II, 393—8. الأربعة الأولون الخطاب كما لو كانوا قد حضروا المؤتمر وشهدوا ما دار فيه . وأدهى بودرى أنه حضر المؤتمر ، وإن كان كل من بودرى وجيبرت قد ذكر أن ما أورده عن الخطاب قد لا يكون ذو النص الحرفي له . والواقع أن النصوص الخمسة للخطاب تختلف عن بعضها اختلافا بينا . وقد تناول مونرو بالتدليل هذه الاختلافات في محاولة هدفها العثور على النص الأصلي للخطاب ، وذلك بتجميع النقاط التي اتفق المؤرخون عليها . أنظر : Munro, « The Speech of Pope Urban II at Clermont », cf. the American Historical Review, Vol.—XI, 231 ff. — ويقول ستيفن رانسيان إنه من الواضح أن كلا من هؤلاء المؤرخين الخمسة قد دون الخطبة التي اعتقد أن البابا قد ألقاها في كليرمون ، بعد أن أضاف إليها من عنده بعض الحيل الخطابية ، ومن هنا جاء الاختلاف بين هذه النصوص الخمسة . أنظر عن ذلك Runciman, op. cit., I, 108 n. 1.

(٤) فيما يتعلق بتحركات البابا أوربان الثاني قبل مؤتمر كليرمون ، أنظر :

Chalandon, Histoire de la première Croisade, 19—22.

الملحق الثالث

مقتطفات من كتاب «الأكسياد»
لؤلؤته الأميرة آن كومنين (١).

دوافع العدوان الصليبي :

... ولم يسكد الامبراطور [أى الكسيس كومنين] يتمتع براحة قصيرة حتى بلغه أن جيوشا فرنجية لا عد لها ولا حصر على وشك الوصول . وقد تملكه الرعب لمقدم هؤلاء القوم لما كان يعرفه عن صلابتهم في الهجوم ، وما يتسمون به من الثقل وعدم الثبات ، فضلا عن خصالهم الغريبة الفطرية الملازمة لهم والتي كانوا يتميزون بها . وكان يعرف عنهم حبهم الدائم للمال . ويبدو أنهم كانوا على استعداد انكث عهودهم ونقض وعودهم إذا كان هناك سبب يدعوهم إلى ذلك . وكثيرا ما سمع الامبراطور كل هذا يروى عنهم ، وقد تأكد من صدقه وصحته . ومع ذلك لم يملكه اليأس ، ولم تزايله شجاعته ، بل أعد نفسه لمواجهة كافة الاحتمالات حتى يكون على استعداد لنزالهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك . أما الحقائق الثابتة فقد كانت ، في واقع الأمر ، أشد هولاً مما أشيع عنهم . ذلك أن أهل الغرب كله ، وكذلك قبائل المتبربرين التي تقطن فيما بين أقاصى الأديرياتيك وعمودا هرقل (٢) - قد نزحوا في كتل متراصة مخترقين أوروبا صوب آسيا ، مصطحبين معهم في رحلتهم هذه عائلاتهم وذويهم .

(١) أنظر : Anna Comnena, The Alexiad, English Trans. by Elizabeth A.S. Dawes, London, 1928 (pp. 248-268).

(٢) ما جبل طارق وماشر .

رحلة بطرس الناسك إلى القسطنطينية :

ويعزى هذا الطوفان البشرى ، فى قليل أو كثير ، إلى الأسباب التالية .
ذلك أن أحد الفرنجة ويدعى بطرس ، ويلقب على ميل السخرية « بطرس
الطرطور » (١) ، كان قد ذهب للتعبد عند القبر المقدس . وبعد أن قاسى الكثير
من المحن والأهوال على أيدي الأتراك والعرب الذين عاثوا فى آسيا ، قفل عائدا
إلى بلده بعد مشقة كبيرة ، وقد ضايقه إخفاقه فى تحقيق بغيته ، وأراد القيام بنفس
الرحلة مرة ثانية . وأدرك أنه يجب عليه ألا يذهب بمفرده إلى القبر المقدس
خشية أن يلحق به أذى أو يصيبه مكروه . لذا دبر خطة ماكرة لثيمة ،
مفادها أن يبشر فى جميع المدن اللاتينية بأن « صوت الله يأمرنى بدعوة جميع نبلاء
فرنسا لترك ديارهم والتوجه لأداء فروض العبادة عند القبر المقدس ، وأن يهب
الجميع قلبا واحدا ويذا واحدة لتخليص أورشليم من قبضة الأتراك . » وقد
نجح فى ذلك نجاحا كبيرا . وبعد أن أثار النفوس والمشاعر بهذا النداء شبه
المقدس ، أهد العدة بحيث يتجمع الفرنج من كل حدب وصوب ، الواحد إثر الآخر ،
ومعهم الأسلحة والخيول وكل معدات الحرب ولوازم القتال ، وقد ملأتهم
الغيرة واستبدت بهم الحماسة للقتال حتى ازدحمت بهم المسالك والطرق .
وانضمت إلى هؤلاء الجنود من الفرنج جماعات أخرى بغير سلاح ، وقد فاق
عدها رمال البحر ونجوم السماء (٢) . ووضع الجميع الصليبان فوق أكتافهم ،

(١) هو بطرس الناسك ، وقد تناول سيرته وأصله وحياته المبكرة فى شيء من التفصيل
المؤرخ هاجينماير فى كتابه : Hagenmeyer, H., Le Vrai et le Faux sur
Pierre l'Hermite, trans. by Furcy Raynaud, Paris, 1883, 17-63.
كذلك تعرض المؤرخ البرت دكس لحملة بطرس الشمية فى شيء من الإسهاب . أنظر عن
ذلك كتاب : Runciman, op. cit., I, 121 n. 1.

(٢) تناولت زوى أولدنبورج رواية آن كومنين عن بطرس الناسك بالنقد والتحليل . أنظر
Z. Oldenbourg, Croisades, 82—3.

وحملوا سف النخل. كذلك تركت النسوة والأطفال أوطانها وانضمت إلى هذا الزحف . وبدأ منظرهم كأنهار عديدة وقد تدفقت مياهها بشدة من كل جانب ...

... وعندما بدأت الأفواج الأولى من هذه الجماعات في عبور سهول لمبارديا متفرقة ، استدعى الامبراطور [البيزنطى] عددا من قادة الجيش الرومانى ، ثم بعث بهم إلى ضواحي دوراخيوم وقالوا بعد أن زودهم بتعليماته التى تقضى بالترحاب بالفرنيج الذين عبروا أراضيهم استقبالا حسنا . كما طلب إليهم أن يجمعوا كميات وافرة من المؤن من كل المدن التى يمرون بها ، وأن يقوموا بعد ذلك بتعقب اولئك الفرنيج ومراقبتهم طوال الوقت دون أن يجعلهم يشعرون بهم. أما إذا عاثوا فى البلاد فسادا أثناء الطريق ، فعلى هؤلاء الرجال الكشف عن حقيقتهم واستخدام القوة لجزمهم وردعهم . وقد صاحب هؤلاء عدد من الرجال الذين يجيدون اللسان اللاتينى ، للعمل على تسوية أى نزاع قد ينشب بين الفريقين .

عود إلى دوافع العدوان الصليبي :

... ولم يحدث أن سجل التاريخ مثل هذا الطوفان من الرجال والنساء . وكانت تدفع الصنوج والبسطاء الرغبة الحقيقية فى التعبد عند قبر السيد وزيارة الأماكن المقدسة . أما ذوو الفطنة والحيلة والدهاء ، وبخاصة شخص مثل بوهيمند ومن على شاكلته ، فكان يدفعهم غرض آخر خفى ألا وهو محاولة الاستيلاء على العاصمة (١) نفسها أثناء الرحلة ، كما لو كان هذا العمل أمرا مترتباً

(١) المتصود اللاتنطينية ، وقد كشفت الحملة الصليبية الرابعة عن أطماع اللاتين فيها .

على رحلتهم هذه . وقد أثار بوهيمند عقول كثير من النبلاء ، مدلا بذلك على حقه القديم على الامبراطور .

بطرس الناسك ومذبحه نيقية :

... .. وبعد أن قام بطرس الناسك بتبليغ رسالته ، عبر سهول لمبارديا قبل أى شخص آخر . واشترك معه ثمانون ألف من المشاة ومائة ألف من الفرسان (١) ، ووصل العاصمة عن طريق بلاد المجر . ويرى البعض أن الجيش الفرنجى يتميز بطبعه الحاد ، فضلا عن تهوره واندفاعه الشديدين . وعندما يتعصب لقضية أو لفكرة ما سرعان ما يفقد سيطرته على نفسه .

ولما كان الامبراطور يعلم ما سبق أن قاساه بطرس على أيدي الأتراك ، فقد نصحه بالانتظار ريثما يصل باقى النبلاء . ولكن بطرس لم يستمع إليه ، معتمدا في ذلك على تلك الجموع الغفيرة من أتباعه . لذا عبر المضيق (٢) وأقام معسكره بالقرب من مدينة صغيرة تسمى هلينبوبوليس . وتبعه النورمان البالغ عددهم عشرة آلاف ، ولكنهم انفصلوا عن باقى الجيش وأعملوا التخريب فى المدن المحيطة بمدينة نيقية . وكان مسلحهم ينم عن وحشية فاقت كل وصف . إذ قطعوا أطراف بعض الأطفال ، وثبثوا البعض الآخر على ألواح خشبية وقاموا بشيخهم على النار ، وأنزلوا شتى صنوف العذاب بالمقدمين فى السن . وعندما شاهد أهالى نيقية هذه التصرفات فتحروا أبواب مدينتهم واندفعوا نحوهم حيث اشتبكوا معهم فى معركة عنيفة قفلوا بعدها عائدين إلى قلاعهم بسبب ما أبداه النورمان من شجاعة فائقة أثناء القتال . وهكذا غنم الفرنج جميع الأسلاب ، وقفلوا

(١) هذا العدد مبالغ فيه إلى حد كبير . أنظر ماسبق ، ص ١٥٥ من هذا الكتاب .

(٢) البسفور .

عائدين إلى مدينة هليوبوليس . وكعادتهم دائما ، سرعان ما نشب النزاع بينهم وبين أولئك الذين لم يشتركوا معهم في المعركة . فقد اشتعلت قلوب الذين تخلفوا عن الذهاب حسدا وغيرة . وتسبب هذا في قيام حدام بين الفريقين انسحب بعده النورمان المشهورون بعنادهم . ثم زحفوا على مدينة تدعى كسريجوردوس واستولوا عليها .

وعندما علم السلطان [السلجوقي] بما حدث ، أرسل إليهم أحد رجاله ويدعى الخان Elchanes على رأس قوة كبيرة . وقد تمكن من استعادة المدينة ، وأعمل السيف في عدد من النورمان ، كما أسر البعض الآخر . ثم وضع الخطط الكفيلة باصطياد الذين تخلفوا مع بطرس الناسك . إذ نصب الكمان في مواقع مختلفة بقصد الإيقاع بالقادمين من المعسكر الفرنجي في اتجاه مدينة نيقية ، فيلقون بذلك حتفهم . ولما كان السلطان يعلم أن الفرنجة ، فضلا عما تقدم ، قوم جشعون محبون للمال ، فقد بعث في طلب اثنين من رجاله الأذكياء ، وأمرهما بالتوجه إلى معسكر بطرس وإطلاق إشاعة مفادها أن النورمان قد استولوا على نيقية وأنهم يقومون بتقسيم ما وجدوه بها [من غنائم وأسلاب] على أنفسهم . وعندما شاع هذا النبأ بين أتباع بطرس أزعجهم أيما إزعاج ، فقد كان لكلماتهم « التقسيم » و « المال » رنين غريب في آذانهم (١) . فاتجهت جموعهم في غير نظام إلى نيقية دون أي تقدير لمقدرة العسكرة ، ودون إعداد أنفسهم إعدادا سليما للمعركة ؛ وهذا أمر أساسي وبدهي بالنسبة لأولئك الذين يستعدون لخوض غمار معركة ما . فاللاتين - حسبنا أسلفنا - قوم محبون للمال ، وبصفة خاصة إذا كان الأمر يتعلق

(١) يلاحظ أن الأميرة البيزنطية تركز بشكل واضح على جشع اللاتين الغربيين ولهفتهم على اكتناز المال . وتتكرر هذه الفكرة في أكثر من موضع في كتابها .

بغزو مدينة ما . عندئذ يفقدون وعيهم وسيطرتهم على أنفسهم . وهكذا رحلوا دون ترتيب صفوفهم وإعداد فرقهم ، وكانت النتيجة أن وقعوا في السكاكن التي نصبها لهم الأتراك بالقرب من نهر درا كون ، وقفوا وهم في حالة يرثى لها . لقد ذهبت أعداد كبيرة من الفرنج والنورمان ضحية سيوف السلاجقة ، حتى أن الأتراك عندما كرموا جثث القتلى الملقاة على جانبي النهر لم تكون تلا كبيرا أو راية مرتفعة أو قبة عالية ، وإنما كونت جبلا شاهقا ذا غور واتساع شديدين . ولم بلغت ضخامة هذا الحرم المكون من عظام القتلى ...

وهكذا وقعوا جميعاً ضحية السيف ، ولم ينج منهم سوى بطرس ونقر قايل من أتباعه قفلوا عائدین إلى هلينبوبوليس . ونصب له الأتراك كينا جديدا بغية أسره . وعندما تلقى الامبراطور معلومات أكيدة بما حدث ، وبعد أن بلغه أمر تلك المذبحة الرهيبة ، خشي أن يكون بطرس قد وقع في الأسر . فاستدعى أحد رجاله ويدعى قسطنطين كتا كالون إيرفورينوس وزوده بقوة كبيرة أبحرت على ظهر سفن حربية عبر المضيق لإتقاذ بطرس . وما أن شاهد الأتراك حتى ولوا هاربين . وفي الحال انتشل قسطنطين بطرس وأتباعه الذين كانوا قلة ، وعاد بهم سالمين معافين إلى الامبراطور . وأخذ الامبراطور يذكره [أى بطرس] بطيشه واندفاعه وتهوره ، وأن الكوارث التي حلت به كانت بسبب هدم أخذه بنصيحته . ولكن بطرس ، ذلك اللاتيني الخبيث المتخطر ، لم يعترف أنه السبب فيما حدث ، وألقى اللوم على الآخرين متعللا بأنهم لم يستمعوا إليه ، بل انصاعوا وراء رغباتهم وشهواتهم . واتهمهم بأنهم لصوص ومخربون وأن السيد لن يسمح لهم بالسجود عند قبره المقدس .

بوهيمند النورماندى ودوافع الحركة الصليبية :

وقد وجد بعض اللاتين أمثال بوهيمند ومن هم على شاكلته ممن كانوا

يطعمون في الإمبراطورية الرومانية (١) ويريدون الاستيلاء عليها - أقول يوجد هؤلاء ذريعة يتعللون بها في تبشير بطرس الناسك بالرحلة حسب أسلفنا. وخذعوا بسطاء العقول، وتسببوا في قيام هذا الطوفان البشري الهائل، وباعوا ممتلكاتهم بحجة توجهم لتخليص القبر المقدس من قبضة الأتراك ...

هيو ج ده فيرماندوا يؤدي يمين التبعية بين يدي الامبراطور البيزنطي :

... وقد استقبله الامبراطور [البيزنطي] استقبالا حافلا ، معربا له عن صداقته ، ممدقا عليه الكثير من المال . وهكذا أقنعه بأن يصبح درجل الامبراطور ، ، وأن يؤدي له اليمين المألوف لدى اللاتين ...

جود فرى ده بويون دوق اللورين السفلى والكسيس كومنين :

... وحوالى ذلك الوقت قام جودفرى (٢) وبرفقته عدد كبير من النبلاء وجيش يتألف من عشرة آلاف من الفرسان وسبعين الفا من المشاة. ولما وصل العاصمة ترك جيشه بالقرب من مضيق البسفور ... وعندما استحثه الامبراطور لكي يعبر المضيق ، ترك الايام تمر تباعا ، وأخذ يماطل من جانبه في إجابته إلى طلبه متعللا بسبب أو بآخر . والحقيقة أنه كان ينتظر وصول بوهيمند وباقي النبلاء . وعلى الرغم من أن بطرس [الناسك] عندما قام بهذه الرحلة الكبيرة

(١) تعنى الامبراطورية الرومانية الشرقية أى الدولة البيزنطية .

(٢) وصف البرت دكس رحلة جودفرى إلى بيزنطة وصفا تفصيليا مسهبا في مؤلفه . أنظر :
Albert d'Aix, R.H.C.-H.Occ., IV, 299—305.

ويلاحظ أن المصادر الاغريقية لم تتعرض لهذه الرحلة . وفيما يتعلق بموقف دوق اللورين من الكسيس كومنين ، يعتبر مؤلف كل من آن كومنين والبرت دكس أوفى ما جاء بهذا الخصوص - أنظر : Albert d'Aix, 305—311 . ويذكر شالندون في كتابه « تاريخ الحملة الصليبية الأولى » أن رواية الكاتبة البيزنطية تفضل رواية البرت دكس ، كما أنها أكثر إقناعا ، ويمكن قبلها بصرف النظر عن مبالغتها في وصف قوة جيش جودفرى . أنظر :

F. Chalandon, Hist. de la Première Croisade, 119 sqq.

إنما كان يستهدف زيارة القبر المقدس ، إلا أن باقى النبلاء ، وعلى رأسهم بوهيمند الذى كان يحقد على الامبراطور ، كانوا يتحينون الفرصة للانتقام منه بسبب ذلك النصر الباهر الذى سبق أن أحرزه ضد بوهيمند فى القتال الذى دار بينهما عند مدينة لاريسا . وقد وافق باقى النبلاء على الخطة التى رسمها بوهيمند . ولما كانت الآمال تداعبهم فى الاستيلاء على العاصمة ، فقد استقر رأيهم على التظاهر بأن هدف رحلتهم هو البيت المقدس ، بينما كانوا يسعون فى الواقع إلى خلع الامبراطور والاستيلاء على العاصمة ...

... وفى اليوم التالى توجه هيوغ إلى جودفرى ناصحا إياه بالإذعان لرغبة الامبراطور حتى لا يتعرض لتجربة ثانية يلقنه فيها الامبراطور درسا فى مدى قدرته العسكرية . وأشار عليه بأن يؤدى بين يديه يمين الولاء . ولكن جودفرى عنفه بشدة قائلا : « أنت يا من قدمت من بلدك باعتبارك سيدا تملك ثروة هائلة وجيشا كبيرا ، أدراك الآن تنزل بنفسك من هذه المكاة السامية التى تتمتع بها إلى مصاف العبيد والاقنان . والآن . . أنتصحنى أن أفعل نفس الشيء الذى فعلته أنت ، كما لو كنت قد أحرزت كسبا عظيما ؟ ، فأجابه الآخر قائلا : « كان يجب علينا ، إذن ، أن نبقى فى ديارنا ، وألا نتدخل فى شئون غيرنا الخارجية . ولكن طالما بلغ بنا الأمر هذا الحد ، فقد أمسينا فى أشد الحاجة إلى حماية الامبراطور لنا . وسوف تتطور الأمور فى غير صالحنا إذا لم نرضخ لمطالبه . . ولكن جودفرى صرف هيوغ دون أن يصل الاثنان إلى نتيجة ما ، هذا ، فى الوقت الذى بلغ فيه الامبراطور قرب وصول النبلاء [اللاتين] . فأنفذ عددا من قواده على رأس قواتهم ، وأوصاهم بمعاودة إسداء النصيح لجودفرى بعبور المضيق ، مع إجباره على عبوره إذا استلزم الأمر ذلك . وما أن أبصر اللاتين أولئك القوم حتى استعدوا للحرب والقتال فى دعوة ودون أن يترشوا

دقيقة واحدة أو يستفسروا منهم عن حقيقة مهمتهم. ونشبت معركة حامية بين الفريقين سقط فيها عدد كبير منهما... وقد تراجع اللاتين أمام الشجاعة التي أبدتها القوات الامبراطورية أثناء القتال. وكان من أثر ذلك أن بادد جودفرى بالإذعان لمطالب الامبراطور. فتوجه إليه حيث حلف اليمين الذي طلب منه، وفحواه أنه يجب عليه المبادرة بإعادة جميع المدن والبلدان والقلاع التي يستولى عليها، والتي كانت فيما مضى في حوزة الامبراطورية الرومانية، إلى المنتوب الذي سيوفده الامبراطور لهذا الغرض. وبعد أن أدى القسم أغدق عليه الامبراطور مبالغ طائلة، ثم دعاه إلى قصره وأقام له وليمة فاخرة. وبعد ذلك عبر جودفرى المضيق حيث عسكر بالقرب من مدينة بلكان (١). حينئذ أصدر الامبراطور تعليماته بإمدادهم بكميات وافرة من المؤن والأقوات...

نبلاء الفرنج يؤدون يمين التبعية والاخلاص للامبراطور :

... وقدمت بعده جموع أخرى غفيرة تنتمي إلى أجناس مختلفة، وقد تجمعت من كافة المدن الفرنجية ومعها قادتها وملوكها (٢)، فضلا عن الدوقات

(١) موقع مدينة بلكان غير معروف على وجه التحديد. ويذكر Leib في طبيعته لكتاب الألكسيا أنها تقع على بعد حوالي ١٦ ميلا غربى ليقوميديا. بينما يقول راسمى Ramsay في مؤلفه المسمى « جغرافية آسيا الصغرى التاريخية »، إنها تقع بالقرب من مدينة خاقيدونية. ويتضح مما أوردته آن في كتابها أنها قرية من معبر النهر المؤدى إلى قلعة كيفيتوت، وأنها في موقع يجعلها على صلة بالعاصمة البيزنطية. هذا، ووفقا لرواية الكاتبة الاغريقية، استقبل الكسيس الصليبيين بعد سقوط مدينة نيقية في مدينة بلكان. فيما يتعلق بهذه الآراء، وللمزيد من التفاصيل حول موقع بلكان، أنظر :

Runciman, Crusades, I, 152 n. 1.

أنظر أيضاً موقع المدينة على الخريطة رقم ١ ص ١٦٣ من هذا الكتاب.

(٢) المعروف أن الحملة الصليبية الأولى هي الحملة الوحيدة التي لم يترجمها ملوك بسبب ظروف الغرب الأوروبي وقتها، التي حالت بين ملوك الغرب وبين الاشتراك فيها. أنظر ص ١٧٦—١٧٧ من هذا الكتاب.

والكائنات والأساقفة . وأرسل الامبراطور رجالا من قبله لاستقبالهم استقبالا حسنا ، وقد طلب منهم أن يعدروهم بتقديم مساعدات مناسبة لهم . والحقيقة أن الامبراطور كان ماهرا في إعداد نفسه لكافة الاحتمالات ، وفي سرعة التصرف في الوقت المناسب . فأصدر تعليماته إلى عدد من الرجال الذين هينهم لهذا الغرض بإمدادهم بالمؤن والأقوات خلال رحلتهم ، حتى لا يجحدوا ذريعة يتنرعون بها للاحتكاك به . وذهب الصليبيون مسرعين نحو العاصمة . ويمكن تشبيههم بنجوم السماء والرمال المكدمسة عند شاطئ البحر . فقد كان عدد هؤلاء الرجال الذين أسرعوا صوب القسطنطينية - حسبما يقول هوميروس - مثل أوراق الشجر والأزهار في فصل الربيع . وليس بوسمى سرد أسماء القادة وإن كنت أود ذلك ، إذ سيعجز بياني بسبب عدم استطاعتي نطق هذه الأسماء الغريبة التي يصعب لفظها . (١) هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب كثرتهم العديدة...

وكان الامبراطور شديد الرغبة في أن يؤدوا له نفس البمين الذي أداه جودفري . ولهذا دعاهم فرادى ، وأخذ يتحدث إلى كل منهم حديثا خاصا أوضح فيه رغباته ومطالبه . واستخدم ذوى التعقل منهم ليقوموا بدور الوسطاء بينه وبين العنيدين . ولكنهم رفضوا إجابته إلى طلبه ، إذ كانوا يتوقعون وصول بوهيمند . وتعللوا بأسباب عديدة للتخلص منه ، كأن يتقدموا دون اقتطاع بمطالب جديدة لا أول لها ولا آخر . وأدرك الامبراطور لأول وهلة ما يرمون إليه من وراء أهدارهم الواهية ، وأجبرهم على حلف نفس البمين الذي سبق أن أداه جودفري مستخدما كافة الوسائل لتحقيق بغيته . ثم أرسل

(١) حول عدم معرفة أن كومنين أسماء الفرنجة ، أنظر :

Runciman, op. cit., I, 153 n. 1.

في طلب جودفرى من مدينة بلكان الواقعة فيما وراء البحر حتى يكون متواجدا عند أداء اليمين . وهكذا اجتمعوا كلهم ومعهم جودفرى .

وبعد أن أقسموا جميعا اليمين المطلوب ، تقدم أحد النبلاء المغامرين وجلس على العرش . ولكن الامبراطور تظاهر بعدم رؤيته ولم ينبس بكلمة واحدة ، إذ كان يعلم أن اللاتين قوم متغطرسون متكبرون . حينئذ تقدم من هذا الشخص الكونت بلدوين وجذبه من يده ، ثم سحبه من مكانه وأخذ يوجهه بعنف قائلا : « لقد أخطأت يا قدامك على مثل هذا التصرف هنا ، وبخاصة بعد أن أدبت اليمين للامبراطور . إذ ليس من عادة أباطرة الرومان السماح لرعاياهم بالجلوس إلى جانبهم على العرش . ويجب على أولئك الذين يصبحون أتباعا مخلصين لجلالته ، مراعاة تقاليد البلاد وعاداتها . ولم يرد الكونت على بلدوين ، ولكنه أخذ يتطلع إلى الامبراطور في حدة ، ثم تتم بضع كلمات بلغة بلاده قائلا : « ألا فانظروا ! ها كم مخلوقا يبقى جالسا بينما كل هؤلاء القادة العظام واقفون من حوله . » ولم تغب عن الامبراطور تمتمة هذا اللاتينى ، فاستدعى أحد الترجمة عن يجيدون هذه اللغة مستفسرا منه عن مضمون أقواله . ولما عرف فحواها لم يقل شيئا لهذا اللاتينى فترة من الوقت محتفظا في دخيلة نفسه بما يريد قوله . وعندما استأذن النبلاء من الامبراطور فى الانصراف ، استدعى إليه هذا اللاتينى المتغطرس الجرىء وأخذ يستفسر منه عن يكون ومن أى بلد قدم وإلى أى نسب ينتمى . فأجابه قائلا . « إني فرنجى هريق فى النبل . وكل ما أعرفه أنه يوجد هيكل قديم عند مفارق المدينة التى قدمت منها ، يلتقى عنده كل من يرغب النزال فى معركة فردية . وهناك يلتمس الفرد منا العون من الله فى

انتظار الشخص الذى سيطلبه للزوال . وكثيرا ما أقمت فى هذا المكان أترقب الخصم الذى سوف أبارزه ، ولكن أحدا لم يجرؤ على التقدم لى المنازلة . ، حينئذ قال الامبراطور ردا عليه : ، إن لم تكن قد عثرت على من تقايله عندما كنت تسعى حثيثا إلى ذلك ، فقد حان الوقت الذى يمكنك فيه أن تشبع رغبتك فى القتال . ولكنى أنصحك بشدة ألا تبقى فى مؤخرة الجيش وألا تصدر مقدمة الصفوف . وليكن مكانك فى قلب الجيش نظرا لخبرتي الطويلة ، ومعرفتي بوسائل الأتراك وأساليبهم فى الحرب والقتال . ، ولم يكتف الامبراطور بتوجيه هذه النصيحة إليه فحسب ، بل سبق له أن حذر الآخرين بما سوف يحدث خلال الرحلة ، مشيرا عليهم بعدم تعقب الأتراك بعيدا إذا ما هيا الله لهم النصر عليهم ، حتى لا يذهبوا ضحية الكمائن التى ينصبونها لهم .

بوهيمند النورماندى فى القسطنطينية :

وعندما بلغ بوهيمند وغيره من النبلاء ايروس ، أوضح أنه لا ينحدر من أصل عريق ، وأنه لا يصطحب معه قوة كبيرة بسبب فقره ، وأن كل ما يعنيه هو كسب ود الامبراطور . هذا ، فى الوقت الذى أخفى فيه مشاريعه ضده . وهكذا ترك وراءه باقى النبلاء ، وتوجه مسرعا صوب العاصمة فى صحبة عشرة من الفرنج . ولما كان الامبراطور يعلم الكثير عن دسائس بوهيمند وغدره ، فقد أبدى رغبته فى التحدث إليه قبل وصول باقى النبلاء ، والاستماع إلى ما يريد قوله ، مع إقناعه بالعبور إلى آسيا [الصغرى] قبل وصول الآخرين حتى لا ينضم إليهم ويؤثر عليهم . وعندما دخل بوهيمند على الامبراطور ، قابله الأخير مبتسما مرحبا بحيا ، ثم سأله عن رحلته والمسكان الذى ترك فيه باقى

النبلاء . وكان بوهيمند صريحا واضحا في إجابته على تلك الأسئلة . وعندئذ أخذ الامبراطور يذكره مازحا بتصرفاته السابقة في مدينة دوراخيوم وعدائه القديم له ، فأجابه الأخير قائلا : « على الرغم من أننى كنت وقتذاك خصمك وعدوك ، فقد قدمت الآن بمحض إرادتى كصديق لجلالتك . » وتحدث إليه الامبراطور في أمور شتى ، مستطلما نواياه حياله . ولما أدرك أنه لن يتردد في أداء يمين الاخلاص صرفه قائلا : « لا بد أنك متعب من رحلتك ، ويحسن بك أن تذهب لتتال قسطا من الراحة . ويمكننا التحدث غدا في كل ما يعيننا من أمور . . . » .

لقد اشتهر الامبراطور بقدرته التى تدعو إلى الإعجاب في الحكم على أى شخص ، وفي الغوص إلى قرارة نفسه وكشف خبيثة نواياه . وقد كان على حق في موقفه منه ، لعله بما كانت تنطوى عليه نفسه من حقد وخبث ودهاء . . .

وفي اليوم التالى استدعى الامبراطور بوهيمند وطلب منه أداء اليمين المألوف لدى اللاتين . وسرعان ما استجاب له ، (١) وهو مدرك لظروفه . فهو لا ينحدر من أصل عريق ، ولم يكن لديه المال الوفير ، كما لم تكن تحت إمرته القوات الكافية ، بل قليل من الاتباع الفرنج . ثم أنه كان على استعداد طبيعى لحنث قسمه وتقض عهده . وبعد ذلك اختار الامبراطور إحدى الغرف في قصره وفرش أرضيتها بكل أنواع النفائس وهكذا ملاء الغرفة بالارديّة

(١) جدير بالذكر أن المؤرخ اللاتينى البرت دكس هو الوحيد الذى ذكر أن بوهيمند أدى القسم المطلوب دون رغبة منه وذلك على عكس ما جاء في المصادر الأخرى . انظر : Albert d'Aix, R.H.C.—H. Occ., IV, 312. ويبدو مما أكدته آن كومنين وما جاء في باقى المصادر اللاتينية ، ومن سياق الأحداث وتتابعا ، أن ما جاء بكتاب دكس غير صحيح . انظر ص ١٩٨ و ٢٠٣ من هذا الكتاب .

والذهب والفضة وغير ذلك من التحف التي لا تقل عنها قيمة ، حتى أنه كان يتعذر على المرء السير فيها لكثرة ما بها . وطالب الرجال الذين كلفهم بتقديم هذه الأشياء إلى بوهيمند ، بفتح أبواب الغرفة أمامه فجأة (١) . وقد اعترت بوهيمند الدهشة عند مرأى هذه النفائس ، وتعجب قائلا . « لو كنت أملك كل هذه الكنوز لأصبحت منذ زمن بعيد سيذا على كثير من البلاد ، فأجابه التابع قائلا : « إن الامبراطور يهديك كل هذه النفائس . » وقد سر بوهيمند لذلك . وبعد أن شكر الساعي على الهدايا ذهب ليستريح في المنزل الذي أعد له . ولكن هذا الرجل الذي سبق أن أبدى إعجابه بهذه الكنوز ، سرعان ما غير رأيه عندما أرسلت إليه ، وقال لمن أحضروا الهدايا : « لم أكن أتصور أن يلحق بي الامبراطور مثل هذا العار ! خذوا هذه الأشياء وأعيدوها إلى ذاك الذي أرسلها . » ولما كان الامبراطور يعرف أن اللاتين قوم متقلبون لا يثبتون على رأى ولا يقفون على حال ، فقد تشبه بالمثل الشعبي المعروف « دع المكروه يحقق بأهله . » ولكن لما أبصر بوهيمند الجمالين وهم يحزمون الهدايا التي كان قد رفضها مستاء منذ دقيقة مضت ، سرعان ما عدل عن رأيه وابتسم في وجه الجمالين ، كما تغير الحرباء لونها في لحظات . فقد كان في طباعه خبث ولؤم ، كما كان على استعداد لتكليف نفسه وفقا لكافة الاحتمالات . إذ فاق جميع اللاتين الذين قدموا حتى الآن جرأة وخداعا ، وإن كان دونهم عدة ومالا .

... وهكذا نجد أن هذا الرجل الذي رفض الهدايا بادية ذى بدء ، يقبلها بعد ذلك بسرور عظيم . فكان مما يحز في نفسه أنه ترك بلاده وهو خالي الوفاض لا يملك من حطام الدنيا شيئا ، وقد تظاهر بالرغبة في زيارة القبر المقدس وإن

(١) لأنه كان يريد اختبار الأمير الثورماندى ومعرفة حقيقة نواياه حياله .

كان في قرارة نفسه يسمى جاهدا لتأسيس مملكة له ، والسير على منهاج أبيه ، (١) باغتصاب الامبراطورية الرومانية نفسها إن استطاع إلى ذلك سبيلا ...

لقد بذل الامبراطور قسارى جهده ليحول دون وجود ما من شأنه أن يساعد هذا الأمير على تحقيق خطته ومشاريعه الخفية، وهو يعلم جيدا أن بوهيمند وجل سبيء الطباع والخصال . ولهذا السبب لم يظفر بوهيمند بأمنيته عندما طلب من الامبراطور أن يمنحه وظيفة و عادم الشرق الأكبر . فقد خشي الامبراطور أن يأخذ بوهيمند باقي النبلاء أسرى إذا دانت له الفرصة ، ثم يجبرهم على تنفيذ ما يريد . ثم أنه كان يهمة ألا تساور بوهيمند الشكوك في أنه واقع تحت رقابة مستترة . وأخذ يراوغه ويمنيه بالآمال العذبة قائلا : ولم يحن الوقت بعد لتحقيق هذه الرغبات . ولكنك ستفوز بما تتوق إليه نفسك بفضل نشاطك ومسلكتك وإخلاصك أولا وقبل كل شيء . .

وبعد أن انتهى الحديث ، أحاط الامبراطور الفرنج بمظاهر الشرف والاحترام ، وغمرهم بالهدايا والمال . وأخذ يتحدث إليهم موجه النصح لهم فيما يتعلق بالصعاب التي ستصادفهم في الطريق . كذلك زودهم بتوجيهاته ، وأحاطهم علما بأسلوب الأتراك في الحرب والقتال . وأوضح لهم كيف ينظمون قواتهم ويرتبون صفوفهم ، كما أشار عليهم بعدم التماذى في تعقب الأتراك بعيدا عندما يفرون أمامهم . وبعد أن خفف من غلوائهم وهذا من حدة طباعهم بما أغدقه عليهم من مال ومازودهم به من إرشادات ، اقترح عليهم عبور البسفور إلى آسيا [الصغرى] ...

(١) روبرت جويسكار صاحب الأطلاع المعروفة في الدولة البيزنطية . وللمزيد من المعلومات عن الحرب النورمانية بين جويسكار والكسيس كومنين ، انظر :

ريمون ده سان جيل والسكيس كومنين :

وكان الامبراطور يود كونت سان جيل (١) بصفة خاصة لحكمته الفاتحة وإخلاصه الحقيقي وتقائه سريره . وقد اعترف بأنه ما كان ليضع شيئاً فوق الحق ، وأنه يمزج جميع اللاتين كما تبرز الشمس نجوم السماء . ولهذا السبب أبقاه إلى جانبه بعض الوقت . وقد استأذن جميع النبلاء في الانصراف ، وعبروا مضيق البسفور حتى بلغوا مدينة دماليوم . وحينئذ تنفس الامبراطور الصعداء ، نظرا للاضطرابات التي تسببوا في حدوثها . وكثيرا ما كان يبعث في طلب سان جيل ليوضح له ما يتوقع أن يحدث لللاتين خلال الطريق . كذلك كشف له عن شكوكه وارتياحه في نوايا الفرنج . وكثيرا ما ردد هذه الأقوال على مسامعه ، كما فتح له مغاليق نفسه . وبعد أن أوضح له كل الأمور ، طلب إليه مراقبة بوهيمند وكبح جماحه إذا ما حنت بقسمه ، مع العمل على إحباط مشاريعه وخططه بكل الطرق والوسائل . وأجابه سان جيل قائلا : ولقد ورث بوهيمند الغدر ونكث العهد عن آباءه وأجداده ، وستكون معجزة حقا إذا بر بقسمه . وعلى أية حال ، سأبذل قصارى جهدي لتنفيذ أوامرك . وبعد أن استودع الامبراطور ، ذهب ليلحق بالجيش الفرنجي ...

الاستيلاء على نيقية :

... وكان الامبراطور يود الاشتراك مع الفرنج في قتال الأتراك ، لكن أعدادهم الصغيرة كانت مصدر قلق وفزع بالنسبة له . ورأى أنه من الأفضل التوجه

(١) أشار إلى رحلة ريمون إلى القسطنطينية بتفصيل واسهاب مؤرخ حملته ريمون داجيل . وتكشف روايته عن حقد ومهارة زائدين من جانب اللاتين ضد البيزنطيين . أنظر :
Raimond d'Agiles, R.H.C.—H. Occ., III, 235—8.

إلى مدينة بلكان القريبة من مدينة نيقية ، والانتظار بها حتى يكون على علم بمجريات الأمور والأحوال أولا بأول كما أدرك بثاقب نظره أنها ستكون ضربة قاسية إذا أخفق في إحراز نصر عسكري . وكان يود الاستيلاء على نيقية دون مساعدة من جانب الفرنج إذا ما واثته الفرصة لتحقيق هذا الغرض ، وذلك حتى لا يتسللها من الفرنج بموجب تعهداتهم له . ولكنه أخفى خطته على الكتان ، وأرسل أحد خواصه ممن يثق فيهم ويدعى بوتومايت Butumites في محاولة هدفها الاستيلاء على نيقية ، وهي أن يعد أهلها بالأمان وأن يعمل في نفس الوقت على إثارة مخاوفهم ضد الفرنج مما سوف يقاسونه على أيديهم إذا وقعت المدينة في قبضتهم ...

الملحق الرابع

مقتطفات من خطاب الكونت اتين
صاحب شارتر وبلوا الذى بعث به من
الشرق الى زوجته الكونتيسة أديل في
الغرب الاوروبى . (حرر من معسكر
الجيش الصليبي بالقرب من مدينة نيقية
في ٢٤ يونيو سنة ١٠٩٧) (١) .

من الكونت اتين إلى حبيبته وزوجته الكونتيسة أديل . . . وصلت محمد
الله وسلامته إلى مدينة القسطنطينية ، وكان فرحى زائدا وسرورى عظيما . ولقد
أحسن الامبراطور (٢) استقبالي وأكرم وفادتي ، وعاملني كما لو كنت ابنا له . كما
أغدق على الكثير من الهدايا النفيسة . كذلك كنت موضع ثقة الامبراطور
ومحبته أكثر من أى شخص آخر في جيش الله ، سواء أكان ذلك الشخص دوقا
أم كونتا أم أحد العظام . لقد ألح على جلالته ، وما زال يلح ، يا عزيزتي ، على أن
يكفل أحد أبنائنا وأن يتبناه . . .

حقا لا يوجد تحت قبة السماء من هو أعظم منه . فقد غمر جميع رؤسائنا
بالمناح والهدايا ، وكذلك فعل مع كل فرساننا ، كما أطعم جميع الفقراء . ويوجد
على مقربة من مدينة نيقية قلعة تسمى كيفيتوت ، وبالقرب منها مضيق بحري

(١) هذه هي الترجمة العربية للنص اللاتيني للخطاب الذى نشره هاجينماير . أنظر :

Epistula I Stephani comitis carnotensis ad Adelem uxorem
suam (Scripta e castris prope Nicaeam a 1097 ca 24 diem junii),
ed. H. Hagenmeyer, Epistolae et chartae ad historiam primi
belli spectantes, Heidelberg, 1901 (pp. 138-140).

(٢) يقصد الكسبيس كومنين .

تبحر فيه ليل نهار سفن الامبراطور المتجهة صوب القسطنطينية . وتقوم هذه السفن بنقل الطعام والمؤن من العاصمة إلى كيفيتوت حيث توزع على الجموع الغفيرة هناك . ولا أعتقد أنه يوجد في زماننا هذا رئيس أو زعيم له مثل شخصية الامبراطور وصيته الذائع . إن أباك في الحقيقة ، يا عزيزي ، غمرنا بكثير من الهدايا الثمينة ، ولكن ذلك لا يقاس بالنسبة لما أضفاه علينا الامبراطور...

الملحق الخامس

ثلاثة نصوص من كتاب المؤرخ المجهول
عن الحملة الصليبية الأولى (١).

النص الأول

رحيل بطرس الناسك وقناء جيشه بالقرب من نيقية (٢)

كان بطرس سالف الذكر ومن معه من الألمان هم أول من وصلوا إلى القسطنطينية، وكان ذلك في الأول من أغسطس سنة ١٠٩٦. فوجد هناك جماعات من اللبارديين والنجوبارديين، فضلا عن كثيرين غيرهم. وقد أمر الامبراطور بتزويدهم بالموثن بالقدر الذي تسمح به أحوال العاصمة، وقال مخاطبا إليهم: «لا تعبروا المضيق (٣)، وانتظروا ريثما تصل الجيوش المسيحية الأخرى، لأنكم قلة في العدد، وليس بوسعكم منازلة الأتراك». وقد سلك هؤلاء المسيحيون مسلكا شائئا، إذ حطموا قصور المدينة وأشعلوا فيها النيران. كما انتزعوا طبقات القصدير التي كانت تغطي واجهات الكنائس وباعوها لليونانيين (٤). ولهذا الأسباب غضب الامبراطور، وأمرهم بعبور البسفور. ولكنهم لم يكفوا

(١) هذه هي الترجمة العربية للنصوص اللاتينية الثلاثة المأخوذة من كتاب المؤرخ المجهول قلا عن طبعة هاجنماير. أنظر: Hagenmeyer, H. (ed.), *Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum*, Vol. I, Heidelberg, 1889.

(٢) أنظر الفصل الثاني من كتاب المؤرخ المجهول، ص ١٠٩ وما بعدها. وقارن بين رواية كل من المؤرخ المجهول وآن كومنين في هذا الشأن. أنظر الملحق الثالث في هذا الكتاب.

(٣) المقصود البسفور.

(٤) أي البيزنطيون.

بعد أن اجتازوا هذا المضيق عن ارتكاب الآثام والفظائع ، كما أعمالوا السلب والنهب في المنازل والكنائس ...

وقد استبد الفرع بالامبراطور عندما علم أن الأتراك هزموا قوات بطرس الناسك . ولكنه أرسل إليهم وممكنهم من عبور البسفور ، وأمر بنزع سلاحهم حتى يأمن شرهم ...

النص الثاني

جودفرى دوق اللورين السفلى وجيشه في القسطنطينية (١)

وفي ٢٣ ديسمبر من سنة ١٠٩٦ وصلت إلى القسطنطينية أول جيوش الصليبيين بقيادة الدوق جودفرى الذى كان أكثر زعماء الصليبيين صيتا وشهرة . وأنزل الدوق عند وصوله خارج العاصمة إلى أن أمر الامبراطور الخبيث باستضافته في ضواحيها . وبعد أن استقر الدوق في هذا المكان ، أخذ يرسل حاملى دروعه كل يوم لتزويد الخيل بما يلزمها من القش دون أن يخشى عليهم شرا . وقد اعتقد جودفرى ورجاله أن بوسعهم التنقل كيفما شاءوا دون أن يتعرض لهم أحد بسوء . ولكن الامبراطور الكسيس ، بما عرف عنه من خبت ودهاء ، عمل على أن يقضوا الليل خارج المدينة . ثم أمر رجاله من التركوبول والبشنج (٢) بمهاجمتهم والقضاء عليهم . ولما علم بلدوين أخو الدوق بذلك ، كمن لهم حتى عثر على الذين قتلوا رجاله ، فهاجمهم بشجاعة فائقة ،

(١) أنظر الفصل الثالث من كتاب المؤرخ المجهول ، ص ١٤٠ وما بعدها . (طبعة هاجينباير) .

(٢) يطلق عليهم المؤرخ المجهول لفظ *Turcopolis* و *Pincinatis* . وفيما يتعلق بهذين العنصرين أنظر ص ١٢٨ ح ٢٠١ من هذا الكتاب .

وتمكن بمعوة الله من التغلب عليهم . وقد أسر ستين شخصا منهم ، وقتل البعض وأرسل البعض الآخر إلى أخيه الدوق . وعندما علم الامبراطور بما حدث غضب غضبا شديدا . أما الدوق وجيشه فقد غادروا الضاحية التي كانوا نازلين بها ، وأقاموا خارج المدينة . ولما أقبل المساء أمر الامبراطور جيشه بالهجوم على الدوق ورجاله . وتمكن الدوق من إحراز النصر ، ثم قام بتتبع الأعداء وقتل سبعة منهم ، ولاحق البعض الآخر حتى أحد أبواب العاصمة . وبعد ذلك رجع الدوق إلى معسكره حيث أقام فيه خمسة أيام . وأخيرا عقد اتفاقا مع الامبراطور الذي طلب إليه أن يعبر البسفور متمهدا بإمداده بكل ما يلزمه من المؤن والأقوات . كما وعد بتوزيع الصدقات على الفقراء والمعوزين منهم . . .

النص الثالث

زهراء الفرنج يؤدون يمين التبعية والولاء بين يدي الكسيس^(١)

عندما علم الامبراطور بوصول بوهيمند النبيل أمر باستقباله استقبالا لائقا وإضافته خارج المدينة . وبعد ذلك أرسل الامبراطور الخبيث^(٢) في طلبه سرا للتحدث إليه . وقد شهد هذا الاجتماع الدوق جودفري وأخوه . وبعد ذلك أخذ الكونت سان جيل يقترب من العاصمة . لذا فكر الامبراطور

(١) أنظر الفصل السادس من كتاب المؤرخ المجهول ، ص ١٦٨ وما بعدها . (طبعة هاجينباير) . تارن بين رواية كل من المجهول ومؤلفة الألكسياد حول هذا اليمين . أنظر عن ذلك الملحق الثالث في هذا الكتاب .

(٢) يلاحظ أن المؤرخ المجهول عندما يتحدث عن الامبراطور البيزنطي يصفه في معظم الأحيان بالامبراطور الخبيث *malignus imperator* والامبراطور الذي اشتهر بالحبث والدهاء *imperator Alexius sagaciter facibat eos excubare* — أنظر ص ١٤٠ و ١٦٨ من كتاب المجهول (طبعة هاجينباير) .

— وقد استبد به الحق والغیظ — فی وسیلة کلمات خبث ودهاء تمکنه من التغلب علی فرسان المسيح . ولم یجسد الامبراطور أوجاله ، بفضل العناية الالهية ، أیة وسیلة لإلحاق الأذى برجالنا . وأخیرا عقد اجتماع حضره جمیع كبار رجال الدولة الذین كانوا فی القسطنطينية فی ذلك الوقت . وخشية أن یفقدوا بلادهم ، فقد وضعوا الخطط البارعة والمشاریع الخبیثة اسکی یحملوا قوادنا وزعماءنا وكبار رجالنا علی أداء یمین التبعية للامبراطور . ولكنهم رفضوا رفضا باتا وقالوا : « إن هذه لمذلة لنا . ویلوح أنه لیس من العدالة فی شیء أن نؤدی له یمین الولاء مهما كانت الظروف . » ولكن قد یخیب زعمائنا آمالنا فیهم (١) . ثم ماذا هم فاعلون فی نهاية الأمر ؟ سيقولون إن الضرورة الملحة اضطرتهم إلی النزول علی رغبة الامبراطور الخبیث سواء قبلوا أم کرهوا (٢) . وقال الامبراطور لبوهیمنند الشجاع — وكان یخافه أشد الخوف لأنه سبق أن ألحق به وبجيشه الهزيمة أكثر من مرة فی ساحة القتال (٣) — قال له إنه إذا حلف الیمین برضائه ، فإنه [أی الامبراطور] سیمنحه أرضا فی منطقة انطاكية طولها خمسة عشر یوما وعرضها ثمانية أيام . وقد أقسم الامبراطور لبوهیمنند بأنه إذا حافظ علی یمینه ، فإنه من ناحيته لن یخل بتعهداته له . ولكن ، لماذا أقدم فرساننا الذین لم تكن تنقصهم القوة والشجاعة علی هذا العمل ؟ لاشك أن الضرورة القاسية قد اضطرتهم إلی ذلك . . .

(١) أی إذا رضخوا للامبراطور وأذعنوا لمطالبه .

(٢) یحاول المجهول التماس الأهدار لبني جلدته بسبب رضوخهم لرغبة الامبراطور الیزنطی وأدائهم الیمین المطلوب .

(٣) یقصد بذلك الحروب النورمانية ضد بیزنطة فی البلقان فی عهد روبرت جویسکار وابنه بوهیمنند فیما بین عامی ١٠٨١ و ١٠٨٥ . أظن ماسبق ، ص ٧٩ و ١٢٠ و ١٢٥ و ١٣٦ و ١٤٤ من هذا الكتاب .

هذا ، وقد وعد الامبراطور جميع رجالنا أمنا وسلاما . كما أقسم بمراقبتنا على رأس جيشه برا وبحرا . وتعهد أيضا بإمدادنا بالمؤن عن طريق البر والبحر ، وبتعويض كل خسائرنا بسرعة . كذلك أقسم بأنه لا يرغب ولن يسمح لأحد بأن يتعرض لحجاجنا بسوء أو يلحق بهم الأذى وهم في طريقهم إلى القبر المقدس . أما كونت سان جيل فقد ترك جيشه وأقام في ضاحية تقع خارج العاصمة . وطلب منه الامبراطور أداء يمين التبعية والولاء أسوة بما فعله الآخرون . وفي تلك الأثناء كان الكونت يدبر حيلة للانتقام من جيش الامبراطور . وقد قال له الدوق جودفري وروبرت أمير الأراضي الواطئة وباقي الزعماء ، إنه لمن العار أن يقاتل المسيحيون بعضهم بعضا . كما أخبره بوهيمند الحكيم أنه في حل من أن ينضم إلى صف الامبراطور إذا أراد الكونت به شرا أو حاول التعرض لمن يريد أداء اليمين له . وعلى ذلك قبل الكونت نصيحة قومه ، وأقسم بالمحافظة على حياة الامبراطور وشرفه ؛ وقال إنه لن يسمح لنفسه أو لغيره بالتعرض له . وحينما طلب منه أداء يمين التبعية أجاب بالرفض ولو دفع حياته ثمنا لذلك . وفي تلك الآونة اقترب جيش بوهيمند العظيم من القسطنطينية ...

الملحق السادس

مقتطفات من قصيدة الشاعر الفرنسي
وليم رتيف في التنديد بالفكرة الصليبية. (١)

في طجة ساخرة تهكية لاذعة ، يوجه الشاعر حديثه إلى البابا والجهاز
الكنسى وإلى أهل الغرب بعامه . يقول :

لقد أصبح بوسع أى فرد الاتصال بالله وهو آمن مطمئن في هذه البلاد دون
المخاطرة بحياته .. وأرى أن الشخص الذى يضع نفسه تحته رحمة الآخرين هو
أحق غي ، طالما كان بوسعه الحصول على رضا الله وهو في وطنه ..

لم أخطئ بقولى هذا ، ولم يتذمر منى أحد .. إنى أذهب إلى فراشى مبكراً ،
وأنام هنيئاً مليء جفوني ، وأكن لأصدقائى ومعارفى الحب والود .. وبودى
أن أعيش بين ظهرانىهم ، فأحصل على المتعة والعزاء ..

ألا فاجبروا سيدكم السلطان (٢) أنه لاتعنى تهديداته .. وستكون العاقبة
أسوأ إذا حل بأرضنا .. ولكنى لن أتعبه خارج ديارنا ..

فليتعظ الأمراء المتوجون ، والأساقفة ، ورؤساؤهم العظام .. وليمحو
الكهنة والأساقفة العار الذى لحق بالله .. فهو الذى يهبهم أرزاقهم .. ولديهم

(١) القصيدة بالفرنسية القديمة وعنوانها Rutebeuf, La desputizons dou croisié et dou descroisié. A. Kressner, Rutebeuf قام بنشرها Gedichte, Wolfenbüttel, 1885. ولدت رجت القصيدة إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، وهذه الترجمة العربية نقلا من كتاب : G. Masson, Mediaeval France from the Reign of Hugues Capet to the Beginning of the Sixteenth Century, London, 1888 (pp. 96-7).

(٢) يقصد حاكم مصر .

الشيء الوفير من الطعام والشراب .. فإذا أمكنهم الاتصال بالله عن هذا السبيل ،

فن الحماة الرجوع عنه لأنه أفضل السبل !!

وهناك من يقول : « لتوزع يا سيد ما تملك على رعاياك .. وهذا لعمري

رأى سديد .. ولكنى أعتقد ، بحق القديس بطرس الرومانى ، أنه من الأفضل

لى البقاء هنا ... (١)

(١) يقصد الشاعر أنه يؤثر البقاء فى بلاده بدلاً من المغامرة فى عدوان صليبي ضد

العالم العربى .

الملحق السابع

مقتطفات من كتاب الراهب الانجليزى
متى الباريزى فى مهاجمة الفكرة الصليبية
والجهاز الكنسى البابوى فى الغرب (١) .

... لقد ألمح كل من كونت بواتييه وكونت بروفانس (٢) إلى البابا (٣) ،
من طرف خفى ، أن جشعه وحبه الشديد للبال هما السبب فى كل هذه الكوارث
السالف الإشارة إليها (٤) ... لقد أغشى المال بصيرته ...

... رحماك ياربى .. يامن بيدك الانتقام لنا . . متى ستشحن سيفك البتار
حتى يتوهج كوميض البرق وينغمس فى دماء أمثال هؤلاء القوم (٥) ... حقا ،
إن آثامنا وخطايانا هى التى جلبت علينا كل تلك المصائب والويلات ...

... وهكذا نرى البابا ، وهو أبونا الروحى الذى اقتنى خطى الامبراطور
قسطنطين ، وكان الأجدر به أن يحذو حذو القديس بطرس ، يسبب الكثير من
القلق والاضطرابات فى العالم ...

(١) أنظر: M. Paris, English History from the year 1235 to 1273, translated from the Latin by J. A. Giles, Vol. II, London, 1853 (pp. 400, 403, 498).

(٢) هما شقيقا الملك الفرنسى لويس التاسع ، الفونس دى بواتييه ، وشارل دى بروفانس؛
وكانا قد عادا إلى فرنسا بعد هزيمة لويس التاسع فى مصر وتوجهه إلى سورية ، وذلك بقصد
حث البابا إنوسنت الرابع للدعوة إلى حملة جديدة ضد العرب فى الشرق . أنظر عن ذلك
كتابى لويس التاسع فى الشرق الاوسط ، ص ٩٠-٩٣ . وفيما يتعلق بموقف البابا من الحركة
الصليبية ، أنظر نفس المرجع ، ص ٩٣-٩٦ .

(٣) المقصود إنوسنت الرابع .

(٤) يقصد الكوارث التى حلت بالصليبيين الغربيين فى المشرق العربى .

(٥) يقصد البابا ورجال الدين .

المراجع

أولا - مجموعات الحروب الصليبية^(١)

Les Archives de l'Orient Latin, publiées par la Société de l'Orient Latin. 2 vols. Paris, 1881 et 1884. (Textes, inventaires, et études originales).

Bongars, J., Gesta Dei per Francos, sive orientalium expeditionum et regni Francorum hierosolimitani historia (ab a. 1095 ad 1420) a variis, sed illius aevi scriptoribus, litteris.. 2 t. Hanover, 1612.

Hagenmeyer, H. (Ed.), Die Kreuzzugsbriefe : Epistolae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes. Innsbrück, 1901.

Palestine Pilgrims' Text Society, 13 vols. London, 1887-1897.

Recueil des Historiens des Croisades, publié par les soins de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, in 16 huge folio vols. Paris, 1841-1906 :

- I. Historiens Occidentaux, 5 tomes (1844-1895);
- II. Historiens Orientaux (Arabes), 5 tomes (1872-1906);
- III. Historiens Grecs, 2 tomes (1875-1881);
- IV. Documents Armeniens, 2 tomes (1869-1906);
- V. Lois, 2 tomes (1841-1843).

(١) اقتصرنا هنا على ذكر المجموعات التي رجسنا إليها فقط. وقد رمزنا إلى مجموعة أرشيف الشرق اللاتيني بالحروف التالية (A.O.L.) ، كما رمزنا إلى مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) بـ (R.H.C.-H.Occ.)، والمؤرخون الشرقيون بـ (R.H.C.-H.Or.) والوثائق الأرمنية بـ (R.H.C.-Doc. Arm.) .

ثانياً - المصادر الأصلية

(١) المصادر العربية^(١)

ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م) أبو الحسن هلى بن أبى الكرم
الملقب عز الدين :

« تاريخ الدولة الاتابكية ملوك الموصل ، أنظر :

R.H.C. - H. Or., t. II, 2e partie. Paris, 1866 (pp. 5-375).

ابن ايبك (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) أبو بكر بن عبد الله :

كنز الدرر وجامع الغرر - ٩ ج - مخطوط بدار للكتب المصرية - رقم
٤٦٤٣ تاريخ .

ابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي :

رحلة ابن جبير - تحقيق الدكتور حسين نصار - القاهرة ١٩٥٥ .

ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيمن
السلاني :

نزهة الأنام في تاريخ الإسلام - الموجود منه قطعتان : إحداهما في مجلد
مأخوذة بالتصوير الشمسي وتبتدىء من ٦٢٨ هـ وتنتهى إلى ٦٥٩ هـ ،
والثانية في مجلد مخطوط تبتدىء من ٧٧٨ هـ وتنتهى إلى ٨٠٤ هـ - دار
الكتب المصرية - رقم ١٧٤٠ تاريخ .

ابن الشحنة (ت ٧٩٠ هـ / ١٤٨٥ م) أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبي :

الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب - بيروت ١٩٠٩ .

(١) أشرنا في حواشى البحث إلى المخطوط بـ (لوحة) ، والمطبوع بـ (ص) .

ابن العديم (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) كال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله :
منتخبات من تاريخ حلب - أنظر : R.H.C. - H.Or., III, Paris, 1884
(pp. 571—690).

ابن العماد (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩ م) أبو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد :
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - ٨ ج - القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥١ هـ .
ابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة بن أسد بن على بن محمد :
تاريخ أبى يعلى حمزة ابن القلانسى ، المعروف بذيلى تاريخ دمشق -
بيروت ١٩٠٨ .

ابن كثير القرشى (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) عماد الدين أبو القدا اسماعيل ابن عمر :
البداية والنهاية فى التاريخ - ١٤ ج - القاهرة ١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ .
ابن منقذ (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) مؤيد الدين أبو المظفر أسامة بن مرشد
الكنانى :

كتاب الاعتبار - اعتنى بتصحيحه هرتوبع ورتبرغ - ليدن ١٨٨٤ .
ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم :
١ - مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب - ويعرف أيضا بتاريخ الواصلين
فى أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين - مجلدان مأخوذان بالتصوير
الشمسى بالمكتبة العامة لجامعة الاسكندرية - رقم ٦٤ مخطوط .
٢ - مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب - نشر وتحقيق الدكتور
جمال الدين الشيال - ظهر منه الآن ثلاثة أجزاء - القاهرة
١٩٥٣ - ١٩٦٠ م .

ابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن
عمر بن محمد :

تتمة المختصر في أخبار البشر - ويعرف بتاريخ ابن الوردي - ٢ ج -
القاهرة ١٨٦٨ .

أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان :
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - جزءان في مجلد -
القاهرة ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ .

أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) الملك عماد الدين أبو الفداء اسماعيل :
١ - المختصر في أخبار البشر - ويعرف بتاريخ أبي الفداء - ٤ ج -
استانة ١٢٨٦ هـ .

٢ - تقويم البلدان - نشره رينو وديسلان - باريس ١٨٤٠ .

أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن
تغري بردى :

١ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ١٢ ج - القاهرة
١٩٢٩ - ١٩٥٦ .

٢ - المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي - ٣ ج - مخطوط بدار الكتب
المصرية - رقم ٢٣٥٥ تاريخ .

أبو اليمن العليمي (ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م) أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد:
الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل - ٢ ج - القاهرة ١٢٨٣ هـ .

السيوطي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين :
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة - ٢ ج - القاهرة ١٣٢٧ هـ .

العيني (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى :
١ - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - ٢٣ جزءاً في ٦٩ مجلداً - دار
الكتب المصرية - تصوير شمس - رقم ١٥٨٤ تاريخ .

٢ — منتخبات من عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - أنظر :

R.H.C. - A. Or., II, Ire partie. Paris, 1887 (pp. 181-250).

القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) أحمد بن علي بن أحمد عبد الله :

صبح الأعشى في صناعة الإنشا - ١٤ ج - القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠ .

الكتبي (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن :

قوات الوفيات - ٢ ج في مجلد واحد - القاهرة ١٢٩٩ هـ .

المقريزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) تقي الدين أبو العباس أحمد :

١ — المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - ٢ ج - القاهرة ١٢٧٠ هـ .

٢ — السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزءان الأول والثاني إلى سنة ٧٥٥ هـ -

نشره وهلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ .

٣ — اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - نشر وتحقيق الدكتور

جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٤٨ .

النويري السكندى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب

ابن محمد :

نهاية الأرب في فنون الأدب - ٥٥ مجلدا - تصوير شمسي - دار الكتب

المصرية - رقم ٥٤٩ معارف عامة .

(ب) المصادر الافرنجية

Albert d'Aix, *Historia Hierosolymitana*. Ed. R.H.C.-H.Occ., IV. Paris, 1879. (pp. 265-713).

Alexius Comnenus,

1 — Alexii Comneni ad Robertum I, Flandriae comitem, Epistola. Ed. R-H.C.-H. Occ., IV. Paris, 1879. (pp. 131-132).

2 — Epistola Alexii I Komneni imperatoris ad Robertum I comitem Flandrensem. Ed. Hagenmeyr, *Epistolae et chartae*, (pp. 129-136).

Ambroise, *The Crusade of Richard Lion-Heart*. Tr. from the old French by M.J. Hubert. New York, 1941.

Anna Comnena, *The Alexiad*. An English trans. by Elizabeth A. S. Dawes. London, 1928.

Anonymous, *Historia Belli Sacri*. Ed. R.H.C.-H.Occ., III, Paris, 1866. (pp. 165-168).

Baudri de Bourgueil, *Historia Jerosolimitana*. Ed. R.H.C. - H. Occ., IV. Paris, 1879. (pp. 1-111).

Burchard of Mount Sion, *A Description of the Holy Land* (A. D. 1280). Tr. from the original latin by A. Stewart. London, 1896. Cf. *Palestine Pilgrims' Text Society*, XII, pp. 1-136.

Caffaro de Caschifelone, *De Liberatione Civitatum Orientis Liber*, ed. R.H.C.-H. Occ., Vol. V, pt. I.

Downs, N. (Ed.), *Basic Documents in Medieval History*. New York, 1959.

Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d'Outremer, ed. R.H.C.-H. Occ., t. II, Paris, 1859. (pp. 1-181).

Etienne de Blois,

- 1 — Stephani, Comitis Carnotensis ad Adelem, uxorem suam, Epistola. Ed. R.H.C.-H. Occ., III. (pp. 885-887).
- 2 — Epistola I Stephani comitis Carnotensis ad Adelem, uxorem suam. Ed. Hagenmeyer, Epistolae et chartae, (pp. 138-140).

Foucher de Chartres, Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium (ab anno 1095 usque ad annum 1127). Ed. R.H.C.-H. Occ., III. (pp. 311—485).

Grégoire le Prêtre, Chronique de Grégoire le Prêtre. Ed. R.H.C.—Doc. Arm., I (pp. 151—201).

Guibert de Nogent, Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos. Ed. R.H.C.—H. Occ., IV. (pp. 113—263).

Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum. Ed. R.H.C.—H. Occ., I, 1re. partie (pp. 1—702); I, 2e. partie (pp. 703—1134). Paris, 1844.

Hagenmeyer, H. (Ed.), Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum. Heidelberg, 1890.

Joinville, J. de,

- 1 — Histoire de Saint Louis. Texte original du XIVe Siècle, accompagné d'une traduction en Français moderne par M. Natalis de Wailly. Paris, 1874.
- 2 — Memoirs of Louis IX, King of France. An English Translation by Johnes of Hafod, ed. Chronicles of the Crusades, Bohn's ed., London, 1848 (pp. 341-556).

3 — Saint Louis, King of France, tr. into English by James Hutton, London, 1868.

Matthieu d'Edesse, Extraits de la chronique de Matthieu d'Edesse. Ed. R.H.C.-Doc. Arm., I, Paris, 1869. (pp. 1-150).

Matthew Paris, Matthew Paris' English History from the year 1235 to 1273. Tr. from the Latin by J. A. Giles. 2 vols. London. 1852-3.

Matthew of Westminster, The Flowers of History. Tr. from the original by C.D. Yonge, from A.D. 1066 to 1307. 2 vols. London, 1853.

Michel le Syrien, Extrait de la chronique de Michel le Syrien. Ed. R.H.C.-Doc. Arm., I. (pp. 309-409).

Raimond d'Agiles, Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem. Ed. R.H.C.—H.Occ., III. (pp. 231—309).

Raoul de Caen, Gesta Tancredi in expeditione Hierosolymitana. Ed. R.H.C.—H.Occ., III. (pp. 587—716).

Robert le Moine, Historia Iherosolimitana. Ed. R.H.C.—H.Occ., III. (pp. 717—882).

Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin (1229—1261). Ed. R.H.C.—H.Occ., II. Paris, 1859. (pp. 489—639).

Tudebodus, P., Historia de Hierosolymitano itinere. Ed. R.H.C.—H.Occ., III. (pp. 3—117).

Tudebodus abbreviatus, Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum. Ed. R.H.C.—H.Occ., III. (pp. 119—163).

Vincent de Beauvais, Selecta e speculo Historiali Vincentii Bellovacensis. Ed. Bouquet, Recueil des Historiens des Gaules et de la France, XXI. (pp. 71—75).

ثالثاً - المراجع الحديثة

(١) المراجع العربية

ابراهيم احمد العلوى (الدكتور) : الامويون والبيزنطيون - البحر المتوسط
بحيرة اسلامية - القاهرة ١٩٦٣ .

ابراهيم جمعه (الدكتور) : ايدولوجية القومية العربية - القاهرة ١٩٦٠ .

ابراهيم على طرخان (الدكتور) : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة -
القاهرة ١٩٥٩ .

احمد فكري (الدكتور) :

١ - مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) - القاهرة ١٩٦١ .

٢ - مساجد القاهرة ومدارسها - ج ١ (العصر الفاطمي) القاهرة ١٩٦٥ .

جمال عبد الناصر (الرئيس) :

١ - فلسفة الثورة (الطبعة التاسعة) - القاهرة .

٢ - خطب وتصريحات الرئيس جمال عبد الناصر (١٩٥٢ - ١٩٥٩)

- ١١ ج (مجموعة اخترنا لك) .

٣ - مشروع الميثاق الوطني (٢١ مايو ١٩٦٢) .

جمال الدين الشيال (الدكتور) :

١ - مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا - الاسكندرية ١٩٤٩ .

٢ - وحدة مصر وسورية في العصر الاسلامي - المحاضرة الثانية من

المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية في العام الجامعي ١٩٥٨/٥٧ -

الاسكندرية ١٩٥٨ .

٣ - مجموعة الوثائق الفاطمية - الجزء الاول (وثائق الخلافة والوزارة) -

ط. ثانية - الاسكندرية ١٩٦٥ .

٤ — تاريخ مصر الإسلامية - جزآن - الاسكندرية ١٩٦٧ .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

١ — لويس التاسع في الشرق الأوسط - قضية فلسطين في عصر الحروب الصليبية - القاهرة ١٩٥٩ .

٢ — هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل - القاهرة ١٩٦٠ .

٣ — الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية ، - مجلة كلية الآداب باسكندرية - المجلد السادس عشر (١٩٦٢ - ١٩٦٣) - الاسكندرية ١٩٦٣ (ص ١٨٣ - ٢١١) .

٤ — الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي - الاسكندرية ١٩٦٧ .

٥ — الصهيونية في فلسطين إمتداد طبيعي للاستعمار الصليبي ، - مجلة العهد الجديد - العدد ١١٤٥ - مايو ١٩٦٧ .

٦ — العدوان الغربي الاستعماري على العالم العربي قديما وحديثا - قاسم مشترك أعظم ، - مجلة العهد الجديد - العدد ١١٥٤ - سبتمبر ١٩٦٧ .

حسن حبشي (الدكتور) :

١ — الحرب الصليبية الأولى - القاهرة (الطبعة الأولى) ١٩٤٧ .

٢ — نور الدين والصليبيون - القاهرة ١٩٤٨ .

٣ — الشرق العربي بين شقي الرعي - القاهرة ١٩٤٩ .

زكي محمد حسن (الدكتور) : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى - القاهرة ١٩٤٥ .

زكي النقاش (الدكتور) : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج - بيروت ١٩٥٨ .

ساطع الحصرى : محاضرات في نشوء الفكرة القومية - بيروت ١٩٥٩ .

سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) : العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف
يعقوب المنصور يوسف بن عبد المؤمن الموحدى - مجلة كلية الآداب - جامعة
الاسكندرية - المجلدان السادس والسابع (١٩٥٢ - ١٩٥٣) ص ٨٤ - ١٠٠ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) :

- ١ - قبرس والحروب الصليبية - القاهرة ١٩٥٧ .
- ٢ - أوربا المصور الوسطى - الجزء الاول - القاهرة ١٩٥٨ .
- ٣ - مصر في عصر دولة المماليك البحرية - القاهرة ١٩٥٩ .

السيد الباز العرينى (الدكتور) :

- ١ - مصر في عهد الأيوبيين - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٢ - الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١ م) - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٣ - مؤرخو الحروب الصليبية - القاهرة ١٩٦٢ .

السيد عبد العزيز سالم (الدكتور) :

- ١ - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس منذ الفتح العربى حتى سقوط
الخلافة بقرطبة - بيروت ١٩٦٣ .
- ٢ - المغرب الكبير - الجزء الثانى (العصر الإسلامى) - الاسكندرية ١٩٦٦ .
- ٣ - طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى - الاسكندرية ١٩٦٧ .

سيده اسماعيل كاشف (الدكتور) :

- ١ - مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٢ - مصر فى عهد الولاة من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية -
القاهرة (بدون تاريخ) .

عارف باشا العارف : تاريخ القدس - القاهرة ١٩٥١ .

عبد الحميد العبادي : المجلد في تاريخ الاندلس - جمع مادته احمد ابراهيم الشريف،
وراجعه الدكتور مختار العبادي - القاهرة ١٩٥٨ .

عبد الرحمن زكي (الدكتور العقيد) : معركة المنصورة وأثرها في الحروب
الصليبية - القاهرة ١٩٦٠ .

عبد المنعم ماجد (الدكتور) :

١ - مقدمة لدراسة التاريخ الاسلامي - تعريف بمصادر التاريخ الاسلامي
ومناهجه الحديث - ط. ثانية - القاهرة ١٩٦٤ .

٢ - العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى - بيروت ١٩٦٦ .

عبد النعيم حسنين (الدكتور) : سلاجقة إيران والعراق - القاهرة ١٩٥٩ .
[المكتبة التاريخية - العدد السابع] .

عزيز سوريال عطية (الدكتور) : نقد مؤلفات جروسية عن الحرب الصليبية
وعن فلسفة التاريخ - المجلة التاريخية المصرية - المجلد الاول - (ص ٣١٢ -
٣٢٢) - القاهرة ١٩٤٨ .

على حسن الخربوطلي (الدكتور) :

١ - محمد والقومية العربية - القاهرة ١٩٥٩ .

٢ - القومية العربية من الفجر إلى الظهر - القاهرة (بدون تاريخ) .

على عبد الواحد وافي (الدكتور) : عبد الرحمن بن خلدون - القاهرة ١٩٦٢ .

عمر كمال توفيق (الدكتور) :

١ - ملكة بيت المقدس الصليبية - الاسكندرية ١٩٥٨ .

- ٢ — الامبراطور تقفون فوكاس واسترجاع الاراضى المقدسة (٩٦٣ - ٩٦٩) - الاسكندرية ١٩٥٩ .
- ٣ — مقدمات العدوان الصليبي - الامبراطور يوحنا تريمسكس وسياسته الشرقية - الاسكندرية ١٩٦٦ .
- ٤ — تاريخ الامبراطورية البيزنطية - الاسكندرية ١٩٦٧ .
- لطفى عبد الوهاب يحيى (الدكتور) : الكيان العربى بين المقومات والإمكانات - بيروت ١٩٦٥ .
- محمد أبو زهرة (الشيخ) : نظرية الحرب فى الاسلام - القاهرة ١٩٦١ .
- محمد جمال الدين سرور (الدكتور) : مصر فى عصر الدولة الفاطمية - القاهرة ١٩٦٠ .
- محمد شديد : الجهاد فى الاسلام - القاهرة (بدون تاريخ) .
- محمد عبد الله عنان :
- ١ — مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية - القاهرة ١٩٣١ .
- ٢ — تراجم اسلامية شرقية وأندلسية - القاهرة ١٩٤٧ .
- محمد عبد الفتى حسن :
- ١ — صراع العرب خلال العصور - القاهرة (بدون تاريخ) .
- ٢ — علم التاريخ عند العرب - القاهرة ١٩٦١ .
- محمد عبد المعز نصر (الدكتور) : الصهيونية فى المجال الدولى - القاهرة (بدون تاريخ) .
- محمد على علوبة : فلسطين وجاراتها ، أسباب ونتائج - القاهرة ١٩٥٤ .
- محمد فوزى (لواء ا. ح .) وعلمود حافظ : القومية العربية حقيقة وهدف - القاهرة (بدون تاريخ) .

محمد مصطفى زيادة (الدكتور) :

- ١ — المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى - القاهرة ١٩٥٤ .
 - ٢ — حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة - القاهرة ١٩٦١ .
- مصطفى الشكعة (الدكتور) : سيف الدولة الحمداني - القاهرة ١٩٥٩ [المكتبة التاريخية - العدد الثامن] .

نظير حسان سعداوى (الدكتور) :

- ١ — ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية - القاهرة ١٩٥٧ .
- ٢ — الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي - القاهرة ١٩٦١ .

(ب) المراجع المعربة

- أرنولد (توماس) : تراث الاسلام - أشرف على نشره سيرتوماس أرنولد ،
وقام بتعريبه الدكتور حسين مؤنس وآخرون - جزءان - القاهرة ١٩٣٦ .
- أومان : الامبراطورية البيزنطية - ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر -
القاهرة ١٩٥٣ .
- باركر (إرنست) : الحروب الصليبية - ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى -
القاهرة ١٩٦٠ .
- بروفنسال (لينى) : الاسلام في المغرب والأندلس - ترجمة الدكتور السيد
محمود عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلى ، ومراجعة الدكتور
لطفى عبد البديع - القاهرة ١٩٥٦ .
- بور (ايلين) : نماذج بشرية من العصور الوسطى - ترجمة محمد توفيق حسين -
بيروت ١٩٥٧ .

بولين (جاك) : مع القومية العربية - تعريب نجدة هاجر وسعيد الغز -
بيروت ١٩٥٩ .

بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية - ترجمة الدكتور حسين مؤنس
ومحمود يونس زايد - القاهرة ١٩٥٠ .

تشارلز وورث (م. ب.) : الامبراطورية الرومانية - ترجمة رمزي عبده جرجس ،
ومراجعة الدكتور محمد صقر خفاجه - القاهرة ١٩٦١ .

تويني (أرنولد) :

١ - مختصر دراسة للتاريخ - جزمان - ترجمة الاستاذ فؤاد محمد شبل -
القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦١ .

٢ - الحضارة في الميزان - ترجمة أمين محمود الشريف - القاهرة (بدون
تاريخ) .

جرونيباوم (جوستاف فون) : حضارة الاسلام - ترجمة عبد العزيز توفيق
جاويد - القاهرة ١٩٥٦ .

ديفنز (ه. و. كارلس) :

١ - أوروبا في العصور الوسطى - ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدي محمود -
الاسكندرية ١٩٥٨ .

٢ - شارلمان - ترجمة الدكتور السيد الباز العريني - القاهرة ١٩٥٩ .

ديل (شارل) : البندقية جمهورية أرستقراطية - ترجمة الدكتور احمد عزت
عبد الكريم وتوفيق اسكندر - القاهرة ١٩٤٨ .

ونسيمان (ستيفن) : الحضارة البيزنطية - ترجمة الاستاذ عبد العزيز جاويد ،
ومراجعة الاستاذ زكي علي - القاهرة ١٩٦١ .

غشر (ه. ا. ل.) : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - جزمان - ترجمة الدكتور

محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العريني والدكتور ابراهيم احمد
العدوى - القاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٤ .

كلاردى (ر .) : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين - ترجمة وتقديم د. حسن
حبشى - القاهرة ١٩٦٤ .

كوبلاند (ج. و .) وفينو جرادوف (ب .) : الاقطاع والمصور الوسطى في
غرب أوروبا - ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٤٨ .

كولتون (ج. ج .) : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة - ترجمة وتعليق
د. جوزيف نسيم يوسف - ط. ثانية - الاسكندرية ١٩٦٧ .

كولنجوود (ر. ج .) : فكرة التاريخ - ترجمة الاستاذ محمد بكير خليل -
القاهرة ١٩٥٨ .

لانجر (ولیم) : موسوعة تاريخ العالم - ٣ ج - أشرف على الترجمة الدكتور
محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٥٩ و ١٩٦٢ .

هارتمان (ل. م .) وبارا كلاف (ج .) : الدولة والامبراطورية في العصور
الوسطى - ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف - الاسكندرية ١٩٦٦ .

(ج) المراجع الاfrنجية

Arnold, T. & Guillaume, A. (Eds.), *The Legacy of Islam*. London, 1952.

Atiya, A.S.,

1 — *The Crusade of Nicopolis*. London, 1934.

2 — *The Crusade in the Later Middle Ages*. London, 1938.

3 — *Crusade, Commerce and Culture*. Bloomington, 1962.

4 — *The Crusade : Historiography and Bibliography*. Bloomington, 1962.

Atiyah, E.; *The Arabs*. Edinburgh, 1958. (Penguin Books).

Bailly, A., *Byzance*. Paris, 1939.

Baldwin, M. W., *The Mediaeval Church*. New York, 1960.

Barker, E. (tr.), *Social and Political Thought in Byzantium from Justinian I to the Late Palaeologus*. Oxford, 1957.

Barrow, R.H., *The Romans*. London, 1955. (Penguin Books).

Baynes, N. & Moss, H. (Eds.), *Byzantium*. Oxford, 1953.

Berger, E., *Saint Louis et Innocent IV — Etude sur les Rapports de la France et du Saint-Siège*. Paris, 1893.

Bloy, L., *Constantinople et Byzance*. Paris, 1917.

Bray, A.E., *The Good Saint Louis and His Times*. London, 1870.

Cahen, C., *La Syrie du Nord a l'époque des Croisades et la Principauté Franque d'Antioche*. Paris, 1940.

Campbell, G. A., *The Crusades*. London, 1935.

Cantor, N.F. (ed.), *The Medieval World : 300 - 1300*. New York, 1963.

Chalandon, F.,

- 1 — Essai sur le Règne d'Alexis 1er Comnène. Paris, 1900.
- 2 — Histoire de la Première Croisade jusqu'à l'élection de Godefroi de Bouillon. Paris, 1925.
- 3 — Les Comnènes. Tome II. Paris, 1908.


Coulton, G. G.,

- 1 — The Inquisition. London, 1929.
- 2 — Medieval Panorama. New York, 1955.
- 3 — Medieval Village, Manor, and Monastery. New York, 1960.
- 4 — Medieval Scene. Cambridge, 1961.

Daniel-Rops, L'Eglise de la Cathédrale et de la Croisade.
Paris, 1952.

Davis, E. J., The Invasion of Egypt in A.D. 1249 (A.H. 647)
by Louis IX of France (St. Louis). London, 1897.

Diehl, Ch.,

- 1 — Byzance — Grandeur et Décadence. Paris, 1919.
- 2 — Histoire de l'Empire Byzantin. Paris, 1920.
- 3 — Figures Byzantines (Deuxième Série). Paris, 1921. 
- 4 — L'Europe Orientale de 1801-1453. (Moyen Age, t. IX)
Paris, 1945.

Gibb, H. A. R., Mohammedanism. London, 1957.

Grousset, R.,

- 1 — L'Epopée des Croisades. Paris, 1947.
- 2 — Histoire des Croisades. 3 vols. Paris, 1948.
- 3 — L'Empire du Levant: Histoire de la Question d'Orient.
Paris, 1949.

4 — The Sum of History. English version by A. & H. Temple Patterson. Oxford, 1951.

Halphen, L., L'Essor de l'Europe (XIe - XIIIe Siècles). Paris, 1941. Cf. Peuples et Civilisation, Vol. VI.

Haskins, C. H., The Normans in European History. New York, 1959.

Heer, F., The Medieval World (Europe from 1100 to 1350). Trans. from the German by J. Sondheimer. London, 1962

Heyd, W., Histoire du commerce du Levant au moyen-âge. Ed. Française refondue et considérablement augmentée par l'auteur, publiée sous le patronage de la Société de l'Orient Latin par F. Raynaud. 2 vols. Leipzig, 1885-1886.

Hitti, P. K.,

1 — History of Syria. London, 1951.

2 — History of the Arabs from the Earliest Times to the Present. London, 1964.

Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages. London, 1955. (Penguin Books).

Hussey, J. M., The Byzantine World. London, 1957.

Jones, A. M. H., Constantine and the Conversion of Europe. London, 1961.

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe. New York, 1960 .

Ker, W. P., The Dark Ages. London, 1955.

King, E. J., The Knights Hospitallers in the Holy Land. London, 1931.

Lacroix, P.,

1 — Vie militaire et religieuse au moyen âge et a l'époque de la renaissance. Paris, 1873.

- 2 — La chevalerie et les croisades. Féodalité, Blason, Ordres Militaires. Paris, 1887.

La Monte, J. L., The World of the Middle Ages. New York, 1949.

Lane-Poole, St.,

- 1 — A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1936.

- 2 — The Story of Cairo. London, 1924.

Lewis, B., The Arabs in History. London, 1958.

Ludlow, J. M., The Age of the Crusades. Edinburgh, 1897.

Mahmud, S. F., The Story of Islam. Karachi, 1959.

Masson, G., Mediaeval France, from the reign of Hugues Capet to the beginning of the sixteenth century. London, 1888.

McKisack, M., The Fourteenth Century (1307-1399). Oxford, 1959.

Michaud, M., Bibliographie des Croisades. 2 tomes. Paris, 1822.

Michelet, M., The History of France. Tr. by W. K. Kelly. 2 vols. London, 1844-6.

Molinier, A., Les Sources de l'Histoire de France des Origines aux Guerres d'Italie (1494)- Cf. T. II : Epoque Féodale, Les Capétiens jusqu'en 1180. Paris, 1902.

Oldenbourg, Z., Les Croisades. Mèyenne (éd. Gallimard) 1965.

Oman, C.W.C.,

- 1 — A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 vols. London, 1924.

- 2 — The Art of War in the Middle Ages (A.D. 378-1515). New York, 1960.

Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State. Tr. by J. Hussey. Oxford, 1956.

Painter, S., A History of the Middle Ages : 284-1500. London, 1966.

Paris, G., Mediaeval French Literature. Tr. from the French by H. Lynch. London, 1903.

Pirenne, H.,

1 — Medieval Cities. Tr. from the French by F.D. Halsey. Princeton, 1948.

2 — Economic and Social History of Medieval Europe. Trans. from the French by I.E. Clegg. London, 1961.

Rey, E., Les Colonies franques de Syrie aux XII^{me} et XIII^{me} siècles, Paris, 1883.

Riant, P., Inventaire critique des lettres historiques des Croisades. Cf. A.O.L., I, pp. 1-224. Paris, 1881.

Rosenthal, E. I. J., Political Thought in Medieval Islam. Cambridge, 1958.

Runciman, S.,

1 — Byzantine Civilisation. London, 1948.

2 — A History of the Crusades. 3 vols. Cambridge, 1954-55.

Schlumberger, G., Recits de Byzance et des Croisades. Paris, 1917.

Setton, K. M. (Ed.), A History of the Crusades — Vol I: The First Hundred Years. Ed. by M. W. Baldwin. Philadelphia, 1958.

Stanley, A. P., Lectures on the History of the Eastern Church. London, 1924.

- Stephenson, C., *Mediaeval Feudalism*. New York, 1942.
- Stevenson, W. B., *The Crusaders in the East*. Cambridge, 1907.
- Sullivan, R. E., *Heirs of the Roman Empire*. New York, 1960.
- Thomson, D., *World History from 1914 to 1950*. London, 1958.
- Throop, P. A., *Criticism of the Crusade : A Study of Public Opinion and Crusade Propaganda*. Amsterdam, 1940.
- Trevelyan, G. M., *A Shortened History of England*. Aylesbury, 1960. (Penguin Books).
- Turberville, A. S., *Mediaeval Heresy and the Inquisition*. London, 1920.
- Vasiliev, A.A., *Histoire de l'Empire Byzantin*. Traduit du Russe par P. Brodin et A. Bourguina, préface de Ch. Diehl. 2 vols. Paris, 1932.
- Waugh, W. T., *A History of Europe from 1378 to 1494*. London, 1932.

فهرس عام

(١)

ابن القلاننى ٢٨ ٢٢ ٢٢٩ ح ١	الله ٦١ ٦٢ ٦٤ ٦٦ ٨٤ ٩٣ ٩٥
٢٥٨ ح ١ ٢٦٦ ح ١	٩٩ ١١٢ ١٤١ ١٥٥ ١٧٣ ٢١٩
ابن منقذ ٨١ و ح ٢ ٨٣ ٨٥	٢ ح ٢٤٨ ٢٦٣ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١١
ابن واصل ٢٩ و ح ٢	٣١٣ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٩ ٣٣٣
ابن الوردى ٣٠	٣٣٦ ٣٣٧
أبو شامة ٢٩	ابراهيم أحمد العدوى (الدكتور)
أبو الفداء ٣٠	٣٤ ٣٦
أبو المحاسن ٢٩	ابن الأثير ٢٧ ح ٢ ٢٩ ٢٥٨ ح ١
أبو اليمن العليمى ٢٨	ابن لياس ٣١
أبو ليا ١٢٥	ابن ايبك ٣٠
إبيروس ٢١٣ ٢٢٣	ابن جبير ٨١ ح ٢ ٨٣
الأتراك ٤ ح ١ ٨ ١٢٩ ١٤٥	ابن الجوزى ٢٩ ٢٥٨ ح ١
١٤٦ و ح ١ ١٦٢ ١٦٤ ١٦٥	ابن خلدون ٣٠ و ح ١
١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٨٣ ١٨٥	ابن خلكان ٢٩
١٨٩ ١٩٦ ٢٠٧ و ح ١ ٢٠٨	ابن دقاق ٢٩ ٣٠
٢٠٩ ٢١٢ ٢١٥ ح ٢ ٢١٧	ابن رشد (تلامذة) ٩٩
٢٢٢ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣١ ٢٣٣	ابن الشحنة ٢٨
٢٣٥ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٤٠ ٢٤٢	ابن شداد ٢٩ ٣١
٢٤٣ ٢٤٦ ٢٤٩ ٢٥٣ ٢٥٤	ابن العديم ٢٨ ٢٥٨ ح ١
٢٦٠ ح ٢ ٢٧٢ ح ٢ ٢٩٩	ابن الفرات ٣١
٣٠١ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ و ح ١	
٣١١ ٣١٣ ٣١٥ ٣١٧ ٣١٨	

١٣٣ ٢١٥ ح ١ ٢١٦ ٢٠٣
 ٣٢٩ - أنظر إثنين ده بلوا
 الأراضى المقدسة ١٢ ح ٢ ١٣
 ١٤ ١٥ ح ٢ ١٩ ٤٣ ح ٢
 ٤٦ ح ٢ ٥١ ٥٢ ح ١ ٥٣ ٥٨
 ٥٩ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٦ ٦٨ ٦٩
 ٧٣ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٨٠ ٨١
 ٨٨ ٩٠ ٩٢ ٩٣ ح ١ ١٠٢
 ١٠٣ ١٠٥ ١٠٧ ١١١ ١٢١
 ١٢٦ ١٤٧ ١٥١ ١٥٤ ح
 ٢ ١٧٢ ١٧٩ ١٨١ ح ٢
 ١٨٣ ١٩٢ ٢٠٦ ٢١٣ ٢٢٢
 ٢٢٥ ٢٣٥ ٢٥١ ٢٦٠ ٢٦٨
 ح ٢ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٩٣
 ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢
 - أنظر البيت المقدس ،
 وفلسطين

الأراضى الواطئة ٢١ ٥٣ ٢٠٩
 ٢١٥ ٢٩٨ ٣٠٠ ٣٠٧
 أربان الثانى (البابا) ٢ ح ٧ ٤٣
 ح ٢ ٤٦ ح ٤ ٤٨ ٥٥ ٥٦
 ٥٧ ٥٨ ٦١ ٦٥ ٦٧ ٧٢
 ٧٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٥٠ ١٥١
 ١٥٥ ١٧١ ح ١ ١٧٥ ١٧٨

٣٢٣ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٣١ ٣٣٢ -
 أنظر التركمان ، والتركو بول ،
 والسلاجقة ، والسكومان
 أترانت (مدينة) ١٩٦
 إثنين ده بلوا ٢ ٨ ٢١ ح ٢ ٥٨
 ١٢٩ ١٣٣ ١٣٩ ح ١ ١٧٨
 ٢١٣ ٢١٤ - ٢١٧ ٢٢١
 ٢٢٧ ح ١ ٢٢٣ ٢٤٢ ٢٥٠
 ٣٠٤ - ٣٢٩ - خطابه إلى زوجته
 أديل ٢١ ح ٢ ١٢٩ ١٣٣ ح ٢
 ٢١٥ ح ١ ٢١٦ ٢١٧ ٢٩٧ ٢٩٨
 ٣٠٣ - ٣٠٤ ٣٢٩ - ٣٣٠
 أحمد فكرى (الدكتور) ٢٨٣ ح ١
 الاخشيد يون (فى مصر) ١٤٣
 الادب الشعبى (فى المجتمع العربى
 الوسيط) ٦٤
 أدرة (مدينة) ١٥٣ ١٥٩ ١٨٢
 أدنة (مدينة) ٢٥٤
 أدهيار ده موتى (أسقف مدينة بوى)
 ٥ ٦ ٧٤ ١٧٨ ٢٠٤ ٢٠٥
 ٢٠٨ ٢١٢
 إدوارد عطيه (الكاتب) ١٠٩ ح ١
 أديل (زوجة إثنين ده بلوا) ٢١

١٤١ ١٧٢ ١٧٤ و ح ١
٢٠٥ ٢٦٩
الاستبارة (جماعة الرهبان) ٦٩
٩٠ ٩٣
استروجورسكى (جورج) ٣٦
٥٣ ١٤٦ ح ٢ ٢٢٤ ٢٢٥
٢٢٦
استريا ٢٠٧
الاستعمار الأوروبي الغربي ٣٩
٤٠ ٤٣ ٧٢ ح ٣ ١٠٤ و ح
١ ١٠٥ ١٠٧ ١٠٩ ١١٠ و
ح ٢ - ٣ ٢٦٦ ٢٨٢ ٢٨٥
٢٨٧ ٢٨٩ ٢٩٣ ٢٩٤ -
أنظر الاستعمار الصليبي ،
والصهيونية في فلسطين
الاستعمار الصليبي ٢٤ ٢٦ ٤٣ ٧٢
٧٤ ٧٥ ٧٧ و ح ٢ ٧٨ ٧٩
٨٦ ٨٧ ٨٩ ٩٠ ٩٣ ١٠٢
١٠٣ ١٠٤ و ح ١ ٥١ ٥٥
١٨٦ ح ٢ ٢٠٦ ٢٦٨ ٢٩٢
٢٩٧ - أنظر الحملات الصليبية ،
والعدوان الصليبي
الاستعمار الصهيوني ١١٠ و ح ٢ -
أنظر الاستعمار الأوروبي ،
والاستعمار الصليبي

١٨١ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢١٠ ٢١٥
٢٣٦ ٢٥١ ٣٠٠ ٣٠١ ٣١٠
٣١١ ح ٤ - خطابه في
كليمون ٢ ح ٧ ٤٢ ٤٦ ح ٤
٥٦ و ح ٢ ٦٤ ٧٣ و ح ٢ -
أنظر كليمون
أردن (بالورين السفلى) ١٧٩
الأردن ١٠٩
آشر (ت. ا.) و كينجز فورد (ل.)
٣٥ ح ١
أرغوة (بشمال أسبانيا) ١٧٤
الأرمن ٢٦ ٢٢٥ و ح ٢ ٢٣٦
٢٣٧ - أنظر أرمينية
أرمينية ١٤٥ ٢٣٥
أرنولف ٢١٥
أزمير (مدينة) ١٤٦ ٢٩١ ح ٢
الأساطير الدينية (في العصور
الوسطى) ٦ - ٧ ١١ ١٢ ح
٢ ١٦ ٥١ ٥٢ و ح ١ ٥٤
٥٥ ٦٠ ٦٤ ٦٥ ٦٧ ١٧٣
١٨٠ و ح ٢ ٢٤٣ ٢٥٣ -
أنظر الرؤيات الدينية
أسبانيا ٤٧ ٥٢ ح ١ ٥٧ ٧٣

في ٩٤-٩٦ ٢٧٩ و ح ٣
 ٢٨٠ ٢٨١ - حركة الفتح
 ١٧٢ ١٤٢ ١٤١ ح ٧٧
 ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٨٠ ٢٨٩
 آسيا ٣٩ ١٩٥ ٢٩٣ ٢١٢ ٢١٣
 آسيا الصغرى ٨ ١٣ ٧٣ ٧٤ ٧٧
 ١٣١ ١٤١ ١٤٣ ١٤٥ ١٤٦
 ١٥٠ ١٦٠ ١٦١ ١٦٥ ١٦٧
 ١٦٨ ١٦٩ ١٧١ ١٨١ ح ٢
 ١٨٦ ١٩٠ ١٩١ ١٩٤ ٢٢٢
 ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٣٣ ٢٣٦
 ٢٢٧ و ح ١ ٢٤٥ ٢٥١
 ٢٥٢ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦٩ ٢٩٩
 ٣٢٣ ٣٢٦
 الأشرف خليل (السلطان) ٤٨
 ٩٣ ٢٧٧
 الأصفهاني ٢٩ ٣١
 الأغريق ٥ ٦ ١٣ ٢٣ ٢٤ ٢٦
 ٣٧ ٧٥ ١١٢ ١١٥ ١٢١
 ١٢٢ ١٢٣ ١٣٣ ١٣٧ ١٤٠
 ١٥٣ ح ١ ١٧٢ ١٩٦ ١٩٧
 ١٩٨ ٢٠٣ ٢١٨ ٢٢٧ ٢٣٨
 ٢٤٦ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٢ ٢٩٠
 أنظر البيزنطيون ، والروم .

الاستيطان الصليبي (في العالم العربي)
 ٨٢ - ٨٦ ١٠٤ ٢٨٨ -
 أنظر الاستعمار الصليبي
 إسرائيل ١٠٩ ١١٠ و ح ٢ - ٤
 ٢٨٥ ٢٩٤ - أنظر الاستعمار
 الأوروبي ، والاستعمار الصليبي ،
 والاستعمار الصهيوني ،
 والصهيونية في فلسطين .
 الأسر البابلوني (أو السبي البابلي)
 ٥٠ - أنظر أفنيون
 أسرة دو كاس (في بيزنطة) ١٤٤
 ١٤٧
 أسرة كومنين (في بيزنطة) ١٤٧
 و ح ١ ٢٢٤ ٢٣٩ ٢٥٨ ح ١
 الأسرة المقدونية (في بيزنطة) ١٤٢
 ١٤٤ ١٤٦ ح ١ ٢٧٠
 أسرة هرقل (في بيزنطة) ١١٥
 و ح ١
 الاسكندر المقدوني ٣٧ ٤٠ ح ١
 الاسكندرية ٥٩ ١٠٦
 الاسلام ٢٩ ٦٠ ٧١ ٧٧ ح ١
 ٧٩ ٩١ ١٠٠ ١٠٣ ١٤١
 ١٥٤ ح ٢ ٢٦٥ ٢٩٤ -
 التسامح في ١٥٤ ح ٢ - الجهاد

ح ١ ١٣١ ١٣٢ ١٣٧ ١٣٩
 ١٨٦ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ و ح ١
 ١٩١ ٢٠٣ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢١٠
 ٢١١ ٢١٢ ٢١٤ ٢١٦ ٢١٩
 و ح ٢ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ و ح
 ٢٢٣ ح ١ ٢٢٥ ٢٢٧
 ٢٢٩ ٢٥٦ ٣٠٤ ٣١٩ ٣٢٠
 ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٤ و ح ١ ٣٣٣
 و ح ١ ٣٣٤ و ح ٢ ٣٣٥
 أكس لا شابل الألمانية (مدينة)
 ١١ ١٢ ١٧٩
 أكس لا شابل البروفانسية (مدينة)
 ١١
 اكهارت دورا (المؤرخ) ١٤ ١٩
 ٥٨ ح ٢
 الاريك القوطي ١٤٧ ح ١
 الب أرسلان (السلطان) ١٤٥
 البانيا ٢٠٧
 البرت دكس (المؤرخ) ١١-١٣
 ٢١ ٥٥ ح ١ ٦١ ١٣٣ ١٥٢
 ح ٢ ١٥٣ ح ١ ١٥٦ ١٥٧
 ١٦٦ ح ١-٢ ١٦٨ ١٨٠
 ح ٢ ١٨١ ١٨٢ ١٩٠ ح ١
 ٢١٤ ح ٢ ٢٢١ ٢٢٧ ح ١

الآفار ١٤٧ ح ١
 أفامية (مدينة) ٢٥٣
 أفريقية ٣٩-شمال ٢٦ ٣٩ ٤٣
 ٤٤ ح ١ ٥٩ ٦٠ ٦٦ ٨٠
 ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ١٠٦ ١٠٩
 ١٤١ ١٩٤ ٢٦٩ ٢٨٨
 الأفضل بن بدر الجمالي (أمير
 الجيوش) ٢٦١ ح ١ ٢٦٦ ح ١
 أفلونا (أوفالونا) ٢٥٥
 أفنيون (بابوية) ٥٠ ٦٧
 الاقطاع ٥ ح ١ ٤٢ ٤٥ ٤٩ و ح
 ١ ٦٨ ٧١ ٧٦ ح ١ ٨٦
 ١٠٤ ١٢٦ ١٣٤ ١٧٦ ١٧٧
 ١٧٨ ٢١٩ ح ٢ ٢٥٧ ٢٦٠
 ح ٢ ٢٦٦ ح ٢ - جيش ١٥١
 ٢٦٠ ح ٢ - حروب ٤٩ ٧١
 ح ٢ ١٢٥ ١٤٤ ١٥١ ١٧٦
 ١٧٩ ح ٢ - العبيد
 والاقنان ٨٦ ١٣٤ ١٥٥
 ١٧٦ ١٧٧ ١٨٥ ٣١٩ - كبار
 رجال الاقطاع ٨٧ ١٣٣ ١٣٥
 ١٥٠ ١٥٢ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٩
 ١٨٦ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٣١٠ -
 يمين التبعية والولاء ١٢٩ ١٣٠

ح ١ ٢٤٣ ٢٩٧ ٢٩٨ - ٣٠٠
٣٠٧ - ٣٠٩ - والحروب
الصليبية ٥٢ - ٥٤ - أنظر
الالكسياد ، وأن كومنين

الكسيس الثالث (الامبراطور) ٧٨
الكسيس الرابع (الامبراطور) ٧٨
الألمان ١١٩ ١٦٢ ١٧٨ ٢١٠
٢٥٥ ٣٣١

المانيشا ١٥ ح ٣ ١٥٧ ١٧٩
١٩٢ ٣١٠
الالياذة والاديسية ٣٧ - أنظر
هوميروس

إما (اخت بوهيمند) ١٩٥ ح ٤
أمالفي (مدينة) ٨٨ ح ٢ ٩٣ ١٩٢
امبراطور (لقب) ١٨١ ح ٣

امبراطور الاغريق (لقب) ١٨١ ح ٣
الامبراطورية الرومانية الشرقية

١١١ ١١٧ ١٢٠ ح ١ ١٤٦
ح ١ ١٤٧ ح ١ ٢٠٤ ٢٠٧
ح ١ ٢٢٤ ٢٢٦ ٣٠٧ ٣١١
ح ١ ٣١٨ ح ١ ٣٢٠
٣٢٦ - أنظر بيزنطة ، ودولة
الروم

الامبراطورية الرومانية الغربية
المجددة ٤٥ ١١٧ ١٧٩

٢٥٨ ح ١ ٣١٣ ح ١ ٣١٨
ح ٢ ٣٢٤ ح ١
الالبيجيون ٥٠

الفونس ده بواتيه ٣٣٨ ح ٢
الالكسياد ٢٣ - ٢٥ ١٢٠ ح ٢
١٥٥ ح ٢ ٢٢٤ ٢٩٧ ٢٩٩
٣٠٢ - ٣٠٣ ٣١٢ ٣٢٠
ح ١ ٣٢٣ ح ١ - أنظر آن
كومنين

الكسيس الاول كومنين (الامبراطور)

٤ ح ١ ١٣ ١٨ ٢١ ح ١
٢٣ ح ١ ٥٢ - ٥٤ ٧٥
٧٨ ١٢٤ - ١٢٣ ١٣٥ ١٣٧ -

١٤٠ ١٤٤ ١٤٧ - ١٥٠
١٥٣ ١٥٦ ١٥٨ - ١٦١ ١٦٤ -
١٧١ ١٨١ - ١٨٣ ١٨٥ -

١٩٢ ١٩٤ - ٢٠٥ ٢٠٧ ح ١
٢٠٩ - ٢١٧ ٢١٩ - ٢٢٣ ٢٢٥ -
٢٢٩ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٧ - ٢٣٩

٢٤٢ ٢٤٥ - ٢٥٢ ٢٥٥ - ٢٥٨
٢٩٠ ٢٩٨ ٣٠٠ ٣٠٢ - ٣٠٥
٣١٢ ٣١٨ ح ٢ ٣٢٠ ح ١

٣٢٦ ح ١ ٣٢٧ ٣٢٩ ح ٢
٣٣٢ ٣٣٣ - خطابه إلى أمير
الأراضي الواطنة ٢١ ح ١

٥٢ - ٥٤ ٦٣ ١٢٢ ح ١ ١٥٠

٢٣٩ ٢٤٤ - مشكلة ٢٠١ ٢٠٤

٢٠٦ ٢٣٧ ٢٣٨ - ٢٥٨

٢٥٩ ٢٩٠ ٣٠٣ - أنظر

الكسيس الأول ، وبوهيمند

آن كومتين (الأميرة) ٢٣ وح ١ ٢٤

١٢٠ ٧٨ ١ ح ٥٥ ٥٤ ١ ح

١٢٢ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٤ ١٣٥

١٣٨ ١٤٧ ١٥٥ ح ٢ ١٦٢

١٦٤ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ح ١

١٦٩ ١٨١ ١٨٢ ١٨٥ ح ١

١٩٨ ١٩٣ ١٩٦ ح ١ ١٩٨

١٩٩ ٢٠٠ ٢٠٣ ٢٠٤ وح ١

٢١٤ ح ٢ ٢١٩ ٢٢١ ٢٢٣

٢٢٤ ٢٢٧ ٢٣١ ٢٥٥ ح ١

٢٥٧ ٢٥٨ ح ١ ٢٩١ ٢٩٧

٢٩٩ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣١٢ ٣١٣

٣١٨ ح ٢ ٣٢٠ ح ١

٣٢١ ح ١ ٣٢٤ ح ١ ٣٣١

ح ٢ - أنظر الآل-كسياد

انوسنت الثالث (البابا) ٥٩

٦٧ ١٣٥

انوسنت الرابع (البابا) ٤٣ ح ٢

٥٠ ٦٧ ٣٣٨ وح ٢ - ٢

أهل الغرب ٢٦ ٢٧ ٣٣ ٤٥ ٥١

٥٢ ٥٣ ٥٤ ٦٣ ٦٤ ٦٧ ٧٣

الامبراطورية الرومانية القديمة ٢٨

١١٢ ١١٧ ١١٩ ٢٠٧ ح ١

امبرواز (المؤرخ) ٢١ وح ٣

٥٢ ح ١ ٦١ ٢٤٥ ح ١

أمورى الأول ٧٤

أميان (بفرنسا) ١٥٤

إميك (كونت) ١٧٠

أناتوليا ٢٩١ ح ٢

الأناضول ١٨٩ ٢٦٠

انجلترا ٤٩ ح ١ ٦٠ ح ٤ ١٠٧

١٠٨ ح ٢ ١٠٩ ١٧٦

الاندلس ٥١

انطاكية ٤ ح ١ ٧ ٨ ٢٠ ٥٤

٦٥ ٨٨ ١٣٥ ١٣٨ ١٤٣

١٤٦ ١٨٩ ٢٠١ ٢٠٥ ٢١٤

٢ ح ٢١٥ ح ١ ٢١٩ ح ٢

٢٢٣ ٢٢٤ ٢٣٥ ٢٣٧ ٢٣٨

٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤٢ ٢٤٣ وح ١

٢٤٤ ٢٤٥ وح ١ ٢٤٦ ٢٤٧

٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٣

٢٥٤ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ وح ١

٢٥٩ ٢٦٠ وح ٢ ٢٦١

٢٧٢ ح ٣ ٣٣٤ - إمارة ٧٥

أولدنبورج (زوى) ٢١٣ ح ٢
أومان (شارل) ٣٦ ١١٠ ح ١
١٤٦ ح ١ ٢٥٩ ٢٦٠ ح ٢
ايرين (الامبراطورة البيزنطية) ١١٦
ايرين دوкас (زوجة الكسيس
كومنين) ٢٣ ح ١

ايسورية ٣٠٨

ايطاليا ٣ ٩٩ ١٠٩ ١١٦ ١٤٧
ح ١ ١٥٩ ١٩٢ ١٩٣ ٢١٥
٢٥٧ - جنوب ٤٧ ٤٩ وح ١
٩٩ ١١٦ ١٤٤ ١٧٢ ١٧٤
١٩٣ ٢٩٤ ٢٧٠ - شمال ٢٠٧
ايليريا (اقليم) ١٧٨

الايوبيون (فى مصر) ٢٩ ح ٢ ٨٦

٢٧٦ ٢٧٧

ايوجين الثالث (البابا) ٦٧

(ب)

البابوية ٤٣ وح ١ - ٢ ٤٦ ح ٤
٤٩ ٥٠ ٥٧ ٦٣ ٦٧ ٦٩ ٧٠
٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٦ ح ١ ٨٧
٩٩ ح ٢ ١٠٢ ١١٥ وح ٢
١١٦ ح ١ ١١٩ ١٢٢ ١٢٦ ح ١
١٥٠ ١٥١ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٧

ح ٢ ٧٧ ٧٨ ح ١ ٨٠ ٨٢
٨٣ ٨٤ وح ٢ ٨٥ ٨٦ ٩٧
١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١١١ ١٢١
١٢٣ ١٣٦ ح ١ ١٤٤ ١٤٧
ح ١ ١٧٢ ٢١٩ ح ٢ ٢٢٢
ح ١ ٢٢٥ ٢٢٢ ٢٤٣ ٢٥١
٢٦٦ ٢٦٨ ٢٧٠ ٢٧٧ ٢٨٧
٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٥
٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٢ ٣٠٥ ٣٠٦
٣٠٨ ح ١ - ٢ ٣١٢ ٣٢٦ -
انظر الفرنج ، واللاتين

اورديك فيتال ١٧

اورشليم - انظر بيت المقدس

اورليانز (مدينة) ١٦

أوروبا ٢١ ٢٤ ٢٧ ٣٣ ٣٩ ٤١
ح ٢ ٤٥ ٤٩ وح ١ ٥٦ ٥٧
٦٣ ٧٠ ٧٢ ٧٤ ٨٤ ح ٢ ٨٩
٩٨ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧
١١٩ ١٤٤ ١٥١ ١٥٢ ١٥٤
وح ٢ ١٥٦ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٧
١٧٨ ١٩٢ ٢١٥ ح ١ ٢١٦
٢٥١ ٢٥٥ ٢٥٨ ح ١ ٢٦٨
٢٨٩ ٢٩٣ ٣٠٠ ٣٠٥ ٣١٠
٣١٢ - انظر الغرب الاوروبى

أنظر الأتراك ، والتركمان ، والتركوبول	١٧٨ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٧٧ ٢٩١
البحر الأبيض المتوسط ٤٩ ح ١	٢٩٢ - والامبراطورية ٤٢ ٥٠
٥٧ ٦٠ ح ٤ ٨٢ ٢٦٨ ٢٦٩	١٤٧ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٩ ٢٠٥
٢٧٠ ٢٧٥ ٢٨٢ ٢٨٩	- والحركة الصليبية ٦٧ - ٧٢
البحر الأحمر ٨	١٢٦ ح ١ - أنظر الكنيسة الرومانية
البحر الأدرياتي (الأدياتيكا)	بارث (العالم) ١٠ ١١ ١٥ ح ٣
٣١٢ ١٤٤	باركر (ارنست) ٣٣ ٣٦ ٥٢
بحر مرمرة ١١٨ ١٦٢ ١٨٢	٦١ ٧٦ ح ١ ١٠٤ ح ٣
البرابرة - أنظر الجرمان	١١٠ ح ١ ١٣٥ ح ١
البرانس (جبال) ٢٧٠	باري (مدينة) ١٤٤ ١٤٥ ١٩٦
براى (٠١) ٦٦ ح ١	باريس (مدينة) ١٥ ح ٣ ٧٨ ح ١
برابان ١٧٩	باريس (جاستون) ٥٢
برتراده منتفرت ١٧٦	بازيل الأول (الامبراطور) ١٤٢
برسباى (السلطان) ٧٧	بازيل الثانى (الامبراطور) ١٤٢
برنارد دى فالانس (البطريك اللاتينى)	٢٢٤
٢٥٣ ٢٤٨	باسيليوس (لقب) ١٨١ ح ٣
برنارد دى كليرفو (القديس) ٥٨ ٦٧	يال (بسويسرا) ١٥ ح ٣
برنديوى (مدينة) ١٩٦ ٢١٥	بايزيد الأول (السلطان) ١٠٦
بروفانس ٢٠٤	باي (أوجست) ٣٥
البروفنساليون ١٧٨ ٢١١ ٢١٢	البجاناكية (أو البشنج) ١٢٨ ح ١
بريطانيا - أنظر إنجلترا	١٤٦ ح ١ ٢٠٧ ح ١ ٢٠٩
	٢٠٧ ٣٠٩ ٣٣٢ ح ٢ -

بلدوين الثالث ٢٠	بريه (لويس) ٢ ح ١ ٣٤ ٦٢
بلدوين ده هانو ٢٤٦	اليسفور ١١٨ ١٢٥ ١٦١ ١٦٦
البغار ١٤٧ ح ١ ٢٠٧	١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٩١ ٢٠٢
بلغراد (مدينة) ١٥٧ ١٨٢	٢٢٧ ٢٩١ ٢ ح ٢ ٣١٥ ح ٢
بلفور (آرثر جيمس) ١٠٧ - وعد	٣١٨ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٣١ ح ٣
١٠٧ ٢٨٥	٣٣٢ ٣٣٣
البقان (شبه جزيرة) ٧٩ ١٠٦	بطرس (القديس) ٩٨ ٣٣٧ ٣٣٨
١٤٤ ١٤٩ ١٥٧ ح ٣ ١٨١	بطرس برنولماوس ٦ ٦٥ ٢٤٣
٢ ح ١٩٤ ٢١٥ ٢٢٦ ح ٣	بطرس الناسك ١٣ ٥٥ ح ١ ٥٨
بلكان (مدينة) ١٩٠ ٢٣١ ٣٢٠	٦٤ ٦٥ ح ١ ٦٧ ١٢٢
٣٢٨ ٣٢٢ ح ١	١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٣٠
بلوا (مقاطعة) ٨ ٢١ ١٢٩ ١٣٣	١٣١ ١٣٢ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ -
١٧٨ ٢١٣ ٢١٥ ٢١٦ ٢٢١	١٧٠ ١٧١ ٢٥١ ٣٠٣ ٣٠٤
٢٢٣ ٣٢٩	٣١٣ ح ١ - ٢ ٣١٥ ٣١٦
بلوى (ل .) ٣٥	٣١٧ ٣١٨ ٣٣١ - ٣٣٢
بمفيلية (مدينة) ٣٠٨	بغداد ١٤٣ ١٥٠ ١٦٠
البنادقة ٧٨ ح ١ ٨٨ ح ٣ ٨٩	البلاكرن (قصر) ١٨٩
٩٠ ٩٣ ١١٠ ح ١ ١٩٢ ح ١ -	بلاكرنيس (باب) ١٨٧
أنظر البندقية	بلدوين (مارشال) ٣٥ ١١٧ ٢٦٦
البندقية ٨٨ ح ٢ ٨٩	بلدوين الأول (شقيق جودفري) ٨
بنطش ٣٠٨	٩ ٥٨ ٧٤ ٨٣ ١٣٥ ١٣٦
بوتومايت (أحد خواص الكسيس	١٣٩ ١٧٦ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠
كومنين) ٢٣١ ٣٢٨	١٨٦ ١٨٧ ١٨٩ ٢٣٦ ٢٣٧
	٢٤٦ ٢٢٢ ٣٣٢

بودري ده بورجي (المؤرخ) ١٤ ٩

١٦-١٧ ١٨ ١١ ٣١١ ح ٣

بودوان ده بورج ١٧٩

بوكينات (قلعة) ٢٠٨

بولان ٨٥ وح ٢ - أنظر الفرنج

بونجار (ج. ٠) ٨ ح ٢ ١٢ ح ٢

١٥ ح ٣

بونس ده بلازون ٦

بوهيمند النورماندي ٢ ح ١ ٣ ٤

وح ١ ١٤ ١٨ ١٩ ٢٤ ٤٩

وح ٢ ٥٨ ٧٣ ٧٥ ٧٩ ١٢٠

وح ٣ ١٢٥ ١٢٩ ١٣٠ ١٣٣

١٣٥ ١٣٦ ١٤٩ ١٦٦ ح ٢

١٦٨ ١٧٦ ١٧٨ ١٨٠ ١٨٦

١٨٧ ١٩٠ ١٩١ - ٢٠٤

٢٠٦ ٢٠٩ ٢١١ ٢١٢ ٢١٩

ح ٢ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٣ ٢٢٨

٢٢٦ ٢٣٨ - ٢٥١ ٢٥٣ - ٢٥٨

٢٩٠ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣١٤ ٣١٥

٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢١ ٣٢٣ -

٣٢٦ ٣٢٧ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥

أنظر الكسيس كومنين ، وآن

كومنين

بوي (مدينة) ٥ ٢٠٤ ٢١٥ ٢٥٥

البويهيون ١٤٣

النيازنة ٩٣ ٢٥٣ - أنظر بيضة

بيضة ٨٨ ح ٢ ٨٩

بيت المقدس ٢ ٨ ١٥ ح ٢ ١٨

٢٠ ٣١ ٣٨ ٥٠ ٧٤ ٧٥

٧٦ ٧٧ ٧٩ ٨٣ ٨٨ وح ٤

١٠٠ ١٠٦ ١٠٧ ١٣٥ ١٤٣

١٤٥ ١٥٤ وح ٢ ١٥٥ ١٧٠

١٨٠ ١٩٢ ٢١٠ ٢١٤ ح ٣

٢١٥ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦

٢٣٨ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٥١ ٢٥٧

٢٦٠ وح ٢ ٢٦١ ٢٧٢ ح ٣

٢٧٧ ٢٨٧ ٢٨٨ ٣٠١ ٣٠٨

٣١٣ ٣١٩ - فضائل ٩٥ وح ٣

بيشنية (مدينة) ٣٠٨

بيرا (مدينة) ١٨٦ ١٨٧

بيركارد ٥٩

بيزنطة ٢١ ح ١ ٤٦ ٥٢ ٥٣ ٧٣

٧٩ ١١٦ وح ١ ١٢٠ ١٢٢

١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ح ١ ١٢٨

١٢٩ ١٣١ ١٣٥ وح ١ ١٣٨

١٣٩ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥

١٤٦ ١٤٧ وح ١ ١٤٩ ١٥٠

١٥٣ ١٥٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٧٢

١٧٤ ١٧٨ ١٨٥ ١٨٩ ١٩٢

بيلاجونيا (نهر) ١٩٦ ١٩٧	١٩٣ ٢٠١ ٢٠٧ ح ١ ٢١٩
٢٠٨	ح ٢ ٢٢٢ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦
ييفتر (ميدنى) ١٧٢ ٣٥	٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨
بينز (نورمان) ٣٦ ١٣٦ ح ١	٢٤٠ ٢٤٥ ٢٤٧ ٢٤٩ ٢٥٠
٢٢٢ ح ١ - وموس ٣٦	٢٥١ ٢٥٣ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧
(ت)	٢٥٨ ح ١ ٢٦٠ ٢٨٩ ٢٩١
تاتيكوس (أحد القوادى فى الجيش	٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٤
البيزنطى) ٢٢٨ ٢٣٩ ٢٤٠	٣١٨ ح ٢ ٣٣٤ ح ٣ - أنظر
٢٥٠	الامبراطورية الرومانية الشرقية،
التاريخ - تطور علم ١٠ ٣٠ ح ١	ودولة الروم
٢٢ - كتابة ٢٢ ح ٢ ٢٧	البيزنطيون ٤ ٦ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٦
وح ٢	٤٩ ٧٥ ٩٩ ١١٥ ح ١١٩ ٢
التجارة (فى العصور الوسطى)	١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٨ ١٣٣
٨٧ - ٩٠ ٩٣	١٣٧ ١٣٩ ١٤٢ ١٥٣ ح ١
تراقية ١٩٧ ٣٠٨	١٥٤ ح ٢ ١٥٧ ١٥٨ ١٦١
الترك - أنظر الآتراك ، والسلاجقة	١٦٧ ١٧٠ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨
التركان ٥٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٥٤ ح ٢	١٩٤ ١٩٧ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٩
١٦٦ ١٨٦ ٢٢٧ ٢٣٢ ٢٣٥	٢١٣ ٢١٤ ح ٢ ٢١٥ ح ١
٢٦٠ ٢٧٢ ح ٣ - أنظر	٢١٦ ٢١٨ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٥
الآتراك ، والتركوبول ،	٢٣٢ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٤٦ ٢٤٧
والسلاجقة ، والكومان	٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤
التركوبول ١٢٨ وح ٢ ٢٠٧ ح ١	٢٥٥ ٢٥٧ ٢٥٨ ح ١ ٢٩٠
٣٣٢ وح ٢ - أنظر الآتراك ،	٢٩١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٧
	ح ٤ - ٥ ٣٣٧ ح ١ ٣٣١ ح
	٤ - أنظر الأغريق ، والروم

والتركان، والسلاجقة، والكومان
تريفليان (جورج) ١٠٤ ٤ ح ٦٠
التنبؤات (في العصور الوسطى) -
أنظر الأساطير ، والرؤيات
الدينية

تكريد (ابن اخت بوهيمند) ٣

١٩٥ ١٧٨ ١٢٩ ٥٨ ١٨ ١٤

٢٣٣ ٢٢١ ٢٠٢ ١٩٧ ٤ ح ٢٣٣

٢٤٦ ٢٣٧ ٢٤٥ ح ١ ٢٤٦

٢٥٨ ٢٥٧ ٢٥٤ ٢٥٣

توران شاه (الملك المعظم) ٢٩ ح ٢

تولوز • ٥٥ ١٧١ ح ١ ٢٠٢

٢١٠ ٢٠٩ ٢٠٨ ٢٠٤ ٢٠٣

٢٢٨ ٢٢١ ٢١٢ ٢١١

توما (بطرس ده) ٥٩

تونس ٢٨٨ ١٠٩ ٨٠

تويني (أرنولد) ٣٨ ح ١

تيدبوده (بطرس) ٢ ح ١ ٤ ١٣

٦١ ٥٦ ١٤

التيونونية (جماعة الفرسان) ٦٩

٩٣ ٩٠

(ث)

ثوب (بالمر) ٩٤ ح ٣

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٤٤

ثورس الارميني (الملك) ٢٣٦ ح ١

(ج)

الجاليات الايطالية التجارية ٨٧ -

٩٠ ٢٧٥ - أنظر البنادقة ،

والبيازة ، والجنوية

جاليريوس ١١٣

الجامعات (نشأة) ١٠١

الجامع الأزهر ٩٤ ٢٧٩

جان ده برين ٧٩ ٢٦٥ ح ١ - أنظر

الحملات الصليبية (الحملة الخامسة)

جب (سير هاملتون) ٣٥

الجزمان ٤٥ ٨٧ ١١٣ ١٧٦ ٢٠٧

ح ١ - غزوات ٤٥ ٦٨ ١١٢

١١٩ ١١٤

جروسيه (دينيه) ٣٥ ٤٠ ح ١

٤٦ ٦٢ ٧٠ ٧٨ ح ١ ٧٩

١٠٣ ١٠٤ ح ١ ١٦٤ ح ١ ١٦٨

١٨٠ ١٩٢ ح ٢ ١٩٤ ٢٢٧

ح ١ ٢٣٢ ٢٤٥ ٢٤٧ ٢٤٨

٢٦٥ ٢٦٨ ح ٢ ٢٧٢ ح ٢ ٢٧٣

ح ٤

جرونيباوم (جوستاف فون) ٢٨٢

جرينجوار الارميني (المؤرخ) ٢٥ ح ٢

جوتيه المعدم ١٢٣ ١٢٤ ١٢٠
١٥٢-١٥٣ ١٥٦ ١٥٩ ١٧١
جودفرى ده بويون ٨ ٩ ١١ ١٢
وح ٢ ٤٩ وح ٢ ٥٥ ٥٨ ٧٤
٧٦ ١٢٩ ١٣٠ ١٢٢ ١٣٥
١٢٦ ١٣٩ ١٧٦ ١٧٨-١٩١
٢٠٢ ٢ ٩ ٢١١ ٢١٢ ٢١٤
٢٢٠ ٢٢٦ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٦٦
٣٠٤ ٣١٨ وح ٢ ٣١٩ ٣٢٠
٣٢١ ٣٢٢ ٣٣٢ - ٣٣٣
٣٣٥

جورج (لويد) ١٠٨

جوسلين الثانى ٢٣٦ ح ٢

جوتى الباريسى (المؤرخ) ٢٠

جويسكار (روبرت) ٤٩ ٧٣ ٧٩

١٢٠ ١٢٥ ١٣٦ ١٤٤ ١٤٩

١٩٠ ١٩١ ١٩٣ ١٩٩ ٢٠١

٢٠٣ ٢٥٥ ٣٠٣ ٣٢٦ وح ١

٣٣٤ ح ٣ - أنظر الكسيس

كومنين ، وبوهيمند

جويرت ده نوجان (المؤرخ) ١٤

١٧-١٨ ٥٤ ٦١ ١٧٩ ح ١

٣٠٠ ٣١١ ح ٣

جيبون (ادوارد) ٣٥ ح ١

جيروايمين (باب) ١٨٧

جرىجورى الاول الكبير (البابا)

١٧٥ ١١٥

جرىجورى الثانى (البابا) ١١٥

جرىجورى السابع (البابا) ١٤٦ ١٧٥

الجزائر ١٠٩

الجزيرة البريطانية - أنظر انجلترا

الجزيرة العربية ٣٩ ١٤١

جستيان (الامبراطور) ٢٢٤

الجماعات الرهبانية العسكرية ٦٨ ٦٩

٨٧ ٩٠-٩١ ٩٣ ٢٧٥ -

أنظر الاسبتارية ، والتوتونية

والداوية

جمال الدين الفيل (الدكتور) ٢٩

ح ١-٢ ٣٠ ح ٣ ٣٤ وح ١

جمال عبد الناصر (الرئيس) ٧٢ ح ٣

١٠٨ ح ١ ١١٠ ح ٢ ٢٨٦

جنوه ٨٨ ح ٢ ٨٩ ١٧١ ح ١

الجنوية ٨٨ ٩٣ ١٧٠ ح ١

جوانفيل (جان ده) ٢١ ٢٢ ح ١

٦٦ ٦٩ ٩٢

جوتشالك ١٥٢ ١٧٠

جوتيه المستشار (المؤرخ) ١٤

١٩ - ٢٠

(ح)

الحجاج الغريون (إلى الأراضى

المقدسة) ٢٧ ٦٩ ٨٩ ١٣١

١٥٤ وح ٢ ١٦٠ ٢٧٥ ٢٨٧

٣٠١

الحج إلى الأراضى المقدسة (حركة)

١٥ ح ٢ ٣٠٢

حران (مدينة) ٢٥٤

الحرب (فى المصور الوسطى) ٤٢

٨٧ - أنظر الاقطاع ، والفروسية

الحرب العالمية الأولى ١٠٧ ١٠٨

الحركة اللاأيقونية ١١٥ وح ٢ ١١٦

الحركة الصليبية - الباعث الشخصى فى

قيامها ٥١ - ٥٧ العامل الدينى

قناع ذاتى ٢٦ ٢٨ ٤٠ ٥٠

٦١ - ٧٠ ٧٢ ٧٣ ٧٧ ٧٨

٨٦ ٨٧ ٨٩ ٩١ ٩٣ ٩٤ ٩٧

٩٩ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥

١٠٩ ١٣٦ ١٥٢ ١٨٦ ح ٢

٢٠٦ ٢٤٣ ٢٦٨ ٢٨٥ ٢٨٧

٢٨٨ - والحروب البيزنطية ٤٣

ح ١ ٤٥ ٤٦ وح ٤ - أنظر

الاستعمار الصليبي ، والاستيطان

الصليبي ، والحملات الصليبية

حسن حبشى (الدكتور) ٢٣ ٧٧

ح ٣ ٢٦٣ ح ١ ٢٧٢ ح ٢

٢٠٤ ح ٢

حسين مؤنس (الدكتور) ٢٦

حلب (موقعة) ٢٧٧

حلب ١٤٣ ٢٥٣ ٢٥٩ ٢٦٠

الحملات الصليبية ٦ ١٢ ٧ ح ٢ ١٨

٢١ وح ١ ٢٢ ٢٤ ٢٦ - ٢٨

٣١ - ٣٥ ٣٧ ٣٩ - ٤١ ٤٣

وح ٢ ٤٥ ٤٧ - ٥٠ ٥٢ ٥٤

٥٥ ٥٧ ٦٠ ٦٣ ٦٥ ٦٧ -

٧٢ ٧٤ ٧٨ ٧٩ ٨٢ ٨٥ ٨٨

ح ٢ ٩٠ ٩١ ٩٧ ٩٩ ١٠٢

١٠٤ ١١٠ ١٢١ ١٢٦ ١٣٣

١٣٦ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٦٠

١٨٦ ١٩٢ ١٩٣ ٢١٢ ٢٢٥

٢٣٥ ح ٢ ٢٦٥ ٢٦٨ ٢٧٩

٢٨١ ٢٨٧ - ٢٨٩ ٢٩٨ ٣٠٣ -

الحلة الأولى ١ ٣ ٥ ح ٢ ٧ ٦

ح ١ ٩ ١٢ ح ٢ ١٣ ١٦ ١٩ -

٢١ ٢٣ ٢٤ ٢٦ ٢٨ ٣٤ ٤٢ ح ٢

٤٩ ح ١ ٥٢ ح ١ ٥٤ ٥٥

وح ١ ٥٨ وح ٢ ٦٤ ٦٥ ٦٧

٧٣ - ٧٥ ٧٩ ٨٣ ١١١ ١١٥

١٢٠ ١٢٣ ١٢٥ ١٣٤ ١٤٠

١٤٤ ١٤٧ ١٥١ ١٥٢ ١٦٦

(خ)

خسرو (ملك الفرس) ٣٨
خلقيدونية ١٦٢ ٣٢٠ ح ١
خيوس (جزائر) ٣٠٨

(د)

الدانوب (نهر) ١٤٧ ح ١ ١٥٨
داوس (الزايث) ٢٩٧
الداوية (جاعة الرهبان) ٦٩ ٩٠
٩١ ح ٢ ٩٣ ٢٦٣
دراكون (نهر) ١٦٥ ٣١٧
دروبولى (وادي) ١٩٦ ٢٣٨
درويش النخيل ٣٤ ح ١
دقاق (صاحب دمشق) ٢٥٩
دقديانوس (الامبراطور) ١١٣
دماشيا ٢٠٧
دماليوم ٣٢٧
دمشق ٣٢ ٢٥٩ ٢٦٠
دمياط ٢٨١
دوراخيوم ٣١٤ ٣٢٤
دوراؤو (مدينة) ١٧٨ ١٩٦ ٢٠٧
٢١٥ ٢٥٥
دوريليوم (اسكى شهر) ١٣١ ١٤٦

١٧٥ ١٧٧ ١٧٩ ١٨٠ ١٩١
١ ح ١٩٤ ٢٠٢ ٢٠٤ ٢٠٦
٢٣٦ ح ٢ ٢٤٩ ٢٥٧ ٢٦٨
٢٧٠ ٢٧١ ٢٩٠ - ٢٩٣ ٢٩٧
٢٩٨ ٣٠١ - ٣٠٤ ٣٢٠ ح ٢ -
الحملة الثانية ٥٨ ٦٧ ٧٦ ٧٩
٢٥٨ ح ١ - الحملة الثالثة ٢١ ح ٢
٦٧ ٧٦ ٧٩ ٢٤٥ ح ١ - الحملة
الرابعة ٥٩ ٦١ ح ١ ٦٧ ٧٧
٢ ح ٢ ٧٨ ٧٩ ١٢١ ح ١
١٣٥ ١٤٧ ح ١ ٢٥٨ ح ١
٢٩١ ٣٠٢ - الحملة الخامسة ٧٨
ح ١ ٧٩ ٢٦٥ ح ١ - الحملة
السادسة ١٠٠ ح ١ - الحملة
السابعة ٢٩ ح ٢ ٤٣ ح ٢ ٥٩
٦٧ ٧٩ ٨٠ ١٠٠ ٢٦٥ ح ١
٢٨١ - الحملة الثامنة ٥٩ ٦٧
٨٠ ح ٥ - الحملة التاسعة ٥٩
٦٧ ٨٠ ٢٨٨ - الحملات المتأخرة
٥٩ ٨٦ ح ٢ ١٠١ ح ١ ١٠٦ -
صليبية الأطفال ٧٨ ح ١ - أنظر
الاستعمار الصليبي ، والاستيطان
الصليبي ، والحركة الصليبية ،
والعدوان الصليبي

دير القديس ريمى ١٤ ١٥ ح ١
 ديشمن (العالم) ٢ ح ٨
 ديفز (ادوين جون) ١٣٦
 ديفز (و.و. كارلس) ٥٢ ٣٤
 ١٠٤
 ديل (شارل) ١٢٩ ٦٢ ٥٣ ٢٥
 ح ١ ١٨٠ ٢٠٤ ح ١ ٢٢٢
 ٢٤٩ ٢٤٨
 (ذ)
 الذهبي ٣٠
 (ر)
 راجوزا ٢٠٧
 رانسيان (ستيفن) ٥٣ ٣٦ ٣٥
 ١٧٨ ١٦٨ ١٤٥ ١١٧ ٦٢
 ح ٢ ٢١٤ ح ٢ ٢٢٧ ح ١ ٢٦٥
 ٣ ح ٣١١
 راؤول ده كان (المؤرخ) ١٤ ٤
 ١٨ - ١٩ ٥٦ ٦١ ١٩٧
 ٢٥٨ ح ١
 الراين (نهر) ١٧٩ ١٢
 رتيف (وليم) ١٨ ٩٩ ح ١ ١٠١
 وح ١ ٢٩٨ ٣٠٥ ٣٣٦ -
 ٣٣٧

١٨٩ ٢٣٣ ٢٥٩ - موقعة ٢١٥
 ح ١ ٢٣٣ ٢٣٥
 دول (مدينة) ١٦
 دولة الحمدانيين ١٤٣
 دولة الروم ٤٥ ٣٨ ٣٥ ٢٥ ٢٣
 ١٠٢ ٧٩ ٧٨ ٧٣ ٥٦ ٥٣
 ١٢٣ - ١١٩ ١١٦ ١١١ ١٠٣
 ١٣٦ - ١٣٣ ١٢٨ ١٢٦ ١٢٥
 ١٤٥ ١٤٤ ١٤٢ ١٤١ ١٣٨
 ١٥٦ ١٥٣ ١٥١ ١٥٠ ١٤٧
 ١٨١ ٢ ح ١٧٨ ١٧٧ ١٧٥
 وح ٢ ١٨٩ - ١٩٥ ٢٠٣ ٢٠٤
 ٢٢٢ ٢٢١ ٢ ح ٢١٩ ٢١٨
 ح ١ ٢٢٥ ٢٣٣ ٢٣٨ ٢٤٥
 ٢٩١ ٢٦٩ ٢٥٦ ٢٥٤ ٢٥٣
 ٢٩٣ ٢٩٧ - ٣٠٣ ٣٠٧ ح ٤
 ٢٢٦ ح ١ - أنظر بزنطية ،
 والامبراطورية الرومانية الشرقية
 الدولة العباسية ١٤٣ ٢٦٠ ٢٧٠
 الدولة العربية (في العصور الوسطى)
 ٢٧٠ ١٤٢ ١٤١ ٣٩
 الومينيكان (الرميان) ٧٠
 دييوا (بطرس) ٥٩
 دير سنوك ١٤ ١٥ وح ١

روبس (دانيال) ٦٢ ٢٧١ ح ١	رضوان (صاحب حلب) ٢٥٩
٢٨٨	رفع ٧٤
روتلان (المؤرخ) ٢٢ ح ١	الرملة (وقعة سنة ١١٠٢) ٢١٥ ح ١
روجر (عامل في خدمة الكسيس	الرها - إمارة ٨ ١٨٠ ٢٢٤ ٢٣٦
كومنين) ١٨٣ ح ٢	وح ٢ - مدينة ٢٥ ٧٤ ١٨٩
روجر الأول (صاحب صقلية) ٢٠	٢٣٦ ٢٣٧ ٢٥٤
١٩٢	الرهبة (في العصور الوسطى) ١٦
روجر بورسا (أخو بوهيمند	١٨١ - أنظر البابوية، والكنيسة
النورماندي) ١٩٣	الرومانية
رودس ٢٦٩	رهشت (ر .) ٣٤ ٣٥ ح ١
رودستو (مدينة) ٢٠٩	٦١ ٥٣
الروس ١٤٧ ح ١ ٢٠٧ ح ١	روبرت الأول (أمير الأراضى
روسا ١٩٧	الواطنة) ٢١ ٥٣ ٥٨ ١٢٢
روسكوى (مدينة) ٢٠٨ ٢١٠	ح ١ ٢١٥ ح ٢ ٢٤٣ ٢٩٨
روسيل ده بايل ١٩٤ ح ٢	٢٩٩ ٣٠٠ - أنظر الكسيس
رول ييليديلو (عامل في خدمة	الأول كومنين
الكسيس) ١٨٣ ح ٢	روبرت الثاني (أمير الأراضى الوطنية)
الروم ١ ٣٩ ٧٨ ١١١ ١٤٠ ١٤١	٢٠٩ ٢١٢ ٢١٥ ح ٢ ٢٤٥
ح ١ ١٤٢ ١٤٤ ١٤٥ ١٦٨	٣٣٥ ٣٠٧
١٧٤ ١٧٨ ٢٣٨ ٢٥٩ ٢٧٠	روبرت الرابع (المؤرخ) ١٤٤ -
٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩٧ - أنظر	١٦ ٢٠ ٥٤ ٥٦ ح ٢ ٦١
البيزنطيون، والأغريق	٦٢ ٣٠٠ ٣١١ ح ٣
روما ٣٨ ٤٣ ٤٥ ٦٨ ٦٩ ٧٠	روبرت كونت نورمانديا ٨ ٥٨
٧١ ١٠٢ ١١٢ ١١٣ ١١٤	١٢٩ ٢٠٢ ٢١٣ ٢١٤ -
	٢١٧ ٢٢١ ٢٤٤ ٢٤٥

١٧٨ ١٢٩ ١٣٦ ١٧١ ح ١
١٨٠ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ -
٢١٢ ٢١٤ ٢٢١ ٢٢٧ ٢٢٨
٢٣٢ ٢٣٣ ٢٤٢ ٢٤٤ ٢٤٥
٢٤٦ ٢٤٨ ٢٥٤ ٢٦١ ٣٢٧
٣٣٣ ٣٣٥

رينسيوس (العالم) ١٢ ح ٢
رينو (من زعماء الحملة الأولى
الشعبية) ١٦٢ - أنظر بطرس
الناسك

رينوده شايون ٨٥

(س)

الساف (نهر) ١٥٣ ١٥٧
سالونيك ٢٠٨ ٢١٥
سان ريمو (اتفاقية) ١٠٩
ستيفنسون (كارل) ٦٢ ١٣٨
ستيفنسون (وليم) ٣٤ ٢٨١ ح ١
سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور)
٣٣ ٣٤

سكوتاري ٢٠٧

السلاجقة ٥٣ ٧٥ ١٠٢ ١٢٥ ١٢٩
١٣١ ١٤٥ ح ١ ١٤٦ ١٤٧
ح ١ ١٥٠ ١٥٤ ح ٢ ١٦٤

١١٨ ١١٩ ١١٧ ح ٢
ح ٢ ١١٩ ١٢٢ ١٤٦ ١٥٠
١٥١ ١٧٣ ٢١٥ ٢٦٥ ٣٠٠
٣١٠

الرومان القدماء ٢٢ ح ٢ ٣٧ ٤٠
ح ١ ٩٩ ١١٢ ٢٨٧

رومانوس الثاني (الامبراطور) ١٤٢
رومانوس الرابع ديوجينيس
(الامبراطور) ١٤٥

الرؤيات الدينية (في العصور الوسطى)
٦٤ - ٦٧ - أنظر الأساطير
الدينية

ريان (بول) ١٩ ح ٢ - ٢٠ ح ١
٣٤ ٣٥ ح ١ ٥٣ ٥٤ ٦٢ ٣٠٠
ريتشارد قلب الأسد (ملك إنجلترا)
٧٦ ٧٧ ٢٤٥ ح ١ - أنظر
الحملات الصليبية (الحملة الثالثة)

ريمز (مدينة) ١٤ ٨٣

ريمون داجيل (المؤرخ) ٥٢ - ٧
١٤ ٦١ ١٢٢ ٢٠٦ ٢٠٩

٢٢٧ ح ١ ٢٢٩ ٢٦٥ ٣٠٤
٣٢٧ ح ١

ريمون الرابع ده سان جيل (كونت
تولوز) ٥ ح ٢ ٦ ١٨ ٥٥

السيد عبد العزيز سالم (الدكتور)

٣٤

سيرا (مدينة) ١٩٧

سيف الدولة الحمداني ١٤٣ - أنظر

دولة الحمدانيين

ميليفري (مدينة) ١٨٢ ١٨٣

(ش)

شارتر (مدينة) ٢ ح ٧ ٨ ٢١

٨٣ ١٣٣ ٢١٥ ٢٢٢ ٣٢٩ -

مدرسة ٢ ح ٧

شارلده بروفانس ٣٣٨ و ٢ ح

شارلمان ٥١ ٥٢ ح ١ ١١٦ -

امبراطورية ١١٩ ١٧٢ -

أسطورة حج ٥١-٥٢ ٦٣ -

أنشودة رولان ٥١-٥٢ ٦٣

شالندون (فرديناند) ١٢ ح ٢ ٣٤

٣٥ ح ١ ٣٦ ٥٣ ٥٤ ح ٥

٦٢ ١٣٦ ١٥٧ ١٦٠ ١٦٩

١٨٠ ١٨٢ ١٨٦ ١٨٨ ١٩٢

١٩٦ ح ١ ١٩٧ ٢٠١ ٢٠٦

٢٠٩ ٢١٠ ٢٢٣ ٢٤٧ ٣٠٠

٣٠١ ٣٠٢ ح ٣ ٣١٨ ح ٢

الشام (بلاد) ٤٤ ح ١ ٥٩ ٧٤

٧٩ ٨٠ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ح ٢

١٦٥ ١٦٦ ح ٢ ١٦٨ ١٧٠

١٧١ ١٩٤ ١٩٥ ٢١٠ ٢٢٢

٢٢٥ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٣٢ ٢٣٥

٢٣٨ ٢٥٠ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١

٢٧٠ ٢٧٢ ح ٣ ٢٩١ ح ٢

٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٧

٣ ح ٣٠٩ ح ١ ٣١٧ - أنظر

الأتراك، والتركمان والتركوبول،

والسكومان

السلاف ١٤٧ ح ١

سلم الله ٨٧ - أنظر البابوية ،

والكنيسة الرومانية

سملين (مدينة) ١٥٢ ١٥٦ ١٥٧

١٥٩

سميل (د) ٢٤ ح ١

سواسون (مدينة) ١٨

سورية ١٩ ٢٠ ٦٠ ٧٧ ٩٢

١٠٠ ١٠٩ ١٩٣ ٢٢٦ ٢٤٩

٢٥٢ ٢٨٨ ٢٣٨ ح ٢ - أنظر

الشام

سومرفيل (د.س) ٣٨ ح ١

سويسرا ١٥ ح ٢

سبيل (العالم هـ) ١٢ ح ٢

السيد الباز العريني (الدكتور)

٢٣ ٢٤ ٢٦

٢٥٨ ح ١ ٢٥٩ ٢٦٥ ح ٢

٢٦٨ ٢٧١ ٢٨١ ح ١ ٢٨٢

٢٨٧ ٢٩٢ ٢٩٩ ٣٠١-٣٠٣

٣٠٦ ٣٣٨ ح ٢ ٤٠٢

الشعر اللاتيني ١٠ ١١ ١٨ ١٩ -

أنظر اللاتينية الوسيطة

شلومبرجيه (جوستاف) ٣٥ ٦٢

(ص)

الصالح نجم الدين أيوب (الملك)

٢٩ ح ٢ ١٠٠

صقلية ٤٧ ٤٩ ح ١ ١٠٠ ١١٦

١٤٣ ١٧٢ ١٧٤ ١٩٣ ٢٧٠

صلاح الدين الأيوبي ٢٥ ٣١ ٧٧

٢٧٦ ٢٧٧ ٢٨٠ ٢٨٧ ٢٩٣

الصليبيون ١٢ ٢٠ ٤٦ ٦٥ ٦٩

٧٠ ٧٢ ٧٥ ٧٨ ح ١ ٨١ ح ٢

٩٢ ١١١ ١٢٠-١٢٣ ١٢٦-

١٣٦ ١٣٩ ١٤٧ ح ١ ١٥٦-

١٥٩ ١٦٤ ١٦٧ ١٦٩ ١٧٠

١٨٣ ١٨٥ ١٨٧-١٩٠ ١٩٥

٢٠٤ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٩ ٢٢١

٢٢٢ ٢٢٥ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٢

٢٣٣ ٢٣٥ ح ٢ ٢٣٧ ٢٣٨

٢٤٠ ٢٤٣ ٢٤٦-٢٥٥ ٢٦٠

٩٠ ٩١ ١٠٩ ح ١ ١٤١ ١٤٣

١٤٥ ٢٣٦ ح ٢ ٢٦٠ ٢٦٨

٢٦٩ ٢٧٣ ٢٧٦ ٢٨١ ٢٨٢

- شمال ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٧٢ ح ٣ -

فضائل ٩٥ وح ٣ - أنظر سورية

شبه الجزيرة الأيبيرية ٤٩ ح ١ ٧٣

١٧٤

شبه جزيرة المورة ١١٠ ح ١

شجر الدر ٢٩ ح ٢

شخصية الفرد (ظهور) ١٠١

الشرق الأقصى ٧٠ ٨٩ ٢٩٣ -

أنظر المغول

الشرق العربي ٣ ٤ ٢ ح ٥ ٦

٨ ٩ ١٢-١٦ ١٨ ٢١ ٢٦

٣٣ ٣٧ - ٤٠ ٤٣ ٤٩ ٥١

٥٢ ح ١ ٥٤ ٥٦ ٦٠ ٦٤

٦٦ ٦٧ ٦٩ ٧٠ ٧٢ - ٧٥

٧٧ - ٨٥ ٨٧ - ٨٩ ٩١ ٩٤

٩٩ ١٠٣ ١٠٤ ح ٥ ١٠٥

١٠٦ ١٠٨ ح ٢ ١١٠ ح ٣

١١١ ١٣٥ ١٤٤ ١٥١ ١٥٤

١٥٦ ١٧١ ح ١ ١٧٧ ١٨٠

١٨١ ١٩٣-١٩٦ ٢٠٠ ٢٠١

٢٠٦ ٢٢٠ ٢٢٢ ٢٢٦ ٢٣٥

٢٢٦ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٣ ٢٥٥

(ع)

العالم العربي ٢٦ ٢٧ ٢٢ ٥٦ ٥٨
ح ٢ ٦٧ ٦٨ ٧٠ ٧١ ٨١
٩٤ ح ٣ ١٠٢ ١٠٥ ١٠٧ -
١١٠ ١٢٢ ح ١ ١٤٣ ١٤٧
١٥٠ ١٥١ ١٧٣ ١٧٨ ٢٠٥
٢٦٠ ٢٦٥ ٢٧٠ ٢٧٢ ٢٧٧
٢٨٠ ٢٨٢ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩
٢٩٢ ٢٩٧ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٣٧
ح ١ - أنظر الشرق العربي

العالم الغربي - أنظر الغرب

عبد الحميد حمدي محمود (الدكتور) ٣٤
عبد الرحمن زكي (الدكتور) ٣٣
عيد العزيز توفيق جاويد ٢٦
عبد المنعم ماجد (الدكتور) ١٧
ح ٢ ٣٤

العثمانيون ١٠٦ ١٠٧ ٢٩١

العدوان الصليبي ٥٢ ٦٢ ٧٨ ح ١
٩٤ ح ٣ ١٠٥ ١١٠ ح ٤ ١٧٢
٢٦٦ ٢٧٩ ح ١ ٢٨٠ ٢٨١
ح ١ ٢٨٥ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٣
٢٩٤ ٢٩٧ ٣٠٢ ٣٠٦ ح ١
٣١٢ ٣١٤ ٣٣٧ ح ١ - وحشية
١٦٢ ١٦٥ ح ٢ ٣١٥ - أنظر

٢٦١ ح ١ ٢٦٨ ح ٢ ٢٧١
٢٧٢ ح ٣ ٢٧٣ ح ٤ ٢٧٥
٢٧٩ ح ٢ ٢٨٠ ٢٨٥ ٣٢٠
ح ١ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٣٨ ح ٤ -
مستعمراتهم في الشرق العربي
٣ ٤٨ ٦٩ ٧٥ ٨١ ٨٨ ٩٣
ح ١ ١٠٣ ١٣٥ ١٧٩ ١٨٠
٢٢٢ ٢٥٢ ٢٦٠ ٢٦٨ ٢٧٠
٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٦ ٢٨١ ح ١
٢٩٣ - أنظر أمل الغرب ،
والفرنج ، واللاتين

الصهيونية (في فلسطين) ١٠٩-١١٠
أنظر الاستعمار الصهيوني ،
واسرائيل

صور ١٠

صوفيا (مدينة) ١٥٣ ١٥٩ ١٦٧

(ط)

طرابلس الشام ٢٠٦ ٢٢٤ ٢٥٤
ح ١ ٢٥٧
طرسوس (جبال) ٢٣٥
طرواده (حروب) ٣٧
طايطلة (مدينة) ١٧٤
الطولونيون ١٤٣

(ظ)

الظاهر بيبرس ٢٤٨

عزيز سوريال عطية (الدكتور)
 ٢٦٨ ٥٩ ٢٥٦ ١٤٠ ٢٥
 ح ٢
 صقلان ٨ ٢٦٦ ح ١ - واقعة ٥
 ١٥ ح ٢ ١٦ ٢٦٦ ح ١
 العصور الحديثة ٣٩ ٦٠
 العصور القديمة ٤٠ ٤١ ٦٨
 العصور الوسطى ٣ ٢٢ ح ٢ ٢٢
 ٢٣ ٣٥ ٣٧ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٥
 ٥١ ٦٨ ٧٢ ١٠١ ١٠٥ ١٠٧
 ١١١ ١١٣ ١١٥ ١٤٢ ١٥٥
 ح ٢ ١٧٩ ١٨١ ٢٦٦ ح ٢
 ٢٧٧ ٢٨٠ ٢٨٧ ٢٩٤
 عكا ٤٨ ٤٩ ٧٩ ٩٣ ١٠٦ ٢٦٨
 ح ٢ ٢٧٧
 علي حسني الحروبوطي (الدكتور) ٣٤
 عماد الدين زنكي ٢٥ ٢٢٦ ح ٢
 ٢٧٦ ٢٩٣
 عمر كمال توفيق (الدكتور) ٣٣
 ٢٦ ٤٦ ح ٣ ١١٨ ح ٢
 العمري ٣٠
 المعيني ٣٠
 (غ)
 غالة (بلاد الغال) ٣١١ ح ٢ -
 أنظر فرنسا

الاستعمار الصليبي ، والاستيطان
 الصليبي ، والحركة الصليبية ،
 والحملات الصليبية
 العراق ١٠٩ ٢٧٦ - شمال
 ٢٦٨ ٢٧٣
 العرب ١ ٥ ٢٢ ٢٤ ٢٦ ٢٧
 ح ٢ ٣١-٣٣ ٣٥ ٣٨ ٢٩
 ٤٦ ح ٤ ٤٧ ٤٩ ٥٢ ح ١
 ٥٤ ٥٧ ٦٢ ٦٤ ٦٦ ح ١
 ٦٩ ٧٠ ٧٣ ح ٢ ٧٧ ٧٨
 ٧٩ ٨١ ح ٢ ٨٢ ٨٤ ح ٢
 ٩٣-٩٦ ٩٩ ح ٢ ١٠٠
 ١٠٣-١٠٥ ١٠٧ ١٠٨ ١١١
 ١٢٦ ١٤١-١٤٤ ١٤٧ ح ١
 ١٥٤ ح ٢ ١٧٢-١٧٤ ١٨٣
 ١٩٢ ١٩٤ ٢٠٥ ٢٢٤ ٢٢٥
 ٢٢٧ ح ٢ ٢٣٥ ح ٢ ٢٣٦ ح ٢ ٢٤٨
 ٢٥١ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٦٠ ح ٢
 ٢٦٣ ٢٦٦ ٢٦٨ ح ٢ ٢٦٩
 ح ١ ٢٧١ ٢٧٢ ح ٢ ٢٧٣
 ح ٤ ٢٧٥-٢٧٧ ٢٨٠ ٢٨٢-
 ٢٨٦ ٢٨٩ ٢٩١ ح ٢ ٢٩٢-
 ٢٩٤ ٢٩٧ ٣٠٦ ح ١ ٣١٣
 ٣٣٨ ح ٢
 العريش ٧٤

الغرب الأوروبي ١ ٣ ٦ ٧ ح ٢
 ١٣ ٢٢ ح ٢ ٢٦ ٢٧ ٣٣ ٣٥
 ٣٧ ٢٨ ٤٠ ح ١ ٤١ - ٤٦
 ٤٨ ٤٩ ٥٢ ح ١ ٥٤ ٥٥ -
 ٥٧ ٦٠ ح ٤ ٦٣ ٦٤ ٦٧
 ٦٨ ٧٠ ٧١ ٧٩ ٨٣ ٨٤
 ٨٥ ٨٧ ٨٩ ٩٢ ٩٣
 ٩٩ ١٠١ - ١١٠ ١١٤ - ١١٧
 ١١٩ ١٢٦ ١٢٩ ١٣٦ ح ١
 ١٤٠ ١٤٦ ١٤٧ ح ١ ١٥٠
 ١٥١ ١٥٤ - ١٥٦ ١٧٠ - ١٨١
 ١٩١ ح ١ ١٩٣ ١٩٨ ٢١٢
 ٢١٥ ح ١ ٢١٩ ح ٢ ٢٢٥
 ٢٢٦ ٢٣٨ ٢٤٣ ٢٥١ ٢٥٤
 ٢٥٥ ٢٦٠ ح ٢ ٢٦٦ ٢٧٠
 ٢٧١ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩٢ ٢٩٣
 ٢٩٨ - ٣٠١ ٣٠٣ ٣٠٥ ٣٢٠
 ح ٢ - ٣٣٨ - أنظر أوروبا
 الغرييون - أنظر أهل الغرب ،
 والصليبيون والفرنج ، واللاتين
 غرناطة ٤٧ ح ١
 غلاطية ٣٠٨
 (ف)
 قاتباخ (العالم) ٢٠ ح ٢

الفاتيكان ٢٩٢ - أنظر البابوية
 فارس - أنظر الفرس
 فازيليف (١.١.١) ٣٦ ٥٣
 الفاطميون (في مصر) ٨٨ ح ٢
 ١٤٥ ١٥٠ ٢١٥ ح ١ ٢٤٧
 ٢٤٨ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٦٠ ح ١
 ٢٦١ ح ١ ٢٧٢ ح ٣
 قالونا (أو أفلونا) ١٩٦ ٣١٤
 فاليريان ١١٣
 فانك برتتانو (ف. ٠) ٣٥ ح ١
 فخر الدولة (الأمير) ٢٦١ ح ١
 الفرات (نهر) ٧٤ ١١٠ ح ٢ ٢٣٦
 ٢٧٦
 فرانكفورت (مدينة) ١٥ ح ٣
 الفردار (نهر) ١٩٦ ١٩٧
 فردريك الثاني (الامبراطور) ٥٠
 ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ٣٠٥ - أنظر
 الحملات الصليبية (الحملة السادسة)
 الفرس ٣٧ ٣٨ ٤٥ ٤٦ - دولة
 ٣٧ ٣٨
 الفرنج (أو الفرنجة أو الافرنج) ٦
 ٨ ١٣ ٢١ ٢٤ ٢٧ ٣١ ٤٨
 ٥٢ ح ١ ٥٨ ٦٥ ٦٩ ٧٥ -
 ٧٧ ٨٠ ٨٢ - ٨٦ ٨٨ - ٩٤

٢٧٠ ٢٨١ ٢٩٣ ٢٩٤ ٣١٠	٩٦ ١٠٤ ١٠٦ ١١٩ - ١٢١
٣١٣ ٣٢٨ ح ٢ - أنظر غالة	١٢٣ - ١٢٨ ١٣١ ١٣٣ ١٣٥
الفرنسيديسكان (الرهبان) ٧٠	١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ح ١ ١٤٦
الفرنسية القديمة (اللغة) ١١ ٤٦	ح ١ ١٥٣ ١٥٧ ١٥٨
ح ٢ ٥٨ ٩٨ ٣٠٥ ٣٣٦ ح ١	١٦١ ١٦٢ ١٦٥ ١٦٦ ح ٢ ١٦٧
الفروسية ٤٢ ٨٧ ١٨١ - الفارسي	١٧٠ ١٧٩ ١٨٠ - ١٨٢ ١٨٥ -
الاقطاعي ١٧٩ ١٩٤ ٢٠٣	١٨٨ ١٩٤ ١٩٦ ٢٠١ - ٢٠٢
٢٠٤ ٢٠٦ - أنظر الاقطاع،	٢٠٥ ٢٠٧ ح ١ ٢٠٩ ٢١٥
وشارلمان (أنشودة رولان)	٢١٨ ٢١٩ ح ٢ ٢٢١ - ٢٢٣
فريجية (مدينة) ٣٠٨	٢٢٦ - ٢٢٩ ٢٣١ - ٢٣٣ ٢٣٥ -
فريجية الصغرى (طروادة) ٣٠٨	٢٤٠ ٢٤٢ - ٢٤٦ ٢٤٨ - ٢٥٠
فشر (٠.٥) ٣٤	٢٥٢ ٢٥٥ ٢٥٩ - ٢٦١ ٢٦٣
الفكرة الصليبية ٤٨ ٥٦ ٥٩ ٦٩	٢٦٦ ح ١ ٢٦٩ ٢٧١ - ٢٧٣
٧٠ ٧٤ ٧٥ ٨٦ ٩٨ ١٠١	٢٧٧ ٢٨٠ ٢٨٢ ٢٩٠ ٢٩١
١٠٦ ١١٠ ١٧٧ ١٩٢ ٢٧٧	ح ٢ ٢٩٣ ٣٠٤ ٣١٣ - ٣١٧
٢٩٢ ٢٩٧ ٣٠٠ ٣٠٥ ٣٠٦	٣٢٠ ٣٢١ ح ١ ٣٢٣ ٣٢٤
٢٣٦ ٣٣٨ - أنظر الاستعمار	٣٢٦ - ٣٢٨ ٣٢٣ - افرنج الشرق
الصليبي، والاستيطان الصليبي،	٦٦ ٨٥ ٢٧٥ - أنظر أهل الغرب،
والمدوان الصليبي	والصليبيون، واللاتين
فلاندرز - أنظر الأراضي الواطئة	فرنسا ٥ ٦ ٧ ح ٢ ١٤ ١٧ ١٨
فلسطين ١٤ ١٩ ٤٨ ٧٤ ٧٥ ٩٢	٤٢ ٤٤ ح ١ ٥٢ ح ١ ٥٧ ٥٨
٩٥ ١٠٤ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩	ح ١ ٥٩ ٦٠ ح ٤ ٧٦ ٧٩
١١٠ ح ٢ - ٤ ٢٢٦ ٢٧١ ٢٨٠	١٠٧ ١٠٨ ح ٢ ١٠٩ ح ١
٢٨٥ ٢٨٧ ٢٩٣ ٣٠١ - أنظر	١٥٤ ١٥٦ ١٧٤ ١٧٦ ١٩٢
الأراضي المقدسة	٢٠٤ ٢٠٧ ٢١٣ ٢١٩ ٢٥٥

فيليب الرابع (الجليل) ٥٩	الفيلينك (بلاد) - أنظر الأراضى
فيليب السابع ٧٦	الواطنة
فيليبوبوليس ١٥٩	ففسان ده بوفيه ١٧
(ق)	قواد محمد شبل ٣٨ ح ١
القاضى الفاضل ٣١	قوشيه ده شارتر (المؤرخ) ٢ ٧ -
القاهرة ٢٧٦	١١ ٢٠ ٥٦ وح ٢ ٦١ ٧٣
قبة الصخرة ٢٦٣	ح ٢ ٨٣ ٨٤ ح ١ - ٢ ١٣٢
قبرص ٧٧ ١٠٦ ١١٠ ح ١ ١٤٣	١٦١ ح ١ ٢٠٩ ٢١٥ ٢١٦
٢٦٩ - والحروب الصليبية ٧٧	٢٢١ ٢٢٧ ح ١ ٢٥٨ ح ١
القبر المقدس (أو قبر المسيح) ٦٢	٢٦٥ ٢٩٧ ٢٩٨ ٣٠١ ٣٠٤
٦٣ ٦٤ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٩٤	٣١٠ ٣١١ ح ٣
١٠٢ ١٠٣ ١٥٤ ١٩٢ ١٩٣	فولسكار ١٥٢ ١٧٠ ١٧١
٢٠٠ ٢٠٢ ٢٦١ ٢٨٧ ٢٩٩	فيتري (جاك ده) ٩٣ ح ١
٣٠١ ٣٠٩ وح ٢ ٣١٣ ٣١٤	فيروز (أحد ضباط حامية انطاكية)
٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٥ ٣٣٥ -	٢٤٠
أنظر بيت المقدس	فيفيه (مدينة) ٥ ح ٢
القدس - أنظر بيت المقدس	فيكتور الثالث (البابا) ١٧٥
القرآن الكريم ١٠٠ ٢٦٩	فيلها ردوان (جوفروا ده) ٦١ وح ١
قرطاجنة ٨١	فيليب أوغسطس ٥٨ ٧٦ - أنظر
القرن الذهبي ١٨٦ ١٨٧	الحملات الصليبية (الحملة الثالثة)
قسطنطين الأول (الكبير) ٣٨ ٩٨	فيليب الأول (ملك فرنسا) ٥٨
١١٣ ١١٨ ٢٩٠ ٣٣٨	١٧٦ ١٨٢ ٢١٣ ٢١٩ ٢٥٥
قسطنطين الرابع (الامبراطور)	٣١٠
١١٥ ح ١	

قشتالة ١٧٤	قُسطنطين السابع (الامبراطور) ١٤٢
القطيعة الدينية الكبرى (١٠٥٤ م)	قُسطنطين كسالكون ايرفوردينوس
١٤٦ ١٢٢ ٢ ح ١١٧ ٧١	٣١٧
ح ٢ ٢٢٥ ٢٩٠	القُسطنطينية ٥٣ ٧٨ ح ١ ١٠٢
قلج أرسلان ٢٣٣	١١٤-١٢٣ ١٢٥ ١٢٧ ١٣٠
القوط الغربيون ١٤٧ ح ١	١٣٥ ١٣٦ ح ١ ١٣٨ ١٤١
القوميّات (في المصور الوسطى)	١٤٤ ١٤٦ ١٥٠ ١٥٣ ١٥٩-
١٠١ ٦٨	١٦١ ١٦٦ ح ٢ ١٦٧ - ١٦٩
القومية العربية ٢٨٢ - ٢٨٤ -	١٧١ ١٧٨ ١٨٣ ١٨٧ ١٨٨
أنظر الوحدة العربية	١٩٠ ١٩٤ ١٩٧ ١٩٨ ٢٠٢
قونية (مدينة) ٢٣٥ ٢٥٨ ح ١	٢٠٩-٢١١ ٢١٣ ٢١٥ ٢١٦
قيسارية ٩٢	٢١٨ ٢١٩ ٢٢١-٢٢٣ ٢٣٢
(ك)	٢٤٥ ٢٤٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ح ١
الكاثوليكية ٦٩ ٧٠ ١٠٢ ١٠٥	٢٦٠ ٢٦٩ ٢٩٠ ٢٩١ ح ٢
٢٦٥ ٢٩٠ - أنظر بابوية روما،	٢٩٩ ٣٠٢ ٣٠٤ ٣٠٧ - ٣٠٩
والكنيسة الرومانية	٣١٣ ٣١٤ ح ١ ٣٢١ ٣٢٣
كفارو الجنوى (المؤرخ) ١٤ ١٩	٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٤
١٧٠ ح ١	٣٣٥ - اتفاقية مايو ١٠٩٧ م
كالثروب (م) ٣٥ ح ١	٧٥ ١٣٧ ١٨٩ ٢٠٣ ح ١
كامبل (ج) ٣٥ ح ١	٢٢٢ - ٢٢٨ ٢٢٢ ٢٣٦
الكامل محمد (الملك) ١٠٠	٢٣٧ ٢٤٠ ٢٤٥ ٢٤٩ ٢٥٠
كان (مدينة) ١٨	٢٥٦ ٢٥٨ ح ١ - إمارة اللاتين
	في ٧٨ ١٢٦ ٢٥٨ ح ١ - مجمع
	القُسطنطينية المسكوني سنة ٦٨٠ م
	١١٥ ح ١

٢ح ٥٧ ٦١ ٩٤ ٧٣ ١٥١
 ١٥٥ ١٩١ ح ١ ٢٠٥ ٣٠١
 ٣١٠ ٣١١ ح ٢-٤
 كندر (ج) ٣٥ ح ١
 كنيسة أيا صوفيا (بالقسطنطينية)
 ٢٥٦
 الكنيسة الرومانية اللاتينية ٢١
 ٢ح ٢٢ ٤١ ٤٢ ٤٥ ٤٩ ح ١
 ٥٧ ٦٧-٦٩ ٧١ ٧٣ ٨٧
 ٩٨-١٠١ ١١٣-١١٥ ١١٧
 ٢ح ٢ ١٧٣ ٢٢٥ ٢٩٠-٢٩٢
 ٣١٠ ٣٣٨ - أسلحة ١٤ ٤١
 ٤٢ ٥٠ ٥١ ١٠٠ ١٧٥ ١٧٦
 ٢١٣ - تدهور وفساد ٩٨ ٩٩
 ١٧٢ ٢٧٧ ٣٠٦ ٣٣٦ ٣٣٨
 - رجال الدين ٤ ١٦ ٤١ ح ٢
 ٧٦ ٩٨ ٩٩ ١٠٣ ١٣٣ ١٨١
 ٢٥٥ ٣٠٥ ٣١٠ ٣٣٨ ح ٥ -
 نقوذ ٤١-٤٢ ١١٣ - والحركة
 الصليبية ٦٧-٧٢ والحروب
 الغربية المقدسة ٢٠٥ - وسياسة
 التبشير ٦٩ ح ٢ ٧٠ ١٠٥
 ٢٩٢ - ونظرية السيادة البطرسيية
 ١١٤ ١١٧ ١٤٦ ح ٢

كانتوروفيتش (١) ٢ح ٩٩
 كانوسا (حادثة) ١٧٥
 كاهن (كلود) ٢٨٢ ٣٥
 كبادوكية الصغرى ٣٠٨
 كبادوكية الكبرى ٣٠٨
 الكتاب المقدس (الانجيل) ٤ ١٠٠
 الكتبي ٣٠
 كربوغا (حاكم الموصل) ٦ ٥٤
 ٦٥ ٢٤٢ ٢٤٤ ٢٥٠
 كرفو ٢٥٥
 كرواتيا ٢٠٧
 الكرواتيون ٢٠٧
 كريت ١١٠ ح ١ ٢٧٠
 كستوريا (مدينة) ١٩٦
 كسريچوردوس (مدينة) ١٦٢ ٣١٦
 كلاري (روبرت) ٢ح ٧٧ ١٣٦ ح ١
 كلمنت الثالث (البابا) ٦٧
 كلوني (جماعة) ٥٧ ٧٣ - الاصلاح
 الكلوني ١١٧
 كليرمون (مدينة) ١٧ ٥٨ ح ١
 ٧٢ ١٥١ ٣١١ - مؤتمرسنة
 ١٠٩٥ م ٢ح ٧ ١٥ ح ٢ ١٦
 ٤٢ ٤٣ ح ٢ ٤٦ ح ٤ ٤٨ ٥٦

كيليكية (مدينة) ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٥٤

٢٥٦ ٢٥٧

(ل)

اللاتين ١ ٢ ٤ ٦ ٧ ١٣ ٢١ -

٢٤ ٢٦ ٢٩ ٥٥ ٦٤ ٦٧

٧٥ ٧٨ ٧٩ ٨٢ ٨٤ ٨٥

٨٨ ٩٢ ٩٩ ١١١ ١١٢ ١١٥

١٢٠-١٢٣ ١٢٦-١٢٩ وح

١٣٢ ١٣٣ ١٣٦ ح ١ ١٣٧-

١٤٠ ١٤٤ ١٤٧ وح ١ ١٤٩

١٥١ ١٦١ ١٦٢ ١٧٢ ١٧٩

١٨٣ ١٨٥ ١٩٨ ٢٠٠ ٢٠٤

٢٠٦ ٢٠٩ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٥

ح ١ ٢١٧ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٣

٢٢٥-٢٢٩ ٢٣١-٢٣٣ ٢٣٥

٢٣٧ ٢٣٨ ٢٤٣ ٢٤٦-٢٥٢

٢٥٥ ٢٥٨ ح ١ ٢٥٩-٢٦١

٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧١-٢٧٣ ٢٧٥

٢٨١ ح ١ ٢٨٨ ٢٩٠-٢٩٢

٢٩٧ ٢٩٩ ٣٠٢-٣٠٥ ٣١٦

ح ١ ٣١٧-٣٢٠ ٣٢٢ ٣٢٥

٣٢٧ ح ١ - أنظر أهل الغرب ،

والصليبيون ، والفرنج

اللاتينية الكلاسيكية (اللغة) ٣

اللاتينية الوسيطة (اللغة) ٣ ح ١

الكنيسة الشرقية (البزنطية) ٤٣ ح ١

٤٦ ح ٤ ٧١ ١١٤ ١١٥ ١١٧

٢٩١ ٢٥٧ ٢٢٥ ١٢٢ وح

٢٩٢

كنيسة القديس بطرس (بأنطاكية)

٢٤٤

كنيسة القيامة (في بيت المقدس) -

أنظر قبر المسيح

كنيسة كونت تولوز ٢ ح ٥

كوبلاند (ج . و .) ٢٦٦ ح ٢

كوجلر (العالم ب .) ١٢ ح ٢

كولمبس (خريستوف) ١١٠ ح ١

كولنجوود (ر . ج .) ٢٢ ح ٢

كولومان (ملك المجر) ١٥٢ وح ٣

١٥٧

كولونيا (مدينة) ٢٠ ح ٣ ١٧٩

الكومان ١٢٨ وح ٢ ٢٠٧ وح ١

٢١٠ - أنظر الأتراك ، والتركمان ،

والتركوبول

كونراد الثالث (امبراطور ألمانيا) ٧٦

كونراد الرابع (الامبراطور) ٥٠

كسير (و . ب .) ٥٢ ح ١

كيفيتوت (أو جيوتوس) ١٦٢

١٦٤ ١٦٩ ٢١٦ ٣٢٠ ح ١

٢٣٠ ٢٢٩

لويس (برنارد) ٣٥ ١٠٤ ٢٨٨

لويس الثاني دوق بوربون ٥٩ ١٠٦

٢٨٨

لويس السابع (ملك فرنسا) ٥٨

٢٥٨ ح ١ - أنظر الحملات

الصليبية (الحملة الثانية)

لويس التاسع (ملك فرنسا) ٢٩

٢ ح ٢٤٣ ٢ ح ٤٤ ١ ح ٥٨

٥٩ ٦٥ ٦٦ ح ١ ٧٩ ٨٠

٩٢ ٩٣ ١٠٠ ٢٦٥ ح ١ ٢٦٩

٢٨١ ٢٨٨ ٢٣٨ ح ٢ -

أنظر الحملات الصليبية (الحملات

السابعة والثامنة والتاسعة)

ليباتو (واقعة) ١ ح ٤٠

ليبيا ١٠٩

ليدية (مدينة) ٣٠٨

ليزياردوس (أسقف سواسون) ١٧

ليزيار التوري ١١

ليسكية (مدينة) ٣٠٨

لين بول (ستانلي) ٢٧٢ ح ٣

ليو الثالث الايسوري (الامبراطور)

١١٥ ١١٦ - أنظر الحركة

اللايقونية

ليو الثالث (البابا) ١١٦

١٠٧ ١٤ ح ١ ١٥ ح ٣ ٤٥

٤٦ ح ٢ ٦٨ ١١٩ ١٢٠ ١٣٩

١٧٣ ١٥٨

اللاذقية (مدينة) ٢٥٣ ٢٥٤

٢٥٦ ٢٥٧

لاريسا (مدينة) ٣١٩

لال (رامون) ٥٩

لامب (هارولد) ٣٥ ح ١

لانجويديك (مقاطعة) ٢٠٤

لبنان ٦٠ ١٠٩

لطفى عبد الوهاب يحيى (الدكتور)

٢٨٣ ح ٢

لمبارديا ٢٥٧ ٣١٤ ٢١٥

اللمبارديون ١٢٣ ١٤٦ ح ١ ١٦٠

٢٥٥ ٣٣١ - أنظر لمبارديا

اللمنجوبارديون ٣٣١

لوئارنجيا السفلى - أنظر اللورين السفلى

اللواترنجيون ١٧٨ ١٨٧

لودلو (ج. م.) ٣٥ ح ١

اللورين السفلى ١١ ٥٥ ١٣٠ ١٧٢

١٧٨ ١٧٩ ١٨٩ ١٩٢ ٢٦٦

٣٠٤

لوسنيان (بطرس الأول) ٥٩ ١٠٦

محمد (عليه السلام) ٢٦٩
 محمد أبو زهرة (الشيخ) ١ ح ٩٥
 محمد بكر خليل ٢ ح ٢٢
 محمد بن يحيى الملقب بالمستنصر
 (صاحب تونس) ٨٠
 محمد عبد المعز نصر (الدكتور)
 ٣ ح ١١٠
 محمد العروسي المطوي ٣٣
 محمد مصطفى زيادة (الدكتور) ٣٠
 ح ٢ - ٣ - ٣٣ ٣٤
 محمد يوسف زايد ٣٦
 المدائن ٣٧
 المدن (نمو) ١٠١
 المرابطون ١٧٤
 مراکش ١٠٩
 مرسيليا ٩٣
 مزير (فيليب ده) ٥٩
 المسألة الشرقية (في العصور الوسطى)
 ح ١ ح ٤٠ ١١٢
 المسجد الأقصى ٢٦٣
 مسجد دمياط ١ ح ٢٦٥
 مسعود (سلطان قونية) ١ ح ٢٥٨
 المسلمون ٤٧ ٧٠ ١٦٢ ٢٢٦ ٢٥٤
 ٢٦٣ ٢٩٩ ٣٠٢

ليو التاسع (البابا) ١١٧
 ليون (مدينة) ١٧٤ - مجمع ليون
 الكنسي سنة ١٢٥٤ م ٢ ح ٤٣
 (م)
 مارتن (العالم) ٢ ح ٨
 مارتين (من رؤساء الأديرة) ١ ح ٧٨
 مارتين الأول (البابا) ١١٥
 مارموتيه (بفرنسا) ١٤
 ماري الانطاكية (الأميرة) ١ ح ٢٥٨
 ماسون (المؤرخ ج. ٠) ٢٩٧
 ماكسنتيوس (الامبراطور) ١١٣
 مالمسبوري (وليم) ٣ ح ٢١١
 مامسترا (مدينة) ٢٥٤
 مافويل الأول (الامبراطور) ١ ح ٢٥٨
 متى الباريزي (المؤرخ) ٢٢ ح ١
 ٩٨ ١٠١ ح ١ ٢٩٨ ٣٠٥
 ٣٣٨
 متى الرهاوي الأرميني (المؤرخ) ٢٥
 ح ٢ ٢٣٦ ٢٥٨ ح ١
 المجر (بلاد) ١٢٤ ١٥٢ ١٥٦
 ١٧٠ ١٧٨ ١٨١ ٣١٥
 المجر يون ١٥٣ ١٥٦ ١٥٧ ١٨١ ح ٢

٢٨٠ ٢٧٩ ١٧٦ ٢٧٣ ح ٣	المسيح (عليه السلام) ٧ ٣٨ ٦٢
٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٣٢٦ ٢٨٣٢٨ ح ٢	٦٤ ٦٥ ٧٢ ح ٢ ٧٦ ١١٢
المصريون ٧٨	١١٥ ح ١ - ٢ ١٣٤ ١٤٨
مصطفى طه بسر (الدكتور) ٣٦	١٧٣ ٢٤٣ ٢٩٩ ٣٠٧ ٣٣٤
معاهدة ديفول (١١٠٨) ٢٥٦ -	المسيحية ٣٨ ٤١ ٤٥ ٧٠ ٨٠
٢٥٧ ٢٥٨ ح ١	١١٢ ١١٣ ١١٨ ١٣٦ ١٨١
معبد السيد ٢٦٣	ح ٢ ١٩٢ ٢٢٥ ٢٦٥ ٢٩٠
معبد سليمان ٢٦٣	٣٠٧ ٣١٠
المغاربة ٢٨٢	المسيحيون الشرقيون (الارثوذكس
المغرب العربي ٥٧ ٧٠ ١٠٣ ١٠٦	الاغريق) ٢١ ٢٢ ٢٣ ٧٠
٢٨٧ ٢٨٢	٧٨ ١٠٣ ١١١ ١١٦ ١٢١
المغول ٧٠ ٢٨٠ - أنظر الشرق	١٥٤ ح ٢ ١٦٢ ١٧٠ ٢٩١
الأقصى	٢٩٢ ٣٠٢ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣١١
مقدونية ١٤٧ ح ١ ١٩٦ ٢٠٧	المسيحيون الغربيون (الكاثوليك
المقريزي ٣٠ ح ٢	اللاتين) ٢٢ ٢٣ ٩٧ ١٠٣
مكيزاك (ماي) ١٠١ ح ١	١٠٦ ١٠٩ ح ١ ١١١ ١١٦
ملاذكرد (موقعة) ١٤٥ ١٤٦ ح ١	١٢١ ١٥٠ ٢٩١ ٢٩٢
١٨٩ ١٩٤ ٢٢٤ ٢٣٥ ٢٤٥	المشرق العربي - أنظر الشرق العربي
ملك الاغريق (لقب) ١٨١ ح ٣	مصر (أو الديار المصرية) ٢٩ ح ٢
ملك شاه (السلطان السلجوقي) ١٥٠	٤٤ ح ١ ٥٩ ٦٠ ٧٢ ٧٤
الماليك (في مصر) ٨٦ ١٠٦ ١٠٧	٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨٧ ٨٨
٢٧٧ ح ١ ٢٩٣	ح ٢ ١٠٠ ١٠٨ ح ٢ ١٠٩
مبورج (ب. ٠) ٣٥ ح ١	١٣٥ ١٤١ ١٤٣ ١٥٠ ٢٤٧
	٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٢

ميشو (المؤرخ ا.ا) ١٥ ١٢ ٦	المنصورة (مدينة) ٢٨١
ح ١-٢ ١٧ ١٨ ح ٢	المهدية (مدينة) ٢٨٨ ١٠٦ ٥٩
ميلان (مرسوم) ١١٣	الموحلون ١٧٤
(ن)	مورافا (نهر) ١٥٧ ح ٣
ناقار ١٧٤	المؤرخ (في العصور الوسطى) ٢٢
نافيجيو (بارتلفوس ده) ١٠	ح ٢ - أنظر التاريخ
نظير حسان سعداوى (الدكتور) ٣٣	المؤرخ المجهول ٢ - ٥ ٦ ١٣ ١٤
نقفور برنيوس (زوج آن كومنين)	١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ٦١ ١٢٢
٢٣ ح ١	١٦٢ ١٦٦ ح ٢ ١٦٧ ١٦٨
نقفور فوكاس (الامبراطور) ٤٣	١٨٨ ١٩٢ ح ٢ ١٩٦ ١٩٧
ح ١ ٤٦ ح ٤ ١٤٢ ١٤٣	٢٠٣ ٢٠٩ ٢١٤ ح ٢ ٢٢٧
النهضة (عصر) ٢٧٧ ٣٩	ح ١ ٢٤٠ ٢٤٤ ٢٩٨ ٣٠٤
نور الدين محمود ٢٧٦ ٢٩٣	ح ٢ ٣٣١ ح ١-٢ ٣٣٢
النورمان ٤٩ ح ١ ١١٩ ١٢٣	١-٢ ٢٣٣ ح ١-٢ ٣٣٤ ح ٢
١٢٥ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٩ ١٥٠	الموصل (مدينة) ٢٤٢ ٦٥ ٥٤
١٦٢ ١٦٤ ١٦٥ ١٧٤ ١٧٨	موليتيه (ا.ا) ١٥ ح ٢
١٩١ ح ١ ١٩٢ ح ١	ميتيلينا (جزائر) ٣٠٨
١٩٤ - ١٩٧ ٢٠٤ ح ١ ٢٠٧	ميخائيل السابع (الامبراطور)
ح ١ ٢١٩ ح ٢ ٢٢٦ ٢٣٩	١٤٦ ١٥٠
٢٥٣ ٢٥٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧	ميخائيل السورى (المؤرخ) ٢٥
- ملكة ٣ - أنظر بوميند،	ح ٢ ٢٠٦ ٢٥٨ ح ١ ٣٠١
وجويسكار	ميخائيل كيرو لاريوس (البطريك)
نورمانديا (مقاطعة) ١٦ ١٢٩	١١٧

(٥)

هاجينايير (٥٠) ح ٢ ح ١ ح ٣ ح ١
 ح ٨ ح ٢ ح ١٩ ح ٢ ح ٢٠ ح ١ ح ٥٣
 ح ٧ ح ٢٠٧ ح ١ ح ٣١٣ ح ١ ح ٣٢٩
 ح ٢٢١ ح ١ ح ٣٢٢ ح ١ ح ٣٢٣
 ح ١ - ٢
 هاسكنز (شارل هومر) ح ١٩٢ ح ٢
 ١٩٣
 هاسي (ج.م.) ٣٥ ٢٢٥ ٢٢٦
 هالفن (لويس) ح ٤٩ ح ١
 هانو ١٧٩
 هيرت (ج.م.) ح ٢١ ح ٣
 هدة الله ٨٧ - أنظر البابوية ،
 والكنيسة الرومانية
 الهراطقة ٢١ ٥٠ ١٠٣ ١٢١ ١٢٦
 ١٢٧ ١٦٢ ١٩٦
 الهرطقة ١٠٠ ١١٥ ح ١
 هرقل (الامبراطور) ٣٨ ٤٥ ٤٦
 ح ٤ ٢٢٤
 هرقلية (مدينة) ٢٣٥
 هليوبوليس (مدينة) ١٦٥ ٣١٥
 ٣١٦ ٣١٧

١٩١ ح ١ ٢٠٢ ٢١٣ ٢١٦
 ٢٢١
 النويرى ح ٢٧ ح ٢
 نيرون (الامبراطور) ١١٣
 نيش (مدينة) ١٥٣ ١٥٧ ح ٢
 ١٥٨ ١٥٩ ١٦٧ ١٨٢
 نيقوميديا (خليج) ١٦٢ ٢٢٨
 ح ٣٢٠
 نيقية (مدينة) ٨ ٢١ ح ٢ ١٣١
 ١٣٣ ١٤٦ ١٦٢ ١٦٤ ١٦٥
 ١٦٦ ح ٢ ١٦٧ ١٦٩ ١٨٩
 ٢٠٢ ٢١٢ ٢١٤ ح ٣ ٢١٥
 ح ١ ٢٢٨ ٢٢٩ ح ١ ٢٣١
 ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٧ ٢٥٩ ٢٩١
 ح ٢ ٣٠٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣٢٠
 ح ١ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ - مذبح
 ١٦٤ - ١٧٠ ٣٠٤ ٣١٥ -
 ٣١٧ ٣٣١ - ٣٣٣
 نيكيتاس (الحاكم البيزنطى على
 مقاطعة النانوب في عهد الكسيس
 كومنين) ١٥٨
 نيكيتاس (أحد شهود الميان للحملة
 الرابعة) ح ٧٨ ح ١
 النيل (نهر) ١١٠ ح ٢ ٢٧٦

وليم الثاني (ملك إنجلترا) ١٧٦
 وليم ده منتفرات ٨٥
 وليم دوفوس ٢١٤ ح ٣
 وليم الصوري (المؤرخ) ٧ ح ١
 ١٢ ح ٢ ١٧ ٢١ ح ٣ ٤٥
 ١ ح ٤٦ ٢ ح ٥٥ ١ ح ١
 ٥٩ ٦١ ٦٧ ٨٨ ح ٤ ١٥٣
 ١ ح ١٧٩ ١ ح ١٨٠ ٢ ح ٢٦٥
 وليم الفاتح ٢١٤ ح ٣ ٢١٥ ح ١
 وليم كونت بواتيه ٢١٥ ح ١

(ي)

ياغى سيان التركمانى ٢٣٨
 اليرموك (واقعة) ٤٦
 يزيد بن عبد الملك (الخليفة) ١١٥
 ٢ ح
 اليقظة العربية (حركة) ٧٧ ٢٨٤ -
 أنظر القومية العربية ، والوحدة
 العربية
 اليهود ١٠٨ ١٠٩ ٢٨٥ - أنظر
 اسرائيل ، والاستعمار الصهيونى ،
 والصهيونية فى فلسطين
 يوحنا تريمسكيس (الامبرطور)

هنرى الرابع (الامبراطور) ١٤٧

١٧٥ ١٧٩

الهنغار ٢٠٧ ح ١ ٢١٠
 هوميروس ٣٧ ٣٢١ - أنظر
 الالياذة والأوديسية
 مير (فردريك) ٤٣ ح ٢
 هيو ج ده فيرماندوا ٥٨ ١٢٩ ١٧٦
 ١٨٢ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٩ ٢١١
 ٢١٢ ٢١٣ - ٢١٤ ٢١٩
 ٢٢٠ ٢٢١ ٢٤٦ ٣١٨ ٣١٩

(و)

وايزمان (حايم) ١٠٨ - أنظر
 الاستعمار الصهيونى ، وبلفور ،
 والصهيونية فى فلسطين
 الوثائق المزورة (فى العصور الوسطى)
 ٥٤ - أنظر الكسيس الاول
 كومنين (خطابه إلى روبرت أمير
 الاراضى الواطئة)
 الوثنية ٤٠ ٤١ ١١٢ ١١٥ ح ٢
 الوحدة العربية ٧٧ ح ١ ٢٨٢ -
 ٢٨٤ ٢٩٣ ٢٩٤ - أنظر
 القومية العربية
 الولايات المتحدة ٣٥

يوجنا (ن. ٣٥) ح ١	ح ١ ٤٦ و ح ٤ ١٤٢ ١٤٣
اليونان (بلاد) ٣٠٨	يوجنا الرابع (البطريق البيزنطى)
اليونان القدماء ٢٢ ح ٢٣ ١ ح	٢٤٧ ٢٥٣
٤٠ ح ١ ٩٩ ١١٩ ٢٨٧	يوجنا كومنين (الامبراطور) ٢٣
اليونانية الوسيطة (الفة) ٢٣ ح ١	ح ١ ٢٠٧ ٢١٤ ح ٢ ٢٥٨ ح ١
٢٩٧ ٢٥٣ ١١٩	يوجنا هس (المصلح البوهيمى) ٥٠

محتويات الكتاب

صفحة	
ج - د	مقدمة الطبعة الثانية
هـ - ز	مقدمة الطبعة الأولى

الفصل الأول

١ - ٣٦	مصادر الحملة ومنابعها
	دراسة تحليلية مقارنة

أهمية الموضوع - المصادر اللاتينية المعاصرة : المؤرخ المجهول ،
ريمون داجيل ، فوشيه ده شارتر ، البرت دكس ، بطرس تيدبوده ،
روبرت الراهب ، بودري ده بورجي ، جيبتر ده نوجان ، راؤول
ده كان ، الأسقف اكهارت دورا ، كافارو الجنوى ، جوتييه
المستشار - بعض المختصرات عن الحملة الأولى - الرسائل والمكاتبات -
المصادر اللاتينية المتأخرة - أنا كومينا وكتاب الالكسياد -
المصادر الأرمينية : متى الرهاوى ، جريجوار الراهب ، ميخائيل
السورى - الأصول والمنابع العربية : تواريخ المدن والبلدان ، السير
والتراجم ، الكتب الجامعة وتواريخ الدول والممالك - المراجع
الثانوية العربية والأجنبية .

الفصل الثانى

٣٧ - ١١٠	الفكرة الصليبية على حقيقتها
----------	-----------------------------

الحروب الصليبية وفكرة الصراع بين الشرق والغرب - الدافع
الشخصى فى قيام الحركة الصليبية - فرنسا الدولة الصليبية الكبرى

صفحة

في أوروبا - أثر العامل الديني في قيام الحركة : استغلال الدين للدعاية والإثارة والتحريض ، الأساطير والرؤيات والتنبؤات الدينية ، الجماعات الرهبانية العسكرية ، الفكرة التبشيرية ، دور البابوية والكنيسة اللاتينية - الاتجاهات الاستعمارية في الحركة الصليبية : الحروب الغريبة ضد العرب في أسبانيا ، خطبة أربان ، أطماع القادة الصليبيين ومنازعاتهم ، الأهداف التوسعية كما تكشف عنها الحركة في شتى مراحلها ، الاستيطان الصليبي في الشرق العربي ، الجاليات التجارية ، تغلب الصفة المادية على الجماعات الرهبانية المسلحة ، التدهور الخلقى بين الفرنج - الجهاد عند العرب - تشكك الأحرار والمتعقلين من أهل الغرب في جدوى الحركة الصليبية - الصهيونية إمتداد طبيعي للاستعمار الصليبي .

الفصل الثالث

الروم واللاتين

١١١-١٤٠

احتكاك اللاتين بالروم الإغريق في الحملة الأولى - أوجه الخلاف بين الطرفين : المسائل الدينية المذهبية ، الصراع السياسى ، روما الجديدة ، الناحية اللغوية ، التباين الحضارى - سياسة الكسبيس كومنن حيال الصليبيين : المحافظة على بيزنطة ، حماية القسطنطينية ، الإستعانة باللاتين لخدمة مصالح بيزنطة السياسية - الوسائل التى استعان بها الامبراطور لتنفيذ سياسته : اللين والدبلوماسية والدهاء ، المال ، يمن التبعية والولاء ، فرض الرقابة ، سلاح التموين ، استخدام القوة -

صفحة

آراء اللاتين في الكسيس والبيزنطيين - موقف الصليبيين من
بيزنطة : طبيعة العناصر المشتركة في الحملة ، تشابك مصالح الفريقين ،
اخلاق اللاتين وسلوكهم من أقوال أنا كومينا .

الفصل الرابع

الحملة الشعبية والكسيس كومنين ١٤١-١٧٠

الدولة البيزنطية قبيل الحركة الصليبية - الاتراك السلاجقة في آسيا
الصغرى - حملة جوتييه المدمر - حملة بطرس الناسك : شخصيته
وصفاته الجثمانية ، الرحلة إلى القسطنطينية ، بطرس في العاصمة ،
العصابات الشعبية تعيث فسادا في العاصمة وضواحيها ، بطرس
ورجاله في كيفيتوت ، مذبحة نيقية وآراء المؤرخين القدامى والمحدثين
فيها - الحملة الالمانية الشعبية .

الفصل الخامس

الحملة النظامية في بزنطة ١٧١-٢١٨

الغرب الاوروبى قبيل الحملة - حملة جودفرى دوق اللورين السفلى :
شخصيته وآراء المؤرخين فيه ، قيام الحملة ، الكسيس وجودفرى ،
هجوم الجيش اللوثارنجى على العاصمة ، جودفرى يحلف اليمين -
حملة بوهيمند النورماندى : بوهيمند والحركة الصليبية ، الطريق
إلى القسطنطينية ، اشتباكات بين الفرنج والبيزنطيين ، بوهيمند في
العاصمة ، قصة اللقاء بينه وبين الكسيس ، الأمير النورماندى يحلف

ملحة

يمين الاخلاص ، بوهيمند كما وصفته أنا كومنينا - حملة ريمون ده سان جيل : شخصيته ، قيام الحملة ، مناوشات في الطريق ، كونت تولوز في القسطنطينية ، الكونت يرفض أداء اليمين - الحملة الفرنسية : وصول هيوج ده فيرماندوا إلى العاصمة البيزنطية ، رحلة روبرت كونت نورمانديا واثنين كونت بلوا ، رأى فوشيه ده شارتر في البيزنطيين ، خطاب اثنين إلى زوجته أديل .

الفصل السادس

اتفاقية القسطنطينية ومشكلة انطاكية ٢١٩-٢٥٨

الفرنج في القسطنطينية - أداء يمين التبعية والولاء بين يدي الكسيس - اتفاقية مايو ١٠٩٧ - رحيل الفرنج عن العاصمة - الاستيلاء على نيقية وإعادتها إلى بيزنطة - الصليبيون في آسيا الصغرى - تشريد وبلدوين يجريان وراء أطماعهما - مشكلة انطاكية والحق البيزنطي - آراء الكتاب اللاتين في الكسيس والبيزنطيين - بوهيمند على حقيقته - تطور المسألة الانطاكية .

الفصل السابع

حركة البيقظة العربية في القرن الثاني عشر ٢٥٩-٢٨٦

الموقف في العالم العربي وقت الحملة - الاستيلاء على بيت المقدس - تعصب الفرنج ووحشيتهم - تأسيس المستعمرات اللاتينية في الأراضي المقدسة - الوحدة وحركات البحث العربي : موقف العرب في انقسامهم واتحادهم من المدوان الصليبي ، عدم توافر مقومات

صفحة

الدول والحكومات في المجتمع الصليبي ، الیقظة العربية في القرن
الثاني عشر وتآجها ، الجهاد ضد الغزاة ، مصر معقل المروبة ،
توحيد الجهة العربية مرحلة سابقة للجهاد الأكبر ، المقاومة الشعبية
في الوطن العربي ، الوحدة العربية حقيقة تاريخية - حركة التاريخ
ودورته .

٢٩٤-٢٨٧

خاتمة

٣٣٨-٢٩٥

الملاحق

٣٦٢-٣٣٩

المراجع

٣٩٨-٣٦٣

فهرس عام

٤٠٣-٣٩٩

محتويات الكتاب

٤٠٥-٤٠٤

الخرايط واللوحات

بيان الخرائط واللوحات

الخرائط

- صفحة
- (١) ضواحي القسطنطينية ونيقية زمن الحملة الصليبية الأولى . ١٦٣
- (٢) طريق الجيوش الصليبية النظامية في أراضى الدولة البيزنطية . ١٨٤
- (٣) خط سير الصليبيين في آسيا الصغرى وشمال الشام . ٢٣٠
- (٤) رسم تخطيطي لمدينة انطاكية (عام ١٠٩٨) . ٢٤١
- (٥) دولة الغزاة في الشرق العربي إبان العدوان الصليبي . ٢٦٧
- (٦) الشرق الأدنى العربي في أواخر القرن السادس الهجري (أواخر القرن الثاني عشر الميلادي) . ٢٧٤
- (٧) دولة المماليك البحرية في أواسط القرن الثامن الهجري (أواسط القرن الرابع عشر الميلادي) . ٢٧٨

اللوحات

- (١) الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين أمام المسيح ١٤٨
والصورة مأخوذة من كتاب :

Runciman, Hist. of the Crusades, I, Plate II,
facing p. 150.

- (٢) موقعة دوريليوم ٢٣٤
وهذه الصورة في مخطوط باسم :

“La Très noble et excellente histoire des saintes
Croisades” ، بالمكتبة الأهلية بباريس . وهي مأخوذة قلا

عن: Grousset, L'Épopée des Croisades, facing p. 32

صفحة

٢٦٢

(٣) بيت المقدس من جبل الزيتون .

Runciman, Hist. of the :
Crusades, II, facing p. 10,

٢٦٤

(٤) استيلاء الصليبيين على بيت المقدس .

وتوجد هذه الصورة في المخطوط المشار إليه في اللوحة رقم ٢
وهي مأخوذة تقلا عن :

Grousset, L'Épopée des Croisades, facing p. 48.

